

من الكاتبة التي كانت الملهمة لمسلسل شبكة «فوكس» الدرامي الشهير «العظام BONES» والتي تُرجمت كتبها إلى ثلاثين لغة في مختلف أنحاء العالم

كاتي رايكس
Kathy Reichs

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^



عظام عارية
BARE BONES

رواية

www.mlazna.com-RAYAHEEN

«التوقف المؤقت عن العمل طلباً للراحة والاسترخاء»، عبارة لا مكان لها في قاموس مفردات تمب برينان، بطلة رواية كاثي ريكس «عظام عارية».

سلسلة من الأحداث الرهيبة التي تبعث على القلق تعلّق خططها الرامية إلى تمضية عطلة. تتوجه، بدلاً من ذلك، إلى المختبر من أجل تحليل بقايا جثة متفحمة ناجمة عن حريق مشبوه يثير الشك والريبة، ومادة متفحمة غامضة عثر عليها وسط حطام طائرة صغيرة. إلا أن أكثر ما يثير القلق هي العظام... يدعوها صديق ابنة تمب الجديد مع ابنتها إلى حفل شواء في الهواء الطلق في ريف كارولينا الشمالية، حيث تكتشف بمحض المصادفة وعلى نحو غير متوقع مجموعة من العظام؛ لكن هل هي عظام حيوان أم عظام إنسان؟ قد تربط صورُ الأشعة السينية واختبارات الحمض النووي الجرائمَ ببعضها بعضاً، إلا أنها لا تكشف النقاب عن الضاغطين على تمب وابنتها، وعن مدى تمكنهم من الحيلولة دون اكتشاف تمب الحقيقة.

كاثي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة منصب نائب رئيس الاتحاد الأميركي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتُعتبر كاثي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثروبولوجيا العدليين المجازين من المجلس الأميركي للأنثروبولوجيا العدلية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت. ويُذكر أن رواية «وُجدت ميتة» قد أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. احتلت الروايات التي كتبتها المؤلفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، ومنها هذه الرواية والروايات الخمس الأخرى التي صدرت بالعربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون: «عظام الموتى»، «لغز العظام»، «الإثنين الأسود»، «وُجدتْ ميتة»، و«قرارات قاتلة».

موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.

اقرأ أيضاً للروائية كاثي رايكس





كاثي رايكس
الإثنين الأسود











www.mlazna.com-RAYAHEEN

عظام عارية

Bare Bones

رواية

كاتي رايكس

Kathy Reichs

نقلها إلى العربية

هيثم نشواتي

مركز ابن العماد للترجمة والتعريب - دمشق

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

www.mlazna.com-RAYAHEEN



بينما كنت أوضب ما تبقى من الطفل الميت، كان الرجل الذي تمنيتُ أن أقتله يشق طريقه بسرعة فائقة متجهاً شمالاً نحو شارلوت.

لم أكن أعلم ذلك في حينه، إذ لم أسمع مطلقاً باسم الرجل، ولم أعرف شيئاً عن اللعبة المروعة التي كان لاعباً فيها.

في تلك اللحظة، كنتُ مركزةً على ما سأقوله لجدعون بانكس؛ كيف سأخبره بموت حفيده؟ وكيف سأقول له إن ابنتَهُ الصغرى مطاردة؟

كانت خلايا دماغي تتشاحن طوال فترة الصباح. وكان المنطق وكأنّه يصيح في وجهي: أنتِ أنثروبولوجية، تعملين في حقل الطب الشرعي، إن زيارة الأسرة ليست مسؤوليتكِ. سيعلمهم الذي أجرى الفحص الطبي بما توصلت إليه. ستخبرهم الشرطة السرية المتخصصة بالقتل الجنائي عبر مكالمة هاتفية.

كلها نقاط مُسَوّغَة، صوتُ الضمير سيردُّ: إلا أن هذه القضية مختلفة. أنتِ تعرفين جدعون بانكس.

شعرتُ بحزن عميق عندما كنتُ أدسُّ حزمةَ العظام الصغيرة في الحاوية المعدّة لها، أحكمتُ إغلاق الغطاء، وكتبتُ رقم الملف على النايلون. إن ما يمكن معاينته قليل جداً، يا لها من حياة قصيرة!

بينما كنتُ أودعُ الحاويةَ في خزانة الأدلة، دفعت خلايا الذاكرة صورةَ جدعون بانكس إلى السطح؛ الوجه الأسمر المتجعد، والشعر الأجعد الذي غزاه الشيب، والصوت المتهدج وكأنه صادر عن شريط تسجيل بالٍ.

وسّعي الصورة.

رجلٌ ضعيف الجسم يرتدي قميصاً مصنوعاً من نسيج خفيف ناعم مربع النقش، وينحني فوقَ ممسحةٍ خفيفةٍ معدّة لمسح بلاط الأرضيّات.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مـا انفكـت خلايـا الذاكـرة تعـرضُ الصورة ذاتهـا طوال وقـت الصباح. على الرغـم مـن أنني كنـتُ أحاول اسـتدعاء صـور أخرى، إلا أن هـذه الصورة واظبت على الظهور.

عملت وجدعون بانكس معاً في جامعة كارولينا الشـمالية في شـارلوت على مـدى عقديـن مـن الزمـن تقريباً إلى أن تقاعدَ منذ ثلاث سـنين. كنتُ أشـكره دوماً لحفاظه على مكتبي ومختبري نظيفين، وأخصُّهُ ببطاقاتِ معايدة وبهديةٍ صغيرة في كلِّ ميلاد.

عرفتُهُ رجلاً حيَّ الضمير، ومهذباً، ومتديناً، ومكرّساً نفسه لأولاده. كان يحافظُ على الممراتِ نظيفةً. ذاكَ ما كان الأمر عليه.

أما خارج ميدان العمل، فلم يكن ثمةَ صلةٌ بين حياتي وحياته. إلى أن وضعت تاميلا بانكس وليدَها في موقدِ حطب واختفت.

عند قدومي إلى مكتبي، شغلت جهازَ حاسوبي المحمول، وعرضتُ ملحوظاتي على المكتب، وحين شرعت في إعداد تقريري، خيم ظِلُّ إنسان على مدخل بابِ المكتب المفتوح.

"زيارة المنزل هي حقاً خارج نطاق دائرة الممكن".

ضغطتُ زر الحفظ، ونظرتُ أمامي.

كان الطبيب الشرعي لمقاطعة مكلنبورغ مرتدياً ثوب الجراح، وثمة بقعةٌ على كتفه اليمنى ذات لون أحمر قاتم تحاكي شكل ولاية ماساتشوستس.

"لا مانع لديّ". كما أنه ليس لديّ مانع من وجود دمامل متقيحة في رِدفيَّ.

"سأكون سعيداً في التحدث إليه".

ربما كان تيم لارابي وسيماً لولا إدمانه على الركض. فقد نحل جسمه نتيجة التدريب اليومي الماراثوني، وخفّ شعره، وأصبحت بشرة وجهه قاسيةً.

قلتُ: "كانتِ الأسرة حجرَ الزاوية في حياة جدعون بانكس. سيهزه هذا الأمر ويثير مشاعره".

"ربما لا يكون الأمر سيئاً إلى الحدِّ الذي يبدو عليه".

نظرتُ إلى لارابي؛ وقد مرّ على هذا الحديث الذي دار بيننا ساعة.

رفع يداً مفتولة العضلات وقال: "حسناً، يبدو الأمر صعباً. أنا واثق أن السيد

بانكس سيقدر الإسهام الشخصي. من سيقلك بالسيارة؟".

"سكيني سليديل".

"إنه يوم سعدك".

"أردتُ أن أذهب وحدي، لكن سليديل رفض".

"أليس هو سكيني؟"، قال ذلك متظاهراً بالتفاجؤ.

"أعتقد أن سكيني يأمل الحصول على جائزة تكون نوعاً من إنجاز عمره".

"أعتقد أن سكيني يأمل أن يدفن".

طلبتُ منه قلماً. فقدمه لي على جناح السرعة.

"كوني حذرة".

انسحب لارابي، وسمعتُ صوتَ باب غرفة التشريح وهو يفتح ثم يغلق.

نظرتُ إلى ساعتي؛ إنها تشير إلى الثالثة واثنتين وأربعين دقيقة. سيصل سليديل في غضون عشرين دقيقة. انكمشت خلايا الدماغ مجتمعة. ثمةَ موافقةٌ عقلية على سكيني.

أغلقتُ جهاز الحاسوب، واستندتُ إلى مقعدي.

ماذا أقول لجدعون بانكس؟

حظٌ عاثر، سيد بانكس، يبدو كما لو أن ابنتكَ الصغرى وضعت مولوداً، ولفّتْهُ ببطانية، وجعلت منه مادةً لإضرام النار.

جيد، برينان.

فجأةً أرسلتِ الخلايا البصرية صورةً ذهنية جديدة: بانكس يسحب صورة فوتوغرافية من محفظة جيب جلدية مشققة، فتظهر ستة وجوه سمراء؛ قصاتُ شعر قصيرة جداً للصبيان، وضفائر تتدلى من رؤوس البنات. ولجميعهم أسنان أكبر من أن تسمح لهم بالابتسام.

صغِّري الصورة.

ينظر الرجلُ المسنُّ إلى الصورة مبتهجاً، ويصرّ على أن كلاً منهم سيلتحق بالجامعة.

هل فعلوا؟

ليس لديَّ فكرة.

خلعتُ معطفي، وعلقتُهُ على خطاف خلف بابي.

عندما كان أولاد بانكس يحضرون إلى جامعة شارلوت عندما كنتُ فيها، كانوا يُبدون اهتماماً لا يُذكَر بالأنثروبولوجيا. التقيتُ بواحد منهم فقط؛ ريجي، ابن يتوسط التسلسل الزمني بين إخوته من حيث العمر، وقد درّستُهُ مقرراً تعليمياً عن نظرية النشوء الإنساني.

عرضت خلايا الذاكرة شابًّا طويلاً ونحيلاً يعوزه التناسق في حركاته معتمراً قبعة بيسبول، ترتفع حافة القبعة قليلاً فوق مستوى حاجبيه اللذين ارتسما مستقيمين على هيئة تحاكي نصل شفرة الحلاقة، جالساً في الصف الأخير من صفوف قاعة المحاضرات. لقد حاز على درجة ممتاز في مادة التفكير المنطقي، ودرجة فوق المتوسط في مادة النشاط.

منذ متى؟ خمسة عشر عاماً؟ ثمانية عشر عاماً؟

عملتُ مع كثير من الطلاب آنذاك. في تلك الأيام كنتُ أركز في بحثي على الموتى القدامى، ودرّستُ عدداً من طلاب صفوف ما قبل التخرج؛ علمَ آثار الأحياء، وعلمَ العظام، وعلمَ البيئات الرئيسة (فرع من فروع علم الأحياء يُعنَى بالعلاقة بين المتعضيات وبيئتها).

حَضَرت إلى مختبري ذات صباح طالبةٌ جامعية في سنة التخرج تدرس الأنثروبولوجيا، ومعها مندوبٌ من إدارة جرائم القتل مع عميل شرطة سرية من شارلوت؛ مكلنبورغ. وأحضرت معها عظاماً مستخرجة من قبر ضحل، وسألتني إن كان في وسعي أنا – مُدرّستُها السابقة – أن أحدّد ما إذا كانتِ الرفاتُ تعود إلى جثمان طفل مفقود؟

لقد تمكنتُ من ذلك، وكانت كذلك.

كانت تلك الحالة أول عهدي بالتحقيق في أسباب الوفيات المشتبه فيها. والحلقة الدراسية الوحيدة التي أدرّس فيها اليوم هي أنثروبولوجيا الطب الشرعي، وأتنقل بين شارلوت ومونتريال مؤدّيةً مهامي العملية بصفتي متخصصة بكل اختصاص منهما: (الأنثروبولوجيا، وذاك المتعلق بالشؤون القضائية الشرعية).

كانتِ الجغرافيا صعبةً عندما كنتُ متفرغة؛ إذ كان الأمر يقتضي معرفةً بفن الرقص المعقد ضمن التقويم الأكاديمي. والآن، باستثناء الزمن اللازم لتلك الحلقة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

التدريسية الوحيدة، أتنقل بحسب ما تدعو الحاجة، أسابيع قليلة شمالاً، وأسابيع قليلة جنوباً، وزمناً أطول عندما يقتضي ذلك تقصّي السيرة أو الشهادة في المحكمة.

ولاية كارولينا الشمالية وكيبيك؟ قصة طويلة.

يسمي زملائي الأكاديميون ما أقوم به تطبيقاً. فعبر الإفادة من معرفتي بالعظام، أصل إلى التفاصيل عبر اقتطاع أنسجة من الجثث والهياكل العظيمة، أو من أجزاء منها، الأمر الذي يُعدُّ جامعاً لخصائص كثيرة جداً يقتضيها تشريح الجثة. وأطلق أسماء على الهيكل العظمي: المتحلل، والمتعضي، والمحترق، والمشوّه. ولولا ذلك، لكان من المحتمل أن تذهب هذه الهياكل العظمية إلى مقابر مجهولي الهوية.

بالنسبة إلى بعض الجثث، أحدّد الطريقة التي مات بها أصحابها والزمن الذي مرَّ على موتهم.

أما بالنسبة إلى وليد تاميلا، فلا يوجد سوى شيء يسير من شظايا متفحمة. لقد تحوّل المولود إلى حطبة ألقيت في الموقد.

السيد بانكس، أنا آسفة جداً؛ لأن عليَّ أن أخبرك، لكن...

رنَّ هاتفي الخلوي.

"دكتورة، السيارة في الموقف الموجود أمام المبنى وأنا موجودٌ فيها". سكيني سليديل.

بين رجال المباحث الأربعة والعشرين العاملين في مكتب التحقيق الجنائي/ الوحدة المسؤولة عن التحقيق في جرائم القتل في شارلوت؛ مكلنبورغ هو أقلهم تفضيلاً بالنسبة إليّ.

"ابقَ حيث أنتَ".

كنتُ في شارلوت منذ أسابيع عدة عندما أدّت فكرة ذكية لمعت في ذهن أحد المخبرين إلى التوصل إلى اكتشاف مدهش في موقد للحطب. وكانت النتيجة أن وصلتِ العظام إليَّ. أثبتَ سليديل وشريكه أن القضية جريمة قتل. تجوّلا في مسرح الجريمة، وتعقبا الشهود، وحصلا على إفاداتهم. وكان كلّ شيء يُوصِلُ إلى تاميلا بانكس.

تنكّبتُ (حملت على منكبي) حقيبتي وحاسوبي المحمول، وتوجهتُ إلى الخارج. في أثناء مروري، توقفتُ وأقحمتُ رأسي في غرفة تشريح الجثث، فأبعد

لارابي نظره عن جثة كان صاحبها ضحيةَ طلق ناري، وأشار إليَّ بإصبع مُقفَّزة إشارة تحذير.

كان ردي التفاتةً مبالغاً فيها من العين.

يحتل المرفق الطبي المتخصص بفحص جثث الموتى في مقاطعة مكلنبورغ أحدَ طرفي مبنى رتيب عادي يشبه ما حوله، مبنى من الطوب، وقد استخدم أول ما استخدم مركزاً لحديقة سيرز. ويضم الطرف الآخر من المبنى مكاتب تابعة لإدارة شرطة شارلوت؛ مكلنبورغ. وهو خالٍ من الجمال المعماري باستثناء استدارات خفيفة عند حوافه، وقد أُحيط بما يكفي من الإسفلت لتعبيد جزيرة رود.

بينما كنتُ أخرج عبر أبواب مزودة بطبقتين من الزجاج، تشرَّب منخراي مزيجاً من روائح العوادم والسخام والرائحة الناجمة عن سخونة الرصيف. كانتِ الحرارة تنبعثُ من جدران المبنى، ومن أرضية ممر الطوب الصغير الذي يصل بين المبنى وموقف السيارات.

المدينة في الصيف حارة.

في موقف السيارات الشاغر عبر شارع الكلية، جلست امرأة سوداء، وإلى الخلف ثمة فيل مدّد قوائمه على طولها مسترخياً فوق عشب الجميز. كانت المرأة تبرّد نفسها مستخدمة صحيفة لهذا الغرض وهي تتجادل بحماسة حول نقطة ما مع خصم لا وجود له.

ثمة رجلٌ يرتدي قميصاً محكم الحبك - يحاكي أزياء هورنتس - كان يدفع جاهداً عربة تسوق عبر الممر الجانبي متجهاً نحو مبنى خدمات المقاطعة. توقف فور تجاوزه المرأة، ومسح العرق المتصبب من جبهته بباطن مرفقه، وتفحص حِملَه المكوّن من حقائب بلاستيكية؛ منتبهاً إليّ وأنا أحدق إليه، لوّح لي محيياً، فرددتُ التحية ملوحةً.

كانت سيارة سليديل من نوع فورد توروس متوقفةً قرب أسفل الدرج، وكان محركها يعمل، وثمة ضجيج منبعث من جهاز تكييفها، وكان زجاجها مظللاً كلّه. نزلتُ الدرج، وفتحتُ باب السيارة الخلفي، ودفعتُ جانباً ملفات أوراق وزوج أحذية غولف وأشرطة تسجيل صوتية وعلبتي طعام برغر كينغ، وأنبوب مستحضر لتسمير البشرة، وأقحمت حاسوبي في الفراغ الذي أتيح له.

مما لا شك فيه أن إرسكين (سكيني) سليديل يفكر في ذاته بصفته مدرسةً قديمةً، مع أن الله وحده يعلم ما المؤسسة التي ترغب في الإقرار بانتمائه إليها. بنظارته الرديئة، وتنفسه الذي له صوت تنفس الإبل، وألفاظه النابية، كان سليديل كاريكاتيراً اتفاقياً (متشكلاً من غير قصد) ذاتي التكوين لشرطي هوليوود. قال لي أناس إنه جيد في عمله، إلا أنني وجدت صعوبة في تصديق ذلك.

لحظة اقترابي، كان ديرتي هارمي يتفحص أسنان فكه السفلي عبر مرآة الرؤية الخلفية، تمعجت شفتاه فأسفرتا عن تكشيرة تشبه تلك التي تنجم عن خوف قرد.

لدى سماعه صوت باب السيارة الخلفي وهو يفتح، وثب سليديل، وانطلقت يده إلى المرآة. وبينما كنت أنزلق إلى مقعد الراكب، كان يعدل وضع المرآة باهتمام ملاح فضائي يعدل مسبار هابل.

قال سليديل، وهو لا يزال ينظر إلى المرآة عبر نظارة الرِّيبان: "دكتورة".

أومأت برأسي، علامةً على التحية والموافقة وأنا أضع حقيبتي فوق فخذيّ، وأغلق باب السيارة، وقلت له: "عنصر الشرطة السرية".

أخيراً، وقد شعر بالرضا عن زاوية انعكاس المرآة، حرك ناقل السرعة، وعبر مرأبَ السيارات إلى شارع الكلية متجهاً نحو فيفر.

كانتِ السيارة تسير ونحن صامتان. على الرغم من أن الحرارة داخل السيارة كانت تقل عن ثلاثين درجة مما هي عليه في الخارج، إلا أن الهواء كان كثيفاً ومشبعاً برائحته. كان رجلاً ضخم الجثة، وشديد التعرّق؛ باين دي سولي. وقد وضع حصير خيزران على مقعده كي يُجلِس مؤخرته العريضة عليه.

إنه سكيني سليديل بعينه؛ رائحته ومنظره يحاكيان منظر شخص وُضِعَت صورته على ملصق إعلاني يهدف إلى مكافحة التدخين. على مدى العقد ونصف العقد، من الزمن الذي عملتُ فيه بصفتي مستشارة الفحص الطبي لدى مقاطعة مكلنبورغ، كان مدعاةً لسروري أن عملت مع سليديل في مناسبات عدة. كانت كل واحدة منها تفاقم الشجار بيننا. إلا أن هذه القضية تشير إلى أن الأمر سيكون مختلفاً.

يقع منزل بانكس في منطقة مجاورة لتشري إلى الجنوب الشرقي من آي 277، والطريق المطوّقة لمنطقة سكن أسرة بانكس هي نسخة من طرقات شارلوت

الداخلية. لم تحظَ منطقة تشري، على عكس كثير من أحياء المدينة الداخلية، بنصيب من النهضة التي شهدتها كثير من مناطق ديلورث وإليزابيث الواقعتين في الغرب والشمال. ومع أن تلك المناطق المجاورة اندمج بعضها ببعض، وتكاملت، واستقطبت الشباب المثقفين ميسوري الحال، واتجهت ثروات تشري إلى الجنوب، إلا أن مجتمعها ظل وفياً لجذوره العرقية. فقد أسّست هذه المنطقة بصفتها موطناً للسود وبقيت على حالها حتى اليوم.

في دقائق، اجتاز سليديل محطة أوتوبل لغسيل السيارات، وانعطف إلى اليسار من شارع الاستقلال، ودخل في طريق ضيقة، حيث ألقت أشجار السنديان والمنغوليا - التي تعود أعمار بعضها إلى ثلاثين وأربعين ومئة سنة - بظلالها على البيوت المتواضعة المبنية من خشب وطوب، وقد عُلّق الغسيل على الحبال بطريقة فوضوية، وتحرّكت مرشات ماء محدثةً أزيزاً، وأخرى هجعت ساكنة عند نهايات خراطيم مياه الحدائق، وانتشرت دراجات هوائية وعجلات كبيرة في الباحات وعلى الممرات.

اقترب سليديل من الحاجز الذي يتوسّط الطريق، وأشار بإبهامه إلى إحدى الفيلات الصغيرة التي تطل نوافذها من سقف المبنى. كانت جدران المبنى الخارجية مطلية باللون البني، ومخطّطة باللون الأبيض.

"ليذهب إلى الجحيم عش الجرذان ذاك الذي أُحرق فيه الطفل. على الرغم من أنني أمسكت بجربين يتخلصان فيه من تلك النفاية".

قلت: "الجرب يسببه العث". كان صوتي أكثر برودةً من الجو داخل السيارة.

"بالتحديد، ينبغي لك ألاّ تعتقدي بتلك القذارة".

"كان عليك أن ترتدي قفازاً".

"أنت على حق. وجهاز تنفس اصطناعي. يا لهؤلاء الناس".

"ما عسى أولئك الناس يكونون، عناصر شرطة سرية؟".

"بعض الناس يعيشون كالحيوانات المقززة".

"جدعون بانكس رجلٌ محترم ودؤوب في عمله، وقد ربّى ستة أولاد بمفرده من دون أن يعتمد على أحد".

"وهل كانت زوجته تتسكع؟".

"ملبا بانكس ماتت بسبب إصابتها بسرطان الثدي منذ عشر سنوات". ها أنا ذا قد عرفت شيئاً عن زميلي في العمل.

"حظ سيئ".

كان صوت الراديو مشوشاً، وصدرت عنه رسالة لم أتمكن من التقاطها.

"لا أزال لا أجد عذراً للفتيات اللواتي يخلعن ملابسهن من دون التفكير في العواقب. هل لكِ أن توقف السيارة؟ لا مشكلة. يجرين عملية إجهاض".

أوقف سليديل محرك السيارة عن العمل والتفت إليَّ قائلاً: "أو ما هو أسوأ".

"ربما هناك تفسير لتصرفات تاميلا بانكس".

لا أعتقد حقاً بذلك، أمضيت كل الصباح متبنيةً موقفاً معاكساً لتيم لارابي. إلا أن سليديل كان مزعجاً جداً إلى حدٍّ وجدت نفسي معه ألعب دور محامي الشيطان.

"صحيح. ومن المحتمل أن تسبغ غرفة التجارة على أمها لقب أفضل أم لهذا العام".

سألته مانحة شيئاً من القوة لمستوى صوتي: "هل قابلت تاميلا؟".

"لا، وأنتِ؟".

لا، تجاهلت سؤال سليديل.

"هل قابلت أحداً من أسرة بانكس؟".

"لا، لكنني حصلت على إفادات من أناس كانوا يتنشقون عقاقير مخدرة في غرفة مجاورة، في حين كانت تاميلا تحرق طفلها محولةً إياه إلى رماد. أستميحك عذراً؛ لأنني لم أدخل إلى الغرفة لاحتساء الشاي مع السيدة ومع من لهم علاقات جنسية معها".

"لم يكن عليك أن تتعامل مطلقاً مع أحد أولاد أسرة بانكس؛ لأنهم تربوا على القيم الفاضلة والراسخة. جدعون بانكس من أشد الناس احتشاماً".

"إن ما اقترفته تاميلا المغفلة من سفاح لا يمت إلى السلوك المستقيم بصلة".

"ماذا عن والد الرضيع؟".

"ما لم تكن ملكة السراويل القصيرة المغرية مستمتعة".

هوني عليك! الرجل صرصور.

"من هو؟".

"اسمه داريل تيري. كانت تاميلا تتسكع وتستمتع معه في مزرعته الغنّاء إلى الجنوب من تريون".

"هل يبيع تيري عقاقير مخدرة؟".

"نحن لا نتحدث عن صيدلية إكرد".

فتح سليديل الباب وخرج.

في معرض ردي عليه تفوهت بكلام قاسٍ بيد أنه لم يسمعه. ساعة واحدة، وانقضى الأمر؛ شعور مفاجئ بالذنب. انتهى الأمر بالنسبة إليَّ، ماذا عن جدعون بانكس؟ ماذا عن تاميلا وطفلها الميت؟

لحقتُ بسليديل على الرصيف.

"الجو حار بما يكفي لإحراق كَفَلِ دبٍّ قطبي".

"إنه شهر آب/ أغسطس".

"كان ينبغي لي أن أكون على شاطئ البحر".

قلت في سري: نعم، لكن تحت أربعة أطنان من الرمال.

تبعت سليديل عبر ممر ضيق تناثر فوقه عشب منعش مجزوز إلى منحدر إسمنتي صغير.

ضغط بإبهامه زراً صدئاً إلى جانب الباب الأمامي، وأخرج منديلاً من جيبه الخلفي، ومسح وجهه.

لم يجب أحد.

طرق سليديل على الجزء الخشبي من شريط الباب المنخلي.

لا جواب.

طرق سليديل مجدّداً. تصبب جبينه عرقاً، وانفصلت خصل شعره بعضها عن بعض.

"الشرطة، سيد بانكس".

ضرب سليديل خشب الباب ضربةً عنيفةً براحة يده فاهتز بسببها المنخل ضمن إطاره.

"جدعون بانكس!".

كان الماء المتكثف يتقطر من جهاز تكييفِ هواءٍ إلى اليسار من الباب. ثمة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

صوت جزازة عشب يسعى إلينا من مكان بعيد. وقد ساقت الريح إلينا صوت موسيقى الهيب هوب الأميركية ذات الأصول الإفريقية المنبعث من مكان ما من كتلة البناء.

ضرب سليديل خشب الباب براحة يده مرة أخرى، وقد بللت بقعة عرق هلالية الشكل قميصه الرمادي المصنوع من البوليستر تحت إبطه.

"هل من أحد في البيت؟".

أقلعَ ضاغطُ (كمبرسور) غاز المكيف، وبدأ كلب بالنباح.

انتزع سليديل الباب المنخلي.

طرق الباب بعنف.

بام! بام! بام!

حرر الباب المنخلي من مكانه، ثمّ أعاد سؤاله بصوت عالٍ يشبه نباح كلب.

"الشرطة! هل من أحد هنا؟".

عبر الشارع، تحركت ستارة ثم انسدلت.

هل مرّ هذا الذي يحدث في خيالي؟

انزلقت قطرة عرق إلى أسفل ظهري منضمةً إلى القطرات الأخرى التي بللت حتى الإشباع حزامي وحمالة صدري.

في تلك اللحظة رن هاتفي الخلوي.

أجبت:

تلك المكالمة زجت بي في دوامة الأحداث التي أدت في نهاية المطاف إلى ما أنا عليه في الحياة.

2

"تمب برينان".

"حيوان كامل"، أطلقت ابنتي سلسلة من الأصوات المنبعثة من حلقها: "حفل شواء!".

"ليس في وسعي التحدّث الآن، كاتي".

أدرتُ ظهري لسليديل، وضغطتُ الهاتف الخلوي بشدة على أذني؛ كي أتمكن من سماع صوت كاتي من دون تشوش.

طرق سليديل الباب مجدّداً مستخدماً هذه المرة قوة الغستابو.

"سيد بانكس!".

قالت كاتي: "سأمر بكِ وأصطحبكِ ظهر الغد".

قلت بأقصى ما استطعت من رقة: "لا أعرف شيئاً عن السيجار". رغبت كاتي في مرافقتي إياها في نزهة؛ تلبيةً لدعوة من صاحب متجر لبيع السيجار والغليون. لم تكن لديّ أي فكرة عن سبب ذلك.

"تأكلين لحماً مشوياً".

بام! بام! بام! رقص الباب المنخلي ضمن إطاره.

"نعم، لكِ".

"أنتِ تحبين الموسيقى الريفية الأميركية التقليدية". كان يمكن أن تستمر كاتي في حديثها.

في تلك اللحظة، فتح الباب الداخلي، وأطلّت امرأةٌ عابسة مقطبة الحاجبين عبر الباب المنخلي. على الرغم من أن سليديل أطول منها ببوصة واحدة، إلا أن المرأة أثقل وزناً منه.

سألها سليديل بصوتٍ عالٍ جداً: "هل جدعون بانكس في المنزل؟".

"مَن الذي يسأل؟".

همستُ قائلة: "كاتي، عليَّ أن أذهب".

"بويد يتطلع إلى هذا. ثمة أمرٌ يريد أن يناقشه معك". بويد هو كلب زوجي الذي لم يعد يعيش معي. المحادثات مع بويد أو عنه تؤدي عادةً إلى متاعب.

أظهر سليديل بطاقة انتمائه إلى الشرطة السرية عبر منخل الباب.

"سأمرٌ بكِ لاصطحابكِ عند الظهيرة". قد تكون ابنتي صارمة وعنيدةً عناد سكيني سليديل.

طلبتُ منها أن تكفَّ عن الكلام، وضغطتُ زر إنهاء المكالمة.

تفحصت المرأةُ البطاقةَ واضعةً ذراعيها على خاصرتيها كما يفعل حارس سجن.

نقَّلت المرأة طرفها من البطاقة إلى زميلي ثم إليَّ.

"أبي نائم".

"أعتقد أنه من الأفضل أن توقظيه"، اندفعتُ فَحِلتُ بينهما آملةً أن أخفِّف حدةَ موقف سليديل.

"هل الأمر يتعلق بتاميلا؟".

"نعم".

"أنا جنيفا، أخت تاميلا. مثل سويسرا". أوحت نبرة صوتها بأنها قد قالت ذلك من قبل.

دفعت جنيفا الباب المنخلي بيدها. فصرَّ النابضُ هذه المرة صريراً يشبه صوت مفاتيح البيانو.

تجاوزها سليديل وهو يخلع نظارته الشمسية، ويشقّ طريقه بصعوبة، فتبعته إلى غرفة معيشة صغيرة معتمة. ثمةَ ممرٌ يفضي إلى قاعة مواجهة تماماً للنقطة التي دخلنا منها.

تمكنتُ من رؤية المطبخ إلى اليمين، وثمةَ بابٌ مغلقٌ في الخلف، وبابان آخران مغلقان جهة اليسار، وحمامٌ في النهاية المقابلة لنا تماماً.

ستة أولاد؛ استطعتُ أن أتخيل التزاحم على الاستحمام وعلى استخدام المغسلة.

عدَّلت مضيفتنا منخلَ الباب وضبطتهُ ضمنَ إطاره، وأغلقتِ الباب الداخلي، واستدارت نحونا. لونُ بشرتها أسمر داكن، ولونُ بياض عينيها أصفر شاحب يشبه لون حَبّ الصنوبر. قدّرتُ أن تكون في منتصف العقد الثاني من عمرها.

بسبب افتقاري إلى كلام أفضل أفتتح به الحديث، قلت لها: "جنيفا اسم جميل، هل سبق لك أن ذهبتِ إلى سويسرا؟".

أطالت جنيفا النظرَ إليَّ وقد خلا وجهها من أيِّ تعبير، وتصبّب العرقُ من جبينها ومن صدغيها؛ من حيث كان شعرها مرسلاً سَبطاً غير جعدٍ إلى وراء ظهرها. من الواضح أن جهاز التكييف الوحيد كان يبرد غرفةً أخرى.

"سأحضِرُ أبي".

مالت برأسها نحو أريكةٍ مهترئةٍ مستندةٍ إلى الجدار الأيمن من غرفة المعيشة؛ حيث كانت الستائر، التي تؤطر النافذة المفتوحة الموجودة فوق الأريكة، منسدلةً تشع منها الحرارة، وقد أثقلتها الرطوبة.

"ألا ترغبينَ في الجلوس؟".

كانت عبارتها أقرب إلى الطلب منها إلى الاستفهام.

قلتُ: "شكراً لك".

تمايلت جنيفا في مشيتها وهي تتجه نحو الممر، وقد تجمّع سروالها بين فخذيها، وشعرها السَّبط مسرَّحٌ على هيئة ذيلِ حصان ومرسل خلف رأسها.

بينما كنتُ وسليديل جالسين كلٌّ منا على أحد طرفي الأريكة، سمعت صوت باب يفتح، ثم صوتاً خفيضاً لبثِّ محطةٍ دينية، وما هي إلا لحظات حتى انقطع صوت الموسيقى.

نظرتُ حولي؛ كان الديكور يحاكي أسلوب وال مارت الحديث، وهناك مشمّع، وكرسي من الفينيل، وطاولة صغيرة مصنوعة من خشب البلوط، وطاولات جنبية، وشجيرات نخيل بلاستيكية، لكن ثمة مسحةً حنان بادية بوضوح.

كانت الستائر المزركشة خلفنا تفوح منها رائحة منظفات الغسيل، ورائحة معطر الغسيل داوني. وثمة مزق في ذراع الأريكة كان قد رُتِّقَ بعناية، وكل السطوح ملمعة.

زُيِّنت رفوف الكتب وأسطح المنافذ بصور مؤطرة، وتحف غير متقنة الصنع،

كما لاحظت طيراً مصنوعاً من الصلصال مبهرجاً بألوان كثيرة، وصفيحة خزفية مقوسة، وقد أُلقيت على الأرض كتب عليها اسم **ريجي**، تنم على تواضع مستوى صانعها، وعشرات من التذكارات الرخيصة، ولبادات أكتاف للألبسة الجاهزة، وخوذ معلبة إلى الأبد في علبة بلاستيكية مطلية باللون الذهبي، وصورة لرامي كرة سلة في أثناء القفز، وصورة للعبة الكرة السريعة.

ألقيتُ نظرةً عامةً على الصور الأقرب مني؛ صور لصباحات ذكرى ميلاد، وحفلات ذكرى ميلاد، وصور لفرق رياضية. كان كلُّ تذكار محفوظاً ضمن إطار من ذاك النوع المتوافر في المتاجر التي تبيع سلعاً بأسعار رخيصة.

التقط سليديل وسادة، ورفع حاجبيه، ووضعها بيني وبينه؛ كانت العبارة المطرزة عليها باللونين الأزرق والأخضر "الله". **أهي من عمل ميلبا اليدوي؟**

تكشف الحزن الذي ما برح يعتريني كل الصباح، حين كنتُ أفكر في ستة أولاد فقدوا أمهم، وفي قَدَر رضيع تاميلا المشؤوم.

الوسادة والصور والمدرسة وتذكارات الفريق، كلها جعلتني أشعر أنني أجلس في البيت الذي عشت فيه طفولتي في بيفرلي، في الجهة الجنوبية من شيكاغو. بيفرلي التي كانت مظللة بالأشجار، وسوق بيع الخبز التي يفضّلها الناس، وصحف الصباح الملقاة على الشرفة. كان بيتنا القرميدي الصغير جداً المؤلَّف من طابق واحد موئلَ أحلامي بالعوالم الجميلة إلى أن بلغت سنَ السابعة، عندما حمل اليأسُ الذي حل بأمي، بسبب حزنها لموت ابنها الذكر، على العودة إلى كارولينا التي أحبتها، وقد حزن زوجها وبناتها لحزنها.

أحببت ذاك البيت، وشعرت فيه بالدفء والحب والحماية؛ أحسست أن تلك المشاعر ذاتها تتشبث في هذا المكان.

أخرج سليديل منديله من جيبه ومسح به وجهه.

قال سليديل، وكان كلامه يخرج من طرف فمه: "آمل أن يكون الرجل العجوز قد نجح في توفير غرفة نوم مكيفة لنفسه. أعتقد أنه محظوظ إن استطاع أن يفعل ذلك وهو يعيش بين ستة أولاد".

تجاهلته ولم أردّ.

زادت الحرارة من حدة الروائح داخل البيت الصغير؛ بصل، وزيت طهي،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وملمع خشب، ورائحة أي شيء يستخدم لتنظيف المشمع.

تساءلت عمَّن عساه يكون ذاك الذي نظف كل هذه الأشياء: تاميلا؟ جنيفا؟ أم بانكس نفسه؟

تنهد سليديل بصوت مسموع، وجعل من إصبعه خطافاً أمسك به ياقته وسحبها من عنقه.

نظرتُ إلى المشمع؛ إنه من النوع المبرغل ذي اللونين الرمادي والأبيض. لونه يشبه لون العظام والرماد المستخرجة من موقد الحطب.

ماذا سأقول؟

في تلك اللحظة فُتح باب. صوت منبعث من المحطة الدينية. وثمة صوت خفيف من بطانة المشمع.

بدا جدعون بانكس أصغر حجماً من ذاك الموجود في ذاكرتي، كله عصب وعظام. كان ذلك خطأً، على نحو ما. عودة إلى الوراء. لا بد من أنه كان يبدو أكبر حجماً في الفضاء الخاص به. ملك مملكته، سيد الأسرة والبيت. أثمة خلل اعترى ذاكرتي؟ هل أضعفه التقدم في السن؟ أم أضناه القلق؟

تردد بانكس في الممر، وبدا جفناه متجعدين خلف عدستي نظارته السميكتين. ثم اعتدل، وتقدم نحو الأريكة، ممسكاً متكأي الأريكة ومتشبثاً بهما.

اعتدل سليديل في جلسته محاولاً أن ينهض، لكنني حِلتُ دون نهوضه.

"شكراً لتفضلك برؤيتنا سيد بانكس".

ردَّ عليَّ بانكس بإيماءة من رأسه. كان ينتعل خفاً شائع الاستعمال في جنوب الولايات المتحدة خاصة، ويرتدي بزّة عمل رمادية اللون، وقميص بولينغ برتقالياً. بدت ذراعاه مثل أملودي شجرة نابتين من كُمي قميصه.

"بيتك جميل".

"شكراً لكِ".

"هل عشتَ هنا زمناً طويلاً؟".

"في تشرين الثاني/نوفمبر القادم أكون قد أمضيت هنا سبعة وأربعين عاماً".

"لم أستطع تفادي النظر إلى الصور الخاصة بك"، أشرتُ إلى باقة الصور، "لديكَ أسرة جميلة".

"لم يبقَ هنا سوانا الآن؛ جنيفا وأنا. جنيفا ثاني أكبر أولادي سناً. إنها تعتني بي. وتاميلا هي أصغر أولادي سناً وقد رحلت منذ شهرين".

لمحت بطرف عيني جنيفا تتحرك في الممر.

في معرض بحثي عن طريقة أستهل بها الكلام قلت: "أعتقد أنكَ تعرف سبب وجودنا هنا سيد بانكس".

"نعم سيدتي، أنتما هنا للبحث عن تاميلا".

قال سليديل بصوت يشبه صوت شخص يحاول أن ينظف حلقه من شيء علق فيه: "تابعي الموضوع".

"أنا آسفة جداً لأنّه عليّ أن أخبرك، سيد بانكس، أن الموادّ المستخرجة من موقد حطب غرفة معيشة تاميلا...".

قاطعني بانكس قائلاً: "لم يكن المكان مكان تاميلا".

قال سليديل:

"استأجر مكانَ السكن شخصٌ يدعى داريل تيري. وفقاً لشهود عيان، كانت ابنتك تعيش مع السيد تيري على مدى شهور أربعة تقريباً".

لم تكفَّ عينا السيد بانكس عن النظر إليَّ مطلقاً؛ عينان مفعمتان بالألم.

كرر بانكس قوله: "المكان لم يكن مكان تاميلا".

لم تكن نبرة صوته مشوبةً بالغضب، ولم تكن تنم على رغبة في المجادلة؛ بل كانت نبرة صوت رجل راغب في تصحيح السجل.

شعرت بلزوجة جعلت قميصي يلتصق بظهري، وبخشونة موادّ التنجيد تحت ساعديَّ. أخذت نفساً عميقاً، وبدأتُ من جديد:

"الموادّ المستخرجة من موقد الحطب احتوت على أجزاء من عظام طفل حديث الولادة". بدا أن كلماتي أخذته على حين غرّة. سمعت صوت نفس حاداً، ولاحظت ذقنه ينطبق في وضع غير مناسب.

"تاميلا تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً فقط. إنها فتاة طيبة".

"نعم، سيدي".

"لم يكن لديها طفل".

"بل كان لديها، يا سيدي".

"مَن الذي يقول ذلك؟".

قال سليديل: "لدينا معلومات من أكثر من مصدر".

فكر بانكس لحظة ثم قال: "لماذا تذهب لتنظر إلى موقد شخص ما؟".

"ذكر مخبرٌ أن رضيعاً أُحرق في ذاك العنوان. نحن نتوثق من تقارير من هذا القبيل".

لم يكشف سليديل النقاب عن أن الذي أدلى بمعلومات سرية حول الموضوع هو هاريسون سوني باوندر، بائع مواد مخدرة في الشوارع، يساوم من أجل الحصول على مصلحة بعد أن مُنيَ بإفلاس في الآونة الأخيرة.

"مَن يقول ذلك؟".

قال سليديل، وقد زاد انزعاجُهُ لهجتَهُ حدةً: "ليس هذا مهماً. يتعين علينا معرفة مكان وجود تاميلا".

بذل بانكس جهداً كبيراً ليتمكن من الوقوف، ثم جرَّ قدميه جراً وصولاً إلى أقرب رفٍّ للكتب، وعاد متمهلاً، واستوى جالساً على الأريكة وهو يقدم لي صورة.

نظرت إلى الفتاة في الصورة، وأنا مدركة تماماً لعيني بانكس اللتين تنظران إلى وجهي، ولابنته صاحبة المرتبة الثانية بين أولاده من حيث زمن ولادتها التي تلوح في الممر.

ظهرت تاميلا في الصورة وهي ترتدي كنزة قصيرة ذهبية اللون لا أكمام لها، وقد طُبع عليها حرف دبليو باللون الأسود. جلست تاميلا وقد ثنت إحدى ركبتيها ومدت ساقها الأخرى خلفها، ووضعت يديها على وركيها، وقد أحيطت بعقد من كرات ذات اللونين الذهبي والفضي يتزين بها عادة قائد الهتافين الذين يشجعون فريقاً رياضياً. كانت ابتسامتها رائعةً وعيناها مشرقتين تشعّان سعادةً. وثمة مشبكان يتلألآن في شعرها الجعد القصير.

قلت: "كانت ابنتك قائدة هتافين".

"نعم، يا سيدتي".

قلت: "حاولت ابنتي تشجيع الفرق الرياضية عندما كانت في السابعة من عمرها؛ كرة قدم بوب ورنر للأطفال الصغار. ثمّ فضّلت اللعب ضمن الفريق على تشجيعه".

"أعتقد أن لكل فتاة اهتماماً يغني رغباتها".

"نعم، سيدي. هذا صحيح".

قدم لي بانكس صورة ثانيةً، هذه الصورة بولارويد.

قال بانكس: "هذا هو السيد داريل تيري".

تاميلا تقف إلى جانب رجل طويل ونحيل يتقلّد سلاسل ذهبية حول عنقه، ويضع عصابة سوداء على رأسه؛ وذراع عنكبوتية واحدة من ذراعيه منسدلة على كتفي تاميلا.

على الرغم من أن الفتاة كانت تبتسم، إلا أن البريق كان قد تخلى عن عينيها، وقد بدا وجُهها ممتقعاً وشاحباً، وجسدُها كلُّه متوتراً.

أعدتُ إليه الصورتين وقلت: "هل تعرف مكان وجود تاميلا سيد بانكس؟".

"أضحت تاميلا فتاةً ناضجةً، ولا سلطان لي عليها الآن".

ساد صمتٌ.

"فقط إن كان في وسعنا أن نتحدث إليها، قد يكون لديها تفسير لكل هذا".

ساد مزيد من الصمت، وطال أمده هذه المرة.

سأل سليديل: "هل تعرف السيد تيري؟".

"أوشكت تاميلا أن تنهي دراستها الثانوية، مثلها في ذلك مثل: ريجي، وهارلي، وجونا، وسامي. ليس لديها مشكلة مع المخدرات أو مع الشبّان".

علّقنا الحديث عن الموضوع للحظة. وعندما كفّ بانكس عن المتابعة، حثه سليديل على الاستمرار قائلاً: "وماذا بعد؟".

"ثم ظهر داريل تيري". لفظ بانكس اسمه بطريقة تنم على ازدراء، وقد رصدت أولى علامات غضبه. وقال: "نسيت كتبها زمناً طويلاً، وأمضت جُلَّ وقتها حالمةً وقلقةً حيال زمن ظهور تيري".

نقل بانكس طرفه من سليديل إليّ، ثم تابع: "هي تعتقد أنني لا أعرف، بيد أنني سمعت عن داريل تيري. قلت لها إنه ليس عشيراً مناسباً، وأخبرتها أنه ما كان ليأتي مرةً أخرى إلى هذا المكان".

سألته: "هل حدث ذلك عندما رحلت؟".

أومأ بانكس برأسه إيجاباً.

"متى حدث ذلك؟".

"في الفصح تقريباً. قبل نحو أربعة أشهر".

تلألأت عينا بانكس ثم تابع: "أدركتُ أنها تخفي أمراً خاصاً بها. اعتقدتُ أن الموضوع يقتصر على تيري. ويعلم الله أنني لم أكن أعرف أنها حامل".

"هل عرفت أنها كانت تعيش مع السيد تيري؟".

"لم أستطع أن أتيقّن ذلك، فليسامحني الله. لكنني كنت أحسبها أنها تتردد إلى حيث كان يقيم".

"هل لديك أي فكرة عن السبب الذي يمكن أن يكون قد جعل ابنتك راغبةً في إيذاء رضيعها؟".

"لا يا سيدتي. تاميلا فتاة طيبة".

"هل يحتمل أن يكون تيري قد ضغط على ابنتك؛ لأنه لا يريد الطفل؟".

"لا يمكن أن يكون الأمر من هذا القبيل".

التفتنا جميعاً إلى مصدر صوت جنيفا التي نظرت إلينا نظرةً تبعث على الكآبة، وقد ارتدت قميصاً فضفاضاً لا يسر الناظرين، وسروالاً رهيباً.

"ماذا تقصدين؟".

"تاميلا تخبرني كلّ شيء، هل تدركون ما أقوله؟".

قلت لها: "هل تثق بك؟".

"نعم. إنها تثق بي. إنها تخبرني عن أمور لا تستطيع أن تخبر أبي عنها".

قال بانكس بصوت مرتفع يشوبه شيء من التملق: "ما الذي لا تستطيع أن تخبرني به؟".

"أشياء كثيرة يا أبي. لم يكن في وسعها أن تخبرك عن داريل. كنت تصرخ في وجهها، محاولاً أن تحملها على الصلاة كل الوقت".

"كان عليَّ أن أفكر في...".

قاطع سليديل بانكس قائلاً: "هل تحدثت تاميلا إليك عن علاقتها بداريل تيري؟".

"عن بعض منها".

"هل أخبرتك أنها كانت حاملاً؟".

"نعم".

"متى حدث ذلك؟".

هزت جنيفا كتفيها استخفافاً، وقالت: "في الشتاء الفائت".

انخفضت كتفا بانكس بطريقة ملحوظة.

"هل تعرفين مكان وجود أختك؟".

تجاهلت جنيفا سؤال سليديل وقالت: "ماذا وجدت في موقد حطب داريل؟".

أجبت: "شظايا عظام متفحمة".

"هل أنتِ واثقة من أنها كانت لرضيع؟".

"نعم".

"قد يكون ذاك الطفل ولد ميتاً".

"هذا الاحتمال وارد دوماً".

كنت أشك في الكلام حتى عندما كنت أقوله، إلا أنني لم أستطع أن أتحمل نظرة الحزن في عيني جنيفا وتابعتُ قائلة: "لهذا السبب علينا أن نحدد مكان وجود تاميلا لاستكشاف ما حدث فعلاً. قد يمكن لشيء آخر غير الجريمة أن يفسر سبب موت الطفل. يحدوني أمل كبير جداً أن يثبت أخيراً أن هذا الأمر صحيح".

"قد يكون المولود خديجاً وضعته في وقت باكر جداً".

"أنا خبيرة بالعظام يا جنيفا. أستطيع أن أميز التغيرات التي تطرأ على الهيكل العظمي لجنين في طور النمو".

ذكّرت نفسي بمبدأ مفاده: هوّني الموضوع أيتها الحمقاء.

"مولود تاميلا كان مكتمل النمو".

"ماذا يعني ذلك؟".

استمر الحمل بما يكفي لجعل المولود يبقى حياً".

"ربما كان هناك مشكلات".

"ربما".

"كيف تستطيعين أن تميزي أن هذا المولود هو مولود تاميلا؟".

قفز سليديل يعدد نقاطاً مستخدماً أصابع يده التي تشبه حبات النقانق: "أولاً: شهود عدة ذكروا أن أختك كانت حاملاً. ثانياً: وجدت العظام في

موقد حطب مقر إقامتها. ثالثاً: اختفت هي واختفى تيري".
"قد يكون المولود مولود امرأة أخرى".
"ويمكن أن أكون أنا الأم تيريزا، لكنني لست كذلك".
استدارت جنيفا نحوي وسألت: "ماذا بشأن الحمض النووي؟".
كانت الشظايا قليلة جداً ومحترقة على نحو سيئ جداً؛ الأمر الذي لا يسمح باختبار الحمض النووي.
لم تُبدِ جنيفا أي ردّ فعل.
قال سليديل، وقد غدت لهجته أكثر حدةً: "هل تعلمين أين ذهبت أختك يا آنسة بانكس؟".
"لا".
سألتها: "هل ثمة شيء في وسعك أن تخبرينا عنه؟".
"شيء واحد فقط".
نقلت جنيفا طرفها بين أبيها وبيني وبين سليديل.
امرأة بيضاء. شرطي أبيض. خيارات سيئة.
متخذة قراراً أن المرأة قد تكون أكثر أماناً، ألقت مفاجأتها المدهشة نحوي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

3

بينما كان سليديل يقود السيارة في طريق العودة ليوصلني إلى سيارتي، حاولت أن أتحكم بعواطفي، وأن أتذكر أنني احترافية.

شعرت بالحزن على تاميلا ووليدها، وشعرت بالانزعاج من معاملة سليديل الوحشية لأسرة بانكس، كما شعرت بالقلق حيال كل ما كان عليَّ أن أنجزه في اليومين اللاحقين.

كنت قد وعدت كاتي بتمضية يوم السبت معها، وثمة ضيوف سيصلون يوم الأحد.

سأغادر يوم الاثنين؛ لتمضية عطلة غير عائلية هي الوحيدة التي سمحت لنفسي بتمضيتها منذ سنين.

لا تسيئوا فهمي؛ أنا أحب رحلة أسرتي السنوية إلى الشاطئ. ستسافر أختي هاري وابن أختي كيت جواً من هيوستن، وجميع أقارب زوجي السابق اللاتفيون سيتجهون شرقاً من شيكاغو. إن لم يكن ثمة دعوة قضائية جارِ العمل فيها، فسينضم بيت إلينا لتمضية أيام قليلة معنا. نستأجر منزلاً مؤلفاً من اثنتي عشرة غرفة نوم بالقرب من نغس هَد، أو في ويلمنغتون، أو تشارلستون، أو بوفورت، ونركب الدراجات، ونتمدد على الشاطئ، ونشاهد ما الذي حدث لبوب، ونقرأ الروايات، ونعيد ترسيخ صلات القربى الموسعة. فتمضية أسبوع على الشاطئ هي وقت للاسترخاء ضمن مجموعة نعتز بها جميعاً.

كان مقدَّراً لهذه الرحلة أن تكون مختلفةً؛ مختلفة جداً.

أجريت مراجعة ذهنية مراراً وتكراراً؛ تقارير، مصبغة الملابس، مَحال البقالة، تنظيف، تحضير الحقائب، طائر صغير لبيت، شريط جانبي. لم أكن قد سمعت صوت بيت منذ أكثر من أسبوع؛ كان ذلك غريباً. على الرغم من أننا عشنا بعيدين

أحدنا عن الآخر سنوات عدة، كنت أراه عادةً، أو كان يتصل بي بانتظام. ابنتنا كاتي وكلبها بويد؛ قطتي بيردي؛ أقرباؤه في إيلينوي؛ أقربائي في تكساس وكارولينا؛ رابطة مشتركة من نوع ما تجمعنا أحدنا بالآخر كلّ أيام عدة. إلى جانب ذلك، بيت يروق لي، ولا أزال أستمتع بصحبته. كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أتزوجه.

دوّنت ملحوظة لأسأل كاتي إن كان أبوها يقيم علاقات عارضة مع النساء، أو إن كان قد وقع في الحب.

عودة إلى القائمة؛ إزالة شعر الجسم بالشمع الساخن؟

أضفتُ عنصراً: ملاءات لغرفة الضيوف.

لن أتمكن مطلقاً من تحقيق كل الأمور التي دونتها.

في هذه الأثناء، كان سليديل قد وصل بي إلى موقف سيارات مركز الفحص الطبي حيث أنزلني هناك. كان التوتر قد أجهد عضلات رقبتي مسبباً ألماً بلغ مؤخر رأسي.

لم تساعدني الحرارة التي تراكمت في سيارتي المازدا، كذلك لم يساعدني ازدحام السير في أطراف المدينة. أم هل هذا هو مركز المدينة؟ لم يتفق بعد أهل شارلوت على المنحى الذي نحته مدينتهم.

مدركةً أن الوقت سيكون متأخراً ليلاً، تحولت عن الطريق وانعطفتُ نحو لاباز، وهو مطعم مكسيكي في أقصى الجنوب؛ لشراء كعك أنشيلادة (كعك محشوّ باللحم ومغطّى بصلصة طماطم ومنكّه بالفلفل) وحمله معي إلى البيت مع وجبة طعام غواكمول (طبق أفوكاتو مع البصل والطماطم...) مكسيكية.

يشار إلى بيتي على أنه "ملحق بيت المدرب"، أو ببساطة "الملحق" من قبل الأصدقاء في قاعة شارون، مجمع قصر من القرن التاسع عشر تحول إلى شقة في حي بارك مايرز في الجنوب الشرقي من شارلوت. لا أحد يعرف لماذا بُنيَ الملحق. إنه مبنى خارجي صغير غريب لم يظهر على مخططات البناء الأصلية؛ فالقاعة هناك، وبيت المدرب، وعشب وحدائق أساسية. ليس ثمة وجود لملحق على المخططات.

مهما يكن من أمر، فإن المكان على ضيقه يروق لي تماماً: غرفة نوم وحمام، ومطبخ وغرفة طعام، وصالون، وغرفة استقبال، ومكتبة في الأسفل؛ وتبلغ مساحته

ألفاً ومئتي قدم مربّعة. إنه ذاك النوع من المنزل الذي يصفه سماسرة العقارات بالمريح.

عند الساعة 6:45 أوقفتُ سيارتي في فناء المنزل المرصوف.

كان الملحق ينعم بهدوء يبعث على السعادة. لدى عبوري إلى المطبخ، لم أسمع سوى صوت محرّك الثلاجة، وتكتكات الساعة الموضوعة على الرف الذي يعتلي مُستوقَد غران بريتان.

"بيردي".

لم تظهر قطتي.

"بيردي".

لا توجد قطة.

بينما كنت أضع طعام العشاء، ومحفظتي وحقيبتي، توجهت نحو الثلاجة وأخذت قارورة كوكا كولا دايت. عندما التفت، كانت بيردي تتمطّى في مدخل غرفة الطعام.

"لا تُخطئي صوتي مطلقاً، هل تفهمين أيتها الصديقة العظيمة؟".

ذهبت إليها وفركت أذنيها.

جلست بيردي، ورفعت إحدى قوائمها، وبدأت تلعق. تجرعت جرعة كبيرة من الكوكا كولا مجدّداً. إنها ليست شراباً، لكنها تجدي نفعاً. إن أيامي التي كنت أرقص فيها وأنا أحتسي الشراب قد ولّت. لقد خضت صراعاً طويلاً على هذا الصعيد، إلا أن ذاك الستار قد أسدل وحسناً فعل.

هل افتقدتُ إلى الشراب؟ أحياناً، أستطيع، إلى حدٍّ بعيد، أن أشم رائحته وأتذوق طعمه في أثناء نومي. ما لست أفتقده هو الصباحات اللاحقة لليالي احتساء الشراب: اليدان المرتجفتان، والدماغ الهائم، وكراهية الذات، والقلق بشأن الكلمات والأفعال التي لا يمكن تذكرها.

من الآن فصاعداً، الكوكا كولا هي الشيء الحقيقي.

أمضيتُ بقية المساء في كتابة تقارير. بقيت بيردي في مكانها إلى أن نفدت وجبة الغواكمول والكريمة الرائبة، ومن ثمّ استلقت على الأريكة رافعةً قوائمها في الهواء، وغفت.

كنتُ قد فحصت إضافةً إلى طفل تاميلا بانكس، ثلاثَ مجموعات من الجثث منذ عودتي من مونتريال إلى شارلوت. كلٌّ منها تتطلب تقريراً.

الحالة الأولى: اكتشفت بقايا جزء من هيكل عظمي تحت كومة من الإطارات في مستودع في غاستونيا. كان هيكلاً عظمياً لأنثى بيضاء البشرة يتراوح عمرها بين سبعة وعشرين عاماً واثنين وثلاثين عاماً، ويبلغ طولها ما بين خمس أقدام وعُشرَي القدم وخمس أقدام وخمسة أعشار القدم. كان لديها كسر واسع في الأسنان ناجم عن استخدام العنف، وكسور ملتئمة في الأنف والفك الأعلى الأيمن، والفك الأسفل. وكانت قد أصيبت بصدمة حادة باستخدام أداة على الأضلاع الأمامية وعلى عظم القص. ولديها جروح في اليدين ناجمة عن محاولة الدفاع عن النفس؛ مما رجّح احتمال القتل.

الحالة الثانية: اصطدم مراكبيٌّ بمركبه في بحيرة نورمان بجزء من القسم العلوي من ذراع إنسان. كان بالِغاً، ومن المرجّح أن يكون ذا بشرة بيضاء، ويحتمل أن يكون ذكراً. يبلغ طوله ما بين خمس أقدام وستة أعشار القدم وست أقدام.

الحالة الثالثة: عُثر على جمجمة على ضفاف شوغر غريك: إنها أنثى، سوداء البشرة، طاعنة في السن، ولا أسنان لها. ولم يكن موت صاحبتها حديث العهد؛ قد تكون الجمجمة مستخرجة من قبر منبوش.

بينما كنت أعمل، ما انفك ذهني ينجرف إلى الربيع الفائت في غواتيمالا. تصورت موقفاً؛ وجهاً شديد الإثارة، كنت أشعر بتموج الإثارة؛ إثارة تستتبع وخزةَ قلق. هل كانت فكرة هذه الرحلة القادمة إلى الشاطئ فكرةً موفقةً. يتعين عليَّ أن أحمل نفسي على التركيز على التقارير.

عند الساعة الواحدة والربع، أغلقتُ جهاز الحاسوب، وتجرجرتُ قاصدة الطابق العلوي.

لم يتسنَّ لي التفكير في عبارة جنيفا بانكس إلا بعد أن استحممت، واستلقيت على السرير.

"لم يكن طفل داريل".

رددنا – سليديل وبانكس وأنا – بصوت واحد:

"ماذا؟".

تمتمت جنيفا مكررةً كلماتها المروعة.
لمن؟
ليس هناك فكرة.
أَسَرَّت لها تاميلا بأن الطفل الذي كانت حاملاً به لم يكن ابن داريل تيري.
هذا كلُّ ما علمت به جنيفا.
أو ما رغبت في الإدلاء به.
ثمة تنافسٌ محتدمٌ بين ألف سؤال في الصدارة.
هل برَّأت المعلومات التي أدلت بها جنيفا تيري؟ أم زادت من الاشتباه فيه؟
هل قتل تيري الطفلَ لعلمه أنه ليس ابنه؟ هل أجبرَ تاميلا على قتل طفلها؟
هـل لـدى جنيفـا نقطـةٌ مشـروعة؟ أيُحتمل أن يكون الطفل قـد ولد ميتاً؟ هل ثمة خللٌ وراثي؟ أم مشكلة في الحبل السري؟ هل اقتصر الأمر على مجرد اختبار تاميـلا، مسـحوقة القلـب، للطريقـة الأكثر ملاءمةً وأحرقـت الجثة الهامدة في موقد الحطب؟ هذا محتمل. أين تمت ولادة الطفل؟
شـعرت بيـردي تحطّ رحالها على السـرير، وتستكشـف إمكانـات نومها، ثم تلتفّ خلف رُكبتيَّ.
حلّـق ذهنـي مـرة أخـرى نحـو رحلـة الشـاطئ الممتعة المقبلـة؛ هل يمكن أن تـؤدي إلـى أي مـكان؟ هـل رغبتُ في ذلك؟ هـل كنتُ أبحث عن أمر ذي مغزى، أم أنه مجرد أمل في الحصول على الإثارة الناجمة عن موسيقى الروك أند رول؟ اللـه يعلـم، كانت الإثـارة قد بلغت بي مبلغاً. هل كنتُ قـادرةً على الالتزام بعلاقة أخرى؟ هل يمكن أن أثقَ بأحدٍ من جديد؟ كانت خيانةُ بيت شـديدةَ الإيلام، كما كان تَفَكُّك زواجنا مؤلماً جداً، لم أكن واثقة.
عـودة إلـى تاميـلا: أيـن كانت؟ هـل الحقَ تيري أذًى بها؟ هـل ذهبا للاختفاء معاً؟ هل هربت تاميلا مع شخص آخر.
بينما كنتُ أستسلم للنوم، كان لا يزال في ذهني فكرة أخيرة مثيرة للقلق.
إن أمر العثور على أجوبة تتعلق بتاميلا كان مرتبطاً بسكيني سليديل.
عندما استيقظتُ كانت أشعة الشمس القرمزية تشق طريقها عبر أغصان أشجار المنغوليا في الخارج وصولاً إلى نافذة غرفتي. وكانت بيردي قد ذهبت.

نظرت إلى الساعة، كانت شارة ضبط الوقت تشير إلى السادسة وثلاث وأربعين دقيقة.

تمتمتُ وأنا أسحب رُكبتي نحو صدري وأختبئ عميقاً تحت اللحاف: "لا مناص". ثمة ثقلٌ أطبق على ظهري، لكنني تجاهلته.

لسان مثل فرشاة التنظيف حك وجنتي.

"ليس الآن يا بيردي".

بعد ثوانٍ، شعرتُ ببيردي تشدني بشيء من العنف من شعري.

"بيردي!".

كفّت للحظاتٍ، ثم بدأت تلعق بلسانها مجدّداً.

"كُفّي عن هذا!".

مزيدٌ من اللعق.

رميتُ بها بعيداً بشيء من العنف، وأشرتُ بإصبعي إلى أنفها.

"لا تمضغي شعري!".

رمقتني قطتي بنظرة من عينيها الصفراوين المستديرتين.

"حسناً".

بينما كنتُ أتنهد بعمق، أبعدت عني الغطاء وارتديتُ زيَّ الصيف المؤلَّف من سروال قصير وكنزة.

أدركتُ أن الاستسلام يؤمّن تعزيزاً إيجابياً، إلا أنني لم أستطع أن أركن إليه. لقد كانت الخدعة الواحدة هي التي أجدت نفعاً، وقد عرفتها قطتي الصغيرة.

نظفتُ أطعمة بيردي التي نثرتها على أرض المطبخ، وأكلتُ لُبَّ عنب من زبدية، ثم تصفحت صحيفة الأبزرفر حين كنتُ أحتسي القهوة.

كان ثمة حادثُ تصادم جماعي على طريق آي 77، أعقب حفلاً أقيم في وقت متأخر من الليل في حديقة كاروويند الكبيرة في باراماونت. تمخض التصادم عن قتيلين وأربعة مصابين في وضع حرج.

ثمة رجلٌ أُطلق النار عليه من بندقية رشاشة في باحة أمامية من ويلكنسون بولفارد.

اتُّهِم أحد المنخرطين المحليين في أعمال البر والخير باستخدامه القسوة ضد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الحيوانات؛ وذلك لسحقه ست قططة صغيرة حتى الموت في ضاغطة النفايات الخاصة به.

كان الجدل لا يزال دائراً بين أعضاء مجلس المدينة بشأن مواقع لساحة رياضية جديدة.

وأنا أطوي الصحيفة، زِنتُ خياراتي:

مصبغة تنظيف وكي الملابس؟ مواد البقالة؟ التنظيف بالمكنسة الكهربائية؟ تباً لكل ذلك.

وأنا أملأ فنجان قهوتي مجدّداً، انتقلتُ إلى المختلى (حجرة المطالعة والكتابة)، وأمضيتُ ما تبقى من وقت الصباح في اختتام كتابة التقارير.

مرت كاتي بي واصطحبتني عند الساعة الثانية عشرة ظهراً تماماً.

على الرغم من كونها طالبةً ممتازةً، ورسامةً موهوبةً، وتجيد أعمال النجارة، وراقصة نقرية (تجيد الرقص الذي يتميز بنقر الأرض نقرات قوية بالأقدام أو برؤوسها أو بكعوبها)، وتحب الهزل، فإن ابنتي لا تُكنّ تقديراً كبيراً للسرعة في الأداء.

لم تكن، على حدّ علمي هناك شعيرة جنوبية تعرف باسم بيغ بيكين.

على الرغم من أن عنوان ابنتي الرسمي لا يزال عنوان منزل بيت، حيث نشأت وترعرعت، فغالباً ما أمضي وكاتي أوقاتاً معاً عندما تعود إلى المنزل من جامعة فرجينيا في تشارلوتسفيل. لقد ذهبنا معاً لحضور حفلات الروك، ومعاً قصدنا المنتجعات، وحضرنا مباريات بطولات التنس والغولف، ومعاً ذهبنا إلى المطاعم، ودور السينما. لم يحدث مطلقاً أن اقترحت الانخراط في نزهة يكون فيها لحم مدخن، أو موسيقى ريفية أميركية تقليدية في فناء خارجي.

لدى رؤيتي كاتي وهي تجتاز فناء بيتي المرصوف، تعجبتُ مرةً أخرى: كيف تسنى لي أن أنجبَ مثل هذا المخلوق الرائع. على الرغم من أنني لستُ مثيرةً جداً، فإن كاتي مثيرةٌ جداً؛ بشعرها الأشقر القمحي، وعينيها الخضراوين الضاربتين إلى الزرقة، لقد وُهِبت جمالاً يجعل الرجال يصارعون أصدقاءهم بالأذرع (ضرب من المصارعة يحاول فيه كل من متباريين اثنين تثبيت ذراع خصمه بذراعه)، ويؤدون غطسات البجعة انطلاقاً من دعامات وجسور متداعية البنيان.

كان عصر يوم آخر من أيام شـهر آب/أغسـطس القائظة. إنه ذاك النوع الذي يجعل الذاكرة تستعيد فصول الصيف أيام الطفولة. حيث نشأت وترعرعت، كانت دور السينما والمسارح مكيفة الهواء، أما المنازل والسيارات فقد كان الحر والرطوبة فيها شـديدين جداً. لم يكن بيتنا المؤلَّف من طابق واحد في شيكاغو، ولا البيت الريفي، المبني من غير نظام أو اتساق، الذي انتقلنا إليه، ذَوَي تكييف.

بالنسـبة إليّ، كانـت حقبـة السـتينيات حقبـة المـراوح السـقفية، ومراوح النوافذ.

طقـس حـار ولـزج، يذكرنـي بالرحـلات التي كانت تقصد الشـاطئ بواسـطة الحافـلات، وبلعـب التنـس تحت سـماء زرقاء، وببرك السـباحة في أوقات ما بعد الظهيرة، وبمطاردة اليراعات في أوقات يحتسـي فيها البالغون الشـاي على الشـرفة الخلفية؛ أنا أحب الطقس الحار.

على الرغم من أنه كان من الممكن استخدام مكيف الهواء في سـيارة كاتي - فهي من نوع فوكس فاكن - إلا أننا انتقلنا بها وقد فتحنا نوافذها، وكان شعرها وشعري يتطايران حول وجهينا في كل اتجاه.

وقـف بويـد علـى المقعـد خلفنـا معرّضـاً خطمـه للهـواء، وقـد تدلى لسـانه الأرجواني الأدكن من طرف فمه. يزن بويد سـبعين رطلاً، وجسـمه مكسـو بفراء بنـي شـائك. كان ينتقـل مـن نافـذة إلـى أخرى مرة كل بضع دقائـق، ويقذف بلعابه على شعرنا في أثناء تنقله الرشيق عبر السيارة.

كان النسـيم أكثر قليلاً من مجرد محرك للهواء السـاخن، إذ كان يُدوِّمُ رائحة الكلب من المقعد الخلفي إلى الأمام.

قلـت حيـن كنـا ننعطـف من طريق بيتيز فورد إلى طريق أن سـي 73: "أشـعر وكأنني أمتطي مجففة ملابس".

"سأصلح جهاز التكييف".

"سأعطيك نقوداً".

"موافقة".

"ما هذه النزهة بالتحديد؟".

"إنها نزهة يقيمها سنوياً متجر ماك كراني للأصدقاء وزبائن متجر الغليون".

"ما هو سبب ذهابنا؟".

قَلَّبت كاتي عينيها ناظرةً في اتجاه بعد آخر على نحو متواصل في لفتة كانت قد اكتسبتها عندما كانت في الثالثة من عمرها.

على الرغم من أنني موهوبةٌ في تقليب العينين، فإن ابنتي تُعَدُّ من الطراز العالمي على هذا الصعيد. كاتي ماهرةٌ في إضافة فوارق دقيقة في المعنى لم أستطع الشروع في التمكن منها. كان هذا مستوىً منخفضاً سبق لي أن شرحته.

قالت كاتي: "لأن النزهات ممتعة".

كان بويد يتنقل بين النافذتين في الوسط ليلعق المستحضر التجميلي ذا اللون الأسمر من جانب وجهي. دفعته بعيداً عني ومسحت وجنتي.

"لماذا يتعين علينا أن يكون نَفَسُ كلب معنا؟".

"أبي خارج البلدة. هل كُتب على هذه الشاخصة كونز فورد؟".

"تَحَوُّلٌ لطيف".

تفحصت الشاخصة الطرقية.

"نعم، هذا ما كُتب عليها".

تأملت لحظةً في التاريخ المحلي. كونز فورد يعبرها نهر استخدم من قِبَل قبيلة كتاوبا في القرن السابع عشر، ولاحقاً من قِبَل الشيروكي. وقد قاتل دانييل بون في ذاك المكان في أثناء الحرب الفرنسية الهندية.

عام 1781، قاتلت القوات الوطنية بقيادة الجنرال ويليام لي دافيدسون اللورد كورنواليس وجنوده البريطانيين في ذاك المكان. مات دافيدسون في المعركة، واهباً بذلك اسمه لتاريخ مقاطعة مكلنبورغ.

في أوائل ستينات القرن العشرين، أقامت شركة ديوك باور سداً في نهر كتاوبا في منطقة كونز فورد؛ مُحدثةً بذلك بحيرة نورمان التي امتدت نحو أربعة وثلاثين ميلاً.

اليوم، أقيمت محطة ماكغواير ديوك لتوليد الطاقة لاستكمال تشييد المحطة الكهرومائية الأقدم عهداً منها، وقد تموضعت عملياً بالقرب من النصب التذكاري للجنرال دافيدسون وملاذ كونز فورد للحياة البرية، وقد أنشئت في أرض طبيعية محظورة تبلغ مساحتها 2250 فداناً.

أتساءل كيف يشعر الجنرال حيال إشراك محطة طاقة نووية في أرضه المبجّلة؟
تحولت كاتي إلى طريق ذات مسارين أضيق من الطريق المعبّدة التي تحولنا عنها، وقد انتشرت على جانبي الطريق أشجار الصنوبر وأخشاب الأشجار الثقيلة بكثافة.

أضافت كاتي: "بويد يحبُّ الريف".

"بويد لا يحبُّ سوى الأشياء التي يستطيع أن يأكلها".

نظرت كاتي نظرةً خاطفة إلى نسخة مصورة من خريطة مرسومة بخط اليد، كانت قد ثبتتها خلف زجاج السيارة.

"ينبغي أن تكون على الجانب الأيمن بعد نحو ثلاثة أميال. إنها مزرعة قديمة".

كنا قد أمضينا ساعة من الزمن تقريباً في رحلتنا.

سألتُ: "هل يعيش الرجل هنا ويملك متجراً لبيع الغليون في شارلوت؟".

"متجر ماك كراني الأصلي موجود في مركز تسوق البارك رود".

"آسفة، فأنا لا أدخن الغليون".

"لديهم أيضاً كميات ضخمة من أنواع السيجار".

"تكمن المشكلة في أنني لم أستثمر في الأسهم هذا العام".

"أنا مدهوشة لكونك لم تسمعي بمؤسسة ماك كراني. فمقرها في منشأة شارلوت، والناس يتجمعون في ذاك المكان منذ سنين، والسيد ماك كراني تقاعد الآن، إلا أن أبناءه يديرون العمل. وأحد أبنائه الذي يقيم هنا يعمل في متجرهم الجديد في كورنيليوس".

قلتُ بصوت مرتفع: "وماذا بعد؟".

نظرت ابنتي إليَّ بعينين خضراوين بريئتين، وقالت: "وماذا بعد؟".

"هل هو وسيم؟".

"إنه متزوج".

تقليبة عين ذات دلالة مهمة.

أضَفتُ: "لكن هل له صديقة؟".

قالت: "ينبغي أن يكون لكِ أصدقاء".

اكتشف بويد كلبَ صيد على متن سيارة بيك آب مسرعة عبرت في الاتجاه

المعاكس. اندفع من الجهة التي أجلس فيها إلى جهة كاتي بقوة وأخرج رأسه من السيارة بالقدر الذي يتيحه زجاج نافذة السيارة المفتوح حتى نصفه، ونبح متذمراً كأنه أراد أن يقول لو لم أكن عالقاً في فخ هذه السيارة...

أمرته: "اجلس".

جلس بويد.

سألتُ: "هل سأقابل هذا الصديق؟".

"نعم".

في دقائق، وصلنا إلى مكان مزدحم بسيارات متوقفة على جانبي الطريق. ركنت كاتي السيارة خلف السيارات المتوقفة على الجانب الأيمن، وترجلت من السيارة.

اهتاج بويد وأخذ ينتقل بسرعة من نافذة إلى أخرى، وهو يلوك لسانه ويُدليه خارج فمه.

أخرجت كاتي كراسيَ قابلة للطي من صندوق السيارة، وناولتني إياها، ثم وضعت طوقاً حول عنق بويد، الذي أوشك أن يخلع كتفها من شدة توقه إلى الانضمام إلى الحفل.

ربما كان عدد الناس المجتمعين تحت أشجار الدردار الهائلة يناهز المئة شخص، اجتمعوا في الفناء الخلفي، حيث يوجد شريط معشوشب يبلغ عرضه نحو عشرين ياردةً يفصل بين الغابة وبين سياج البيت الريفي. جلس بعض الناس على كراسٍ من العشب، في حين كان آخرون يجولون في المكان كيفما اتفق، أو يقفون ضمن مجموعات تتألف كل منها من شخصين أو ثلاثة أشخاص وهم يحملون أطباقاً كرتونية وقواريرَ شراب شعير.

كان كثير منهم يعتمرون قبعات رياضية، وآخرون يدخنون السيجار.

كان الصغار يلعبون لعبة الحَدَوات (لعبة قوامها رمي حدوة أو نحوها حيث تطوق مسماراً معدنياً مغروساً في الأرض يبعد عن اللاعبين مسافة محددة) خارج حظيرة أحصنة لم تُطلَ منذ أن سار كورنواليس عبرها. وكان صغار آخرون يطاردون بعضهم بعضاً، أو يتبادلون قذف الكرات ورمي الصحون الطائرة في ما بينهم.

نصبت فرقة تعزف موسيقى ريفية أميركية تقليدية مستخدمةً آلات البانجو الوترية والغيتارات آلاتها بين البيت وحظيرة الأحصنة عند أبعد نقطة سمحت بالوصول إليها كبلات آلاتها. وعلى الرغم من الطقس الحار، ارتدى أعضاء الفرقة الأربعة جميعهم بزات رسمية، وعقد كل منهم ربطة عنق. كان المغني الرئيس يغني أغنية وايت هاوس بلوز "White House Blues". مع أن صوته لا يشبه صوت بيل مونرو، لكنه ليس سيئاً.

ظهر فجأة شابٌ حين كنتُ وكاتي نضع كرسيينا إلى جانب كراسٍ تحلقت على هيئة نصف دائرة مقابلة لفتيان الفرقة الموسيقية.

"كَتِر!" "Kater".

"كَتِر" "Kater".

كلمة تتقافى مع "تيتر (أسمال بالية)" أبعدت قميصي عن ظهري الذي كان يتصبب عرقاً.

"مرحباً بالمر".

بالمر؟ تساءلتُ إن كان اسمه الحقيقي هو بالمي.

"أمي، أعرّفك إلى بالمر كُرنز".

"مرحباً دكتورة بريتان".

تحرر بالمر بسرعة ورشاقة من ظلاله ومدَّ يدَهُ نحوي، إنه ليس طويلاً، وشعره أسود اللون غزير، وعيناه زرقاوان، وابتسامته تشبه ابتسامة طوم كروز في دوره الذي أداه في فيلم **مهمة خطرة** (Risky Business)؛ لقد بدا وسيماً إلى حدٍّ يثير الإرباك.

مددت يدي وقلت: "تمب".

كانت مصافحة بالمر من النوع الذي يسحق العظام.

"حدثتني كاتي كثيراً عنك".

"حقاً؟".

نظرتُ إلى ابنتي التي كانت تنظر إلى بالمر.

"ما اسم الكلب؟".

"بويد".

انحنى بالمر إلى الأمام وفرك أذن الكلب مداعباً، فما كان منه إلا أن لعق

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وجهه. ربَّت بالمر على وركه ثلاث مرات، ثم انتصب واقفاً.

"كلبٌ لطيف. هل لي أن أحضر لكما، سيدتيَّ، كأسين من الشراب؟".

قالت كاتي بشيء من المرح والابتهاج: "أنا آخذ كأساً، ودايت كولا لأمي، فهي مدمنة عليها".

قال بالمر: "تفضلا باختيار طعامكما".

اندفع بويد إلى الأمام، مستمعاً إلى ما ظن أنه إشارة إلى سلالته، منتزعاً سير الطوق من يد كاتي، وبدأ بالدوران حول ساقَي بالمر.

استدار بالمر، مستعيداً توازنه، وارتسمت على وجهه البالغ من الحسن حدَّ الكمال نظرةٌ من عدم اليقين.

"أيبقى منضبطاً إن أفلت من عقاله؟".

أومأت كاتي بحركة من رأسها إيجاباً، وقالت: "لكن، نراقبه عن كثب في أثناء الطعام".

أعادت الإمساك بالسَّير وحررت رقبةَ الكلب من الطوق.

رفع بالمر إبهامه إشارةً إلى موافقته.

بدأ بويد يدور في مكانه مبتهجاً.

خلف البيت الرئيس، عُرضت على طاولات قابلة للطي تشكيلةٌ من الأطعمة المعدة منزليًّا، والموضوعة في عُلَب بلاستيكية: سلطة كرنب، وسلطة بطاطا، وفاصولياء محمصة، وخضار. وغُطيت إحدى الطاولات بصوانٍ من الألمنيوم كُدِّست فيها شرائح من اللحم.

وعند طرف الغابة، كانت لا تزال تنبعث خيوطٌ رفيعة من الدخان من الموقد الضخم، الذي ظلَّتِ النارُ مضرمةً فيه طوال الليل.

ثمة طاولةٌ وُضِعت عليها أنواع من الحلوى، وأخرى عُرضت عليها أنواعٌ من السلطات.

سألتُ حين كنا نستعرضُ الناس المحتشدين في حفل عشاء مارثا ستيوارت الريفي: "ألا يتعين علينا أن نحضر طبقاً؟".

سحبت كاتي كيساً من أكياس فيغ نيوتن من حقيبتها ووضعته على طاولة الحلوى. قلَّبتُ عينيَّ قليلاً ناظرةً إلى اتجاه بعد آخر على نحو متواصل.

عندما عدتُ وكاتي إلى مقعدينا، كان عازف البانجو يؤدي معزوفة روكي توب "Rocky Top". إنه ليس بيت سيغر، لكنه ليس سيئاً.

على مدى الساعتين اللاحقتين، توقفت مجموعة من المتنزهين قربنا للدردشة. كان الوضع أشبه ما يكون بيوم أداء وظيفة في مدرسة إعدادية: محامون، وطيارون، وميكانيكيون، وقضاة، ومهووسون بالحاسوب، وطالبة سابقة، وهي صاحبة منزل حالياً. لقد أصابني الذهول من كثرة العاملين في سلك الشرطة الحاضرين الذين أعرفهم في الحفل.

جاء أفراد عدة من أسرة ماك كراني للترحيب بنا، والإعراب عن شكرهم لحضورنا.

جاء أيضاً بالمر كُرنز وذهب.

علمتُ أن بالمر كان قد أعدَّ لعقد لقاء مع ليجا، أعز صديقات كاتي منذ أن كانتا تلميذتين في الصف الرابع. وعلمتُ أن ليجا حصلت على درجة البكالوريوس في علم الاجتماع بعد أن تخرَّجت من جامعة جورجيا، وأنها تعمل حالياً مساعدة طبيب في شارلوت.

أهم من ذلك كله، معرفتي أن بالمر كان عازباً ويبلغ من العمر سبعةً وعشرين عاماً، قد تخرَّج من جامعة ويك فورست بعد أن درس علم الأحياء وتخصص به، وهو موظف حالياً في المكتب الميداني لمركز الحياة البرية والأسماك التابع للولايات المتحدة، ومقره في كولومبيا، كارولينا الجنوبية. وقد أصبح أحد زبائن ماك كراني عندما عاد إلى منزله في شارلوت. والجزء المفقود يتعلق بسبب أكلي اللحم بشهية في هذا الوقت.

تناوب بويد بين النوم عند أقدامنا وبين الدوران حول جموع مختلفة من الصغار، وإثارة الحشد، وربط نفسه بأي شخص يظن أن ملامسته أسهل منالاً. كان بويد غافياً عندما اندفعت نحوه مجموعةٌ من الصغار يلتمسون صحبته.

فتح بويد عيناً واحدةً، وأعاد وضع رأسه على قائمتيه. ثمة فتاةٌ تبلغ من العمر عشر سنوات تقريباً كانت تطرح على كتفيها معطفاً أرجواني اللون، وتتهادى في مشيتها وهي تأكل فطيرة رقيقة مصنوعة من دقيق الذرة، وفي هذه الأثناء، كان بويد قد ذهب بعيداً.

وعندما رأيتهم قرب الإسطبل، تذكرت كلمات كاتي عبر الهاتف عن رغبة بويد في الانخراط في محادثة.

"ما الأمر الذي يرغب بويد في مناقشته؟".

"أوه، نعم. أبي مشغول في محاكمة منعقدة في أشفيل، لذلك أنا أعتني ببويد. يعتقد أبي أنه سيمكث في أشفيل ثلاثة أسابيع أخرى. لكن... حسناً، أعتقد أنني سأقصد ضاحية البلدة حيث أمضي بقية فصل الصيف هناك".

"ضاحية البلدة؟".

"مع ليجا. لديها بيت ريفي رائع حقاً في منطقة ثورد ورد، ولن تعود شريكتها في السكن إلى البيت قبل أيلول/ سبتمبر. وأبي قد ذهب على أي حال... كما أعتقد أنه لأمر مُسلٍّ أن أمضي، كما تعلمين، هناك أسابيع قليلةً. إنها لن تطلب مني دفع بدل إيجار، أو أي شيء".

"فقط إلى أن تفتح الكلية أبوابها".

كانت كاتي في سنتها السادسة والأخيرة لمرحلة ما قبل التخرج من جامعة فرجينيا.

"طبعاً".

"أنت لا تفكرين في التسرب".

كأس العالم في تقليب العيون.

"هل الذين يكتبون السيناريوهات لك ولأبي هم الكُتَّابُ أنفسهم؟".

استطعتُ أن أرى الوجهة التي كانت المناقشة تقصدها.

"دعيني أخَمِّن. تريدين مني أن آخذ بويد".

"فقط إلى أن يعود أبي".

"سأغادر إلى الشاطئ يوم الاثنين".

"أنتِ ذاهبة إلى منزل آن في جزيرة سوليفان. أليس كذلك؟".

"نعم". حَذِرَةٌ.

"بويد يحب الشاطئ".

"بويد يحب الأوشفيتز إن هم أطعموه".

"لن تمانع آن إن أخذتِه معك. وسيكون بصحبتكِ، وبذلك لن تكوني وحيدةً".

"أليس بويد محلّ ترحيب في البيت الريفي؟".
"لا يتعلق الأمر في أنه ليس محلّ ترحيب. مالك بيت ليجا...".
سمعتُ نباحَ بويد المحموم يسعى إليّ من مكان بعيد في الغابة.
امتزج النباح بعد بضع ثوان، بصرخة هستيرية تجمد الدماء في العروق.
وتبعتها أخرى.



نهضتُ عن كرسيّي، وشعرتُ بقلبي يرتطمُ بصدري.

بدا المتنزهون من حولي كأنهم يظهرون عبر شاشة عرض مجزأة. أولئك الذين كانوا إلى جانب المنزل متحلقين حول الفرقة الموسيقية الرباعية تابعوا احتشادهم ودردشاتهم وتناول الطعام، غافلين عن مصيبة قد يتكشف عنها ما جرى في الغابة.

وأولئك الذين كانوا قرب الإسطبل شكلوا لوحةً مجمدةً، وأفواههم مفتوحة، واستدارت رؤوسهم نحو الجهة التي صدرت منها الأصوات الرهيبة.

انطلقتُ بأقصى سرعة نحو مصدر الصراخ أشق طريقي على نحو متلوٍّ بين الكراسي العشبية والبطانيات والناس، واستطعت أن أسمع كاتي وآخرين كانوا يتبعونني على الأثر.

لم يؤذِ بويد أحداً قط، ولم يهرَّ (يُصوّت من دون نباح) كثيراً مستهدفاً شخصاً بعينه. لكنه كان سريع الاهتياج. ثمة أمرٌ أثاره. هل أغاظه ولد أو شوش عليه؟ هل انقض الكلب فجأةً؟

لطفك يا الله!

استعرض عقلي بسرعة صوراً لضحايا الضرب واستخدام القسوة. فقد رأيتُ جروحاً بليغةً، وفرواتِ رؤوس بشر مسلوخةً سلخاً بليغاً. لقد دبَّ الخوف فيَّ.

وبينما كنتُ أنعطف حول حظيرة الأحصنة، رصدت ثغرةً بين الأشجار فغيرت اتجاهي ومررت عبر مجرى وحلٍ ضيق. أخذت أوراق الأشجار وأغصانها تتشبث بشعري وتشده شداً عنيفاً وتخدش ذراعيَّ وساقيَّ.

ازدادت الصرخات حدةً. اختفت الفواصل الزمنية بين الصمت والصرخات، وتعاظمت حدة الصوت معرباً عن مزيج من الخوف والذعر.

تابعت الجري.

فجأةً، توقف الصراخ. كان انعدام الصوت أكثر إثارة للقشعريرة في الجسد من الصرخات.

استمر نباح بويد مسعوراً ومهتاجاً وقوياً، وتصبب العرق بارداً من وجهي.

بعد لحظات عدة، رصدتُ ثلاثة أولاد جاثمين على الأرض خلف سياج ضخم من الأشجار. تمكنتُ من رؤية الفتاتين عبر فتحة بين أوراق الأشجار، وقد تشبثت كلٌّ منهما بالأخرى. أما الصبي فقد وضع يده على كتف إحداهما.

كان الصبي والفتاة الأصغر سناً يحدقان إلى تعابير بويد التي تنم عن ذهوله، وقد شوَّه النفور معالم وجهيهما. أما الفتاة ذات المعطف الأرجواني فكانت قد أغمضت عينيها، وأطبقت قبضتي يديها على جفنيها إطباقاً محكماً، في حين كان صدرها يجيش من حين إلى آخر جيشاناً غير إرادي.

كان بويد معهم عند جانب سياج الأشجار البعيد، يندفع إلى الأمام ثم يتراجع إلى الخلف، محاولاً التقاط شيء من تحت التراب. كان يوجه، كل لحظات عدة، خطمه نحو السماء وينبح بعناد مراتٍ عديدةً. أسهم فرو ظهر بويد في جعله يبدو ذئباً أصحر (أسمر محمراً).

اندفعت عبر فجوة السياج وقلت لاهثة: "هل أنتم بخير يا أولاد؟".

أجابوا بالإيجاب عبر ثلاث إيماءات رزينة برؤوسهم.

كانت كاتي وبالمر وأحد أبناء ماك كراني منطلقين خلفي بأقصى سرعة.

قالت كاتي وهي تلهث: "هل أصيب أحد بأذىً؟".

ثلاث هزات رأس وتنهيدة صغيرة.

أسرعت الفتاة ذات المعطف الأرجواني نحو ماك كراني وطوقت خصره بذراعيها، وانهارت فسقطت على الأرض أمامه. وشرع يمسِّد الجزء المحصور بين ضفيرتي شعرها.

"كلُّ شيء على ما يرام سارة. أنتِ بخير".

نظر ماك كراني إلينا قائلاً: "ابنتي عصبيةُ المزاج وحساسةٌ أكثر مما ينبغي نوعا ما".

حوَّلتُ انتباهي إلى الكلب، وأدركتُ من فوري ما كان يحدث.

"بويد!".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

دار بويد في مكانه بسـرعة. عندما رآني وكاتي اندفع نحونا، ومسَّ يدي، ثم تراجع متجهاً نحو السياج، وعاد إلى الانهماك في ما كان عليه.

صرختُ في وجهه قائلةً: "توقف!"، ثم انحنيتُ للتخفيف من حدة ألم وخزةٍ في فخذي.

حـرّك بويـد الشـعر الطويـل الذي يقـوم مقام الحاجبين فـوق عينيه، عندما لم يقتنع بحكمـة الأمـر الـذي وجهتُهُ إليه. إنها طريقتُهُ المعتادة عندما يريد أن يسـأل: "هل أنتِ مجنونة؟".

استدار بويد وفعل ذلك الآن.

"بويد اجلس!".

استدار بويد واستأنفَ النباح.

عانقت سارة ماك كراني - والدَها - وتشبثت به، في حين كان رفيقاها ينظران إليَّ بعيون شاخصة.

أعدتُ إصدار أمري.

لوى بويد رأسه وحرك حاجب عينه بطريقته المعتادة، هذه المرة أشعرني بأنه يرغب في أن يقول لي: هل أنتِ معتوهة سافلة؟

قلـتُ لـه، وأنـا لا أزال أضـعُ يـدي اليسرى على فخذي، وأوجه سبابة يدي اليمنى نحو خطمه: "بويد!".

أمالَ بويد رأسه، وزفرَ من خطمه، وجلس.

كانت كاتي تلهث بقدر ما كنتُ ألهث، وقالت: "ماذا دهاه؟".

"مـن المحتمـل أن يكـون الأحمـق قـد اعتقـد أنـه اكتشـف مسـتوطنة رونوك المفقودة".

اسـتدار بويـد نحو السـياج، وسـوّى أذنيـه، وتنفَّس عميقاً وطويـلاً من أعماق صدره.

"ماذا؟".

متجاهلـةً سـؤال ابنتـي، سـرتُ بحذر واحـتراس عبر جذور النبـات والنباتات الكثيفة المتشابكة. عندما اقتربتُ أكثر، نهض بويد، ووقف، ونظر إليَّ مترقباً.

"اجلس".

جلس بويد.

جثوت على ركبتيّ إلى جانبه.

قفز بويد، وتصلب ذيله، وأخذ يرتجف.

كان ما عثر عليه بويد أكبر بكثير مما توقعت. كان آخر ما اكتشفه سنجاباً ميتاً، من المحتمل أن يكون قد مات منذ يومين أو ثلاثة أيام.

نظرتُ إلى الكلب، وقد ردَّ على نظرتي بمثلها. إن اتساع رقعة البياض في كل عين من عينيه مؤشرٌ على اهتياجه.

لدى إعادتي التركيز على الكومة الموجودة عند قدميَّ، بدأتُ أشاركه بواعث قلقه. التقطت عصا وأقحمتُها في مركز الكومة. ظهر كيس، ثم انبعثت من بين أوراق الشجر رائحة تشبه رائحة لحم متعفن. طنَّ ذباب واندفع بصورة مفاجئة؛ أجسام متقزحة اللون في الهواء اللزج.

بويد، الكلب الذي علّم نفسه بنفسه اكتشاف الجيف، يندفع مجدداً.

"اللعنة".

"ماذا؟".

سمعتُ صوت حفيف حين كانت كاتي تشق طريقها متجهة نحو الكلب ونحوي.

جثت ابنتي إلى جانبي، وقالت: "ما الذي عثر عليه؟"، ثم بدأت تثب في مكانها كأنما شُدَّ وثاقها بحبل. ارتفعت إحدى يديها بسرعة نحو فمها، ورقص بويد حول ساقيها.

"ما هذا بحق الله؟".

انضم بالمر إلينا.

"مخلوق ميت".

بعد معاينة المخلوق معاينةً تنم على براعة، ضغط على أنفه مستخدماً إبهامه وسبابته لهذا الغرض، وقال: "أهو إنسان؟".

أشرتُ إلى أصابع يكسوها اللحم جزئياً ناتئة من فتحة أحدثها بويد في الكيس، وقلت:

"لستُ واثقة، لكن هذا، بالتأكيد، ليس كلباً أو أيلاً".

قدرتُ أبعاد الكيس المدفون نصفه، وقلت: "أليس ثمة حيوانات كثيرة أخرى لها حجم كهذا؟".

أزحتُ الأوساخ وأوراق الشجر، وتفحصتُ التربة في الأسفل.

"ليس ثمَةَ دليلٌ يوحي بأن لهذا المخلوق فراءً".

تحرك بويد محاولاً الاشتمام، ولكنني رددتُه بمرفقي.

"أيها القذر. لسنا في نزهة".

ضربتُ بيدي على ما عثر عليه بويد، وقلت: "لم أخترِ العثور على هذا الذي وجدتُه هنا".

"هل أنتِ عازمة على إجراء كل ما يتعلق بالفحص الطبي؟".

"قـد لا يكـون هـذا شـيئاً. لكـن المصادفـة الخارجية جعلت منه شيئاً. ينبغي تجميع الجثة بطريقة ملائمة".

أنّت كاتي وتأوهت.

"انتبهي، إنني لا أرغب في هـذا الأمر بقدر ما تنفرين منه. من المفترض أن أغادر يوم الاثنين متجهةً إلى الشاطئ".

"إن هـذا الأمـر شـديد الإربـاك والإحراج. لماذا لا تستطيعين أن تكوني مثل الأمهات؟ لماذا لا تستطيعين فقط أن..."، نظرت إلي بالمر ثم نظرت إليَّ وتابعت: تخبزي الكعك؟".

رددتُ عليها بحدة حين كنتُ أنهض لأقف على قدميَّ: "أُفضِّل فيغ نيوتن".

قلتُ لوالد سارة: "قد يكون من الأفضل أن تُرجع الأولاد إلى الخلف".

صاح الصبي قائلاً: "لا، إنه رجلٌ ميتٌ، أليس كذلك؟ إننا نرغبُ في رؤيتكِ تحفرين لانتشال جثة الميت".كان وجهه متورداً يتصبب عرقاً. وقال مضيفاً: "نريد أن نعرفَ جثة من هذه التي عثرتِ عليها بالمصادفة".

قالتِ الفتاةُ الأحدث سناً، وقد بدت بمئزرها القطني الوردي شبيهةً بشيرلي تمبل: "نعم، نرغب في رؤية جثة الميت التي عثرتِ عليها بالمصادفة!".

اخترتُ، وأنا ألعن في قرارة نفسـي برامج الجريمة التي تُعرضُ عبر الشاشـة الصغيرة، كلماتي بعناية: "سيكون مفيداً جداً لهذه القضية أن تستجمعا أفكاركما، وأن تتحدثـا عـن ملحوظتيكمـا، وأن تدليـا، مـن ثَـمَّ، ببيانٍ. هل في وسـعكما فعل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ذلك؟".

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر نظرةً تنم على أن الفكرة قد راقت لهما، وقال شيرلي تمبل: "نعم، ستُدلي ببيانات ممتازة".

وصلت عربةُ مسرح الجريمة عند الساعة الرابعة، في حين وصل جو هوكينز، المحقق الطبي في أسباب الوفيات التابع لمقاطعة مكلنبورغ، الذي استدعي حين كان يمضي إجازة عطلة نهاية الأسبوع، بعد دقائق قليلة. في ذلك الوقت، كان معظم ضيوف ماك كراني قد لفوا بطانياتهم وطووا كراسيهم وغادروا؛ وكذلك فعل كلٌّ من كاتي، وبالمر، وبويد.

كان موقع اكتشاف بويد خلف السياج، الذي يفصل أرض ماك كراني عن المزرعة المجاورة. وفقاً لما قاله والد سارة، لا يوجد أحد في المنزل المجاور الذي تعود ملكيته لشخص يدعى فوت. تحققنا بسرعة من عدم وجود أحد في المكان، لذلك أدخلنا تجهيزاتنا عبر الطريق الخاصة التي تمتد من الطريق العامة إلى المبنى، وعبر فناء المنزل.

شرحت الموقف لهوكينز، في حين كان اثنان من فنيّي مسرح الجريمة يفرغان العربة من الكاميرات، والمعاول، والشاشات، وغيرها من المعدات التي نحتاج إليها لمعالجة الوضع.

قلتُ، مدركةً الإزعاجَ الناجم عن استدعائي الناسَ في يوم عطلتهم: "قد تكون جيفة حيوان".

قال هوكينز وهو يسحب من عربة النقل المغلقة الخاصة به كيساً مُعَداً لتغليف الجثة: "أو قد تكون زوجةَ رجلٍ ما ضُربت بفأس في رأسها. ليس من شأننا الظن والتخمين من دون أن تتوافر لنا معلومات كافية".

ما انفك جو هوكينز ينقل في عربة مغلقة جثثاً منذ أن تزوج ديماجيو بمونرو عام 1954، وكان قد أوشك أن يبلغ سِنَّ التقاعد الإلزامي. وفي وسعه أن يروي بعض القصص. كانت أعمال تشريح الجثث تجري في طابق السجن السفلي في ذلك الحين، في غرفة مجهزة بتجهيزات بسيطة خلافاً لطاولة ومصرف مياه.

عندما أصلحت كارولينا الشمالية نظامها المتعلق بالتحقيق في قضايا الموت في الثمانينيات، ونقلت وحدة الفحص الطبي التابعة لمقاطعة مكلنبورغ إلى موقعها

الحالي، أخذ هوكينز معه تذكاراً واحداً فقط: صورة ممهورة بإمضاء لجولتين جو. لا تزال الصورة موضوعةً فوق المكتب في حُجَيرته.

"لكن إذا وجدنا أنفسنا في مواجهة الاحتمال السيء، فأنتِ من سيتصل هاتفياً بدوك لارابي. اتفقنا؟".

قلتُ: "اتفقنا".

صفق هوكينز الأبواب المزدوجة لعربة النقل المغلقة صفقاً. لم يكن في وسعي أن أتجنب التفكير في الكيفية التي شكّل العملُ بموجبها ملامحَ وجه الرجل، ومظهره الخارجي. بدا أشبه ما يكون بجثة نحيلة، وثمةَ هلالات سوداء تحت عينيه المنتفختين، وله حاجبان كثيفان، وشعر مصبوغ بلون أسود ومرسل سبطاً من مقدم رأسه إلى الخلف. بدا هوكينز محققاً في قضايا الموت من هيئة التمثيل المركزية.

سألت امرأةٌ في العقد الثاني من عمرها من الفريق التقني، ذاتُ بشرةٍ مبقعة، وتضعُ نظارة كتلك التي تستخدمها الجدات المُسنّات: "أتعتقدين أننا سنحتاجُ إلى أضواء؟ دعونا نرى كيف ستسير الأمور".

"هل كلُّ شيء جاهز؟".

نظرتُ إلى هوكينز، فأومأ بالإيجاب.

قالتِ السيدةُ التي تضع نظارة: "لنبدأ بالعمل".

قدتُ فريق العمل إلى الغابة، وعلى مدى الساعتين اللاحقتين، قمنا بأعمال التصوير وإزالة المواد والتغليف وكتابة بطاقة وإلصاقها على كيس التغليف وفقاً للبروتوكول المتبع في وحدة الفحص الطبي.

لم تتزحزح ورقة نبات واحدة، والتصق شعري برقبتي وجبهتي، وغدت ملابسي داخل زي الأطباء، الذي أحضره لي هوكينز، مشبعةً بالرطوبة. كان البعوض يقتاتُ على كلِّ ملليمتر من اللحم المكشوف.

عند الساعة الخامسة، كوّنا فكرةً جيدةً جداً عمَّا كنا نواجهه.

ثمةَ كيسُ قمامة أسود اللون كبير الحجم موضوع في قبر ضحل، ومغطىّ بطبقة من التراب وأوراق الشجر. كان على مقربة من سطح الأرض. نالتِ الريحُ والتآكل نصيبهما من الكيس بأن مزقا إحدى زواياه، وعريا ما بداخله. وأنجز بويد

ما تبقى.

اكتشفنا وجودَ كيس ثانٍ تحتَ الكيس الأول. وعلى الرغم من أننا أبقينا كلا الكيسين مغلقين، باستثناء بعض التمزقات والثقوب التي تركناها أيضاً على حالها، فإن الرائحة المنبعثة من الكيسين ما كان الشم ليخطئها؛ إنها رائحةٌ نتنة لجسد متحلل.

حقيقةُ أن الجثث بدت محصورةً في الكيسين اللذين غلفت فيهما سرَّعت وتيرةَ معالجتنا للموضوع. وعند الساعة السادسة، كنا قد نقلنا الكيسين، وغلّفناهما بكيسين معدّين لتغليف الجثث، ووضعناهما في عربة الفحص الطبي.

انطلق هوكينز متوجهاً إلى المشرحة، بعد تلقيه تأكيداتٍ بأنني والمرأة التي تضع نظارة وشريكها على ما يرام.

وبعد ساعة من الفحص والتدقيق، تبيَّن أنه لا يوجد شيء في التراب الذي كان يحيط بموقع الكيسين وذاك الذي كان تحتهما.

وعند الساعة السابعة والنصف، أقلّتنا عربةٌ متجهة بنا نحو البلدة.

وعند الساعة التاسعة، كنتُ أغتسل مستخدمةً الدُّش، ومنهكةَ القوى، ومحبطةً، ومتمنيةً لو أنني كنتُ قد اخترتُ مهنةً أخرى.

فقط عندما ظننتُ أنني كنتُ ألحق بالركب، دخل حياتي شخصان كبيرا الحجم وثقيلا الوزن، وكلب يزن سبعين رطلاً.

صببتُ شامبو على رأسي للمرة الثالثة، وفكرت في اليوم اللاحق وفي زائري. هل أستطيع تسليم الحقائب قبل لقائه في مكان استلام الأمتعة وحقائب السفر؟

تخيلتُ وجهاً، فانقلبت معدتي قليلاً.

هل كانت هذه المواعدات الصغيرة فكرة جيدة؟ لم أرَ الرجلَ مذ كنا نعمل معاً في غواتيمالا. في ذلك الوقت، كانت الإجازة خطةً جيدةً. فقد كنا كلانا خاضعين لضغط هائل: المكان، والظروف المحيطة، والتعامل مع كمٍّ كبيرٍ جداً من الموت.

صببتُ الماء على شعري وغسلته.

الإجازة التي لم تتحقق قط. فقد تم الأمر. وكنا في طريقنا. وقبل أن نصل إلى مطار لا أورورا الدولي، رنَّ جهاز النداء (البيجر) الخاص به. تنحّى جانباً، معرباً عن أسفه، لكنه مطيع لنداء الواجب.

تصورتُ وجه كاتي في النزهة اليوم، وفي ما بعد في المكان الذي اكتشفه بويد. هل كانت ابنتي جادةً في ما يتعلق بالمر كُزنز الأسر الساحر؟

هل كانت تفكر في التسرب من الكلية لتبقى قريبةً منه؟ أم لأسباب أخرى؟

ما الأمر الذي كان يزعجني من بالمر كُزنز؟ هل كان الصبي كما تحب أن تدعوه كاتي مجرد شابٍّ وسيم جداً؟ هل غدا عقلي ضيق الأفق إلى الحدِّ الذي يجعلني أشرع في الحكم على الشخصية عبر المظهر؟

بصرف النظر عن كُزنز، لقد غدت راشدةً الآن، وستقوم بما يحلو لها؛ فلا سلطان لي على حياتها.

كسوتُ جسمي بسائل استحمام مكوّن من خلاصة اللوز والنعناع، وفركته وعدتُ إلى القلق بشأن الكيسين اللذين اكتشفهما بويد.

مع قليل من الحظ، يمكن أن تكون محتويات الكيسين عظام حيوان. لكن ماذا لو لم تكن الأمور على هذه الحال؟ ماذا لو لم تكن نظرية الفأس التي تحدَّث عنها جو هوكينز فكاهةً؟

غدا الماء فاتراً ثم بارداً بسرعة البرق، وأنا مستغرقة في التفكير. قفزت من تحت الدُّش. ولففتُ منشفةً حولَ جذعي وأخرى حول شعري، وتوجهتُ إلى السرير لأنام.

قلتُ لنفسي:

ستكون الأمور على ما يرام.

خطأ.

كانت الأمور تمضي إلى الأسوأ قبل أن تزداد سوءاً.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

5

صباح الأحد عند الساعة 7:37، كانت درجة الحرارة 74 فهرنهايت، ونسبة الرطوبة 81%، كنا على وشك تسجيل رقم قياسي جديد؛ على مدى سبعة عشر يوماً متواصلة، اخترق الرقم حاجز التسعين درجة.

لدى دخولي إلى الدهليز الصغير لمبنى الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ، استخدمت بطاقتي الأمنية، واجتزتُ مكتب موقع القيادة الذي تشغله السيدة فلورز. حتى غيابها كان جليلاً ومهيباً؛ كانت كلُّ الأشياء ورزمة الأوراق الملونة التي تدون عليها ملحوظات موضوعةً على الطاولة حيث تكون متساوية البعد بعضها عن بعض. كانت أكداس الأوراق منتظمةً عند أطرافها، لا أقلام، لا مشابك ورق، لا فوضى، كانت هناك صورة شخصية واحدة، كلب صغير مسترخي الأذنين.

كانت السيدة فلورز تغربل الزائرين من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة، عبر نافذة زجاجية تعتلي طاولتها، فتسمح لبعضهم بالدخول عبر الباب الداخلي في حين تردّ آخرين. وتطبع التقارير أيضاً وتنظم الوثائق، وتحتفظ بكل قصاصة ورق مهما تضاءل حجمها وشأنها، وتصنفها في ملفات ذات لون أسود، وتضعها ضمن خزائن موضوعة في أحد جوانب الغرفة.

انعطفتُ يميناً وسرتُ بمحاذاة المقصورات التي يستخدمها المحققون في قضايا الموت، وتفحصتُ اللوحة المثبتة على الجدار الخلفي التي يدرج عليها بقلم أسود من نوع ماجيك القضايا وأرقامها يومياً.

كان ما عثر عليه بويد مثبتاً عليها. الفحص الطبي لمقاطعة مكلنبورغ 437-2... كان المكان كما توقعت تماماً، مهجوراً وهادئاً هدوءاً يبعث على الخوف.

ما لم أكن أتوقعه هو كوب القهوة الساخنة الموضوع على طاولة المطبخ الصغير. فكرتُ في نفسي: ثمةَ قوةٌ تساعدني، أو جو هوكينز الرؤوف.

ظهر المراقب السري حين كنتُ أفتح باب مكتبي، فقلتُ له وأنا أرفع كوبي بيدي: "أنتَ صالح".

"أعتقد أنه يحتمل أن تكوني موجودة هنا منذ وقت باكر".

في أثناء عملية استخراج الكيسين، كنتُ قد أخبرتُ هوكينز عن خططي المتعلقة بالهروب إلى الشاطئ يوم الاثنين.

"أترغب في الحصول على غنيمة يوم أمس؟".

"من فضلك. والبولارويد والنيكون".

"وهل تريد صور الأشعة السينية؟".

"نعم".

"الرئيسة أم النتنة السيئة جداً؟".

"أفضّل أن أرتبها من جديد".

يوجد في منشأة الفحص الطبي الخاصة بمقاطعة مكلنبورغ غرفتا تشريح، في كلٍّ منهما طاولةٌ واحدة. وتتوافر في الغرفة الأصغر حجماً تهويةٌ خاصة لمكافحة الروائح الكريهة.

أنا متخصصة بقضايا الجثث المتحللة ومجهولة الهوية.

سحبتُ نموذجاً من الرفوف الصغيرة المثبتة خلف مكتبي، ودوَّنتُ عليه رقم القضية، وكتبتُ وصفاً موجزاً للرفات والظروف المحيطة بوصولها إلى المشرحة. ثم ذهبتُ إلى غرفة تبديل الملابس، حيث ارتديت ثوبَ الأطباء، وعبرت إلى الغرفة ذات الرائحة النتنة.

كان الكيسان ينتظران، وكذلك كانت الكاميرات والعناصر اللازمة التي تعينني في أداء عملي وتنظيمه: مئزرٌ ورقي واقٍ، ونظارة بلاستيكية واقية، وقناعٌ، وقفازاتٌ لاتكس.

التقطتُ صوراً عدة، ونسخاً إضافية باستخدام كاميرا بولارويد، وطلبتُ من هوكينز أن يصور كلا الكيسين باستخدام الأشعة السينية. لم أكن أرغب في حدوث أي مفاجآت.

بعد عشرين دقيقة، سحب هوكينز الكيسين إلى الوراء باستخدام عربة، ثم أحضر ست صور أشعة سينية. درسنا الخليط الذي راوح لونه بين الرمادي القاتم والرمادي الأكثر قتامةً.

عظامٌ مختلطةٌ مع رواسبَ ممزوجةٍ بحصى. لا وجود لمادة كثيفة غير مُنفذَةٍ للأشعة.

قال هوكينز: لا يوجد معدن".

قلتُ: "هذا أمر جيد".

قال هوكينز: "لا يوجد أسنان".

قلتُ: "هذا أمر سيئ".

"لا يوجد جمجمة".

"لا"، وافقتُه.

بعد ارتدائي معدات الحماية، ووضع النظارة الواقية، فتحتُ ربطة الكيس الأوّل، وأفرغتُ محتوياته على الطاولة.

"مقدار كبير رهيب. إنه يبدو مقداراً كبيراً فعلاً".

بلغ مجموعه ثماني أيدٍ وأقدام مكسوة جزئياً باللحم، وجميعها مقطعة. وضعتها في حوض بلاستيكي، وطلبتُ تصويرها باستخدام الأشعة السينية. حملها هوكينز، وهو يهز رأسه ويكرر تعليقه: "مقدارٌ كبير رهيب".

نشرتُ ببطء ما تبقى من عظام على أفضل وجه تمكنتُ منه. بعضها كان خالياً من النسيج اللين، في حين كان بعضها الآخر منعقداً مع الجلد والأوتار والعضلات، وكان يحتفظ بعضُها الآخر بشيء من اللحم الآخذ في التحلل.

في وقت متأخر من العصر الميوسيني (الدهر الحديث الأوسط)، أي منذ سبعة ملايين سنة تقريباً، بدأت الرئيسات بتجريب الوقوف والجلوس متخذةً وِضعة الاستقامة.

اقتضى التحول الحركي شيئاً من التصفيح التشريحي، لكن معظم الالتواءات سُوِّيت في عهود قليلة.

كان للحركة باستخدام قائمتين بدلاً من أربع جانبٌ سلبي، طبعاً: آلامٌ أسفل

الظهر، وصعوبة في الولادة، وخسارة قدرة إصبع القدم الكبيرة على الإمساك. لكن، مع أخذ كل الأمور في الحسبان، أبلى التعديل الذي تمثَّل باتخاذ وضعية الاستقامة بلاءً حسناً. ومع حلول العصر الذي كان يطوف فيه متنصبو القامات من بني البشر في الأماكن التي كانوا يصلون إليها بحثاً عن المواميث (الفيلة الضخمة المنقرضة)، قبل نحو مليون سنة، كان لأسلافنا أعمدةٌ فقرية على شكل حرف s، وأحواضٌ عريضة وقصيرة، ورؤوسٌ متموضعة فوق قمم أعناقهم مباشرةً.

لا تحاكي العظام التي كنت أشاهدها ذاك النمط. كانت عظام الورك ضيقةً ومستقيمةً والفقرات مكتنزة، ولها ناميات شوكية انقضاضية، وطويلة. وكانت عظام أطرافها قصيرة وسميكة، ومتشكلة بطريقة غير معهودة عند بني البشر.

تنفستُ الصعداء.

كانت كل الضحايا الموجودة في الكيس من النوع الذي يدبُّ على أربع. غالباً ما يتبين أخيراً أن العظام التي تعرض عليَّ بوصفها "عظاماً مشكوكاً فيها" تعود لحيوانات. بعضها بقايا عشاء يوم أحد: عجل، وخروف، وديك رومي. وبعضها الآخر مخلفات صيد عام منصرم: غزال وموظ (حيوان مجتر ضخم من الأيائل). وبعضها من بقايا حيوانات المزارع والحيوانات الأليفة: فيليكس، روفر، بيسي، أولد بنت.

ما عثر عليه بويد لا يندرج في أي من تلك المجموعات؛ لكن، كان لديّ حسٌّ باطني قوي.

بدأتُ عملية فرز: عظامُ عضد يمنى، عظامُ عضد يسرى، عظامُ ساق طويلة يمنى، عظامُ ساق طويلة يسرى، أضلاع فقرات. كنتُ قد شارفتُ على الانتهاء من العمل الذي أقوم به تقريباً عندما وصل هوكينز حاملاً معه صور الأشعة.

نظرةٌ واحدةٌ أكدت ما اشتبهتُ فيه.

على الرغم من أن "الأيدي" و"الأقدام" بدت أيادي وأقداماً لمخلوقات إنسانية بصورة صارخة، إلا أن الاختلافات الهيكلية كانت واضحة. عظام الرسغ زورقانية الشكل (نسبةً إلى زورق)، والعظام هلالية الشكل في الأيدي.

نهايات منحوتة بعمق في سلاميات الأقدام وأمشاطها. وطول الإصبع متزايد من الداخل نحو الخارج.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أشرتُ إلى السمة الأخيرة.

في قدم الإنسان، العظم الوَظِفي الثاني هو الأطول. وفي يد الإنسان، العظم السنعي (عظم مشط اليد) الثاني أو الثالث هو الأطول. أما عند الدببة، فالعظم الرابع هو الأطول في كلا الموضعين.

"وعليه، فإنها تبدو على عكس ما هي الحال عليه عند المخلوق".

أشرتُ إلى وثراتِ الأنسجة اللينة في بواطن الأقدام. لو كانت قدم إنسان لكانت أكثر تقوساً".

"إذاً ما هي يا دكتورة؟".

"دب".

"دب؟".

"دببة، أود أن أقول. حصلت على ثلاثة عظام فخذ يسرى على الأقل. هذا يعني أنها ثلاثة دببة في الحد الأدنى".

"لا مخالب، ولا سلاميات عند نهايات العظام، ولا فراء. هذا يعني أن فراء الدببة قد سلخ عنها.

تأمل هوكينز ملياً في هذه الفكرة برهةً من وقت.

"وماذا عن الرؤوس؟".

"تخمينكَ جيد بقدر تخميني".

أغلقتُ الصندوق وعدتُ إلى طاولة التشريح.

سأل هوكينز: "هل صيد الدببة مسموح به بموجب قوانين هذه الولاية؟".

"تخمينكَ جيد بقدر تخميني".

استغرق فرز محتويات الكيس الأول، وجردها وتصويرها ساعتين.

الخلاصة: الكيس الأول يحتوي على بقايا مجزأة لثلاثة دببة أميركية سوداء. التحقق من النوع باستخدام نظرية علم العظام عند غيلبر، وبقايا الحيوانات الثديية عند أولسن، تبيّن أن العظام تعود لدببين بالغين، ودبٍّ واحدٍ حديث الولادة. لا يوجد رؤوس، أو مخالب، أو أثر لسلاميات بعيدة، أو أسنان، أو جلد خارجي. لا يوجد مؤشرات على سبب الموت. وتشير الدلائل إلى أن

سلخ الفراء جرى باستخدام سكين ثنائية الحد، ومن المحتمل أن تكون الفراء قد سلخت بسكين صيد.

أخذتُ استراحةً قصيرةً بين الكيسين للاتصال بمكتب الخطوط الجوية الأميركية؛ طبعاً كان إقلاع الطائرة في الوقت المحدد. فالخطوط الجوية تتعامل مع المسافر على أساس جزء من مليار جزء من الثانية عندما يتأخر في الحضور.

نظرت إلى ساعتي، وكانت تشير شارة ضبط الوقت إلى 11:20. ما لم ينطوِ الكيس الثاني على مفاجآت، فسيكون في وسعي أن أصل إلى المطار في الوقت المحدد.

فتحتُ قارورة كوكا كولا دايت، وتناولت شوكولا كويكر بالجوز المحمص والكراميل، كنتُ قد وضعتها في خزانة المطبخ. وبينما كنت أمضغ، تفحّصتُ صورة المهاجر كويكر الملصقة على العلبة. ابتسم لي ابتسامةً لطيفةً. ما الأمر الذي يمكن أن يكون قد سار سيراً مغلوطاً؟

في طريق عودتي إلى غرفة التشريح ألقيتُ نظرة أخرى على صور الأشعة السينية الخاصة بالكيس الثاني. لم أرَ ما يثير الاشتباه، حللتُ عقدة الكيس وأفرغته من محتواه.

مزيجٌ من العظام حَسائيُّ القوام، ورُسابَةٌ ولحمٌ متحللٌ مترسّبٌ وملتصقٌ بالفولاذ المقاوم للصدأ. ورائحةٌ كريهة تملأ الجو.

بينما كنت أعدل وضعية قناعي بدأتُ أحرّك المزيج.

مزيدٌ من الدببة.

رفعتُ عظماً طويلاً أصغر حجماً، كان واضحاً أنه ليس لدب. شعرتُ أن وزنه خفيف في يدي. ولاحظت أن غلاف العظم الخارجي كان رقيقاً. تجويف نِقيّ العظم كان كبيراً على نحو غير متناسب.

طير.

بدأت عملية فرز.

دب.

طير.

مضى وقت. بدأت كتفاي تؤلمانني.

سمعتُ صوت رنين هاتف. ثلاث رنات، ثم ساد صمت. إما أن يكون هوكينز قد ردَّ على الهاتف أو أن يكون قسم الهاتف قد فعل ذلك.

عندما كنتُ أفرز فرزاً تصنيفياً، بدأتُ أجرد عظام دب جديد. مرة أخرى، لم أعثر على رؤوس، أو مخالب، أو جلد، أو فراء.

بعد مضي ساعة ارتفع عدد الدببة إلى ستة.

قلبتُ هذه الفكرة في ذهني: هل صيد الدببة السوداء مسموح به بموجب قوانين كارولينا الشمالية؟

عدد الدببة الذي بلغ ستة في هذا الكيس بدا لي كماً كبيراً. أيوجد ثمة حدود؟ هل هذه البقايا هي نتاج لعملية ذبح واحدة، أم أنها تراكمت نتيجةً لنزهات متعددة؟ تفاوتُ تحلل لحوم الدببة يؤكد تلك الفرضية.

لماذا جمعت بقايا الحيوانات من دون رؤوسها في أكياس قمامة ودفنت في الغابة؟ هل قُتِلتِ الدببةُ من أجل الحصول على جلودها؟ هل احتُفِظ برؤوسها بوصفها تذكارات صيد؟

هل يوجد موسمٌ لصيد الدببة؟ هل جرى صيدها في وقت يُسمَح الصيد فيه من الناحية القانونية؟ متى؟ من الصعب تحديد زمن موت هذه الحيوانات.

إلى مرًّ بويد بمكان وجودها، عملت مادةُ النايلون بوصفها حاجزاً واقياً مجدياً حال بين ما بداخلها وبين الحشرات والحيوانات التي تقتات بالجيف والتي تسرِّع عملية التحلل.

بينما كنتُ أعود مجدّداً إلى عظام الطير سعت إلى مسامعي أصواتُ أناسٍ يتبادلون الحديث في الدهليز. توقفتُ كي أصغي.

جو هوكينز. صوت ذَكَر. هوكينز مجدّداً.

رافعةً يديَّ المقفَّزَتَين في الهواء، دفعتُ البابَ بردفي واختلست نظرةً.

كان هوكينز وتيم لارابي منخرطين في محادثة خارج غرفة النسْجيَّات، وقد بدا الفاحص الطبي مهتاجاً.

كنتُ أتراجع عائدة إلى حيث كنتُ عندما رصدني لارابي.

"تمب، أنا سعيد برؤيتك. كنتُ أحاولُ الاتصالَ بكِ عبرَ هاتفكِ الخلوي".

كان مرتدياً بنطالَ جينز وقميصَ غولف مصنوعاً من نسيج خشـن ذا ياقة سـوداء مزركشة. كان شعره رطباً لدرجةٍ تخاله معها أنه قد خرج لتوه من الحمام.

"لا أجلبُ حقيبتي إلى غرفة التشريح".

نظر إلى ما ورائي حيث توجد الطاولة وقال: "هل هذه هي الأشياء التي كانت قرب كونز فورد؟".

"نعم".

"حيوان؟".

"نعم".

"جيد. أحتاج إلى مساعدتكِ في أمر آخر".

آه! لا.

"تلقيتُ مكالمةً هاتفية من قسم شرطة دافيدسون منذ ساعة تقريباً. لقد انفجرت طائرةٌ صغيرة نحو الساعة الواحدة".

"أين؟".

"إلى الشـرق من دافيدسـون، في المنطقة التي تتقاطع فيها مقاطعة مكلنبورغ مع كاباروس وإريديل".

"تيم، أنا جداً...".

"ارتطمت الطائرةُ بمنطقة صخرية ثم انفجرت".

"كم عدد المسافرين الذين كانوا على متنها؟".

"هذا غير واضح".

"أليس في وسع جو أن يساعدكَ في هذا الأمر؟".

"إذا كان الضحايـا محترقيـن ومقطعـي الأوصال، فإن الأمر يتطلب عيناً خبيرةً لفرز الأوصال وتحديدها".

لا يمكن أن يحصل هذا.

نظرتُ إلى ساعتي؛ كانت تشير شـارة ضبط الوقت إلى 2:40. هبوط الطائرة مقرر بعد تسعين دقيقة.

كان لارابي ينظر إليَّ عبر عينين مفعمتين بالحنان والعاطفة.

"يتعين عليّ أن أرتب الأمور، وأن أجري مكالمات هاتفية عدة".

تقدم لارابي نحوي وشدّ على ذراعي.

"أعرف أن في وسعي الاعتماد عليكِ".

ليعلم بذلك رجل الشرطة السرية ستد ببي. من الذي سيوقف سيارة أجرة في غضون ساعة ونصف وحيداً؟

أملت أن أصل إلى البيت قبل أن يغط في نوم عميق.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

6

عند الساعة الرابعة عصراً، كانت درجة الحرارة 97 طبقاً لمقياس فهرنهايت، وكانت الرطوبة قريبة من هذا الرقم. لقد ضربتِ الحرارةُ والرطوبةُ الرقمَ القياسي.

كان موقع تحطم الطائرة إلى الشمال من البلدة، ويبعد عنها مسافةً تستغرق السيارة ساعةً في قطعها، ويقع في أقصى الركن الشمالي من البلدة. خلافاً لقطاع بحيرة نورمان الممتد نحو الغرب، كان هذا الجزء من مكلنبورغ مزروعاً بالذرة وفول الصويا.

كان جو هوكينز ينتظرنا قرب سيارته اللاندروفر عندما لحقتُ به أنا ولارابي. وكان ضابط الشرطة السرية يدخن سيجاريلو متكئاً على مؤخر عربة النقل.

سألتُ وأنا أحمل حقيبة ظهري على كتفي: "أين هبطت؟".

أشار هوكينز بإيماءات جانبية مستخدماً سيجاره لهذه الغاية.

سألتُ وأنا أتصبب عرقاً: "كم تبعد؟".

"نحو مئتي ياردة".

بعد ذلك بوقت قصير جداً كانت مجموعتنا الصغيرة المؤلَّفة من ثلاثة أشخاص قد اجتازت ثلاثة حقول ذرة، وكان لارابي وهوكينز يحملان صندوق المعدات، في حين كنتُ أحمل حقيبتي. سرنا مجهدين نتنفس بصعوبة، وتستحكنا جلودنا، ونتصبب عرقاً.

على الرغم من أن عددهم كان أقل من المعتاد في مثل هذه الأحوال، فقد كان الجميع حاضرين: رجال شرطة، ورجال إطفاء، وصحفي، وسكان محليون يشاهدون الوقائع كما لو كانوا سياحاً على متن سفينة ذات طابقين.

كان شخص ما قد أحاط موقع حطام الطائرة بشريط يحيطون به عادةً مسرح الجريمة.

وبالنظر إلى محيط مكان تحطم الطائرة عبر الحقل، أدهشني كم هو قليل ذاك الذي يبدو هناك: سيارتا إطفاء حريق خارج نطاق الشريط الأصفر، وآثار سنابل مسواة بالأرض، إلا أنني أرى كثيراً من الماء قد صُبَّ على حطام الطائرة.

ليس هذا وضعاً ملائماً لتحديد أماكن وجود عظام متفحمة وتجميعها.

ثمةَ رجلٌ يرتدي زي رجال الشرطة في دافيدسون، يبدو أنه في موقع المسؤولية، وقد ثبّتت بطاقة نحاسية على قميصه كتب عليها اسمه: وِيد جولت.

عرّفتُ ولارابي نفسينا إليه.

كان الشرطي جولت ذا فكٍّ عريض جداً، ومنحوتَ الأنف، وأشيب. إنه نموذج للرجل القيادي، باستثناء طول قامته البالغ خمس أقدام واثنين من عشرة من القدم.

تصافحنا.

"يسعدني وجودك هنا يا دكتور"، أومأ جولت إليّ قائلاً: "دكتورة ودكتور".

أصغيتُ والفاحص الطبي، في حين كان يلخص جولت المعلومات المتوافرة عن الحادث. لم تزد المعلومات التي أدلى بها عن المعلومات التي أفاد بها لارابي خارج غرفة التشريح إلا قليلاً.

اتصل صاحب أرض هناك عند الساعة 1:19، وأفاد أنه حين كان ينظر عبر نافذة غرفة المعيشة في منزله رأى طائرةً تتحرك بصورة تبعث على التسلية.

سألته: "تبعث على التسلية؟".

"تحلّق على علو منخفض، وترفع جناحاً وتخفض آخر، ثم تناوبُ بينهما رفعاً وخفضاً".

نظرت فوق رأس جولت، وقدّرتُ ارتفاع الصخرة في الطرف البعيد من الحقل. لا يمكن أن يتجاوز ارتفاعها مئتي قدم. تمكنتُ من رؤية لطخات حمراء وزرقاء تنخفض عن قمة الصخرة نحو خمس أقدام، وآثار نباتات مسفوعة ومحروقة تمتد من مكان ارتطام الطائرة نزولاً إلى المكان الذي استقر فيه حطامها.

"سمع أحد الأشخاص دوي انفجار، فهرع إلى الخارج. رأى من مسافة قريبة دخاناً يتصاعد. وعندما وصل إلى هذا المكان كانت الطائرة قد سقطت وأخذت تحترق. مزارع...".

نظر جولت إلى مفكرة صغيرة في يده.

"... مايكلو فسكي لم يرَ مؤشراً على وجود أحياء، لذلك ذهب إلى المنزل بسرعة واتصل برقم 911".

سأله لارابي: "هل لديك فكرة عن عدد الذين كانوا على متنها؟".

"يبدو أن فيها أربعة مقاعد، لذلك أعتقد أن العدد أقل من ستة".

من الواضح أن جولت راغب في التنافس مع سليديل في لعب دور الشرطي في فيلم سينمائي.

أغلق جولت المفكرة بحركة استخدم فيها يداً واحدة ودسَّها في جيب سترته العلوية.

"أخطر موظف الطوارئ وكالة الطيران الاتحادية أو الهيئة القومية لسلامة النقل أو أياً من الهيئات الاتحادية التي يتعين الاتصال بها. بين الفريق التابع لي ورجال الإطفاء، أعتقد أنه في وسعنا التعامل مع مسرح الحدث هنا. فقط أخبريني، دكتورة، ما الذي تحتاجين إليه أنت؟".

لاحظتُ وجود سيارتَي إسعاف متوقفتين قريباً من حيث كنا نقف.

"هل أعلمتَ مركز الصدمات بالأمر؟".

"أخطرنا اللجنة العسكرية المركزية في شارلوت بالأمر. ألقيتُ وبراميديكس نظرة خاطفة بعد أن جرت السيطرة على الحريق"، هز جولت رأسه هزاً خفيفاً، "لا يوجد أحد يتنفس بين الحطام".

بينما بدأ لارابي يشرح كيف سنمضي قدماً في عملنا، اختلستُ نظرةً إلى ساعتي؛ 4:20، الزائر إي تي أيه ETA في شقتي.

أرجو أن يكون قد بُلّغ رسالتي التي ذكرت فيها أنني سأتأخر. أرجو أن يكون قد عثر على سيارة أجرة. أرجو أن يكون قد حصل على مفتاح باب المطبخ الذي كلفت كاتي بإحضار نسخة منه.

تمنيت أن تكون كاتي قد أحضرت نسخة من المفتاح.

استرخي برينان، سيتصل إن واجهته مشكلة.

أخرجت هاتفي وتفحصته؛ الخدمة غير متاحة.

اللعنة.

كان جولت يقول للارابي: "هل أنتَ مستعدٌّ لإلقاء نظرة؟".

"ألا يوجد مواضع ساخنة؟".
"أخمدتِ النار".
"هيا بنا".
تبعتُ جولت ولارابي، وأنا كارهة عملي في تلك اللحظة، عبر صفوف الذرة، ومررتُ من تحت الشريط الذي طوَّقت به الشرطةُ المكان وصولاً إلى مكان حطام الطائرة.
بدتِ الطائرة عن قرب أفضل حالاً مما بدت عليه من بعيد. على الرغم من أن بعضها كان مطوياً على بعضها الآخر، كأنها آلة أكورديون، ومحترقة، فإن بدنها كان سليماً إلى حدٍّ بعيد. تناثرت حولها قطعٌ محترقة ومتغضّنة من جانبها، وبلاستيك ذائب، وكومة من أشياء عنقودية الشكل وغير واضحة المعالم تعكس إشعاعاً. شظايا صغيرة من زجاج يشع كالفوسفور تحت شمس بعد الظهر.
"آهوي!".
لدى سماعنا الصوت، التفتنا جميعاً.
وإذ بامرأة ترتدي بزة كاكية اللون، وتنتعل حذاء عالي الساق، وتعتمر قبعة، كانت تمشي متجهةً نحونا. وقد كُتِبَت على طرف قبعتها أحرف كبيرة باللون الأصفر تعلن عن وصول الهيئة القومية لسلامة النقل.
"عذراً لوصولي المتأخر جداً. أتيتُ على متن طائرة عبر أول رحلة متاحة".
كانت تلفُّ رباطاً حاملاً لكاميرا فيديو حول عنقها، مدتِ المرأةُ يدها كي تصافحنا قائلة: "شيلا ينسن، محققة من هيئة سلامة الطيران".
صافحناها؛ كانت قبضةُ ينسن قويةً كقوة أفعى الأناكُندَة.
خلعت ينسن قبعتها فبدت شبيهةً بممثلات الإعلانات لترويج الحليب، شقراء تماماً ومفعمة بالصحة والحيوية.
"الجو هنا أشد حرارة مما هو عليه في ميامي".
وافقنا جميعاً على أن الجو كان حاراً.
سألت: "هل كلُّ شيء كما هو أيُّها الشرطي؟".
قال جولت: باستثناء ألسنة اللهب التي أخمدت".
"هل ثمةَ ناجون؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"لم يبلغنا أحد عن وجود ناجين".

قالت وهي مواظبة على التحرك أقداماً عدة ذات الشمال ومثلها ذات اليمين كي تلتقط صوراً للمشهد من زوايا مختلفة: "كم عدد الذين كانوا على متنها؟".

"واحد على الأقل؟".

"هل مشّط الموظفون التابعون لكَ المنطقة؟".

"نعم".

"هل تسمحون بمنحي دقيقةً واحدة؟"، رفعت ينسن كاميرا الفيديو.

أشار إليها لارابي بإحدى يديه مانحاً إياها ضوءاً أخضر.

وقفنا نشاهدها وهي تدور حول الحطام تلتقط صوراً فوتوغرافية، وتصور بكاميرا الفيديو. ثم صورت وجه النتوء الصخري والحقول المجاورة. وبعد مضي خمس عشرة دقيقة انضمت ينسن إلينا مجدّداً.

"الطائرة من طراز سيسنا 210، والطيار في مكانه، وهناك راكب في الخلف".

سألتُها: "لماذا في الخلف؟".

"المقعد اليميني الأمامي غير موجود".

"لماذا؟".

"سؤال جيد".

سألها لارابي: "هل لديك فكرة عن مالك الطائرة؟".

"الآن بعد أن حصلتُ على رقم تسجيل الطائرة المثبت على ذيلها أستطيع أن أبحث وصولاً لمعرفته".

"من أين أقلعت؟".

"يمكن أن يكون هذا السؤال عسيراً. عندما أتوصل إلى معرفة اسم الطيار أستطيع أن أقابل أسرته وأصدقاءه. في الوقت الراهن، سأتوثّق من معرفة ما إذا كان ثمة رادار يتتبع الطائرة ويرصدها. طبعاً إن كانت الطائرة تقاد بواسطة الرؤية البصرية فقط (من دون استخدام الطيار الآلي)، لا يتمكن الرادار من رصدها وتحديدها، ويكون في هذه الحال تحديد مسار الطائرة صعباً جداً".

سألتُ: "الطيران بالاعتماد على الرؤية البصرية؟!".

"آسفة، يُصنفُ الطيارون في زمرتين، فمنهم مَن يقودون الطائرات اعتماداً

على الرؤية البصرية، ومنهم من يقودونها باستخدام الطيار الآلي. في وسع الذين يستخدمون الطيار الآلي منهم أن يطيروا في مختلف الظروف الجوية".

"لا يستخدم الطيارون الذين يعتمدون على الرؤية البصرية الطيارين الآليين؟".

"ليس في وسعهم أن يحلقوا فوق خط السُحب أو ضمن مجال جوي يبلغ ارتفاعه الأقصى خمسمئة قدم في الأيام المظلمة أو في أجواء ملبدة بالغيوم. ويقود الطيارون الذين يعتمدون على الرؤية البصرية طائراتهم باستخدام معالم على الأرض".

قال جولت مردداً صوته في حلقه: "عمل جيد، سكاي كينغ".

تجاهلته.

"ألا يتعين على الطيارين أن يحتفظوا بخرائط ومخططات طيران؟".

"نعم، في حال إقلاع الطائرة من مطار GA بموجب ATC. هذا إجراء جديد معمول به منذ وقوع أحداث 9/ 11".

كانت المحققة ينسن تستخدم كثيراً من المختصرات.

سألتُها: "مطار GA؟". أنا أعرف أن ATC هي الأحرف الأولى من كلمات تعني: مراقبة الحركة الجوية.

"GA أو المجموعة A تعني: مطار الطيران العام للمجموعة A. ويتعين على الطائرة، ضمن هذه المجموعة، أن تتقيد بقواعد محددة، لا سيما إذا كان المطار الذي تستخدمه طائرات هذه المجموعة قريباً من مدينة رئيسة".

"هل يُطلبُ من هذه الطائرات بياناتٍ تتضمن أسماء المسافرين؟".

"لا".

حدقنا جميعاً إلى حطام الطائرة. ثم تكلم لارابي أولاً: "إذاً، يمكن أن يكون هذا الطيار الذي تصرف كالأطفال قد قاد الطائرة من تلقاء نفسه؟".

"لا يأبه الذين يتعاطون الكوكايين والمخدرات كثيراً بقيود الطيران أو بخرائطه، سواء أكان المطار خاصاً بالمجموعة A أم لم يكن كذلك. إنهم يميلون إلى الإقلاع من مواقع بعيدة، ويطيرون ضمن مجالات جوية لا تطالها أجهزة الرادارات. أعتقد أننا إزاء حالة طيران لها علاقة بالمخدرات، وأننا لن نعثر على أي خطة طيران".

سألها جولت: "هل أستدعي إدارة مكافحة المخدرات، وفريقاً لانتشال

الجثث؟".

هـزت ينسـن الكاميـرا الرقمية بإصبعهـا وقالت: "هذا يعتمد على ما يمكن أن أكتشفه بين الركام. دعني ألتقط بعض الصور الفوتوغرافية عن كثب. ثم يكون في وسعك بعد ذلك أن تُخرج الجثث".

كان هـذا كل مـا فعلنـاه علـى مدى السـاعات الثلاثة اللاحقـة. كنت ولارابي نكافـح مـع الضحايـا، فـي حيـن تتحرك ينسـن حولنا بسـرعة تلتقط صـوراً رقمية، وتشـغل كاميرا الفيديو، وترسـم مخططات، وتسـجّل بصوتها على جهاز الدّكتافون (أداة صغيرة تسجل ما يملى عليها من كلام ليجري الاستماع إليه وتدوينه لاحقاً) الخاص بها ما يخطر لها من فِكر.

وقف هوكينز قرب قُمرة القيادة، وكان يناولنا معداتٍ، ويلتقط صوراً.

كان جولـت يأتـي ويذهـب من حين إلـى آخر ويحضر لنا مياهاً في زجاجات ويطرح أسئلةً.

بينمـا كان آخـرون يأتـون ويذهبـون علـى مـدى ما تبقى من عصـر ذاك اليوم المفعـم بالتعـرق ومسـائه. كان مـن الصعب عليّ أن ألاحـظ ما كان يجري حولي؛ لشدة انهماكي بالمهمة التي كنت بصدد إنجازها.

كان الطيـار محترقـاً احتراقـاً يعدم إمكانية التعرف إليه من ملامحه: كان جلده متفحّمـاً، وشـعره متلاشـياً، وجفنـاه ذاويـين اتخذا شـكل هلالين. وثمـة كتلة كبيرة مـدورة عديمـة الشـكل تمتـد مـن بطنه حتى كتفيه وعنقه، جعلت جسـمه يتود في مكانه ويلتصق التصاقاً وثيقاً.

سأل جولت في أثناء إحدى زياراته الدورية: "ما هذا؟".

أجابه لارابي حين كان يعمل على تحرير الأنسـجة المتفحمة: "من المحتمل أن تكون هذه كَبِدَ الرجل".

كان هذا آخر سؤال طرحه الشرطي المسؤول جولت.

ثمة لطخة سوداء غريبة الشكل في قُمرة القيادة. على الرغم من أنني عملت في طائرات صغيرة الحجم محطمة سابقاً، فإنني لم أرَ شيئاً كهذا قط.

سألت لارابي: "هل لديك أي فكرة عمّا عساه يكون هذا الشيء الغريب؟".

قال وهو يركز اهتمامه على انتشال جثة الطيار: "لا".

مـا إن جـرى تحريـر الجثـة حتـى وُضِعت في كيس معدّ لتغليـف الجثث، ثم وُضِعـت علـى نقالـة مـزودة بعجلات وقابلة للطي. وقد سـاعد شـرطيّ يرتدي زياً رسـمياً هوكينـز علـى حمل الجثة ووضعها في عربـة النقل الخاصة بمركز الفحص الطبي التابع لمقاطعة مكلنبورغ.

وقبـل التحـول إلـى الراكب، طلب لارابي وقتَ استراحة قصيراً؛ كي يسـجل ملحوظاته على جهاز الدّكتافون الخاص به.

خلعتُ قناعـي وأنـا أقفز إلـى الأرض، وسـحبتُ رُدن زي العمل الذي كنتُ أرتديـه، وألقيتُ نظـرةً عجلـى على سـاعتي. لقد نظرت إلى سـاعتي مراتٍ لا تُعدُّ ولا تُحصَى؛ السابعة وخمس دقائق.

ونظرتُ إلى هاتفي الخلوي؛ الخدمة غير متاحة. ليبارك الله هذا البلد.

قـال لارابي، وهـو يضـع جهـاز التسـجيل فـي جيبـه: "الراكـب الملقى على الأرض".

"لن تحتاج إلى مساعدتي مع الطيار".

وافقني لارابي قائلاً: "لا".

ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى رمز السلام.

فعندمـا يتوقـف جسـم سـريع الحركـة، مثـل سـيارة أو طائـرة، فجـأةً، فـإن الموجوديـن علـى متنـه مـن أولئـك الذيـن لـم يثبّتوا أحزمـة الأمـان يصبحون كما اصطلحَ علماء الميكانيكا الحيوية على تسميته "الأجسام شبه الاندفاعية". يكتسب كلُّ جسـم موجود في جسـم أكبر منه حجماً السرعةَ ذاتَها التي يسير أو يطير بها الجسم المتحرك إلى أن يصل إلى توقفه الذاتي المفاجئ.

في سيسينا، هذا الأمر ليس جيداً.

خلافاً لمـا كانـت عليـه حال الطيار، لـم يكن الراكب قد ثبّت حزام الأمان. تمكنـت مـن رؤية شـعر وشـظايا عظمية على إطار حاجـب الريح الزجاجي، حيث اصطدم رأس الراكب وصولاً إلى توقفه المفاجئ.

وقد نجم عن ارتطام الرأس كسورٌ هائلة في الجمجمة، وتكفلت النار بالباقي.

شعرت باندفاعات في معدتي تشبه الاندفاعات التكتونية التي أدت إلى تشوه أديم الأرض حين كنت أنقل طرفي من الجذع المتفحم مقطوع الرأس إلى الأشياء

المروعة المنتشرة بصورة فوضوية.

كانت الصراصير تصر صريراً في المدى، ما يشبه عويل المَكروب في جوٍّ أوشك النفس فيه أن ينقطع.

بعد لحظة من الإشفاق على الذات، استبدلتُ قناعي، وخففتُ إلى قمرة القيادة، وتسللتُ إلى نهاية المكان، وبدأتُ أمحّص بين ركام حطام الطائرة في أجزاء الجسد التي تبعثرت وتشظت بما فيها مادة الدماغ، وكان معظمها قد ارتدّ إلى الخلف كما ترتدّ القذيفة إثر ارتطام الجسد بحاجب الريح في الطائرة.

تراجع حقل الذرة وشاغلوه إلى الوراء وتلاشت الصراصير. كنتُ أسمع من حين إلى آخر أصواتاً صادرة عن مذياع، وصوتَ صافرة إنذار يسعى إلى مسامعي من مكان بعيد.

بينما كان لارابي يشتغل على جسد الراكب، كنتُ أبحث بدقة عن بقايا رأسه التي تمزقت وتبعثرت.

أسنان، ومِحجر العين، وجزء من الفك. كان كلُّ جزءٍ مغطى بمادة سوداء اللون وغريبة الشكل.

كان الطيار ملطخاً ومضرجاً بدمه، وكان الراكب مغطى تماماً بالدماء. لم يكن لديّ أيُّ فكرة عما عساها تكون تلك المادة التي كنت أجمعها من أشلاء جثته.

بينما كنت قد ملأت وعاءً، استبدله هوكينز بآخر فارغ.

كنت مستغرقةً في العمل وسمعت أصوات عمال يشغِّلون مولّد كهرباء محمولاً ويضيئون أنواراً.

كانت تنتشر في الطائرة رائحة قوية؛ هي خليط من رائحة وقودها ومن رائحة اللحم المتفحم. امتلأ الهواء سخاماً متحولاً في المساحة الضيقة إلى عواصف ترابية مصفرة. ظهري يؤلمني وكذلك ركبتاي. لطالما بحثت عن وظائف أكثر راحةً لكن دونما جدوى.

كنت أبرِّد حرارة جسدي عبر استدعاء صور ذهنية توحي بشيء من البرودة: مسبح، رائحة كلور، استشعار خشونة الممر في باطنَي قَدَميّ، صدمة البرد في تلك الغطسة الأولى في مياه المسبح، الشاطئ، ارتطام أمواج البحر بكاحليّ، مداعبة الريح لوجهي، مياه البحر المالحة والباردة على خديّ، نسمة هواء منعشة من مكيف

الهواء تلامس بشرتي البرونزية، مكعبات ثلج، مكعبات ثلج من عصير الليمون.

أنهينا العمل حين كانت آخر خيوط شمس النهار القرمزية تختفي في الأفق. ذهب هوكينز مرةً أخيرةً إلى عربة النقل المغلقة. وخلع كلٌّ منا ثياب العمل، ووضعنا العدة في صندوقها. وحين وصلت إلى الطريق المعبّدة، التفتُّ لإلقاء نظرة أخيرة.

كان الغسق قد استنزف كل الألوان من المناظر الطبيعية.

كانت ليلة صيف ترخي سدولها على الجروف وحقول الذرة، والأشجار مظللة إياها بظلال امتزج فيها اللون الرمادي بالأسود.

وكانت الطائرة المنكوبة، في مسرح الحدث المركزي، تتوهج تحت أنوار المصابيح المحمولة في حقل ذرة كأنها مشهدٌ مروّعٌ من مشاهد إحدى مسرحيات شكسبير.

كابوس ليلة في منتصف الصيف.

كنتُ منهكةً جداً، الأمر الذي جعلني أنام معظم الوقت في طريق العودة إلى البيت.

سألني لارابي: "هل ترغبين في الذهاب إلى المكتب كي تأخذي سيارتك؟".

"خذني إلى البيت".

كان هذا نطاق المحادثة التي دارت بيننا.

بعد ساعةٍ وصل بي لارابي إلى جانب منزلي.

"أراك يوم غد".

"نعم".

طبعاً، ليس لي حياة.

ترجّلتُ من السيارة وصفقتُ الباب.

كان المطبخ مظلماً.

هل مصابيح غرفة المكتب مضاءة؟

دنوتُ من جانب الملحق واختلستُ نظرة إلى الركن.

مظلمٌ.

هل في الطابق العلوي من المنزل؟

كذلك الأمر.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تمتمت: "جيد، آمل ألاّ يكون موجوداً هنا".
دخلتُ إلى المطبخ وقلت: "مرحباً، هل من أحد هنا؟".
لا صوت.
"هل أنت هنا يا بيرد؟".
لا توجد قطّة.
رميتُ حقيبتي على الأرض، وحللتُ رباط حذائي وخلعته، ثم فتحت الباب ووضعت الحذاء في الخارج، وناديت: "بيردي، هل أنت هنا؟".
لا توجد قطّة.
مشيت إلى غرفة المكتب وأدرتُ مفتاح المصباح الجداري، وشعرت بفمي ينفتح فزعاً وذعراً. كنتُ قذرةً ومنهكة؛ "ماذا، بحق الله، تفعلُ هنا؟".

7

فتح ريان عيناً واحدة شديدة الزرقة وسأل: "هذا كل ما ستقولينه لي؟".

أشرتُ بإصبع يغطيها السخام إلى بويد وقلت: "أنا أتحدث إليه".

كان الكلب مسترخياً عند أحد طرفي الأريكة، في حين كانت قائمتاه الأماميتان تتدليان على حافتها. وكان ريان مضطجعاً في الطرف الآخر ممدد الساقين جاعلاً إحداهما فوق الأخرى، وقد أسندهما إلى مكان في الأريكة يعلو موضع الكلب؛ لا هذا كان ينتعل حذاءً ولا ذاك.

لدى سماعه صوتي جلس بويد منتصباً، حرَّكتُ إصبعي مهدِّدة فانسلّ بويد إلى الأرض، وأسند ريان جسمه الكبير إلى مسند الأريكة.

"هل خالفتُ قواعد استخدام الأثاث؟"، كانت عيناه الزرقاوان كلتاهما قد فُتحتا.

"هل لي أن أعتقد أنك قد عثرتَ على المفتاح؟".

"لا مشكلة".

"كيف دخل الكلب إلى هنا، وكيف سمح لك بالدخول والاندفاع سريعاً؟".

نظر كلٌّ من ريان وبويد أحدهما إلى الآخر.

"ناديته مستخدماً اسم هوتش. فقد رأيتُ ذلك في فيلم سينمائي، فاعتقدتُ أن ذلك يروق له".

ارتفعت أذنا بويد.

"مَن أذِنَ لهوتش بالدخول؟ ولماذا سمح لكَ هوتش بالدخول؟".

"يتذكرني هوتش منذ كارثة ترانس ساوث التي وقعت في مدينة بريستون".

لقد نسيت؛ فقد استُدعِي ريان عندما قُتل شريكه حين كان ينقل سجيناً جورجياً إلى مونتريال، لمساعدة هيئة سلامة النقل القومي مع لجنة التحقيق التي

تحقق في الحوادث، وكان قد التقى هو وبويد أحدهما بالآخر في ذلك الحين، في جبال كارولينا.

"كيف دخل هوتش إلى هنا؟".

"أحضرته ابنتكِ".

"فتاة لطيفة".

فكرتُ، وأنا أقاوم رغبةً في التبسم، في أنه كمين لطيف نُصِبَ لي. لقد اكتشفت كاتي ضيفاً ليس في وسعه أن يرفض كلباً.

"كلب ودود".

حكَّ ريان بلطف جلد بويد خلف أذنيه، وأدار قدميه على الأرض، ورمقني بنظرة خاطفة. وقد ارتفعت زاويتا فمه إلى الأعلى.

"نظرة لطيفة".

كانت ملابسي قذرة، وأظفاري ملأى بالطين والسخام. كان شعري رطباً مبللاً بالعرق ومتشابكاً ومتلبداً. وكانت وجنتاي حمراوين ملتهبتين بسبب لدغهما من عدد لا يُعد ولا يُحصى من الحشرات، وكانت تفوح مني روائح الذرة ووقود الطائرة واللحم المتفحم.

كيف كانت أختي هاري تصفني؟ بأنني أركب الصعاب وأتخلى عن الرطب اللين. إلا أنني لم أكن في حالة من المزاج تتيح لي انتقاد الزي الدارج.

"كنت أجمع بشق الأنفس مادة دماغ مقلي. ريان، حتى أنت لا تبدو رجل إعلان لمنتجات ديور Dior".

حدق بويد إليّ، بيد أنه احتفظ بِفِكَرِهِ عني لنفسه.

"هل أكلتِ؟".

"لم تكن الحادثة مزودةً بالطعام".

لدى سماعه نبرة صوته، وضع بويد خطمه تحت يد ريان.

"كنتُ وهوتش نفكر في البيتزا".

هزَّ بويد ذيله على نغمة صوت لقبه الجديد؛ أو هزه في أثناء ذكر كلمة بيتزا.

"اسمه بويد".

"لماذا لا تصعدين إلى الطابق العلوي لتستحمي، وسنتدبّر، أنا وبويد، أمر

نفسينا بشيء نأكله.

تتدبران أمر نفسيكما بشيء تأكلانه؟

عاش ريان الذي ولد في نوفا سكوتيا سني رشده كلها في مقاطعة كيبيك. على الرغم من أنه سافر على نطاق واسع، فإن نظرته للثقافة الأميركية كندية بامتياز: أبناء أرياف ضحلو الثقافة، ورجال عصابات، ورعاة بقر. كان يحاول من حين إلى آخر أن يؤثر فيَّ برطانة لغته. أملت ألاّ يكون وشيكاً من فعل ذلك الآن.

قلتُ: "سأغيب لدقائق قليلة".

"خذي وقتكِ".

جيد. لم يستخدم كلمة سيدتي، أو مدام.

قال، وأنا أسير نحو السُّلم: "... سيدة كيتي".

دورة حمام أخرى مفعمة برغوة الشامبو وبخار الماء لتطهير الجسد والنفس من رائحة الموت. سائل استحمام الخزامى وشامبو العرعر وبلسم الشعر (إكليل الجبل بالنعناع). أخذت أجرب كثيراً من النباتات العطرية في الآونة الأخيرة.

بينما كنت أكسو جسمي بسائل الاستحمام، فكَّرت في الرجل الموجود في الطابق السفلي؛ آندرو ريان، ملازمٌ في الشرطة السرية، في قسم الجرائم المضادة للفرد، مقاطعة كيبيك.

عملتُ وريان معاً زهاء عقد من الزمن، ضابط شرطة سرية متخصص بجرائم القتل، وعالمة بالأنثروبولوجيا متخصصة بالطب الشرعي. بصفتنا من ذوي الاختصاص ضمن كالتين: وكالتين يقع مقراهما الرئيسان في مونتريال، ولهما مكتب الطب الشرعي في كيبيك ومكتب شرطة مقاطعة كيبيك، تحرينا معاً عن سفاحين، وخارجين على القانون منتظمين في عصابات، ومجرمين عاديين. كنت أعمل على الضحايا، وكان هو يعمل على جمع المعلومات، وكان العمل دوماً مهنياً بحتاً.

على مرِّ السنين، سمعتُ قصصاً عن ماضي ريان: عن ركوب دراجات نارية، وإسراف في معاقرة الشراب، وحفلات أُنس وسمر، وسُكر شديد، والهجوم الذي شنه سائق دراجة نارية وأوشك أن يكون قاتلاً حيث خلّف جرحاً كبيراً في الرقبة، ومن ثَمَّ الشفاء البطيء، والارتداد إلى الأصحاب الأخيار، وارتقاء ريان في شرطة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

المقاطعة.

وسمعتُ أيضاً قصصاً عن حاضر ريان: إنه زير نساء في قسم الشرطة القائم في مبنى المقاطعة.

كلُّ هذا غير ذي صلة بالموضوع، فلديَّ حكمٌ مناهض للعلاقات العاطفية في ميدان العمل. لكن ريان ليس جيداً في اتباع القواعد. فقد ضغط هو، فقاومت أنا. ومنذ أقل من سنتين، لدى تقبلي في نهاية المطاف لحقيقة أن بِت وأنا سنكون أفضل حالاً كصديقين منا كزوجين، وافقت على مواعدته.

مواعدة؟

يا الله! بدوتُ شبيهةً بأمي.

وضعت مزيداً من الشامبو المستحضر من نبتة الخزامى العطرة فوق الشبكة التي أحطت بها شعري وكوّنت رغوةً من جديد.

ما المصطلح الذي يستخدمه المرء في وصف الذين تجاوزوا سنَّ الأربعين؟ أهم من يواعدون آخرين من جنس آخر من أجل علاقات رومانسية سريعة وقصيرة الأمد؟ أهم المنخرطون في التودد والمغازلة والملاطفة؟ أهم الساعون إلى الغزل؟

النقطة التي أنا بصدد الحديث عنها هي أن ريان اختفى قبل أن يحدث أيُّ شيء على أرض الواقع. وبعد ظهوره مجدّداً، خرجنا لتناول طعام العشاء معاً مراتٍ قليلة، ومعاً شاهدنا أفلاماً سينمائية، ولعبنا البولنغ، بيد أننا لم نتطرق مطلقاً إلى موضوع الرومانسية والغزل.

تصورتُ ريان: إنه طويل القامة، نحيل ضامر البطن، وعيناه أكثر زرقةً من سماء كارولينا. تخلَّج شيء ما في معدتي؛ مغازلة!

ربما لم يكن قد بلغ بي التعب الحدَّ الذي اعتقدته.

في الربيع الفائت، في ختام وقت كان عسيراً على الصعيد العاطفي في غواتيمالا، قررت في نهاية المطاف أن أقوم بعمل حاسم: لقد وافقت على تمضية الإجازة مع ريان.

ما العيب في تمضية الإجازة على شاطئ البحر؟

لم أتمكن من اكتشاف الأمر قط. ما انفك ريان يطلق نغمة الاستدعاء في أثناء توجهه إلى مطار المدينة في غواتيمالا، وسافرنا بالطائرة إلى مونتريال بدلاً

مـن كوزوميـل. وقـد عاد ريان إلى المراقبة في درومونديفل، وعدت أنا إلى العظام في المختبر.

إنـه وقـت للملاطفـة والمغازلة؛ حالت هذه الفكرة بيني وبين استرسـالي فيما كنتُ أفكّر فيه.

غسلتُ جسمي بالماء.

الآن ضابطُ الشـرطة السـرية، زيرُ النسـاء (الدون جوان)، مسترخٍ على الأريكة في غرفة مكتبي. إنه مثير: مشدود الجسم، متناسقه.

أغلقت صنبور الماء، وقفزتُ خارجةً من مكان الدُّش، وبحثت عن المنشـفة لمساً. فقد كان البخار شديد الكثافة لدرجة أنه حجب المرآة.

فكـرتُ، وأنـا أتصـور إنجـازات البعوض كباره وصغاره، وقلتُ في نفسـي إنه أمر جيد.

تعثرتُ بزيّ عملي القديم المهلهل كريه المنظر. إنه هدية من هاري لمناسبة إنجازي رسالة الدكتوراه في نورث وسترن. كُمٌّ ممزقٌ، وبقع قهوة. يشعرني ارتداؤه بالراحة أكثر من كلّ ما أختاره من ثياب العمل.

كانت بيردي مسترخية على سريري ملتفة حول نفسها، فناديتها: "بيرد".

إن كان للقططة أن تنظر نظرةَ لوم وعتب، فقد كانت بيرد تفعل ذلك.

جلستُ بجانبها ومرّرتُ يدي على ظهرها قائلةً: "لم أدعُ الكلب".

لم تقل بيردي شيئاً.

"ما رأيك بالفتى الآخر؟".

وضعـت بيـردي قائمتيهـا الأماميتين تحت صدرها ورمقتني بنظرة تشبه نظرة أبو الهول.

"أتعتقديـن أن عليَّ إخـراج مجموعـة البكيني؟"، اسـتلقيتُ فـي الفراش إلى جانب القطة، "أم أرتدي ملابس فيكتوريا سيكرت؟".

ملابـس فيكتوريـا سـيكرت هي، فعلياً، من غواتيمـالا. وجدتها في متجر لبيع الألبسة الداخلية واشتريتُ أغلاها وأحلاها من أجل رحلة الشاطئ التي لم تتحقق قط. تلك الملابس كانت لا تزال في كيسها الوردي.

أغمضـتُ عينيّ كـي أفكـر في الأمر؛ كانت أشـعةُ الشـمس تنسـل مرة أخرى

عبر أوراق شجر المنغوليا وترسل خيوطها الدافئة فترتسم كجروحٍ طويلة دقيقة على وجهي.

شممتُ رائحة لحم مقدد وسمعت أصواتاً تكشف عن نشاط في مطبخي.

لحظةُ ارتباك تلاها تذكّرٌ.

انفتحت عيناي؛ كنتُ مستلقية في وضعية جنينية تحت غطاء من الصوف الطبيعي. نظرتُ إلى الساعة: الثامنة واثنتان وعشرون دقيقة صباحاً.

هممتُ ونهضتُ من السرير وارتديتُ بنطال جينز وكنزة قصيرة الكمين، ومشطت شعري. كنتُ قد وضعت رأسي على الفراش وشعري مبلل؛ فانضغط من جانب وانتفخ من جانب آخر.

جرَّبتُ أن أبلله بالماء؛ كي أصلح حاله، بيد أن المحاولة باءت بالفشل؛ فبدوتُ مثل ليتل ريتشارد بشعرها الذي يتخذ هيئة قبعة؛ شنيع.

كنتُ في منتصف السُّلم حين فكرتُ في رائحة نَفَسي، وعدتُ كي أنظف أسناني.

استقبلني بويد عند أسفل السُّلم؛ كانت عيناه اللامعتان تظهران عن نفاقه، فركتُ أذنه، وعاد سريعاً إلى المطبخ.

كان ريان واقفاً عند موقد الطبخ وقد ارتدى بنطال جينز؛ بنطال جينز فقط منخفض الخصر.

آه، يا الله!

قلتُ: "صباح الخير"، ذلك لافتقاري إلى مقدمة أكثر ذكاءً أفتتح بها الكلام.

استدار ريان نحوي وفي يده شوكة طعام وقال: "صباح الخير يا أميرة".

"اسمع، أنا آســ...".

"قهوة؟".

"من فضلك".

ملأ فنجاناً وقدمه لي. كان بويد يثب مَرِحاً في المطبخ، منتشياً برائحة قلي الدهون، بينما ظلت بيردي في الطابق العلوي مفعمةً بالاستياء.

"لا شك في أنني كذ...".

"لدينا، أنا وبويد، رغبةٌ شديدة في أكل اللحم والبيض".

"رغبةٌ شديدة؟".
قال ريان: "اجلسي"، مشيراً بشوكة الطعام إلى الطاولة. جلستُ، وجلس بويد. مدركاً الخطأ الذي ارتكبه، وقف الكلب وعيناه متسمرتان على اللحم الذي كان ريان يفرغه من المقلاة ويضعه فوق منديل ورقي.
"هل وجدتَ وسادةً وبطانيةً؟".
"نعم سيدتي".
رشفتُ رشفةً من فنجان قهوتي؛ إنها لذيذةُ المذاق.
"قهوةٌ لذيذةُ المذاق".
"شكراً سيدتي".
لا شك في أن هذا اليوم سيكون يوم راعي بقر Cow boy.
"من أين أتيتَ باللحم والبيض؟".
خرجت مع هوتش وأحضرنا هذه الأشياء من متجر هاريس توتر.
"اسمه هاريس... تيتر".
"صحيح. هذا يجعل تمييز المنتج معقولاً أكثر".
لاحظت وجود علبة بيتزا فارغة على الكاونتر، ثمّ قلت: "أنا آسفة حقاً لسلوكي الغريب الليلة الفائتة، كنتُ متعبةً جداً، منهوكةَ القوى، ولم يكن الوضع جيداً".
أعطى ريان شريحة لحم لبويد، والتفتَ نحوي ناظراً إليّ بعينيه الزرقاوين الطفوليتين وقد رفع حاجبيه كليهما وأخفضهما ببطء؛ لم تشفِ نظرة عينيه عمّا دار في خلدي، طبعاً يا الله!
ثبتُّ خصلَ شعري خلف أذني بكلتا يدي، لكنّ خصل الشعر في الجانب الأيمن من رأسي لم تثبت مكانها.
"أخشى أن يكون عليَّ أن أذهب إلى العمل اليوم".
"توقّعت وهوتش ذلك. ووضعنا خططاً بناءً على هذا".
كان ريان يقلي بيضاً، ويضع محتوياته في مقلاة ويرمي قشوره في حوض غسيل الأطباق.
"لكن، في وسعنا استخدام عجلة هوائية؟!".
"اصطحبني إلى حيث توجد سيارتي، وسيكون في وسعك أن تأخذها".

لم أسأله عن الخطط التي أعدّها.

بينما كنا نأكل، شرحت له مشهد تحطم الطائرة، وقد اتفق معي على أن الوضع يبدو شبيهاً بأوضاع تُجّار المخدرات. هو أيضاً ليس لديه أي فكرة عن المادة الغريبة ذات اللون الأسود التي وجدتها في الطائرة فسأل: "ألم تعرف المحققة التابعة لهيئة سلامة الطيران القومي ماهيتها؟".

أومأت بحركة من رأسي نفياً وقلت: "سيشرّح لارابي جثة الطيار، لكنه طلب مني أن أتعامل مع رأس الراكب".

مسَّ بويد ركبتي بقائمته لكنه لم يتلقَّ مني استجابةً، فتحول عني إلى ريان.

تحدثت إلى ريان بينما كنتُ أشرب فنجاناً ثانياً من القهوة ثم ثالثاً، عن أصدقاء مشتركين، وعن أسرته، وعن أشياء سنقوم بها لدى عودتي إلى مونتريال مع أفول فصل الصيف. كان حديثنا خفيف الظل ومسلياً، وبعيداً ملايين الأميال عن الدبية المتحللة. ألفيتني أبتسم ابتسامةً عريضةً دونما سبب، وتمنيت أن أبقى، وأن أُعِدّ شطائر محشوةً باللحم والخردل والمخلل، وأن أشاهد أفلاماً قديمةً، وأن أتسكع تاركةً النهار يأخذنا حيث يشاء؛ لكنني لم أستطع.

بينما كنت أبدي اهتمامي بريان، وضعتُ راحة يدي على خده، وقلت، وأنا أبتسم ابتسامةً تخفي تأثراً: "وجودك هنا أسعدني حقاً".

قال ريان: "وأنا سعيد أيضاً بوجودي هنا".

"لديّ قليل من عظام حيوانات عليَّ أن أُنهي العمل عليها، لكن هذا لن يستغرق وقتاً. في وسعنا أن نذهب إلى الشاطئ غداً".

شربتُ قهوتي، وتصورتُ كِسَرَ العظام التي استخرجتها من بدن الطائرة المتفحم، فَقَرُبَت ابتسامتي الشهية بصورة واضحة وتمتمتُ قائلةً: "يوم الأربعاء على أبعد تقدير".

أعطى ريان بويد آخر شريحة من اللحم وقال: "المحيط باقٍ إلى الأبد".

وهكذا، يثبت أخيراً، أن الاستعراض سيكون استعراض جثث.

8

لـم يسـتطع ريـان أن يوصلنـي، وسـيارتي ليسـت معي، لذلـك اتصلت بكاتي هاتفياً؛ وصلـت خـلال دقائـق لتصطحبني بسـيارة أجـرة إلى وسـط المدينة. كنت مبتهجة لأن المهمة تجري في الصباح الباكر؛ نعم، حقاً.

كان الجو حاراً ورطباً، ولم يكن توقع الأرصاد الجوية متفائلاً حيال حدوث انخفـاض بدرجـات الحـرارة. بـدا ريـان، ببنطالـه الجينـز وجوربـه وحذائه الشـبيه بالموكاسـان (حـذاء مصنـوع مـن الجلـد الطبيعـي لا ربـاط له)، وقميصه السـميك مقصوص الكمين، أنه ارتدى من الثياب أكثر مما ينبغي.

عنـد مركـز الفحـص الطبي التابع لمقاطعة مكلنبـورغ أعطيت المفاتيح لريان. كان ثمة فتى، عبر شارع الكلية، يرتدي كنزة كبيرة جداً كُتِبَ عليها **كارولينا بانثرز**، يسير باتجاه مبنى خدمات المقاطعة، كان ينطط كرة سلة على إيقاع موسيقى يستمع إليها عبر سماعتَي أذنين.

على الرغم من أن مزاجي كان يورث الكآبة، لكن لم يسـعني إلا أن أبتسـم. عندمـا كنت يافعـةً كان ينبغـي أن يكـون الجينز ضيقاً بما يكفي لتصلب الشـرايين. وبنطال هذا الفتى استهلك من القماش ما يكفي لصناعة ثلاثة بناطيل.

لدى مشاهدتي كاتي وريان ينطلقان بالسيارة تلاشت ابتسامتي. لم أكن أعرف إلى أين ستذهب ابنتي، أو ما هي الخطط التي اشـترك في إعدادها ريان مع كلب زوجي السابق. لكن تمنيت أن أذهب معهما أنا أيضاً؛ إلى أي مكان إلا هذا المكان.

المشـرحة ليسـت مكاناً يبعث على السـرور. لا يأتي الزوار إلى هنا ليروِّحوا عن أنفسهم؛ أعرف ذلك.

الجشـع كل يوم، والعاطفة، واللامبالاة، والحماقة، والاشـمئزاز الشخصي من الذات، تتلاقى مع الشـر وسـوء الحظ، فتلقي بالناس الأصحاء في أوضاع هم لها

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كارهون. أما أولئك الذين يخلفونهم وراءهم فيكونون عرضة لامتصاص اللكمات التي تتمخض عن موت مفاجئ غير متوقع.

عطلات نهاية الأسبوع تنتج محصولاً وفيراً؛ لذلك أيام الاثنين هي أسوأ الأيام؛ أعرف ذلك أيضاً.

لا تزال صباحات أيام الاثنين تحبطني وتزعجني.

عندما دخلت من الباب الخارجي، لوحت لي السيدة فلورز بيدٍ ريّانةٍ لحيمةٍ، وضغطتُ على زرٍّ، ففتح الباب الفاصل بين غرفة الانتظار وغرفة الاستقبال، ودخلت.

كان جو هوكينز في مقصورته يتحدث إلى امرأةٍ بدت وكأنها كانت تعمل في محطة لركن السيارات الشاحنة. كان وجهها متهدلاً، وكانت ثيابها فضفاضةً ومتهدلةً؛ لا يعينك مظهرها على تقدير عمرها، فقد تكون في الأربعين أو الستين.

كانت المرأة تصغي وعلى عينيها السارحتين بعيداً غشاوتان شبيهتان بالزجاج، وكانت أصابعها تعمل كبديل لمناديل محشوة. لم تكن تسمع حقاً ما يقوله هوكينز، إذ كانت المرة الأولى في حياتها التي ترمق الحياة فيها من دون أن يكون معها الشخص الذي كانت قد رأت جثته لتوها.

لمحت عيني هوكينز فأومأتُ إليه ليستمر في مهمته.

دُوِّنت على اللوحة سجلاتٌ لثلاث حالاتٍ منذ يوم أمس؛ يوم أحد حافل بالعمل لشارلوت: دُوِّنت قضية الطيار والراكب اللذين كانا موجودين على متن الطائرة في مركز الفحص الطبي التابع لمقاطعة مكلنبورغ تحت رقمي 2-439 و2-438.

كانت جثة الطيار في عهدة لارابي، وهي ملقاة على طاولة التشريح في الغرفة الرئيسة.

عندما ألقيتُ نظرةً خاطفةً، كان يفحص الجلد المحترق عبر عدسة تكبير يدوية، فسألته: "هل توافرت أيُّ معلومات عمَّن عساه يكون هذا الموجود عندنا؟".

"لا شيء بعد".

"هل هناك بصمات أو أسنان؟".

"مواضع البصمات من الأصابع قد احترقت وتلاشت إلى حدٍّ بعيد، إلا أن

معظم الأسنان سليمة. يبدو كما لو أنه كان قد زار طبيب أسنان في هذه الألفية أو في الألفية الفائتة. ومن المؤكد أنه كان قد زار فنانه المتخصص بالوشم. توثقي من العمل الفني".

أتاح لي لارابي النظر عبر عدسة التكبير اليدوية.

لا بد من أن يكون أسفل ظهر الرجل قد وُقي ألسنة اللهب بسبب التصاقه بالمقعد. عبر أسفل الظهر، تلوى الطرف الجنوبي لثعبانٍ مجنَّح ذي مخالب، وتراقصت ألسنةُ لهبٍ حمراءَ عبر الخطوط الملتوية وحول أطراف السيد ثعبان.

سألته: "هل تعرّفت إلى التصميم؟".

"لا، لكن يمكن لشخص آخر أن يتعرّف إليه".

"يبدو الرجل ذا بشرة بيضاء".

مسح لارابي باستخدام إسفنجة ما علق بالوشم من الأدنى إلى الأعلى، فظهر مزيد من الثعبان بين السخام، وكأن الأمر رسالة من برغر كينغ من قبيل: "امسح واربح"، وقد بدا لون البشرة بين الطبقات المتقشرة أبيض شاحباً.

وافق قائلاً: "نعم، لكن توثقي من هذا".

حضنَ لارابي كتفَ الطيار بيده ورفعها؛ ثمةَ بقعٌ سوداء صغيرة متفحمة على صدر الرجل تشبه العلق.

قلت: "إنها المادة ذاتها التي تغطي أشلاء الراكب".

ترك لارابي كتفَ الطيار تستند إلى الطاولة وقال: "نعم".

سألته: "هل لديك أي فكرة عن ماهيتها؟".

"ليس لديّ أدنى فكرة".

قلتُ للارابي: "سأذهب للعمل في الغرفة الأخرى".

قال: "لقد وضع جو صور الأشعة السينية في الصندوق".

فتحتُ ملف القضية، وغيرت ملابسي، وأخذت عربة صغيرة، واتجهتُ نحو جهاز التبريد. وعندما سحبتُ مقبض الباب المصنوع من الستانلس ستيل، شممت رائحة لحم متفحم كريهة.

كانت الحاملات الخاصة بنقل جثث الموتى مرتبةً في صفين أنيقين. وكانت سبع منها فارغة، وأربعٌ محملة. وتفحصتُ البطاقات المثبتة على زماماتِ أكياس

تغليف الجثث المنزلقة:

– الفحص الطبي لمقاطعة مكلنبورغ 2-437. أورسوس والشركة.

– الفحص الطبي لمقاطعة مكلنبورغ 2-415 ذكر أسود مجهول الهوية؛ أطلقنا عليه اسم بيللي إشارة إلى مكان العثور عليه قبالة بيللي غراهام باركويه. كان بيللي رجلاً مسناً أدرد لا أسنان له، مات تحت غطاء من الصحف، وحيداً وغير مرغوب فيه، لذلك لم يأتِ أحد على مدى ثلاثة أسابيع للسؤال عنه. وقد ظل لارابي يشتغل على بيللي حتى نهاية الشهر.

– الفحص الطبي لمقاطعة مكلنبورغ 2-44. إيرل دارنيل بوجز. ولد في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1948؛ افترضتُ أن السيد بوجز سيء الحظ قد دخل مع السيدة إلى مقصورة جو هوكينز.

– الفحص الطبي لمقاطعة مكلنبورغ 2-439. مجهول الهوية؛ الراكب.

فتحت زمام الكيس الذي يغلف الجثة؛ كانت كما كنتُ أتذكرها مقطوعةَ الرأس، ومتفحمة، وقد اتخذت ذراعاها وضعية ملاكم محترف. كانتِ اليدان تشبهان مخلبين متغضنين وذاويين، لذا، لم نحصل على البصمات من هذه الجثة أيضاً.

كان هوكينز قد ركز الأحواض البلاستيكية الخاصة باستخدامي فوق كتفي كما لو كان يحاول محاكاة الرأس الممزق. بينما كنتُ أنقل الأحواض، أعدتُ إحكام زمام الكيس الذي يغلف الجثة، ودفعت العربة إلى غرفة التشريح الصغيرة.

تلألأت صورُ الأشعة السينية باللونين الأبيض والأسود كأنها نماذج اختبار؛ في أيام التلفاز الغابرة، أظهر الفيلم الثاني شيئين معدنيين مختلطين بالأسنان وبأجزاء من الفك، كان أحد الشيئين يشبه زهرة والآخر يشبه أوكلاهوما.

جيد! زار الراكب أيضاً طبيب أسنان.

لبستُ القفّاز، وفرشت ملاءةً فوق الطاولة، ثمّ أفرغتُ الوعاء الثاني من محتوياته. استغرق أمر تحديد سنَّين متقلقلتين ونزعهما وإعادتهما إلى موضعهما بضع دقائق. بعد وضع هذه الأشياء في قارورة وختمها، أخرجتُ كلَّ ما تشظى من الفك والسن، ووضعتها على صينية وضعتها جانباً. ثم عدتُ إلى الجمجمة.

لا يمكن إعادة تكوين جثة هذا الشخص. لقد كان الضرر الذي لحق به بسبب

احتراقه بالنار شديداً جداً.

بينما كنتُ أقتطع نسيجاً لحمياً متفحماً ومادةً قشارية سوداءَ اللون لزجةً، بدأتُ أشقّ طريقي عبر أُحجية الأشلاء المقطوعة للهندسة المعمارية الجمجمية.

تدحرجت قطعة من العظم الجبهي وانقسمت إلى قطعتين ناتئتين من الجبين. وأظهـرت قطـع عظـم قذالية مهشـمة في مؤخر الرأس انتفاخـاً في عضلاتِ العنق، وهو أكبر من أي انتفاخ عضلي شاهدته في حياتي؛ لا بد من أن يكون مؤخر رأس الراكب قد انتفخ مثل كرة غولف.

كان راكب المقعد الخلفي ذكراً قطعاً؛ لا ينطوي هذا الأمر على فائدة كبيرة، وسيركّز لارابي على هـذا الأمر في أثناء أدائه مهمته، أما أنا، فسأتابع العمل من أجل تحديد عمر الراكب.

خطوتُ خطوتين نحو اليمين وتفحصتُ علبة شـظايا الأسنان؛ شـأنها شـأن النباتات، ترسـل الأسـنان جذورها إلى مغارزها بعد وقت طويل من ظهور التيجان عبر اللثة. في الخامسة والعشرين، تكون الحديقة كاملة الازدهار، وتكون الأضراس الثالثة أو أضراس العقل قد أكملت ميلها؛ وهذه العملية تسمَّى التفافاً في لغة علم الأسنان. ومنذ تلك المرحلة فصاعداً، تبدأ رحلة تراجع قوة الأسنان.

على الرغم من أن مينا أسنان الراكب كان إما مفقوداً أو شديد التفتت لدرجة يصعـب معهـا تقويـم الوضـع، فإن كلّ جذر من جذور الأسـنان أمكنت رؤيته كان كاملاً. وكنتُ بحاجة إلى صور أشعة سينية لفحص الأسنان الخبيئة في مغارزها.

ومـن ثَـمَّ عـدتُ إلـى الحطام الجمجمي؛ يتطلب تجميـع الجماجم، كما هي الحال مع الأسـنان، احتياجاتٍ معينة. فعند الولادة، تكون عظام الجمجمة الاثنتان والعشـرون فـي مواضعهـا لكن لا تكون ملتصقة ببعضهـا بعضاً. وتلتقي على طول خطـوط متعرجـة تسـمى خطـوط الاتصال. وفي سـن البلوغ، تمتلـئ ثنيات العظام فتغدو الجمجمة كلاً متماسكاً. بوجه عام، كلما أطفأ المرء مزيداً من شموع ذكرى ميلاده، كلما استدقت تلك الثنيات أكثر.

وعبر تجريدي فروة الرأس المتفحمة من شظايا الجمجمة، غدوتُ قادرةً على رؤية أجزاء من خط اتصال عظام الجمجمة من التاج والمؤخر وقاعدة الرأس. كان خط الاتصال القاعدي منصهراً، وكانت معظم الخطوط الأخرى مفتوحة. فقط الخط

www.mlazna.com-RAYAHEEN

سهماني الشكل الذي يمتد من مقدم الجمجمة إلى مؤخرها عبر الجزء العلوي من الرأس لم يظهر أي تجسير عظمي.

على الرغم من أن النتائج يمكن أن تختلف وتتنوع، إلا أن هذا النمط يوحي بأن صاحب الجثة بالغ يافع.

تابعت عملي في سبيل تحديد العِرق: تحديد العِرق صعب في كل وقت، لكنه أشد وطأة عندما تكون الجمجمة محطَّمة. بقي الثلث الأعلى من إحدى العظيمات الأنفية في مكانه على الكسرة المشظاة الجبهية الكبيرة. وكان انحداره من الخط المتوسط مستدقاً؛ الأمر الذي أكسب الجسر الأنفي هيئة مُزَوَّاة ومرتفعة.

قايضتُ قطعةً من الجبهة بقطعة من منتصف الوجه. وكانت الفتحة الأنفية ضيقةً ذات طرف سفلي متدرج وناتئة نتوءاً متناهياً في الصغر في المنتصف. وينحدر العظم القائم بين أسفل الأنف وصف الأسنان العلوي مستقيماً نحو الأدنى عندما يُنظَر إليه من أحد الجانبين. وعظام الخد منفتحة ومقوسة بالكامل. كما يوحي تاج الأنف الحاد بأن صاحب الجثة من أصول أوروبية. وتوحي العظام الوجنية المتفحمة، أو عظام الخد أن صاحب الجثة من أصل آسيوي أو من سلالة الأميركيين الأصليين؛ عظيم.

عودة إلى الأسنان؛ سن واحدة أمامية فقط أبقت على تاج جزئي. قلبتها؛ كانت السن الخلفية مضلعة قليلاً عند نقطة التقاء المينا مع خط اللثة. كنت أحدق إلى القاطعة عندما أقحم جو هوكينز رأسه عبر فتحة الباب قائلاً: "تبدين في حيرة من أمرك".

سحبتُ يدي وقلت: "لستُ واثقة إن كانت قد اقتلعت، لكنّ ثمة شيئاً غريباً هناك".

نظر جو إلى السن قائلاً: "إن كنتِ تقولين ذلك يا دكتورة".

يشير مكان الانجراف إلى بقاء شيء على شكل حرف U إلى جانب اللسان عند القاطعة الرابعة المركزية. وعادة ما يكون هذا الوضع مؤشراً على أن الأصل آسيوي أو من سلالة سكان أميركا الأصليين.

أعدتُ السنَّ إلى الصينية، وطلبتُ صور الأشعة السينية لشظايا الفك. ثمّ نظرتُ إلى الساعة؛ كانت تشير شارة ضبط الوقت إلى 1:40؛ لا عجب في أنني

كنت أتضور جوعاً.

نزعتُ القفّاز والقناع، وغسلتُ يدي بصابون مضاد للبكتيريا، وألقيتُ معطفَ المخبر فوق زيّ العمل الخاص بي. ثم ذهبتُ إلى مكتبي حيث تناولتُ الغرانولا (نـوع مـن الطعـام المحمص المحضر من الحبوب والمكسـرات) مع قارورة دايت كولا.

وبينما كنتُ آكل تفحصتُ رسائل هاتفي الخلوي:

- صحفي من شارلوت أبزرفر.

- سكيني سليديل. شيء عن رضيع أسرة بانكس.

- شـيلا ينسـن. كانت قد اتصلت في وقت باكر. الهيئة القومية لسـلامة النقل تعمل بجد.

- الرسالة الرابعة وردية اللون استرعت انتباهي؛ جنيفا بانكس.

حاولتُ الاتصال بأسرة بانكس، لكن لا أحد يجيب. ثمّ اتصلتُ بينسـن التي لم تكن موجودة أيضاً، فتركت لها رسالة على المجيب الآلي.

توقفت في طريق العودة في غرفة التشريح الرئيسة: كانت جثة الراكب ملقاةً حيـث كانـت مـن قبـل جثة الطيـار، وكان لارابي قد فرغ لتوه مـن جولته الجراحية الثانية.

تقدمـتُ ونظـرتُ إلـى الجثـة، مع أن جنـس الضحية كان واضحـاً، فإن عمره وعِرقه لم يكونا كذلك. هذان الأمران ينبغي أن يحددا بالعلاقة مع الهيكل العظمي.

شـرحـتُ التفـاوتَ فـي الملامـح العرقية بينما قال لارابي إنه لم يقع على أمر مفيد في الجسم.

سـألتُ عـن ارتفـاق (النمـو المتماثل) العظم العاني (نسـبة إلـى العانة)، وعن أجـزاء الحـوض حيـث يلتقي الشـطران في المقدمة، والنهايات القصية (نسـبة إلى عظم القص) للأضلاع ابتداءً من الضلع الثالثة وانتهاءً بالضلع الخامسـة؛ كي أعزز تقديري للعمر. فقال لارابي إنه أرسلها وإنه تحدَّث إلى ينسن؛ المحققة التابعة لهيئة سلامة النقل القومي التي ستأتي إلينا في وقت متأخر من عصر اليوم. لم تتصل به جنيفا بانكس ولم يتصل سكيني سليديل.

وعندما عدتُ إلى الغرفة النتنة، كان هوكينز قد وضع صور الأشـعة السـينية

على علب الإضاءة الكاشفة حيث تمكنت من رؤية جذور الناب اليسرى والضرس الثانية وضرسَي العقل في أجزاء مختلفة من الفك. وبينما كانت الناب والضرس الثانية كاملتين، لم تكن الضرسان الثالثتان متموضعتين كما ينبغي في مكانيهما من الصفيحة العظمية. ومن منظور علم الأسنان، بدا عمر الراكب متراوحاً بين 18 و25 سنة. وكان تحديد العِرق لا يزال ضرباً من المغامرة.

ومع العودة إلى عظم القوس الوجني، بدت الوجنتان مغولانيتين. ومع العودة إلى الفك الأعلى الجبهي، بدا الأنف قوقازياً.

بينما كنتُ أحدق إلى العظم الجبهي، لفت انتباهي أمر غير طبيعي. وضعت كسرة العظم تحت المنظار وعدَّلت العدسة؛ بدا تحت عدسة التكبير الشيء غير الطبيعيّ دائرياً وأكثر مسامية من العظم المحيط به. وبدت حواف الدائرة محددةً بوضوح.

أذيةٌ محيرة، لا تشبه ما يكون عادةً في العظام الأنفية. ليس لديّ فكرة عما يعني هذا.

أمضيتُ الساعة اللاحقة وأنا أنقب عن الشظايا والكسر، وأزيل اللحم، وأدوِّن ملحوظاتي على ما أراه. على الرغم من أنني لم أعثر على علامات أخرى تشير إلى وجود مرض، فقد قررتُ طلب صور أشعة سينية لبقية الهيكل العظمي. لقد بدتِ الأذية الأنفية نشطةً ترجِّح وجود حالة مرضية مزمنة من نوع ما.

عند الساعة 3:30، أحضر هوكينز الأضلاع وأشياء متعلقة بمنطقة العانة، ووعد بتصوير مجموعة كاملة من الأفلام عندما ينتهي لارابي من العمل على جثة الراكب.

كنتُ أضع الأشياء التي جرى الحصول عليها من منطقة العانة إضافةً إلى الأضلاع في محلول من الماء الساخن وأنظفها وأرتبها، عندما دخل لارابي تتبعه شيلا ينسن؛ كانت المحققة العاملة في المركز القومي لسلامة النقل ترتدي اليوم بنطالَ جينز أسود اللون وقميصاً أحمر اللون لا كُمَّين له.

أصابتني ساعاتٌ من تعريض رأس الراكب غير المبرد للعوامل الجوية والمعرض للتحلل الآن بنوع من الخدر وفقدان الحس، ولا شك في أن بزة عملي وقفازي الملوّن بالمفرزات الدهنية والسخام ساهما في تعزيز رائحة الغرفة التي تزكّم الأنوف.

كانت شفتا ينسن شديدتي الانطباق، وفتحتا أنفها متشنجتين، وقد طغى على وجهها تعبير جعله مكفهراً، في حين كانت تحاول استعادة التحكم بتعابير وجهها. سألتُ، وأنا أنزع قناعي وقفازي وألقيهما في وعاء يشكل خطراً على الصحة بسبب عوامل بيولوجية: "هل آن أوان تبادل الحديث؟".

أومأت ينسن إيجاباً.

قلتُ: "لماذا لا ألتقي بكما في غرفة الاجتماعات؟".

قال لارابي: "فكرة جيدة".

عندما انضممت إليهما، كان الفاحص الطبي يستعرض ما توصل إليه: "... أذيات وإصابات متعددة".

سألت ينسن: "هل ثمة سخام في الخطوط الجوية؟".

"لا".

قالت ينسن: "إن لهذا معنى ودلالةً، عندما ارتطمت الطائرة بوجه الجرف الصخري الشاهق، انفجرت خزانات الوقود، الأمر الذي تمخض عن اشتعال فوري وكرة لهب. أعتقد أن الضحيتين كليهما قد ماتا من فورهما".

قال لارابي: "كان الاحتراق الخارجي شديداً جداً، إلا أنني لم أقف على أضرار بليغة طالت عمق الأنسجة".

شرحت ينسن قائلةً: "بعد انتهاء تأثير الصدمة وخمود ألسنة اللهب الناتجة عن احتراق الوقود".

دارت في ذهني صورُ آثار النباتات المحترقة.

"لذلك، كانت الضحيتان عرضةً لتأثير كرة اللهب الناجمة عن الانفجار، بيد أن الاحتراق ذاته لم يدم زمناً طويلاً جداً".

قال لارابي: "ينسجم هذا الاستنتاج مع واقع الحال".

قلتُ وأنا أجلس على الكرسي: "أظهرت كلتا الجثتين دليلاً على وجود بقايا متفحمة، لا سيما جثة الراكب".

"وجدت المادة ذاتها تملأ قمرة القيادة. وقد أرسلت عينة لفحصها".

قال لارابي: "إننا نتحرى عن وجود كحول، وحبوب منشطة، وحبوب شبيهة بالمنشطة، وبربيتورات (أملاح أحماض تتخذ مسكنات ومنومات)، وحشيش،

ومخدرات أفيونية. إن كان هذان الشخصان يطيران وهما تحت تأثير أيٍّ من هذه المواد، فإننا نكون قد وقفنا عند السبب".

قالت ينسن: "أنتَ تتحدّث عنهما على أنهما رجلين!".

"كان الطيار ذكراً أبيض البشرة، في الثلاثين من عمره تقريباً، ويتراوح طوله بين 170 سم و175 سم. وثمة عملٌ كبير أجري على أسنانه، وثمة وشمٌ على جسده".

كانت ينسن تومئ برأسها، في حين كانت تدوِّن ما يقوله.

"كان الراكب ذكراً أيضاً، وأطول قامةً؛ أعني بما فيه رأسه". والتفتَ نحوي. "كم عمره؟".

قلتُ: "من المحتمل أن يكون في أوائل العقد الثاني من عمره".

سألت ينسن: "أهناك فكرة عن خلفيته العرقية؟".

"نعم".

رفعت رأسها ونظرت إليَّ.

"أنا أشتغل حالياً على هذا الأمر".

"هل من سمات مميزة وعلامات فارقة؟".

"حشوتان على الأقل"، تخيلتُ شكلَ الأنف وتابعتُ: "وله ما يميزه في أنفه. سأعلمك عن هذا الأمر أيضاً".

"جاء دوري"، قلّبت ينسن صفحات مفكّرتها وتابعت: "الطائرة مسجلة باسم ريتشارد دونالد دورتون. إنه يسمِّي نفسه بين أصدقائه ريكي دون".

سألتُ: "كم يبلغ من العمر؟".

"اثنين وخمسين عاماً. لكن دورتون لم يكن يطير يوم أمس. إنه يمضي زمن موجة الحر في مرتفعات غراند فاذر ماونتن. وقد ادعى أنه ترك السيسنا آمنةً ومضمونة في مهبط طائرات خاص قرب طائرة كونكورد".

سألتُ: "هل من أحد قد رأى الطائرة وهي تقلع؟".

"لا".

"أهناك خطة طيران؟".

"لا".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"هل تعرفين لماذا تحطمت؟".
"اتجه بها الطيار إلى منحدر صخري وارتطم به".
أبقينا هذا الأمر معلقاً لحظة ثمّ سألتُ: "من هو ريكي دون دورتون؟".
"يملك ريكي دون دورتون ملهيين رديئي السمعة: ملهى جاكس وهارت أوف كوينز؛ وكلاهما يقعان في كنابوليس، وهي بلدة للتسكع تقع إلى الشمال من هذا المكان تماماً، هل هذا صحيح؟".
أومأ كلّ الحاضرين بالموافقة.
"يقدم ريكي دون خدمات لاأخلاقية لرجال من كلِّ الأنماط".
قال لارابي: "الرجل شاعر".
قالت ينسن: "الرجل سحلية ولكنه غني. السيسنا 210 هي مجرد لعبة واحدة من لعبه الكثيرة".
سألت: "هل تجارة البغاء تدرُّ أرباحاً كبيرةً إلى هذا الحد؟".
رمقتني ينسن بنظرة تنم عن استخفافها بسؤالي.
سألتُ: "هل يمكن أن يكون ريكي دون ناشطاً على صعيد الاستيراد أيضاً؟".
"راودت هـذه الفكـرة عقـول القائميـن على تنفيذ القانـون المحلي. فوضعوا دورتون تحت المراقبة بعض الوقت".
قلت: "دعيني أُخمِّن، لا علاقة بين ريكي دون وبين فرقة المرتِّلين المعمدانيين".
ربَّتَ لارابي على كتفي وقال: "إنها طيبة، أليس كذلك؟".
ابتسمت ينسن قائلةً: "هناك مشكلة واحدة. لقد كانت الطائرة نظيفة".
"ألا يوجد على متنها مخدرات؟".
"حتى الآن لا يوجد شيء من هذا".
وقفنا جميعاً؛ ثمّ طرحتُ سؤالاً أخيراً واحداً: "لماذا يسمِّي شخص بالغ راشد نفسه ريكي دون؟".
بدا الموقف كأننا في أحد صالونات هاري التكساسية.
"ربما لم يكن راغباً في أن يبدو عليه الغرور والخيلاء".
قلت: "فهمت". إلا أنني لم أفهم.
عندمـا غـادرت ينسـن كانـت السـاعة 4:30، رغبت فـي الذهاب إلـى البيت،

والاستحمام مرةً أخرى، وفي أن أمضي المساء بصحبة ريان. لكنني رغبت أيضاً في الانطلاق إلى الشاطئ بسرعة فائقة على أن يكون هذا أول شيء أفعله صباحاً. ولديَّ عظامٌ عارية في جهاز التبريد.

لو كان بالإمكان تجنب المهام المزعجة، لكنت مماطلةً ومسوّفةً من الطراز العالمي. أكدس البريد أكواماً فأكواماً، ثم أطلع عليه عندما يكون قد فات الأوان. وإذا أردت أن أستمتع بالثلج أنتظر حتى يذوب. أتعايش مع الهندباء البرية والطحالب، وتعتمد حديقتي على مياه الأمطار طلباً للسقاية.

على النقيض مِمَّا أرغب في أن أكون عليه، فإن المهام الشاقة البغيضة غير المنجزة تفعل في رأسي فعل نصل المقصلة. كنتُ أنجز خلال سني حياتي في المدرسة حلقات البحث والوظائف المدرسية قبل أن يحين وقت تقديمها. كنتُ أسهر طوال الليل أدرس وأذاكر عندما كان يقتضي الأمر، ولم أتخلف عن هذا قط. أسدد قيمة الفواتير وقت استحقاقها، ولم يكن يهنأ لي بال قبل أن أنجز الأمور التي لا مفرَّ منها.

اتصلت بريان عبر هاتفه الخلوي. رنَّ الهاتف أربع مرات، إلى أن سمعت صوت ريان على المجيب الصوتي، باللغة الفرنسية ثم بالإنكليزية، لطلب ترك رسالة..

"جهِّز الطبخ، سأكونُ في المنزل عند الساعة السابعة".

وبعد أن أنهيت تسجيل مكالمتي، تساءلتُ عن الحكمة من صوغي لما قلته. كنتُ أشير إلى شريحة اللحم والبطاطا. قد يعتقد ريان أنني أعني شيئاً آخر.

حاولتُ الاتصال بجنيفا بانكس، ولكن، لا أحد يجيب حتى الآن. فكَّرتُ في سكيني سليديل؛ يمكن تجنبه.

لدى عودتي إلى غرفة التشريح، استخدمت زيًّا ورقيًّا جديداً، وغيرت محلول نقع مادة منطقة العانة والأضلاع، وجمعت بقايا جمجمة الراكب. وبعد ذلك، ذهبت إلى جهاز التبريد، وجمعت محتويات الأحواض بصاحبها مقطوع الرأس، ومهرت الدبة الثلاثة وسويتها.

لم يبقَ سوى جزء من محتويات كيس واحد لم يجرِ اختباره. ترى كم من الوقت سيستغرق العمل. ففككتُ ربطة الكيس، وألقيتُ محتوياته فوق الطاولة.

استغرق العمل على العظام الكبيرة عشر دقائق. كانت كلها لدببة.

كنتُ أضع الساق الأخيرة عندما سعى أمر إلى رؤيتي المحيطية. التفتُّ إلى كومة المواد الأصغر حجماً، وكنتُ أبعد محتويات الكومة بعضها عن بعض باستخدام مرفقي الأيسر.

وقعت عيناي على شيء تدحرج فجأة، وبدأ قلبي يخفق بسرعة. ثمّ رأيت في الكومة شيئاً آخر تدحرج أيضاً. فتشنّجت أصابعي، وتحولت يداي إلى قبضتين، وأخذ رأسي يتخبط متحركاً إلى الأمام مثل ساعة دالي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

9

أخذت نفساً عميقاً، وفتحت عينيَّ، ونظرت مجدّداً إلى عظمين اثنين صغيرين. كان أحدهما عظم رسغ قدم شبيهاً بمكعب مع عظم نامٍ بارزٍ يشبه الخطاف. والعظم الآخر يشبه عظم صدر مصغراً نصف منحوت.

لا علاقة لكلا العظمين بالدب؛ اللعنة!

كان قلبي يخفق بين أضلعي خفقاناً شـديداً. وبينما كنت أقلّب عظام الرسـغ فوق قفازي، بحثت عن لارابي؛ إنه في مكتبه.

أظهرتُ العظمين له، فنظر إليهما، ثم إليَّ. فقلتُ: "عظم أعقف وهامي".

"هل هما من مجموعة غولديلوكس؟".

أومأتُ برأسي إيجاباً.

"عظم كف؟".

"يد".

قال عابساً: "عظم إنسان؟".

"جداً".

"هل أنتِ واثقة؟".

لم أجب.

ألقى لارابي قلمه على طاولة المكتب، وقال: "اللعنة".

"أعتقد أنهما عظما إنسان على وجه الدقة".

أسند ظهره إلى مسند كرسيه وقال: "اللعنة على الحرائق الزرقاء!".

"سأستمرّ في العمل على ذاك الموضوع أيضاً".

"ينبغي لنا أن نعود إلى ذاك المكان".

"نعم".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"إن كان ذاك..."، وخز بإبهامه راحة يدي المقلوبة وتابع: "إن كانت اليد حديثة العهد، فإن الذي قام بعملية الدفن قد يعيد النظر في ترتيباته".

"يمكن أن يكون بصدد البحث عن مجرفة في هذه الأثناء بالتحديد".

"أنذهب غداً؟".

أومأتُ إيجاباً.

اتجه لارابي نحو الهاتف وقال: "هل يحتمل أن تكون مقبرة قديمة غير معلّمة؟".

"كلُّ شيء ممكن"، قلت ذلك مع أنني لم أكن أعتقد أن الأمر كذلك.

ترجلتُ من سيارة جو هوكينز عند ملحق بيتي، وعندما دخلت رأيت ريان متمدداً يشاهد على التلفاز إعادة لبث برنامج: **أحب لوسي (I love Lucy)**. من الواضح أن يومه كان قد تضمن تسوقاً، فهو يرتدي الآن سروالاً قصيراً عليه نقش متصالب وكنزة كتب عليها: شراب شعير: ليس فقط لأجل الفطور بعد الآن. على الرغم من أن وجهه كان مسفوعاً بالشمس، فقد كان لساقيه لون فرخ سمك غير مطبوخ.

كان بويد غافياً عند طرف الأريكة الخاصة به. وقد وُضِعت على طاولة القهوة قارورة شراب شعير فارغة، وستة أكياس رقائق حبوب فارغة، وعلبة طعام فارغة ملقاة على الأرض.

تفحصتني أربع عيون عندما ظهرتُ عند مدخل الباب. وكانت بيردي متوارية عن الأنظار. وانسل بويد إلى الأرض.

قال ريان بالفرنسية: "طاب يومك سيدتي الدكتورة".

تركتُ حقيبتي ومحفظتي تسقطان عن كتفي.

سأل ريان: "هل كان يوماً شاقاً؟".

أومأتُ إيجاباً، وابتسمتُ قائلةً: "آمل أن تكون قد أمضيتَ يوماً أفضل".

"ذهبتُ والكلب إلى كينغ ماونتن".

"إلى الحديقة الوطنية؟".

"قاوم اليانكيون (أبناء الولايات المتحدة الأميركية) بعض فلول البريطانيين الخطرين هناك. هل هذا صحيح؟"، فرك أذن بويد الذي وضع ذقنه على صدر

ريان.

فبينما كنتُ غارقةً حتى أذني في لحم تفوح منه رائحة نتنة كريهة، كان هذان الاثنان يتنقلان أسفل ممر التاريخ، وكان أحدهما على الأقل قد استمتع بيومه.

وضع ريان الرقائق في فمه، بينما تبعت عينا بويد حركة يده.

"طارد الكلب سنجاباً خطراً".

عبرتُ الغرفة وصولاً إلى الأريكة، فأبعد ريان قدميه وجلستُ في المكان الذي أبقاه بويد فارغاً.

بدأ الكلب يشمّ صحن رقائق ريان، فوكزته بمرفقي، عندها، استدار ونظر إليَّ محركاً حاجبيه بحركتِه المعهودة.

كانت لوسي وإيثيل مختبئتين في حجرة صغيرة، تحاولان تغيير ملابس العمل. وكانت لوسي تحذر إيثيل من إخبار ريكي.

سأل ريان: "لماذا لم تحصل على الوظيفة؟".

"لم يكن ريكي ليدعها تحصل عليها".

فكرتُ في ريكي دون دورتون.

"لقد تبيّن أن ملكية طائرة السيسنا تعود إلى صاحب ملهيين محليّين، ومن المحتمل أن يكون من المتاجرين بالمخدرات في الخفاء".

"مَن هو؟".

"لا يهم"، لم أرغب في الاستماع إلى أي تعليقات تتعلق بتسمية أفضليات من إخوة لي في الولايات الجنوبية الشرقية. ثمّ تابعت قائلةً: "كانتِ الطائرة نظيفةً من المخدرات، ولم يكن مالكها على متنها".

"كانت طائرة المواطن الرائع مسروقةً".

"نعم".

"أكره هذا الأمر عندما يحدث لي".

ضربتُ ريان على صدره، ونظرتُ إليه نظرةَ انزعاج.

قال: "مَن كان على متن الطائرة؟".

"لا أعرف. المحققة التابعة للهيئة القومية لسلامة النقل مواظبة على الاتصال برجال الشرطة. وسيتحرّون عن المفقودين، ثم سيقومون بتمرير توصيفاتنا عبر هيئة

مباحث كارولينا الشمالية".

حاول ريان إخفاء ابتسامته، فقلتُ وأنا أفرك موضعاً من مرفقي لدغتني فيه بعوضة: "لكنكَ تعرف ذلك مسبقاً. لديَّ بعض الأخبار السيئة"، وضع بويد ذقنه على ركبتي، "هل تذكر عظام الحيوانات التي حدثتك عنها؟".

"نعم، أذكرها".

كان بويد هو الذي اكتشفها فعلياً. لقد كانت مدفونةً في أرض ضمن مزرعة في الريف. وكنتُ واثقة جداً من أن العظام هي عظام حيوانات، إلا أنني أحضرتها إلى مكتب الفاحص الطبي من باب الاحتياط. وأمضيت يومَ الأحد جُله في فحصها.

كانت لوسي جالسة. وكانت إيثيل تحاول إلقاء المئزر فوق حذاء لوسي.

قال ريان ملاطفاً: "وماذا بعد؟".

"لقد عثرتُ اليوم على عظمين بشريّين".

قال ريان: "مع مجموعة العظام غير الواضحة؟".

أومأتُ بحركة من رأسي تعبيراً عن الموافقة.

"إذاً، سيكون يوم الغد يوماً خاصاً آخر".

"لسوء الحظ، انظر، أنا آسفة حقاً. أنتَ تعرف أنني أفضِّل كثيراً أن أكون معك".

"وماذا عن هوتش؟"، نظر ريان إلى الكلب، ثم عاود النظر إليّ مجدّداً.

"والكلب"، ربَّتُّ على رأس بويد، "بالمناسبة، أنا أقدِّر حقاً اعتناءك به".

رفع ريان راحَتَي يديه وحاجبيه في إيماءةٍ توحي بأن هذه هي الحياة.

"إن كان هوتش قد اكتشف جريمة قتل، فإنك لا ترغبين في الإعداد لنقله".

انتقل بويد مجدّداً إلى ريان.

قلت موافقةً إياه الرأي: "لا".

"يتعيّن عليكِ فعلُ ما يجب عليكِ فعله".

"هذا صحيح".

كان ريان بالطبع عالقاً في بلدة كما تعلق العثة في شريط أوبئة وآفات، مما جعلني أشعر بأنني واقعة في فخ.

ملتُ إلى الأمام، وقوّستُ ظهري، وأدرتُ رأسي ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال.

كان ثمةَ أشياءٌ تُطحن في عنقي. فاستوى ريان قاعداً، واقترب مني قائلاً: "استديري".
استدرتُ، وشرع ريان يدلك كَتِفيَّ بحركات دائرية قوية، ما جعلني أتأوّه ألماً.
سأل: "هل التدليك قاسٍ جداً؟".
"أممم". لم أدرك كم كنتُ متوترةً.
وعندما دلَّك بإبهامه كتفي، صدر تأوهٌ رقيقٌ من حلقي، لكنني كبتُّهُ.
ثمّ تحرّكت إبهاما ريان نحو قاعدة جمجمتي؛ آه، يا الله!
ثم ارتفعتا إلى مؤخر رأسي؛ آه، يا الله! إلى أعلى وإلى أسفل، عبر كَتِفيَّ، وعلى طول العضلات على جانبي عمودي الفقري؛ وهنا صدر مني تأوّه كامل.
ما هي إلا ثوانٍ حتى انسحبتِ اليدان، وشعرتُ بأن وسادة الأريكة قد تغير شكلها.
قال: "إليكِ خطة".
فتحتُ عينيَّ، وكان ريان يميل إلى الوراء، وقد تشابكت أصابع يديه خلف رأسه، وكان صحن الرقائق فارغاً، وكل شيء من فتاتها على جانب فم بويد.
"أنا أدعوكِ لتناول طعام العشاء".
"لن أجادلكَ في ذلك. أين؟".
"في بلدتكِ، والخيار لك".

بعد ساعة، كنتُ وريان نمضغ بروستشيتا في توسكانا. كان الليلُ ليلاً صيفياً هوليودياً مثالياً، وكان القمرُ بدراً كاملاً ممتلئاً يتوسط كبد السماء فوق رأسينا.
توسكانا مطعم إيطالي، مختبئ وسط محالّ متميزة فريدة من نوعها، محاطة بمقاهٍ ومنتجعات ومحالّ تجارية، تستمتع في تمضية الوقت فيها نُخبُ شارلوت، وتشتري منها مناديل كبيرة مزدانة بالرسوم لكلابها. بينما تُعدّ هذه المحال والمنشآت حالة خاصة جداً بالنسبة إلى ميزانيتي، فإنني أستمتع بوجودي في مطعم توسكانا، لا سيما في أشهر تناولِ طعامِ العشاء في الهواء الطلق. ومطعم توسكانا ومطعم فولير هما المطعمان المفضلان عندي بين المطاعم الإيطالية. ويقعان على مسافة متماثلة البعد عن منزلي تقريباً مع قاعة شارون. وقد اخترت الليلة مطعم توسكانا حيث جلستُ وريان إلى طاولة صغيرة مصنوعة من حديد مطاوع، وموضوعة كيفما اتفق

www.mlazna.com-RAYAHEEN

في فناء المطعم. ثمة نافورة خلفنا تعزف موسيقى رقيقة وعذبة. جلس إلى اليسار من طاولتنا عاشقان يدور بينهما حوار الجبال مع الشاطئ. وكانت ثلاث نساء خلفنا يتسابقن في لعبة الغولف سباق عَدَل (سباق يُتساهل فيه مع اللاعب الضعيف...).

كان ريان يرتدي بنطالاً قطنياً أصفر اللون ضارباً إلى السمرة وقميصاً قطنياً متموجاً ذا لون أزرق مطابق تماماً للون عينيه. وقد سُفِعَ وجهه بسبب تعرضه لأشعة الشمس في أثناء تنزّهه في حديقة كينغ ماونتن، وشعره لا يزال رطباً حيث كان قد استحمّ؛ بدا وسيماً وجذاباً... لا، بل هو جذاب جدًّا.

لم أكن أنا نفسي شديدة الإبهار، إذ ارتديتُ ثوباً صيفيًّا خفيفاً ومئيراً من الكتان الأسود، وانتعلت صندلاً ذا شرائط.

كانتِ الأيام القليلة الماضية قد عرضت كثيراً من الجثث، وكثيراً من الموت. وكنتُ قد اتخذتُ قراراً لا رجعةَ عنه في أن أغوص عميقاً في ثنايا عملي.

سأل ريان: "هل يلعب الناس كلهم في كارولينا الشمالية لعبة الغولف؟"، كان النادل الذي يرتدي قميصاً أبيض يقدم لنا لائحتي طعام، يبلغ حجم إحداهما حجم كتيب المختصرات القانونية.

"إنه قانون الولاية".

سأل النادل عن الكوكتيل الذي يفضله كلٌّ منا؛ فطلب ريان سام آدمز، وطلبت أنا بيريه مع الليمون. فانسحب النادل وهو يكاد لا يقوى على إخفاء خيبة أمله.

"هـل أنـتِ..."، نظـرت إلـى ريـان، وكان ينقّل طرفه بيـن صدري وعينيّ، "... تلعبين الغولف؟".

"تلقيتُ بعض الدروس".

في الحقيقة، لم أقصد نادياً منذ سنوات. كانت لعبة الغولف أمراً يهتم به بيت. وعندما انفصلتُ عن زوجي تخليتُ عن اللعبة. ربما كانت أفضليتي في اللعبة 42.

كانت المرأة التي تجلس إلى يمين طاولتنا قد حققت هدفاً بعد ضرب الكرة ست مرات.

سألته: "هل تحب أن تضرب بالعصا قليلاً من الكرات؟".

ولأنني، أنا وبيت، لم ننهِ زواجنا بصورة قانونية، فأنا لا أزال زوجة من الناحية التقنية وفي وسعي أن أستخدم التسهيلات الممنوحة له في نادي كرمل كونتري.

لماذا لم أنجز العمل الورقي الكتابي المتعلق بانفصالنا؟ طرحتُ هذا السؤال على نفسي عدداً غير متناهٍ من المرات. لقد انفصلتُ وبيت أحدنا عن الآخر منذ سنوات. لماذا لا أقطع الحبل وأمضي قدماً؟ هل كان حبلاً؟ ليس هذا هو الوقت المناسب، بريتان.

قال ريان، وهو يمدُّ يدَهُ فوق الطاولة ليضعها فوق يدي: "هل يمكن أن تبعث اللعبة على التسلية؟".

بالتأكيد، ليس هذا هو الوقت المناسب.

"طبعاً، لا يحب هوتش أن يبتعد".

"اسمه بويد"، بدا صوتي كما لو أنني كنت أستنشق الهيليوم.

"يجب على هوتش أن يتعلم الاستمتاع بصفاء جماله الداخلي الذاتي. في وسعك جعله يبدأ التدرب على اليوغا".

"سأذكر ذلك لبيت".

عاد النادل حاملاً الكوكتيل الذي طلبناه، وعدّد ما هو مدوَّن على لائحة الطعام. فطلب ريان سمك ذئب البحر، وأنا اخترتُ وجبةَ مارسالا بلحم العجل، وقد تركتُ راحة يدي على الطاولة بحذر.

عندما غادر النادل، عادت يد ريان لتمسك بيدي. بدا على وجهه مزيج من الاهتمام والإرباك، وقال: "لستُ متوتراً بشأن يوم الغد، هل أنتِ متوترة؟".

قلتُ ساخرةً: "لا".

أحقاً، لستِ متوترة؟

"تبدينَ متوترة".

"أشعر بخيبة أمل فقط بشأن الشاطئ".

مرر ريان رؤوس أصابع يده على ذراعي وقال: "لقد انتظرتُ سنين طويلة كي أراكِ ترتدين البيكيني"، قال هذا وأبعد أصابعه عن ذراعي.

"سنذهب إلى الشاطئ"، تنحنحتُ كما لو أنني كنتُ أنظف حلقي من شيء علق به، وتابعت: "ثمة عشراتٌ من القبور غير المُعَلَّمة في تلك المزارع القديمة. ربما كان عظاما اليد هذان تحت الأرض منذ أن عبر كورنواليس منطقة كونز فورد".

في تلك اللحظة، وضع النادلُ طبقَ السلطة على الطاولة بيننا. تكلمنا كثيراً في

أثناء تناول طعام العشاء في أمور لا ناظم بينها؛ تحدثنا عن كل شيء خلا نفسينا وعملينا. ولم نقل كلمة واحدة حول العظام، ولم نشر إلى يوم الغد. لا إشارة إلى وقت لاحق من هذه الليلة.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما فرغنا من شرب القهوة والتيراميسو. استقبلنا هوتش/ بويد عند باب الملحق. وعندما حرّرته من طوقه، نبح وشرع يقفز حول المطبخ.

قال ريان: "يقدِّر هوتش الأشياء الصغيرة"، أشرتُ من جديد إلى أن اسم الكلب بويد، ثمّ أضاف قائلاً: "إنه مرن".

تفوح الليلة رائحة زهور البتونيا والعشب المجزوز. كان ثمة نسيم خفيف يهز نباتات الونكة المتعرشة. وعزف مليون جُدجُد ألحان سيمفونية صيفية حولنا. قادنا بويد من شجرة إلى شجرة، وقد بذل جهداً مضاعفاً إذ كان يتقدمنا ثم يعود إلينا، وكان يُجَفِّل من حين إلى آخر طائراً أو سنجاباً. وكان يعود كل بضع ثوانٍ إلينا كما لو أنه كان يرمي إلى تذكيرنا أن نبقى مُركِّزين عليه؛ لم أكن أركز عليه، إذ كان ذهني يعد عداً تنازلياً للغطس.

لدى عودتنا إلى البيت، ذهب بويد من فوره إلى الوعاء الخاص به، وشرب ماءً وأسرف في الشرب، ولهث، ونفخ من فمه هواء غزيراً، وارتمى على الأرض. شددتُ وثاق طوقه وأقفلتُ الباب.

شعرت بدفء جسد ريان، بينما كنت أضبط المنبه، وهو على بعد إنشات من جسدي، وقد أمسك بإحدى يديه معصم يدي وأدارني نحوه، وضغط باليد الأخرى مفتاح النور.

شممت رائحة ربيع أيرلندي وقطن مشبعة برائحة عرق ذكوري. وهو يضمني إلى صدره بقوة، رفع يدي ووضعها على خده، فنظرت إلى الأعلى. لكنّ العتمة كانت قد ابتلعت وجهه. ثمّ أمسك يدي الأخرى ورفعها إلى الأعلى، فتحسّست أناملي ملامح وقسمات عرفتها منذ عقد من الزمن: عظام خده، وجانب فمه، وزاوية فكه.

مسّد ريان شعري برفق، وانزلقت أصابعهُ على جانبي عنقي، وتحركت عبر كتفيَّ. خارج الغرفة، حرَّك الهواءُ قارعةَ الريح فعزفت لحناً يبعث على السرور.

ثمّ انزلقت يدا ريان فبلغت خصري، حينها، غمر عقلي شعور قوي غريب كما لو أنني تذكرتُ أمراً مر بي في حلم بعيد. أخذت نفسي... لا، أُخذ نفسي من تلقاء ذاته؛ وقبّلنا بعضنا قبلةً قويّة.

فأصدرت كلُّ خليةٍ من خلايا دماغي أمراً موحداً: اصرفي كلَّ شيء من ذهنك.

طوقت ذراعي عنقَ ريان وضممتُهُ إلى صدري، وأخذ قلبي يخفق بسرعةٍ مثل شيء خائف ومتوحش. وتلاشى كلُّ شيء: الحزن، والإحباط، والرغبة التي لم تتحقق في الأيام القليلة الماضية في تلك اللحظة. تقلص المطبخ، الأرض، الكون...

10

كنتُ وبالمر كُزنز وكاتي في مونتريال نحتسي الكابتشينو في مقهىً في الهواء الطلق. وكان في الشارع شخص يعزف الموسيقى مستخدماً الملاعق ويتسول من المارة.

كان بالمر يشرح درس يوغا في قاعةٍ أحضر متلقو الدرس كلابهم معهم إليها. وشرعت الملاعق، بدلاً من الطقطقة، تصرخ في يدي العازف المتسول. وأخذ الضجيج يعلو أكثر فأكثر إلى حدٍّ بِتُّ معه غير قادرة على فهم ما كان يقوله صديق ابنتي... فتحتُ عينيّ... ونظرتُ إلى مؤخر رأس ريان. وشعرتُ شعور فتىً استسلم في ليلة أحيا فيها طلابٌ حفلاً موسيقياً.

بينما كنت أستدير لأستلقي على جنبي، تلمستُ المكان بحثاً عن الهاتف، وقلتُ مترنّحةً: "آلو؟".

"تيم لارابي".

شعرتُ بريان يتقلّب خلفي.

قال لارابي: "آسف لإيقاظك"، لم يبدُ الفاحص الطبي شديد الأسف.

ثبتني ريان عند خصري، فأصدرت صوتاً.

قال لارابي: "هل أنتِ بخير؟".

قلتُ: "إنها القطة".

حدقتُ إلى الساعة، وكان حزامي قد حجب عني أرقامها.

فقلت: "كم الساعة؟". لم يكن في وسعي أن ألفظ كلمات واضحة؛ بل مقاطع صوتية متقطعة.

قال: "السادسة".

سأل لارابي: "هل تلقيتِ رسالتي؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"رسالة؟".

"اتصلتُ بك نحو الساعة الثامنة الليلة الماضية".

"كنتُ خارج المنزل"، ومشغولة جداً الأمر الذي لا يتيح لي مراجعة بريدي الصوتي.

قـال لارابي: "لـم أتمكـن من توفير كلب لإنقاذ حياتي. فقد أطبق كلبك على عظام الدبة تلك، لذلك أحسب أن في وسعه أن يشم رائحة العفن. لذا، أحبذ أن تحضريه معك اليوم إن كان في وسعك فعل ذلك".

"بويد ليس مدرباً على الجيف".

"إنه أفضل من لا شيء".

لم يلتقِ لارابي ببويد قط.

قال لارابي: "بالمناسبة، حصلت شيلا ينسن على معلومات حول طيار سيسنا".

استويتُ قاعدةً، ورفعتُ رُكبتيَّ، وسحبت اللحاف نحو ذقني.

وقلت: "كان ذلك سريعاً".

قال لارابي: "إنه: هارفي إدوارد بيرس".

قلتُ: "الأسنان؟".

قـال: "إضافةً إلـى وشـم الثعبان، هارفي بيرس هـو ذكر أبيض اللون يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً. وهو من كولومبيا، كارولينا الشمالية، قرب أوتر بانكس. هذا ما تمخض فجأةً عن استقصاء أجرته هيئة مباحث كارولينا الشمالية".

قلتُ: "أضحـى بيـرس في عـداد الموتى منذ يوم الأحد فقـط. لماذا أُدرجت مُعَيِّناتُ هويته في برنامج الحاسوب؟".

قال: "يبدو أن زوجة بيرس السابقة لم تكن طويلة الأناة في ما يتعلق بتقديم الدعم لطفلها. إذ تملص الزوج من دفع المال، فبلّغت المرأة السـلطات عنه كونه أضحى في عداد المفقودين".

قلت: "ولم يغب هارفي إلا قليلاً".

"لقد أصبتِ. تعامل السكانُ المحليون في نهاية المطاف بحكمة مع الادعاءات الزائفة عـن غياب الشـخص، لكـن ليس قبل أن تتضح محددات هويته الشـخصية بجلاء للقضاء".

حاول ريان أن يجذبني من جديد إليه. فأشرتُ إليه بإصبع، وقد جعلت وجهي يزداد عبوساً إلى حدٍّ مبالغ فيه كما كنتُ سأفعل مع بويد في وضع مشابه.

قلتُ: "أين تقع كولومبيا بالتحديد؟".

"تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة إلى الغرب من مانتيو على طريق الولايات المتحدة 64".

قلتُ: "مقاطعة داري؟".

"مقاطعة تيريل. أراكِ في غضون ساعة في المزرعة. أحضري الكلب".

عندما وضعت سماعة الهاتف، كانت عيناه مسمَّرتين على وجهي. عينان مدهشتان. وقد بدا لونهما في ظل الفجر الرمادي الشاحب أزرقَ مخضراً تقريباً.

"سيدتي؟".

"نعم؟"، قلتها مترددةً.

"إنني أحترمكِ من كلِّ قلبي وروحي يا سيدتي"، قالها وقد تجهَّم وجههُ كأنه واعظٌ.

نقرتُ بأصابعي نقراً على صدره وقلت: "لستَ نصف سيئ بذاتكِ أيُّها الكاوبوي".

ضحكنا وأمال ريان رأسه إلى الهاتف وقال: "أيحشد الشريف جماعةً من مساعديه؟".

أخفضتُ صوتي مثل أسلوب المخابرات المركزية الأميركية وقلت: "إن أخبرتكَ بذلك، فلربما يتعينُ عليَّ أن أقتلكَ".

أومأ ريان إيماءةَ العارف بالأمر وقال: "هل في وسعكِ وزملائكِ الاستعانةَ بمساعدة إضافية؟".

"يبدو أنه يمكننا ذلك. لكنهم طلبوا بويد فقط".

تظاهر بخيبة الأمل وقال: "هل في وسعكِ أن تضيفي كلمة واحدة يا سيدتي؟".

نقرتُ مجدداً على صدره نقراً إيقاعياً، وقلت: "هل لديك مواهب أخرى...؟".

بعد ساعتين كنتُ متجهةً نحو جسر كوانز فورد، وكان ريان جالساً إلى جانبي، وبويد يقوم بحركاته الروتينية المعتادة في المقعد الخلفي، وكان مكيف هواء سيارتي يئز بأقصى طاقته. أملتُ أن أرصد تحويلة الطريق.

تصورتُ وأنا ألاحظ السقف العالي والسماء الصافية، هارفي بيرس وتساءلتُ عـن سـبب ارتطـام طائـرة الرجـل بجـرف صخري مرئي عصر يوم أحد مشـمس. وتصورتُ لون الطلاء الأسـود المروع الذي يغطي بيرس والراكب الذي كان على متن الطائرة معه، وتعجبتُ مما عساها تكون تلك المادة. كما تساءلتُ أيضاً عن نسب الراكب وعن علامته الأنفية الفارقة الغريبة.

"فيـمَ تفكريـن؟"، دفـع ريـان خطـم بويـد عـن أذنـه، فتحول بويد إلـى النافذة الموجودة خلفي.

"فكرتُ في أن الرجال يكرهون أن يُطرَح عليهم ذاكَ السؤال".

"أنا لستُ مثل الرجال الآخرين".

"أحقاً؟"، سألته رافعةً حاجبي.

"أعرف على الأقل أسماء ثمانية ألوان".

"وماذا؟".

"لا أسيء لمن أحبّ، فهو في مكان القلب".

"هممم".

"هل تفكرين في الليلة الماضية؟"، رفع ريان حاجبيه فجأةً؛ أعتقد أنه اكتسب هذه المهارة من بويد.

سألتُ: "هل حدث شيء ما الليلة الماضية؟".

"أو الليلة؟".

نعم! فكرت.

وقلت: "كنتُ أفكر في تحطم طائرة السيسنا".

"ما الذي يقلقكِ يا زهرتي الجميلة؟".

"كان الراكبُ في الخلف".

"ما سبب ذلك؟ ألا يوجد مقعدٌ أفضل على متن الطائرة؟".

"لـم يكـن ثمـةَ مقعـدٌ أمامي أيمن. لقد طار إلى الأمام بسـبب ارتطام الطائرة. لماذا لم يكن مثبتاً بحزام أمان؟".

"لم يكن يريد أن يجعّد البزّة التي يرتديها في أوقات فراغه".

تجاهلت التعليق وتابعتُ: "وأين كان المقعد الأيمن الأمامي؟".

"هل طار في الهواء بسبب الارتطام؟".

"لم يُعثر عليه بين حطام الطائرة"، رصدتُ التحويلة وانعطفتُ بالسيارة يساراً، "ولم تذكر ينسن أو جوليت أنهما رأيا كرسياً".

"جوليت؟".

"دافيدسون بي. دي. مسؤول الشرطة المحلية في مسرح الحدث".

"هل يحتمل أن يكون المقعد قد أزيل لغرض إصلاحه؟".

"أعتقد أن هذا احتمال وارد. لم تكن الطائرة جديدةً".

وصفتُ المادة اللزجة السوداء له، ففكّر ريان لحظةً وقال: "ألستم تسمّون أنفسكم تارهيليين (أبناء كارولينا الشمالية)؟".

كنتُ أستمع على مدى الزمن المتبقي من الرحلة إلى الإذاعة العامة فقط. وعندما توقفتُ عند المزرعة، ركنتُ سيارتي بمحاذاة عربات الماكرإينز التي سدت أحد جانبي الطريق. ضم تجمع السيارات هذه المرة سيارة تيم لارابي اللاند روفر، وطراداً للشرطة، وعربة مسرح الجريمة التابعة لإدارة الشرطة، وعربة الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ.

كان ثمةَ فَتَيانِ يشاهدان الموقف من جانب الطريق المعاكس، وقد ظهرت سيقانهما الطويلة والنحيلة من قطع الجينز التي كانا يرتديانها، وكانت معدات الصيد مربوطة إلى دراجتيهما. كان الوقت لا يزال باكراً حيث تجاوزت الساعة الثامنة قليلاً، وكان آخرون سيصلون عندما يحدد جيشنا الصغير مواضعه: المارة، والجيران، ووسائل الإعلام ربما. وكلٌّ منهم يسيل لعابه لإلقاء نظرة خاطفة على سوء حظ آخرين.

كان لارابي يقف على مرجة مع جو هوكينز، وكان هناك شرطيان بالزي الرسمي، أحدهما أسود والآخر أبيض، وتقنيان من وحدة مسرح الجريمة، كانا قد ساعدا على استخراج العظام العارية. وكان ثمة شخصٌ يوزع كعكاً مُحلّى وشراباً، أخذ منه كلُّ الحاضرين باستثناء الشرطي الأسود.

كان بويد يقفز ويضرب سقف السيارة برأسه إلى حدٍّ كاد أن يفقده الوعي عندما خلّفته وريان في مقعد السيارة الخلفي. انتصب واقفاً ومد خطمه عبر نافذة السيارة المفتوحة مقدار ستة إنشات، وبدأ يلعق الزجاج من الخارج بتحريك لسانه

عليه دائرياً. تبعنا نباحه إلى مكان الدائرة الصغيرة المجاورة للإسفلت.

بعد مقدمات، عرّفتُ عبرها ريان ببساطة؛ بصفته زميلاً زائراً من سلك الشرطة في مونتريال. عرض لارابي الخطة، وبدا رجلا الشرطة الأبيض والأسود حادَّيِ الطبع ويعانيان مللاً، وكانا يبدوان فضوليين بشأن ريان فقط، وقال: "من المفترض أن تكون هذه الملكية مهجورةً، لكنّ الشرطيّين سيلقيان نظرة حول المكان ليريا إن كان بإمكانهما أن يشركا أي شخص وهما واثقان به".

نقل الشرطيّ الأول قدميه، وتناول آخر ما تبقى من الشوكولاته مع ما نُثر عليها. وعقد الشرطيّ الأسود ذراعيه على صدره، حيث بدتِ العضلات بحجم جذور تين البنغال (شجر استوائي آسيوي ضخم) وبقوتها.

تابع لارابي عرض الخطة: "وعندما يعطي الشرطيّان الضوء الأخضر، سندع الكلب يجوب المكان لنستطلع أفكاره عنه".

قلت: "اسمه بويد".

سأل أحد العاملين التقنيين: "هل بويد أنيس؟".

"أعطه قطعة دونات لتجعله صديقاً مدى الحياة".

توهجتِ الشمس الوردية فجأةً في حين كانت تتحول لتنظر إلى الكلب.

تابع لارابي قائلاً: "في حال ضرب بويد الأرض، فسنحفر حيث يضرب. وفي حال عثورنا على أي رفات بشرية، فسيقرر الأنثروبولوجي العامل معنا إن كانت مشبوهة أو لا؛ لذا، فإن الأمر يقضي أن نتحرك بسرعة في المكان. هل نحن جميعاً متفقون على هذا؟".

أومأ كلُّ الموجودين إيجاباً.

بعد عشر دقائق عاد الشرطيان. وقال الشرطي الأبيض: "لا مؤشرات على وجود حياة في المنزل، ولا يوجد أحدٌ في المباني الملحقة به".

قال الشرطي الأسود: "يوحي المكان بأنه مقلبُ نفايات خطر. انتبهوا".

قال لارابي لي: "اعملوا أنتم الثلاثة في القسم الغربي"، ورفع ذقنه مشيراً إلى هوكينز وأردف قائلاً: "سنعمل، أنا وأنت، في القسم الشرقي".

غنى ريان قائلاً: "وسنكون في اسكوتلندا قبلك".

نظر لارابي وهوكينز إليه فقلت: "إنه كندي".

فقـال لارابي، وهـو يعطيني جهاز اتصال لاسـلكي: "ارفعي صوتك لتعلميني عبر الجهاز في حال ضرب بويد الأرض في مكان ما".

أومـأتُ بحركـة مـن رأسـي امتثالاً، وحللتُ وثاق الكلب الذي أبدى حماسةً شديدةً للعمل وتقديم خدماته.

لـم تكـن المزرعـةُ مزرعـةً حقـاً، فحديقتي العشـبية تغلّ محصـولاً مما يؤكل أكثـر ممـا تغـل هـذه المزرعـة. كان المحصـول هنا كله من نبات كـودزو وهو نوع من النباتات المعترشـة. أما نحن، فلدينا في كارولينا الشـمالية الجبال والشـواطئ والأزاليات (نباتات صحراوية)، وأشجار القرانيا المدماة، والرودوندرون (نبات ذو زهر جَرَسي الشكل). ونعتلي حميرنا لنمشي فوق نباتات الكودزو.

موطـن نباتـات "البويراريا لوباتا" الأصلي هو الصين واليابان، حيث تسـتخدم بصفتها مورداً للقش والعلف وللسـيطرة على انجراف التربة. وفي عام 1876، قرر بعـض عباقـرة البسـتنة جلـب نبات الكـودزو إلى الولايات المتحـدة لاعتقادهم أن النباتات المعترشة ستكون نباتات زينة عظيمة.

ألقى البقـلُ نظـرةً واحـدة إلـى الولايـات الجنوبية وقـال: "جوّ حـار!"، ففي شارلوت، في وسعك أن تجلس على شرفتك في ليالي الصيف وأن تسمع أصوات نهايات نباتات الكودزو المعترشة وهي تنمو زاحفة إلى الأمام.

تدّعي صديقتـي آن أنهـا وضعـت علامـةً عند نقطة معينة، وفـي غضون أربع وعشـرين سـاعة تقدمت نهايات النباتات المتسـابقة المعترشـة على درابزين شرفتها مسافة إنشين.

لقـد غطـى نبات الكودزو المعترش سـياج الجـزء الخلفي الصدئ من البيت. وانزلق معترشاً على طول الكبلات الكهربائية، وابتلع الأشجار والشجيرات، وغطى البيت وملحقاته. ومع هذا، لم يكترث بويد للأمر، فقد سحبني من أشجار البلوط إلـى المنغوليـا، إلـى مبنـى الضـخ، ومن ثمّ إلى البئر وهو يشـم ويهز ذيله كما فعل في ملحق البيت. خلافاً للاكتئاب الذي خلفته عظام الدببة، لم يظهر شـيء سـوى الصيدنانيات (حيوانات صغيرة شبيهة بالسناجب) والسناجب.

بويد الباسكرفيلز.

عند الساعة الحادية عشرة، كان البعوض قد امتص كثيراً من الدم. وكنتُ قد

بدأتُ أفكر في أن هذه "عملية سحب دم". وكاد لسان بويد يقترب من الأرض، وكان كلٌّ منا - ريان وأنا - يصبُّ اللعنات ألف مرة.

كانت السحب الرصاصية والمثقلة تُساقُ فوقنا، فأضحى النهار معتماً ومتثاقلاً. وقد حملت نسمةٌ بسيطةٌ فاقدةٌ للحيوية وعيداً بهطول المطر.

قلتُ وأنا أمسح جانب وجهي بطرف كم كنزتي القصير: "لا طائلَ من هذا"، لم يعترض ريان على ما قلته، فتابعت قائلة: "كانت استجابةُ الشم عند الكلب باستثناء المكان الذي حفرنا فيه بحثاً عن الدبة عند السياج الذي يشكل حداً فاصلاً بين هذه المزرعة ومزرعة ماك كراني، ضئيلةً جداً".

"إنه يحب أن يراكِ نافدة الصبر". ثم وجّه ريان كلامه إلى بويد قائلاً: "ألا تعتقد أنني كنتُ أراقبك، أتعتقد ذلك يا هوتش؟".

نظر بويد إلى ريان ثم عاد ليلعق صخرةً.

"ريان، يتعين علينا فعل شيء".

"إننا نفعل شيئاً".

رفعتُ حاجبي قائلةً: "نحن نتصبب عرقاً".

كانت كاتي ستفخر بحركة العين الدائرية.

"ونؤدي عملاً عظيماً لعيناً، آخذين في الحسبان هذه الحرارة".

"لندع بويد يذهب خلف السياج مرة أخرى، ونذكِّره بما نبحث عنه، ثم نجري مسحاً أخيراً".

أرخيتُ يدي فلعقها بويد.

قال ريان: "يبدو الأمر كما لو كان خطةً".

لففتُ طرف السّير حول راحة يدي وجذبتُهُ بشيء من العنف. نظر بويد إليَّ، ورفع شعر حاجبيه كما لو كان يشكك في صحة شن غارة أخرى.

قال ريان: "أعتقد أنه ملَّ".

"سنعثر له على سنجاب".

عندما انطلقتُ وريان، أسرع بويد في السير. كنا نشق طريقنا على نحو متموج بين المباني الملحقة خلف المنزل، عندما انخرط الكلب في عمله الروتيني من شمٍّ ونفخ.

وهو يمشي متثاقلاً نحو كوخ يغطيه نبات الكودزو المعترش، استنشق بويد رائحة الأرض، ورفع ساقه، ومشى خطوتين اثنتين إلى الأمام، ثم نبش الأرض مستخدماً قائمتيه الخلفيتين كلتيهما. هازاً ذيله، ثمّ كرر المناورة شاقاً طريقه نحو القاعدة.

شمّ، رفع، نبح، خطوة، خطوة، نبش، نبش.

شمّ، رفع، نبح، خطوة، خطوة، نبش نبش.

قال ريان: "إيقاع جميل".

"رقصة باليه صرفة".

أوشكتُ أن أسحب بويد من المكان المغطى بالنباتات وأوراق الشجر إلا أن توتره العضلي تغير. فقد جحظت عيناه واندفعَ رأسه إلى الأمام في حين ضمر بطنه.

ضربة واحدة، ثم التصق خطمه بالأرض، تلتها ضربة أخرى. تصلبت عضلاته، وشهق بويد وزفر، مبعداً نباتاتٍ يابسة، ثم هدأ هدوءاً تاماً وكاملاً.

ضربة قلب كانت بطول عمرٍ بأسره. انتصبت أذنا بويد، وارتفع شعر عنقه وظهره، وزحف صوتٌ غريب من حنجرته زحفاً، وكان صوتُهُ ندباً وعويلاً أكثر منه تذمراً. ثمّ استقام الشعر المرسل على عنقه وأضحى عمودياً؛ لقد سمعتُ هذا الصوت من قبل. وقبل أن أتمكن من الكلام، انفجر بويد. تمعجت شفتاه، وظهرت أنيابه لامعةً، وحلّ محلّ العويل نباح مسعور.

"هون عليك، بويد!".

اندفع الكلب إلى الأمام وإلى الخلف متوعداً من كل زاوية.

أحكمتُ قبضة يدي وثبتُّ قائمتيه كلتيهما، وسألتُ: "هل تستطيع الإمساك به؟".

أمسك ريان السّير من دون أن ينبس ببنتِ شفة. بينما كان قلبي يرتعد، نبشتُ بين النباتات بحثاً عن باب، ثمّ قرقع جهاز الاتصال اللاسلكي وقال لارابي شيئاً ما.

عثرت على المدخل في الجهة الجنوبية، بعيداً عن البيت، وسحبت مقبض الباب وأنا أدفع عني بحذر خيوط العناكب؛ البابُ لا يتزحزح. نظرتُ إلى أعلى وإلى أسفل على طول الإطار: ثمة مسماران يسمّران الباب في مكانه. إنهما يبدوان جديدين مقارنةً مع الخشب القشاري الجاف المحيط بهما.

استمرّ هيجان بويد، بينما أحكم ريان وثاقه شاداً السيّر، وهو يناديه: "هوتش"، ثم "بويد" لتهدئته.

معريةً نصل سكيني التي يستخدم مثلها الجيش السويسري، انتزعت مسماراً، ثم آخر. سعى إلى مسامعي صوت لارابي ضعيفاً وخفيضاً جداً عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، كما لو أنه كان منبثقاً من مجموعة نجوم غريبة، فضغطتُ على الزر وذكرتُ موقفي الذي كنتُ فيه.

عندما حاولتُ ثانيةً، صرَّ الباب صريراً وانفتح، ففاحت رائحة تراب نتن، تشبه رائحة نباتات يابسة وعفنة تركت تحت الشمس أمداً طويلاً، كما وطنَّ ذباب مهتاجاً. حدقتُ مستطلعةً ما في الداخل، مغلقةً فمي وأنفي براحة يدي، بينما أخذ الذباب يتراقص عبر خيوط الضوء شاقاً طريقه عبر فجوات الجوانب. وببطء تكيفت عيناي مع داخل المكان المعتم. قلتُ: "مثالية، صورة مثالية لعينة".



كنتُ أحدق إلى دورة المياه.

لقـد لعبـت دورةُ الميـاه فـي وقت واحد دوراً مهماً عبـر تقديمها تقنية متقدمة للتخلص من الفضلات البشرية: مكافحة حشرات، وورق تواليت، ومقعد أنيق مع غطاء علوي.

كلُّ هذا تلاشى الآن، وكلُّ ما تبقى مساحةٌ ضيقة باتت مرتعاً للآفات، وجهازٌ صاعق للحشرات صدئ، ومسماران مدقوقان في لوح مثبّتٍ على مستوى جلوس المستخدم، وكومةٌ من ألواح خشبية، وإطار خشبيّ وردي بيضوي.

ثمةَ حفـرةٌ تقـدَّر مسـاحتها بقدمين مربّعتين تقريباً تبدو داخل اللوح الخشـبي الذي يكسو الأرض في نهاية الكوخ البعيدة.

لقد كانتِ الرائحةُ النتنةُ مألوفةً، تستحضر إلى الذهن رائحةَ دورات المياه في المخيمات الصيفية، والمتنزّهات القومية، وقرى العالم الثالث. إلا أن هذه الرائحة أخفُّ حدةً نوعاً ما.

أضاف عقلي سلسلةً من الشتائم إلى تلك التي أطلقتها وريان في أثناء تجوالنا في المكان المحيط مع بويد.

قلتُ: "فضلات!"، بصوت عالٍ من أجل مزيد من التأكيد.

لما تمضِ ثلاثة أشهر على الوقت الذي كنتُ فيه غارقةً حتى أذنيَّ في البحث فـي ركام خـزان صـرف صحـي. لقـد عاهدتُ نفسـي ألا أعود مطلقاً إلى مسـتنقع فضلات مرةً أخرى؛ الآن هذا.

"فضلات! فضلات! فضلات!".

"غيرُ لائقٍ بسيدة وغيرُ ملائم لها".

وضـع لارابـي يـده على كتفـي، فتنحيتُ جانباً. كان بويـد خلفنا يواظب على

www.mlazna.com-RAYAHEEN

نباحه، في حين كان ريان مستمراً في محاولاته تهدئته.

صفعتُ بعوضةً كانت تقتاتُ على ذراعي وأنا أقول: "لكنه وضعٌ مناسب جداً".

أقحم لارابي رأسه في دورة المياه، وسحبه بسرعة.

"هل يمكن أن تكون الرائحة قد أحدثت دواراً في رأس بويد وهذا كلُّ ما في الأمر؟".

عبستُ خلف لارابي قائلةً: "يمكن أن يكون الأمر كذلك، لكن عليك أن تتوثق من ذلك. تثبّت أن أحداً لم يَبُل على جيمي هوفا".

ترك لارابي الباب ينغلق محدثاً دوياً وهو يقول: "لم يَبُل أحد على أحد في هذا المكان منذ أمد. من المحتمل أن تكون انطلاقة النهائي الكبير قد حصلت في عهد أيزنهاور".

"ثمةَ أمرٌ سيئ يحدث في تلك الحفرة".

"نعم".

أبعدتُ بعضَ البعوض عن وجهي بيدي وأنا أقول: "هل لديكَ ما تقترحه؟".

قال: "حفّارة".

"هل في وسعنا أن نلقي نظرةً داخل البيت أولاً، في محاولة لتقدير الزمن الذي أنفق فيه فارمر جون بإسراف على تمديد شبكة الأنابيب الداخلية؟".

"اعثري لي على عظمة بشرية واحدة، وسأجعل الوحدة المختصة تنسف حوض الفضلات من أساسه".

كانتِ المغرفة تزيح من التراب المحيط بالحفرة غرفةً سابعةً. وعملتُ وجو هوكينز وريان في دورة المياه على مدى ثلاث ساعات؛ نملأ دلواً بعد آخر، وما انفكتِ الحفرةُ تجود بكنزها المكنون.

كان ذاك الكنز يحتوي على شظايا زجاج مكسّر، وعلى صينيٍّ (خزف وآنية من الصيني)، وقصاصاتِ ورق، وقطعِ بلاستيك، وآنيةِ صدئة، وعظامِ حيوانات، وعلى غالونات من مادة عضوية متفحمة وغامضة.

كان عاملُ الحفر يغرف ويفرغ وينتظر، في حين كان هوكينز يجمع العظام في كومة وحطام الآنية المنزلية في أخرى بعد فرزها. وكان ريان ينقل دلاء من المزيج

إلى حيث وضعتُ منخلي. وكنتُ أنا أغربل وأنقب.

كنا نزداد تفاؤلاً. بدا الجزء المتعلق بالهيكل العظمي من الكنز غير بشري قطعاً، وهو نتاجُ لحوم مطبوخة. وخلافاً لما كان عليه اكتشاف بويد عند السياج في مزرعة ماك كرانّي، وكانتِ العظام خاليةً من الأنسجة؛ هذه الحيوانات كانت قد ماتت منذ أمدٍ بعيد.

اكتُشِف العظم السنعيُّ (عظم في مشط اليد) عند الساعة الثالثة والدقيقة السابعة بعد الظهر. حدقتُ إليه، بحثاً عن شيء يحملني على الشك؛ لكن، لم يكن ثمةَ شكٌّ، كان العظمُ جزءاً من إبهام، في وسع صاحبها أن يشير بها إلى سيارة تعبر الطريق كي يُوقف إحداها ليركبها متطفلاً، وأن يبرم بها سباغيتي، وأن يستخدمها في العزف على بوق، وأن يستخدمها في كتابة سونيته (قصيدة غنائية)... استسلمتُ وأغمضتُ عينيَّ، ثم فتحتهما لدى سماعي صوت وقع خطىً. كان لارابي يدور حول كومة الركام التي كانت قبل ساعات دورة مياه خارجية.

سألتُ: "كيف حال بويد؟".

"إنه يستمتع بشيء بارد في المرجة الأمامية. صحبةُ الكلب ليست سيئة".

لدى رؤيته وجهي تبخرت ابتسامته وقال: "هل عثرت على شيء؟".

رفعتُ يدي ووضعت العظم السنعي في مكان ملاصق لقاعدة إبهامي.

"اللعنة"؛ لقد انضم إلينا ريان وهوكينز حيث كان المنخل. وردد ريان ما قاله لارابي: "اللعنة".

وضع عامل الحفر كعب حذائه على لوحة التحكم، ورجع بظهره إلى الخلف، وابتلع ماءً معبأً في زجاجة.

سأل لارابي: "الآن ماذا؟".

قلتُ: "للحفار لمسةٌ حساسة، والحفرُ يتطابق بصورة جيدة مع شكل المجرفة. أعتقد أنه في وسعنا أن نستمر على هذا المنوال. من غير المحتمل أن يتعرض ما هو موجود في الحفرة للعطب".

"اعتقدتُ أنكِ كرهتِ الحفارين".

"هذا الرجلُ جيد".

حدّقنا جميعاً إلى عامل الحفر؛ يبدو أنه من المحتمل أن يكون أقل اهتماماً.

لكن فقط بمساعدة مستحضراتٍ صيدلانية مهمة.

قصف رعد في المدى، وقد أضحتِ السماء حينها دكناء وباتت تتوعد بالمطر.

سأل لارابي: "إلى أي عمق سنحفر؟".

"لقد بـدأتُ أرى تراباً مجدباً في المجروفات القليلـة الماضية. نحن قريبون من القاع".

قال لارابي: "حسناً، سـأقلب الأشياء الرخوة على المنزل"؛ استقام واعتدل في وقفته.

قلت: "وتيم؟".

"نعم؟".

"ربما يكون هذا الوقت مناسباً للحصول على القاتل على متن الطائرة".

أنهينا العمل في حين كانت قطراتُ المطر تنهمر من السماء، فرفعت ذقني، وأنا أشعر بالامتنان للرطوبة الباردة على وجهي. كنتُ متعبةً جداً ومرتابةً. لقد أديت كثيراً من العمل في وقت اشتدت فيه رغبتي في التحرر منه.

كانت غران غير متعاطفة. حيث إنها ولدت بين أخوات وتلقت علومها منهن، فإنهـا تنظر نظـرةً فريـدةً في نوعها إلى الأمور الجنسـية، خاصة التي لا يقرّها رجل الدين المسؤول عن دار عبادتها.

لا زواج، ولا مرح صاخب. بسـني عمرها التي تعد تسـعاً وثمانين سـنة على كوكب الأرض، لم تتزحزح قط عن ذاك الموقف، ولم تتغاضَ عن استثناءات مطلقاً كما أعلم.

وأنـا ألـف ذراعـي حـول خصري، شـاهدت ريان يحزم عظـام الحيوانات في حقيبة ضخمة، ورأيت هوكينز يختم بقايا بشـرية في حوض بلاسـتيكي، ويسـحب استمارة اقتفاء أثر جثة من حقيبة ذات زمام، ويبدأ في إدراج البيانات: عنوان المكان الذي عثر فيه على الميت؛ حسـناً، هذا متاحٌ لنا. أما اسـم الميت، وعمره، وعرقه، وجنسه. وتاريخ ميلاده، فكل تلك الخانات بقيت فارغة.

حالة الجثة، الهيكل العظمي؛ كي أكون دقيقةً، جمجمة وفك سـفلي، وثلاث فقرات عنقيّةٍ، وعظام تضم أفضل جزء من اليدين اليمنى واليسـرى. طابق هوكينز الرقم المدرج على الاستمارة مع الرقم المدرج على البطاقة، ثم أسقط البطاقة داخل

الحوض البلاستيكي. نظرت حولي قائلةً في سرّي: قتل إنسان في هذا المكان. قُطع رأس الضحية ويداه، وأُلقي بها في دورة مياه، وأُلقيت الجثة في مكان آخر. أم هل وقع القتل في مكان آخر، وأُحضر الرأس واليدان إلى دورة المياه للتخلص منها؟ كلتا الحالتين كانتا نمطاً شائعاً: التخلص من الرأس، والتخلص من اليدين. أمّا في ما يتعلّق بالأسنان، فلا يوجد شيء. ولا حتى بصمات أصابع. لكن هل يكون ذلك في مقاطعة مكلنبورغ الريفية؟

أغمضتُ عينيّ وعرّضتُ وجهي للمطر؛ من عساه يكون الضحية؟ كم من الوقت مرّ على وجود أجزاء الجثة في دورة المياه؟ أين هي بقية الجثة؟ مَن الذي دفن عظمين من عظام اليد مع الدببة؟ هل ثمةَ صلةٌ بين ذبح الحيوانات وقتل الإنسان؟

استعادني صوت ريان يقول: "هل أنتِ مستعدة؟".

"ماذا؟".

"تم تحميل كل الأشياء".

عندما درنا حول المنزل وصولاً إلى واجهته الأمامية، كان في وسعي أن أرى ثوراً أبيض قد انضم إلى السيارات وعربات النقل على جانب الطريق. وكان ثمة رجلٌ ضخم يخرج من جانب السائق، وقد تدلت سيجارةٌ من زاوية فمه. وظهر رجلٌ طويلٌ ونحيلٌ من مقعد الراكب، انحدرت قدمان، وأمسكت أصابعُ طويلة ناتئةُ العظام إطارَ الباب. تبادل لارابي كلماتٍ قليلةً مع الرجلين، في حين كان هوكينز يجتاز بهما الطريق إلى العربات.

تمتمت: "عظيم".

سألني ريان: "ماذا؟".

"أنتَ على وشك أن تقابل توأماً يصعب التمييز بينهما، إنهما رينالدي وسليديل".

"ليس هذا أمراً خيرياً جداً".

"يبدو رينالدي على ما يرام. وسليديل لن يقوم بأعمال الجراحة لجري سبرينغر".

نفث سكيني سليديل تيارَ دخان، ونفضَ الغبار عن بنطاله، ثم توجَّه مع شريكه

نحونـا. بينمـا كان سـليديل يتحـرك متثاقـلاً، بدا رينالدي يتحـرك على نحو متقطع؛ يبلغ طوله ست أقدام وأربعة أعشار القدم، ويزن أكثر من 160 باونداً بقليل، وبدا الرجل شبيهاً بطُوَّل (طائر مائي طويل العنق والسـاقين) يرتدي ثياب هوغو بوس. لقد تشارك سكيني سليديل وإيدي رينالدي على مدى تسعة عشر عاماً، ولم يستطع أحدٌ أن يفهم السر الذي يجذب أحدهما نحو الآخر: لم يكن سليديل يعتني بنظافته، في حين كان رينالدي أنيقاً. يأكل سـليديل أطعمةً مشبعة بالكولسـترول، بينما يأكل رينالـدي توفـو (مسـحوق الصويـا). يحـب سـليديل موسـيقى الشـاطئ، والأغاني القديمـة، وموسـيقى الـروك أند رول، في حين كان رينالدي متعصباً للأوبرا. وكان حس سليديل بالزي الدارج ينزع نحو اللون الأزرق الخفيف، في حين كان رينالدي يوصي رينالدي كي تصنع بزّاته من أجله خاصة؛ كلُّ هذا عصيٌّ على فهمي.

قال سليديل وهو ينتزع منديلاً محشوراً في جيبه الخلفي: "مرحباً دكتورة".

رددتُ التحية.

"أليسـتِ الحـرارةُ مرتفعـةً ارتفاعـاً يحاكي التواضع؟"، مسـح جبينـه بمنديله المصفر، وحشره بأصابعه في جيبه.

"ستُلَطِّف الأمطارُ الجو".

"بمشيئة الله الكريم".

بدا الجلد على وجه سـليديل كما لو أنه كان قد تعرَّض للشـد بشـدةٍ ثم تُرِك ليتدلى فجأةً. فتجمع على هيئة أهلّةٍ تحتَ وجنتيه وعينيه، وتدلى من طرف فكه.

"دكتورة برينان". كان شَعر رينالدي دقيقاً جداً في قمة رأسه لكنه قوي، وقد نتأ من فروة رأسـه كأنه شـعر إحدى شـخصيات مسلسـل بينتس الدرامي التلفازي. لم أستطع أن أتذكر قط إن كان اسم تلك الشخصية لينوس أم بيغين؟ على الرغم من أن رينالدي كان قد خلع عنه سترته، إلا أن ربطة عنقه كانت معقودةً بدقة.

عرَّفـتُ ريـان إليهمـا. بينما كان الرجال يتصافحون، مشى بويد نحوهم وشـمَّ منشعب بنطـال سـليديل. أمسـكتُ به من طـوق عنقه قائلةً لـه: "بويد!"، وأرجعتُ الكلب إلى الوراء. انحنى سليديل، وأمسك أذني الكلب، وأغلظ عليهما وقال له: "انضبط". وكان الجزء الخلفي من قميصه متجمعاً على شكل حرف T.

قلتُ: "اسمه بويد".

قال سليديل: "لا أخبار عن قضية أسرة بانكس، لا تزال الأم الصغيرة غائبةً من دون إذن"، استقام سليديل واعتدل في وقفته، "وهكذا وجدت نفسك في حالة تيبس في المرحاض".

ظل وجه سليديل رخواً مترهلاً حين كنتُ أقدّم شرحاً عن الرفات. أعتقد أنني في لحظة معينة من حديثي قد لمحت وميضاً خاطفاً في عيني رينالدي، لكن الوميض ظهر ثم غاب بسرعة البرق؛ لم أستطع أن أتوثّق.

"اسمحي لي أن أطرح هذه النقطة بصورة مباشرة"، بدا سليديل مشككاً، "أتعتقدين أن العظام التي عثرتِ عليها في القبر تعود إلى إحدى الأيدي التي عثرتِ عليها بين النفايات والمخلفات؟".

"لا أرى أي سبب للاعتقاد خلافاً لذلك. كلُّ شيء ثابت وليس ثمة ازدواجيات".

"كيف خرجت هذه العظام من مقلب النفايات والمخلفات ثم عادت إليه مع عظام الدببة؟".

"يبدو هذا كأنه سؤال ينبغي طرحه على تحرٍّ أو مُخبِرٍ".

"هل لديك أيُّ فكرة عن زمن إلقاء الضحية؟".

هززتُ رأسي نافيةً.

سأل رينالدي: "هل يوجد أي انطباع عن جنس الضحية؟".

أجريتُ تقويماً سريعاً. على الرغم من أن الجمجمة كانت كبيرة الحجم، إلا أن كلَّ المؤشرات التي كانت تشير إلى الجنس متوسطةٌ إلى حدٍّ يثير الإزعاج. ليس ثمةَ مؤشرٌ على أن الضحية من الجنس اللطيف، وليس هناك دليل على أنها من الجنس الخشن.

أجبت: "لا".

"ماذا عن العِرق؟".

"أبيض. لكن سيكون عليَّ أن أتحقق من ذلك".

"إلى أيِّ حدٍّ تشعرين بالثقة؟".

"واثقةٌ تماماً. ففتحةُ الأنف ضيقة، وجزء الأنف العلوي العظمي الذي يقع بين العينين (جسر الأنف) يحاكي برج دار العبادة هيئةً، وعظام الخدين مشدودة

إلى الوجه، وتبدو الجمجمة أوروبية أصيلة".

"ماذا عن العمر؟".

"الهيكل العظمي مكتمل النضج في الأصابع، وفي الأسنان شيء يسيرٌ من البِلَى، وخطوط الاتصال بين العظام الجمجمية مغلقة ومختومة بالحدود الدنيا".

سحب رينالدي مفكرة مجلدة بجلد طبيعي من جيب قميصه وقال: "ماذا يعني هذا؟".

"يعني أنه بالغ".

دوَّن رينالدي ما قلته باختصار وعلى عجل.

قلتُ: "ثمةَ أمرٌ صغير آخر".

كلا الرجلين نظرا إليَّ.

"ثمة فتحتان في مؤخر الرأس ناجمان عن إصابة بعيارين ناريين. عيار صغير. ومن المحتمل أن يكون اثنين وعشرين".

قال سليديل: "هذه نقطة ذكية تنطوي على براعة، لندخرها للنهاية. ألا تظنين أنكِ عثرتِ على بينةٍ حاسمةٍ دالةٍ على ارتكاب جريمة؟".

"لا؛ لا بندقية، ولا أعيرة نارية، ولا شيء يتعلق بالمقذوفات".

مال سليديل برأسه مشيراً إلى السيارة المتوقفة قائلاً: "لماذا يغادر لارابي؟".

"سيُدلي بحديث هذه الليلة".

وضع رينالدي خطاً أفقياً تحت شيء من الكلمات المدوَّنة في مفكّرته للتركيز عليها، وأزلق القلم في الحيز الضيق الخاص به وسأل: "هل في وسعنا أن نذهب إلى الداخل؟".

"سأكون هناك خلال دقيقة".

وقفتُ أصغي إلى أصوات قطرات المطر وهي تنهمر على أوراق أشجار المنغوليا فوق رأسي مؤجلةً دونما إدراك مني ما لا مفرَّ منه. على الرغم من أنني كنتُ راغبةً، بوصفي عالمةً، في معرفة الشخص الذي سحبنا جثته من القبر، فإن فيَّ جانباً آخر كان راغباً في الابتعاد، وفي ألاَّ يكون له دور في تشريح جريمة أخرى.

كثيراً ما يسألني أصدقاء: "كيف يتسنى لكِ أن تتعاملي مع بقايا موت؟ ألا يحطُّ هذا من قدر الحياة؟ جعلُ الموتِ القاسي الوحشي الموجع أمراً شائعاً".

أقول وأنا أنفض عن نفسي غبار التساؤلات عبر استجابة عادية ومألوفة عن وسائل الإعلام: "يعلم كلُّ الناس ما يعلمون عن الموت العنيف. يقرأ الجمهور عن حوادث الطعن، وإطلاق النار، والكوارث الجوية. ويسمع الناس إحصاءات، ويشاهدون لقطات مصورة على شاشات التلفاز، ويتابعون وقائع المحاكمات عبر محطة تلفاز المحاكمات... وما هو الفارق الوحيد؟ إنه يتمثل بأنني أرى المذبحة عن كثب أكثر".

هذا ما أقوله. لكن الحقيقة هي أنني أفكر كثيراً في الموت. وفي وسعي أن أكون رابطة الجأش إلى حدٍّ ما في الحال الصعبة التي يعامل فيها الناس بعضهم بعضاً كما تُعامَل السلع في عالم التجارة. لكن ليس في وسعي مطلقاً أن أتجنب الشعور بالإشفاق على الشباب والضعفاء الذين يحدث لهم ببساطة أنهم يتورطون بمحض المصادفة مع أحد المختلين عقلياً ممن يصغون إلى أصوات تسعى إليهم من كوكب آخر، أو مع أحد المدمنين على المخدرات الذي يكون بحاجة إلى خمسين دولاراً وهو الثمن اللازم لشراء جرعة من مخدر، أو على شخص بريء حقاً لم يرتكب من جانبه أي خطأ، لكن تصادف وجوده في المكان الخطأ والوقت الخطأ وصُنِّف ضمنَ زمرةٍ معينة بمقتضى أحداث لا يملك فهماً لها.

يفسر أصدقائي عنادي حيال مناقشة عملي بوصفه ضرباً من الرِّواقية (مذهب فلسفي أسسه الفيلسوف زينون نحو عام 300 ق. م يقضي بأن يكبح الإنسان الحكيم جماح عواطفه...)، أو بوصفه ضرباً من ضروب آداب مهنة احترافية، أو حتى بوصفه رغبةً في تجنيبهم استثارة حساسياتهم؛ ليس الأمر هكذا.

هذا الأمر يتعلق بي أكثر مما يتعلق بهم. وفي نهاية اليوم، أحتاج إلى ترك تلك الجثث باردةً وصامتةً في أحواضها المصنوعة من معادن مقاومة للصدأ، وأكون بحاجة إلى الكفّ عن التفكير فيها. وأحتاج إلى قراءة كتاب أو مشاهدة فيلم، أو مناقشة شأن سياسي أو فني. أحتاج إلى إعادة تأسيس منظوري للحياة، وإلى تذكير نفسي أن الحياة تقدم ما هو أكثر بكثير من العنف والتشويه والأذى المتعمد.

لكن في حالات معينة، تكون صيانةُ جدار النار العاطفي أكثر صعوبةً. وفي حالات معينة أخرى، يضحي عقلي أسير حلقات الرعب الخالص الذي تتمخض عنه، بغض النظر عن المسوغات والتبريرات التي أسُوقها.

بينما كنتُ أشاهد سليديل وورينالدي وهما يسيران نحو المنزل، تردَّد صدى صوتٍ رقيق في عقلي؛ همس الصوتُ قائلاً: كوني حذرةً واحترسي. قد تكون هذه واحدةً من الحالات الصعبة والقاسية.

عصفت الرياح فأثارت أوراق أشجار المنغوليا وأزهاراً يابسةً عند أقدامنا، وهزت بعنف نباتات الكودزو المعترشة جاعلةً منها موجاتٍ خضراء متموجةً.

ورقص بويد حول ساقيَّ موزعاً نظراته بيني وبين المنزل، ثم عاد من جديد.

"ماذا؟".

نبح الكلب نباحاً يشبه الأنين.

"أنتَ جبان".

يضطلع بويد بدور كلب ضخم شرس من دون أن ترمش له عين، لكن العواصف تخيفه. يا له من ساذج سخيف!

سأل ريان: "هل ندخل؟".

أجبته بصوت نسَوي ليس ثمةَ صوتٌ أوطأ منه في الغناء، شبيه بصوت والتر ميتي: "سندخل!".

سرت مسرعةً نحو المنزل، فتبعني ريان، ولحق بنا بويد. وبينما كنتُ متجهةً نحو الشرفة، فُتح الباب المنخلي وظهر وجه سليديل عبر الفجوة وقد تخلى عن السيجارة وهو يمضغ الآن خِلالة (عودَ الأسنان الذي يُتخلل به). وقبل أن يتكلم، أخذ يدوِّرُ الخلالة بين إبهامه وسبابته:

"سيصيبك الاشمئزاز من كالفين كلاين الذي يخصك لمجرّد رؤية ما هو موجود هنا".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

12

كانتْ درجةُ الحرارة داخل المنزل تتجاوز المئة بكثير، وكان الهواء راكداً ومحملاً برائحة عفنة؛ إنها رائحةٌ توحي بأنه لم يعش أحدٌ في هذا المكان منذ أمد بعيد.

قال سليديل: "الطابق العلوي". ثمّ اختفى هو وريناالدي عبر مدخل مزدوج مقابل للمكان الذي كنا نقف فيه مباشرةً، ثم سمعت وقع خُطىً.

الشرفةُ مثقلةٌ بنباتات الكودزو المعترشة، وبأبوابٍ منخلية ونوافذ تغطيها طبقةٌ من القَذَر، وقد ضاءلتِ العاصفةُ الوشيكة الضوءَ الداخلي وصولاً به إلى أدنى مستوياته.

وجدتُ صعوبةً في التنفس، وصعوبةً في الرؤية، واجتاحتني انطلاقاً من مكان خفيٍّ سحابةٌ تنذرُ بشرٍّ مستطير، وثمةَ أمرٌ يتوعدُ بخطرٍ كان ينقر نقراً خفيفاً في قاعِ فِكري. حبستُ نفسي، وكدتُ أفقد الوعي.

مسَّدَت يدُ ريان كتفي برفق، فاستعدت توازني، لكن كانتِ الحالةُ التي كادت أن تفقدني توازني قد ذهبت عني. انعدلت عيناي ببطء، واستطعتُ أن أدرك الأشياء التي تحيط بي.

كنا في غرفة المعيشة: ثمةَ سجادةٌ ذاتُ وبرٍ أحمر اللون تتخلله رقش وزخارف ذات لون أزرق بحري، وألواح زينة مصنوعة من خشب الصنوبر تكسو الجدار، وأريكة وكرسي أميركيان قديمان، وقوائم ومساند خشبية منجدة باللونين الأحمر والأزرق، ووسائدُ تناثرت عليها أوراق تغليف حبات الكراميل، وحشوات قطنية، وبعر فأر.

كان يوجد فوق الأريكة لوحةٌ مطبوعة تظهر فيها سوق البرغوث (وهي سوق تباع فيها الأشياء المستعملة والأشياء الأثرية القديمة) في باريس في فصل الربيع،

وبرج إيفل على نحو لا يوجد تناسب مطلقاً بينه وبين الشارع الذي يظهر أسفل منه. وثمة رفٌّ منحوتٌ في الجدار يغص بتماثيل لحيوانات مصنوعة من زجاج. ويوجد مزيد من التماثيل تتقاطر عبر كورنيش خشبي يمتد فوق النوافذ. وثمة طاولاتٌ قابلة للطي من النوع البلاستيكي، وعلب شراب شعير ومشروبات غازية، ومزيد من العلب على السجادة، وأكياس رقائق ذرة، وعلبة برينجلز.

وسّعتُ مدى المسح الذي أجريه: غرفة طعام يقابلها مباشرةً مدخل مزدوج، وطاولة طعام مستديرة حولها أربعة كراسٍ وُضِعَت عليها أوثرةٌ يتمازج فيها اللونان الأحمر والأزرق، وسلة أزهار بلاستيكية مقلوبة، وعلب وجبات سريعة، وعلب وزجاجات، ودرج حاد الصعود إلى اليمين. وكان خلف طاولة غرفة الطعام بابٌ دوَّار مماثل للباب الذي يفصل في بيت جدتي بين غرفة الطعام والمطبخ، وخشب مشطوف، ولوح بلاستيكي شفاف على مستوى اليد؛ على مستوى يدِ شخصٍ بالغ، أمضى ساعاتٍ بمسح هلام عنب، وحلوى، وبصمات قليلة من الطلاء في الأسفل.

مرة أخرى، ضجت أعصابي ضجيجاً مترافقاً مع شعورٍ غير سوي من التخوف. وقد صدرت أصواتٌ من الخزائن في أثناء تأرجح الباب؛ كونها كانت تنفتح وتنغلق.

وضع بويد قائمتيه الأماميتين على الأريكة واشتمّ غلاف شوكولا كيت كات، فسحبته إلى الخلف.

تحدث ريان أولاً: "يمكنني القول إن نظام التزيين (الديكور) الأخير كان قد وضع في الوقت الذي حفرت فيه دورة المياه".

"لكن، كان شخصٌ ما يحاول..."، أشرتُ برأسي إلى جنبات الغرفة، "الفن، والحيوانات المصنوعة من زجاج، والزخارف التي يتمازج فيها اللونان الأحمر والأزرق". أومأ ريان معرباً عن تقدير مزيَّف وقال: "لطيف. وطني".

"الفكرة هي أن شخصاً ما كان يعتني بالمكان. ثم انتهى إلى ما هو عليه من وضع يثير الاشمئزاز. لماذا؟".

عاد بويد متثاقلاً إلى الأريكة وقد فتح فمه ودلَّى لسانه، فقلتُ: "سأُخرج الكلبَ كي يصبح أكثر هدوءاً وانتعاشاً".

أبدى بويد اعتراضاً رمزياً فقط. وعندما عدت، اختفى ريان.

عبرتُ وأنا أخطو بحذر شديد، غرفةَ الطعام، ودفعتُ الباب الدوّار بمرفقي.

كان المطبخ نموذجياً قياساً ببيوت المزارع القديمة. فقد شغلتِ التجهيزاتُ والحيز المتاح للعمل فيه مساحةً كبيرةً نسبياً على طول الجدار الأيمن. وكان حوض غسيل الأطباق المصنوع من بورسلين أبيض اللون يحتل مكانه وسط الجدار تحت النافذة الوحيدة الموجودة في المطبخ، وثلاجة كلفيناتور في زاوية المطبخ البعيدة، وجهاز تبريد في الزاوية القريبة، وسطح نُضدٍ (كونتر) مصنوع من الفورمايكا يرتفع إلى مستوى الخصر، وخزائن بالية في الأعلى والأسفل. الانتقال من مكان الموقد إلى مكان حوض غسيل الأطباق أو من مكان الحوض إلى موضع الثلاجة يتطلب مشياً فعلياً. بدا المكان كبيراً جداً مقارنةً بمطبخ ملحق بيتي. وثمة بابان في الجدار الأيسر، يفضي أحدهما إلى حجرة المؤن، في حين يفضي الآخر إلى سافلة المبنى. وقد احتلت طاولة مصنوعة من الفورمايكا والكروم مكاناً وسط المطبخ، وقد وُضِعت حولها ستة كراسٍ مصنوعة من الكروم، ولها مقاعد بلاستيكية ذات لون أحمر.

كانت الطاولة والكراسي وكلُّ سطح في غرفة المطبخ مغطاةً بمسحوق بصمات أسود اللون. وكانت آلة التصوير الآخذة في البلى تلتقط صوراً عن كثب لبصمات موجودة على باب الثلاجة. قالت من دون أن تزيح بصرها عن عين الكاميرا: "هل تعتقدينَ أن الحوض موجودٌ في الطابق العلوي؟".

فعدتُ إلى غرفة الطعام وصعدتُ إلى الطابق الثاني. لقد أظهر مسحٌ سريع وجود ثلاث غرف نوم، وقد أوحى المشهد المتبقي بأن تجهيزات الحمام تعود إلى العام 1954 تقريباً.

كان ريان، وسليديل، ورينالدي، والعامل التقني في غرفة النوم الشمالية الشرقية. وقد ركز الأربعة جميعهم انتباههم على شيء ما موجود في خزانة الملابس. وقد نظر الأشخاص الأربعة كلهم إليّ عندما ظهرتُ في المدخل.

رَفَعَ سليديل بنطاله ونقل الخِلالة إلى زاوية فمه الأخرى وقال: "لطيف، أليس كذلك؟ كنَدًا غرين آكرس غُن تريلر بارك".

سألتُ: "ماذا في الأمر؟".

أشار سليديل بيده إلى خزانة الملابس، كما تستعرض فانا وايت جائزة عرض لعبة.

كان دخول الغرفة يشبه المشي في دفيئة متعفنة، وأضحى لون بنفسجات تغطي ورق الجدران بنياً بفعل تقادم الزمن عليها، وكان النسيج الذي يغلف كرسياً متخماً بحشوته، والستائر المهلهلة المنسدلة على كل نافذة. ثمة صورةٌ مؤطرةٌ مثبتةٌ على لوح قاعدة، وصورةٌ عليها باقةُ بنفسج صغيرة، مقصوصة من مجلة، وكان الزجاج الذي يغطي الصورة المؤطرة متشقّقاً.

ألقيت نظرةً خاطفةً وأنا أعبر إلى المكتب، على محور اهتمام جميع من كان في الغرفة، وشعرت بشيء ما يغلي فجأة في صدري كما لو كنتُ قد تعرضتُ لصدمة كهربائية.

قال سليديل: "ما الأمر مع قاتلة الطفل التي يعنيكِ أمرُها؟ هل أُلقي نظرةً خاطفةً أخرى؟".

لستُ بحاجة إلى نظرة ثانية. فقد أدركتُ الموضوع. وما لم أفهمه كان معنى الموضوع. كيف أمكن أن يكون في هذه الغرفة الرهيبة بأزهارها المروعة؟

وقع نظري على المستطيل البلاستيكي الأبيض؛ كانت تاميلا بانكس تحدق من الزاوية اليسرى السفلى. وكان الشعر الأسود المتجعد محدداً بمربع أحمر. وفي أعلى البطاقة يوجد ترويسة زرقاء كتب عليها ولاية كارولينا الشمالية. وإلى جانب الترويسة كُتب بخطٍّ أحمرَ على خلفية بيضاء الأحرف DMV.

قلت: "أين وجدتم هذه؟".

قال العامل التقني: "تحتَ السرير".

قال سليديل: "مع ما يكفي من الحقارة لجعل الإرهابي البيولوجي يبوّل في سرواله القصير الداخلي".

"ما سبب وجود رخصة قيادة تاميلا بانكس في هذا البيت؟".

"لا بد من أنها كانت تأتي إلى هذا المكان مع نوبة الغم ذاك، تيري".

"لماذا؟"، كررتُ ما قلته. لم يكن لهذا معنًى.

أَذِنَ العامل التقني لنفسه وعاد لمعالجة الغرفة المجاورة، وأشار سليديل بالخِلالة إلى رينالدي، وقال: "غوش، ماذا تعتقد أيُّها المخبر؟ هل تعتقد أن للأمر شيئاً من العلاقة مع الكيلوغرامين من المصيبة التي عثرنا عليها في القبو؟".

نظرتُ إلى رينالدي، وأومأ برأسه.

"ربما فقدت تاميلا رخصة القيادة"، تلمستُ طريقي، "ربما تكون قد سُرقت".

باحثاً عن مودة وألفة معززة، التفتَ نحو ريان قائلاً: "ماذا تعتقد أيها الملازم؟ أيُّ هذه النظريات تعتقد أنها صحيحة؟".

هز ريان كتفيه استخفافاً وقال: "إن دعت الملكة كاميلا إلى حفل موسيقي احتفالاً باليوبيل الذهبي، فإن كلَّ شيء ممكن". رفَّت عينُ سليديل اليسرى إذ دخلت إليها نقطةُ عرق.

سألتُ: "هل تحتفظ بسجل عن تاريخ هذا المكان؟".

انتقال آخر لخِلالة الأسنان، ثم أخرج سليديل مفكرةً من جيب بنطاله الخلفي وقال: "حتى وقت قريب، لم يكن قد تعاقب أناس كثيرون على استخدام هذا المنزل"، كان سليديل يقرأ ملحوظاته، وكنا جميعاً ننتظر، "بقي هذا المكان بحوزة ساندر فوت من عام 1956 حتى عام 1986. ثم آلت ملكيةُ هذا المكان إلى ساندر انتقالاً من أبيه رومولوس، الذي ورثه عن أبيه، رومولوس، كذا، كذا، كذا"، دور سليديل يداً، "قيدٌ لرومولوس ساندر في سجلات الضرائب قبل عام 1956. ليس الموضوع ذا صلة حقاً بالأحداث الراهنة".

وافقتُ قائلةً: "لا"، وقد نفد صبري.

"عندما مات فوت عام 1986، آلت ملكية المزرعة إلى أرملته دوروثي جيسيكا هارلسون أو كسيدين باوندر فوت"، نظر إلينا وقال: "كانت السيدة من النوع المزواج"، عودةٌ إلى الملحوظات المدونة، "كانت دوروثي الزوجة الثالثة لفوت. تزوجا في وقت متأخر. ولم ينجبا أطفالاً. وكان يبلغ من العمر آنذاك اثنين وسبعين عاماً، وكان لها من العمر تسع وأربعون سنةً. لكن، عند هذه النقطة تضحي القصة مثيرة للاهتمام".

رغبتُ في أن أهز سليديل لجعله يمضي في الكلام على نحو أسرع.

"لم ترثِ الأرملة المزرعة فعلاً. فقد قضت إرادةُ فوت وفقاً لوصية التوريث التي تركها بالسماح لدوروثي وابنها من زواج سابق بالعيش في هذا المكان حتى موتها. بعد ذلك، في وسع الفتى أن يبقى فيه إلى أن يبلغ الثلاثين من عمره".

هز سليديل رأسه وقال: "لا بد من أن فوت هذا كان نوعاً من خفافيش الفاكهة".

"ألأنّه أراد أن يكون لابن زوجته بيت إلى أن يشتد عوده؟"، حافظتُ على هدوء صوتي.

اشتدتِ الريح، وارتطمت أغصان الأشجار بالنافذة المنخلية.

سأل ريان: "ماذا حدث بعد ذلك؟".

"بعد ذلك، أصبح في عهدة ابنة لفوت من زواجه الأول".

تحرك شيءٌ في الحديقة كأنه يسير على عجلات محدثاً صوتاً صادراً عن شيء أجوف. ثمّ سألتُ: "هل دوروثي فوت ميتة؟".

"منذ خمس سنوات". أغلق سليديل مفكّرته وأعادها إلى جيبه.

"هل بلغ ابنها الثلاثين من عمره؟".

"لا".

"هل يعيش هنا؟".

"من الناحية التقنية، نعم".

"من الناحية التقنية؟".

"يؤجر الفاسد الصغير هذا المكان ليعود عليه بقليل من الدولارات".

"هل في وسعه فعل ذلك بموجب مقتضيات الوصية؟".

"وكّلت ابنةُ فوت محامياً منذ سنتين للنظر في هذا الأمر. لم يجِدِ المحامي وسيلةً للتخلص من الفتى. فتّى يفعل كلَّ شيء تحت الطاولة. لذلك لم يحصل المحامي على سجلٍّ يثبتُ حدوثَ تغير في وضعه المالي. تعيش الابنة في بوسطن، ولم تأتِ قط إلى أرض الدبّ الصغير هنا، إذ لا يستحق المكان عناءً كبيراً. ويبلغ الفتى من العمر سبعةً وعشرين عاماً". هز سليديل كتفيه تبجحاً واستخفافاً.

"أضمن أن الابنة قررتِ الانتظار".

سألتُ: "ما اسم ابن دوروثي؟".

ابتسم سليديل؛ مع أن السؤال لم يكن ينطوي على نكتة، وأجاب: "هاريسون باوندر".

"أين سمعتُ ذاك الاسم؟".

"تتذكرينه يا دكتورة".

"تذكرتُه. من أين؟".

"تناقشنا بشأن السيد باوندر الأسبوع الفائت فقط. ولم يكن ذلك بسبب ظهور السنجاب في نشرة عملنا الجديد".

باوندر. باوندر.

مدَّني رينالدي بالاسم الكامل: "هاريسون سوني باوندر".

تبلدت قدرةُ ذهني على التذكر، فسألتُ مرتابةً: "سوني باوندر؟".

قال سليديل: "رضيعُ فوت الذكر من الزوجة الصغيرة".

سأل ريان: "من هو سوني باوندر؟".

قال سليديل: "سوني باوندر، القذر الدنيء الذي لا يساوي فلسين، ذاك الذي باع زوجته الصغيرة بسعر مناسب".

التفتَ ريان نحوي قائلاً: "باوندر هو التاجر الذي تلقّى بقشيشاً بشأن رضيع تاميلا بانكس".

قصف رعد. سألتُ: "لماذا لم تعرف أن هذا المكان هو مكان باوندر؟".

"يفضل السيد باوندر لدى تعامله مع السلطات، إدراج عنوانه في المدينة".

قال رينالدي: "من الناحية القانونية، يعود إرث هذه المزرعة إلى الأم".

هزيمُ رعد آخر. وعويل خفيف من الشرفة.

"من الممكن أن تكون تاميلا أتت إلى هذا المكان مع تيري، لكن هذا لا يعني أنها تعاطت مخدراتٍ أو قتلت رضيعها". بدا استنتاجي ضعيفاً، حتى بالنسبة إليّ.

في الفناء، صُفِقَ بابٌ بشدة، ثم صُفق مجدداً.

سألتُ سليديل: "هل أنت عازمٌ على التحدث إلى باوندر؟".

نظر الكلب إلى عيني.

"لستُ معتوهاً يا دكتورة".

قلتُ في سري: بلى، أنتَ معتوه.

في تلك اللحظة، هبّت العاصفة. جلست وريان وبويد في الشرفة إلى أن هدأت العاصفة. فجعلت الرياح ملابسنا تصطفق، وأطلقت وابلاً من الأمطار الدافئة على وجوهنا؛ إنه شعورٌ رائع.

بدا بويد أقل حماسةً حيال قوة الطبيعة الصرفة، إذ استلقى إلى جانبي، وحشر رأسه في المثلث المتشكل تحت ركبتي المعقوفتين. إنه تكتيك غالباً ما تتّبعه بيردي؛

إن لم أستطع أن أراك، فلن تستطيع أن تراني؛ وهكذا أكون آمناً.

عند الساعة السادسة تضاءل هطول المطر متحولاً إلى رذاذ بطيء متواصل. وعلى الرغم من أن سليديل، ورينالدي، وأفراد الفريق التقني واظبوا على تفتيشهم المنزل، إلا أنه لم يكن في وسعنا، أنا وريان، أن نقوم بأيّ عمل إضافي.

بوصفه إجراءً احترازياً، حملتُ بويد على الهرولة على أرضية كل غرفة مدة دقيقتين. فلم يسترعِ شيء اهتمامه. ثمّ أخبرتُ سليديل أننا سنغادر، وقال إنه سيتصل بي صباحاً.

طاب يومك.

عندما تركتُ بويد يدخل إلى المقعد الخلفي، استدار وتلوى ووضع ذقنه على قائمتيه، وتنهد بصوت عالٍ، ثمّ دخلتُ وريان إلى السيارة.

"من المحتمل ألاّ يكون هوتش قد تدرَّب على عمل كالذي تقوم به الكلاب المدرَّبة على اكتشاف المخدرات".

قلت موافقة إياه: "لا".

في جولته الدورية الأولى اشتمّ بويد حقيبتَي الكوكايين، وهز ذيله مرةً وواظب على القفز حول الجزء الأسفل. وفي زيارته الثانية تجاهلهما. مددتُ يدي نحو المقعد الخلفي فلعقها بويد.

في الطريق إلى المنزل، عرّجتُ على مركز الفحص الطبي التابع لمقاطعة مكلنبورغ لأخذ جهاز شحن حاسوبي المحمول الكهربائي الذي تركته هناك. وفي أثناء الوقت الذي دخلت فيه إلى المبنى، كان بويد وريان يلعبان اللعبة الوحيدة التي يعرفها بويد: وقف ريان ثابتاً في موقف السيارات، في حين أخذ بويد يدور حوله مرات عديدة. وبينما كنت أغادر المبنى، كانت شيلا ينسن تدخل بسيارتها إلى موقف السيارات، فترجّلت من السيارة، وسارت نحوي. قلتُ: "أنتِ هنا في وقتٍ متأخر".

"حصلتُ على بعض الأخبار، لذلك عرّجت على هذا المكان أملاً أن ألقاكِ هنا". لم تعلّق على مظهري. ولم أُبدِ رغبةً في ذلك.

ترك بويد ريان وانطلق نحو ينسن في محاولة لممارسة هوايته المفضلة بوضع رأسه بين رجلي من يقترب منه. لكنّ مندوبة هيئة سلامة النقل القومي أوقفته بفرك

أذنيه بكلتا يديها، ثمّ بدأ بالدوران حولنا نحن الثلاثة.

قالت ينسن: "يبدو أن نظرية المخدرات واردة تماماً. فعندما تجولنا بين حطام طائرة السيسنا، اللعنة إن لم يكن الباب الأيمن الأمامي مزوداً بباب آخر أصغر منه في الداخل".

"أنا لا أفهم".

"كان ثمّةَ فتحةٌ مجوفةٌ في الباب الأمامي الأيمن، غُطّيت بلوح صغير مسطح متمفصل في الأسفل بمفصل يسمح بتأرجحه ودخوله إلى الطائرة".

"أتعنين مثل باب أحادي اتجاه الحركة؟".

"بالتحديد. لا يمكن أن يتضح التعديل لمراقبٍ عاديّ".

"لماذا؟".

"للسماح بخروج الهواء".

تصورتُ الكيلوغرامين من المصيبة اللذين خلفناهما وراءنا لتونا.

"من المخدرات غير المشروعة".

"لقد أصبتِ. لالتقاط مجموعة من الأشخاص تنتظر على الأرض في سيارة".

"لعبةُ حظٍّ".

"ما الذي يدعو إلى تحمل عناء تعديل الطائرة؟ لماذا لا يُفتح الباب ببساطة وتُلقى المخدرات إلى الخارج؟".

"السرعة الدنيا الممكنة لطائرة سيسنا 210 في أثناء الهبوط هي بحدود 64 ميلاً في الساعة. هذه هي السرعة الدنيا التي في وسعهم أن يطيروا وفقاً لها في أثناء الهبوط. وإنه لمن الصعب دفع شيء خارج الطائرة في تلك السرعة. فكري في فتح باب سيارتك في أثناء قيادتك إياها على الطريق السريعة بسرعة 65 ميلاً في الساعة".

"صحيح".

"هنا يكمن السيناريو الذي أرجّحه. فقد أُزيل مقعد الراكب الأمامي الأيمن تمهيداً لوضع الباب المعدل. الراكب في الخلف والمنتج في مقصورة الشحن الصغيرة وراء الراكب. هل تتصورين هذا؟".

"نعم".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"بيرس...".

وجهت عينيها بسرعة خاطفة نحو ريان، فهززتُ رأسي والتفتُ نحوه: "ذاك هو الطيار".

"بيرس يستخدمُ الجرف الصخري بوصفه معلماً أرضياً له. يضيء الجرف، ويعطي الإشارة، فيفك الراكب حزام الأمان، ويذهب إلى الخلف، ويبدأ بدفع المنتج خارج الطائرة".

سأل ريان: "كوكايين؟".

"قد يكون ذلك. ليس في وسعك أن تحمل في طائرة سيسنا 210 ما يكفي من الماريجوانا لجعل الموضوع مستحقاً لما تبذله من وقت وعناء. وأنا أرى أن الموضوع جرى على هذا النحو".

سألتُ: "ألا يكون سقوط حزمة الكوكايين من ذاك الارتفاع سبباً في جعل ما في داخلها يتبعثر؟".

"لهذا السبب يستخدمون المظلات".

"مظلات؟".

"مظلات شحن صغيرة في وسعهم أن يشتروها من المحالّ التي تبيع السلع الفائضة. السكان المحليون يتوقّون من ذلك. على أي حال، الكوكايين موضوع ضمن أغطية بلاستيكية سميكة، ومغلف بغلاف فقاعي لحمايته، وموثّق بكثير من الشريط اللاصق".

نظرت ينسن نظرةً سريعة إلى ريان ثم عادت لتنظر إليَّ.

قلتُ: "تابعي".

"كل حزمة مربوطة إلى مظلة بمزيد من الشريط اللاصق، وموثقة بإحكام. المظلة تغلف الحزمة، وثمةَ شريطٌ من البوليبروبيلين بطول عشرين قدماً ملفوفٌ حول المظلة؛ ليحكم تثبيتها حول الحزمة. هل أنتِ معي؟".

"نعم".

"يصدر بيرس الأمر. فيفك الراكب طرف الحبل المربوط بشيء ما داخل الطائرة ويفتح الباب الصغير، ويلقي بالحزمة خارج الطائرة. وفي أثناء سقوط الحزمة ينفك وثاق الحبل، فتتحرر المظلة وتنتشر، فينساق العقار المخدر إلى

الأرض حلواً كأنه تغريد طير".

عضَّ بويد ربلة ساق ريان، فصرخ في وجهه، ما جعل بويد يتراجع إلى الوراء مستأنفاً دورانه.

سألتُ: "فما الخطأ؟".

"كيف هذا؟ إنهما يحلِّقان على علوٍّ منخفضٍ فوق منطقة الهبوط بسرعة تقترب من سرعة الهبوط الدنيا، وكان كل شيء على ما يرام، ثم اندفعت الحزمة الأخيرة إلى الخلف نحو ذيل الطائرة، فتشابكت المظلة أو الحزمة مع دفة توجيه الطائرة أو مع سطح الطائرة الرافع، وحينها، لم يتمكن الطيار من قيادة الطائرة وتوجيهها، وفقد السيطرة عليها، فارتطمت بالجرف الصخري.

"هذا ما يفسر سبب استخدام الطيار حزام الأمان وعدم استخدام الراكب إياه".

تصورتُ الجثتين المحترقتين، كانت كلٌّ منهما مغطاةً بفضلات متفحمة ومتموجة وسألت: "هذه المظلات مصنوعة من نايلون خفيف الوزن، أليس كذلك؟".

"نعم".

"لقد انفتحت المظلة الأخيرة داخل الطائرة قبل الوقت المحدد لانفتاحها، فغلّفتِ الراكب. كان الراكب يكافح للتحرر منها. فهرع إليه بيرس محاولاً تخليصه منها، ففقد السيطرة على الطائرة؛ الأمر الذي أدى إلى ارتطامها بالجرف الصخري. فانفجرت وتحولت إلى كتلة مشتعلة. هذا ما يفسر وجود البقايا المتفحمة؛ مظلة محترقة". فوافقتني ينسن.

قلتُ: "لكن لا يزال هذا من باب التحزر".

قالت ينسن: "ليس حقاً".

انتظرتُ.

"لقد اكتشف فِتيانٌ أمراً مثيراً للاهتمام صباح أمس".

13

"كان ثلاثة فتية ينزّهون كلابهم في حقل يقع إلى الشرق من موقع تحطم الطائرة في وقت باكر من صباح يوم الاثنين، رصدوا ما ظنوا أنه شبح يرفرف فوق مخزن تبغ الجد القديم".

تشكلت صورةٌ في ذهني؛ جثةُ طيار ومظلةٌ ترتفع وتهبط متساوقة مع حركة الرياح... ترجم ريان ما أفكر فيه إلى كلمات منطوقة حيث قال: "ملك الذباب (Lord of the Flies)".

قالت ينسن: "مقارنةٌ مثالية، كونهم تأملوا الموقف المتعلق بنيهي وفطائر القمر، (Nehi and Moon pies)، قرر عباقرتنا الصغار ممارسة شيء من أعمال الشرطة السرية. وعندما تبيّن لهم أخيراً أن الشبح الذي يبحثون عنه هو حزمة تحتوي على مسحوق أبيض موصولة بمظلة، اتفقوا على أن يخبئوا الغنيمة ريثما يدرسون موضوع اتخاذ تدبير إضافي".

خمّنتُ: "تضمَّن ذاك الإجراء البحثَ على نطاق أوسع".

"وجدوا ثلاث حزم إضافية من المسحوق في الغابة. ولأنهم كانوا يعلمون عن سيسنا، وكونهم رجال شرطة وجنوداً نظاميين، أملوا الحصول على ثروة جيدة".

"اتصلوا بالرقم 911 للاستفسار عن المكافأة".

"اتصلوا هاتفياً نحو الساعة العاشرة من صباح اليوم تقريباً. فاتصل قسم شرطة مكلنبورغ في شارلوت بالأهل، وتلا ذلك نقاش صريح. وخلاصة القول: كان لدى الفتيان أربع حزم تحتوي على عقاقير مخدرة وأربع مظلات مخبأة في سقيفة الجد".

سألتُ: "هل أنتِ واثقة أنها كوكايين؟".

"ينبغي فحص المادة في المختبر. لكن، نعم، أراهن على أنها كوكايين".

"لماذا خلّفتِ المجموعةُ التي كانت تنتظر الطيار على الأرض المخدرات

وراءها؟".

"الوصول إلى الموقع يمر عبر طريق ضيقة ومتعرجة، من المحتمل أن يكونوا قد شاهدوا طائرة السيسنا تسقط، فخمنوا أنهم إن دخلوا إلى الموقع قد يتعرض لهم عمال الطوارئ في أثناء خروجهم، ففضلوا الحرية على الثروة".

هذا معقول.

"طبقاً للسيناريو الذي أعددناه، فقد انفتحت آخر مظلة قبل الوقت المقرر لانفتاحها".

قلت: "لماذا؟".

"ربما يكون الأمر مجرّد حظّ سيئ، أو ربما تكون قد انفتحت بسبب تيار هوائي".

"كيف يكون ذلك؟".

"حدثت في الجيش المحمول جواً وفيات عبر السنين بسبب امتلاء المظلات بالهواء حين يكون المظلي واقفاً عند باب الطائرة. تُرتدى المظلة الاحتياطية من الأمام، ويدخل التيار الهوائي سريع الحركة أحياناً إلى الداخل، ويندفع بعنف فيفتح المظلة التي تلقي بالمظلي خارج باب الطائرة قبل الوقت الذي ينبغي أن يقفز فيه".

سأل ريان: "هل يحتمل أن يكون فتح الباب الصغير قد سبب تياراً هوائياً عصف في أرجاء قمرة القيادة؟".

قالت ينسن: "إنه لأمر محتمل".

سألتُ: "لكنهنا تمكنا من إطلاق أربع مظلات بنجاح. لماذا لم يتمكنا من إتقان إطلاق الخامسة؟".

"قد تكون الحزمة الأخيرة أخف وزناً. ربما لم يتمكن الراكب من ترزيم المظلة بالسرعة الكافية. وربما يكون الطيار قد ناور بالطائرة على نحو مفاجئ".

قلت: "هذا ممكن".

"كانتِ المخدراتُ معبأةً في حزم حجم كلٍّ منها قدم مكعّبة. كان هذا مناسباً جداً لفتحة الباب الصغير. ومن المحتمل أن تكون الحزمة الأخيرة قد علقت؛ الأمر الذي أدى إلى امتلاء المظلة بالهواء قبل أن يتمكنا من تحريرها". كان هذا ما اقترحه ريان.

سألتُ: "ألا يتمخض هذا عن بقاء حزمة واحدة في الطائرة؟".

ترددت ينسن ميكروثانية (جزء من مليون من الثانية)، وقالت: "أو تحتها. فقد عثرتُ على شيء".

سألتُ: "حزمة أخرى من المخدرات؟".

"تكاد لا تكون حزمة، معظمُها رمادٌ وبلاستيك ذائب".

"هل وجدتِها تحتَ حطام الطائرة؟".

"نعم".

"رمادٌ ممّاذا؟".

"لستُ واثقةً. لكن المادةَ لم تبدُ لي ضرباً من الكراميل".

"هل هي شحنة ممزوجة من النوع الشائع؟".

"إنها من النوع الذي يتعاطاه المدمنون، شبيه بشراب العنب".

عندما وصلنا إلى ملحق بيتي مضى بويد مباشرةً إلى زبدية طعامه، وكسب ريان الرهان الذي ألححتُ عليه؛ لقد كانت فكرة سيئة. وبينما كان يستحم اطلعتُ على الرسائل المرسلة إليَّ عبر هاتفي الخلوي: هاري، كاتي، زميل من جامعة شارلوت في كارولينا الشمالية، واتصالٌ من دون ترك رسالة. جربت الاتصال ببيت ليجا في البلدة، فأجابني صوتٌ ذكوري قائلاً: ابنتي خارج المنزل، لكن من المتوقع أن تعود سريعاً. ولم يعرِّف صاحب الصوت بنفسه، فتركتُ رسالة، وأنهيتُ الاتصال.

خاطبتْ سماعةَ الهاتف: "ومن تكون أنت بحق الله؟".

"هـل هـو بالمـر كُرنز المنخـرط في الموضوع بعمق؟"، ولماذا لم تقل ذلك؟ هل أنت تعيش في بيت ليجا الموجود في البلدة أيضاً؟ لم أكن راغبة في التفكير في الموضوع.

ثـمّ حاولـتُ أن أتصل بزميلي؛ لديه سـؤال يتعلـق بأطروحة تخرج جامعية لم أستطع أن أجيب عنه.

بعد أن أكل بويد كلَّ ما في زبديته من طعام قذر إلى حدٍّ يثير الغثيان، استرخى على الأرض حيث هو.

أأتصل بهاري أو لا أتصل بها؟ ليس لدى أختي إدراك لشـيء يسـمَّى مناقشـة مقتضبة. إلى جانب ذلك، في وسـع هاري أن تعرف الكثير من الأمور وإن كانت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تتكلم عبر الهاتف، وأنا لا أرغب في مناقشة مغامراتي الأخيرة. ولدى سماعي وقع خطيّ على درجات السلم، وضعت الهاتف على الطاولة.

ظهر ريان وقد وضع بيردي على صدره؛ قائمتا القطة الأماميتان وذقنها استراحت على كتفه. وعندما توددتُ لها طالبةً منها أن تأتي إليّ، أناحت بيردي بوجهها عني.

"آه! تعالي يا بيرد".

اعترضت سبيلي عينان جريئتان.

مسّدتُ رأسَ القطة قائلةً لها: "أنتِ محتالة يا بيردي. حتى إنكِ لم تحاولي أن تبتعدي".

ارتفع رأس بيردي، وأخذتُ أفرك عنقها.

قلت لريان: "إن رغبت في النزول إلى الأرض، فإنها تدفع صدرك بقائمتها مثلما تفعل الآن".

قال ريان: "وجدتها في السرير".

لدى سماعها صوتَ ريان اندفعت بيردي زاحفة على قائمتيها الخلفيتين مخشخشة بأشياء تصدر أصواتاً، ومخربشة الأرضيةَ الخشبية. ثمّ اندفعت تاركة ريان مثل مكوك في كرنفال.

قلت: "يوجد شراب شعير في الثلاجة، والصحيفة في حجرة المطالعة والكتابة. لن أغيب طويلاً".

وعندما عدت، كان ريان جالساً إلى طاولة المطبخ، وصحيفة الأبزرفر مفتوحة على صفحة الرياضة. كان قد أنهى قراءة مقال لسام آدمز وبدأ يقرأ مقالاً آخر، وقد وضع بويد ذقنه على ركبته، وعندما دخلت، نظر كلاهما إليّ.

كان ريان يمثل دور بوجي أمام الكلب: "بين كلِّ الأحبولات، وفي كلِّ البلدات في كلِّ العالم، كان عليها أن تقع في أحبولتي".

"شكراً، يا ريك".

"اتصلت ابنتك".

"أهه؟"، فوجئتُ لأن ريان ردَّ على هاتفي.

"كان الهاتف موضوعاً هنا، ثم رنّ، فأجبتُ بصورة تلقائية غير إرادية. أنا

آسف".

"هل قالت لماذا اتصلت؟".

"لم أكن مدركاً أنها هي، أخبرتُها أنكِ تستحمين. قالت إن الأمرَ غير مهم، وذكرت اسمها، وأنهتِ المكالمة".

ذهبتُ وريان بالسيارة إلى مشرب سيلوين، وهو مشرب صغير جداً قريب من شارون هول. لمن يجرب أن يذهب إليه، مشرب سيلوين هو بيت ريفي صغير مؤلف من طابق واحد قرميدي شبيه ببيت خاص، صغير قياساً بحديقة ميرز، لكنه ليس صغيراً إلى حدٍّ لا يطاق.

خلافاً للافتة الباهتة، الأمر الوحيد الذي يشير إلى أن المكان مشرب هو تجمع السيارات المتوقفة حيث يجب أن يكون المكان مرجةً خضراءَ. وعندما دخلتُ إلى المشرب، بدا ريان مرتبكاً، لكنه لم يقل شيئاً.

يقصد الزبائن الدائمون مشرب سيلوين على دفعتين: يقصده أصحاب المزارع الاحترافيون في وقت باكر من الأمسيات؛ ليشربوا شراب الشعير على عجل في مستهل مواعدة، أو تناول عشاء مع جون ووالي والقندس. وفي وقت لاحق، لدى خروج مطوري البرامج والمحامين والمحاسبين، وخروج الطلاب من كلية كوينز. يخلي الحرير والغبردين (نوع من القماش المتين) والجلد الإيطالي أمكنتهم فاسحين المجال أمام الدنيم (قماش قطني) والقطن، وصنادل القنب. وتفسح سيارات البيمر والمرسيدس والسيارات الرياضية، المجال أمام سيارات الهوندا والشيفروليه والسيارات الرياضية الأرخص سعراً.

وصلتُ وريان في وقت الهدوء الذي تتخلل زمنيّ مغادرة الدفعة الأولى وقدوم الدفعة الثانية. كنتُ في حالة معنوية جيدة بعد أن استحممت، ثم انخفضت معنويّاتي قليلاً لدى تفكيري في طفل تاميلا وفي ما عثرتُ عليه في دورة المياه. إلا أنني تلقيت دعماً معنوياً من حضور ريان. حزينةٌ فرحةٌ. لكن لدى عبوري باحة المشرب شعرتُ بالكآبة تنهالُ عليَّ. أحببتُ وجود ريان معي هنا، وكنتُ أستمتع بتمضية وقت رائع معه. ما الذي يدعو إلى الحزن؟ ليس لديّ فكرة. وحاولتُ أن أدفع الكآبة جانباً.

كان معظم الزبائن الذين يقصدون دوماً هذا المشرب قد ذهبوا، فبدا المشرب

خالياً إلا من قليل من الزبائن الجالسين إلى بعض الطاولات وإلى نضد المشرب العالي. قدتُ ريان لدى شعوري بتراجع رغبتي في الاختلاط بالناس في تلك الدقيقة، إلى إحدى الزوايا القصية، وطلبتُ تشيزبرغر وبطاطا، بينما اختار ريان وجبة الطعام الخاصة بالمشرب التي تُقدم مساءً، وكانت قد أدرجت كتابةً بخط اليد على لوحٍ مثبتٍ فوق موقد النار: شواء وبطاطا.

دايت كولا لي، وبيلسنر أوركل لريان.

بينما كنا ننتظر، مكثنا نجتر الحديث الذي دار بيننا وبين شيلا ينسن، فسأل ريان: "مَن يملك طائرة السيسنا؟".

"رجل يدعى ريكي دون دورتون".

وصلت الكولا التي طلبتها، والشراب الذي طلبه ريان. ردَّ ريان على ابتسامة النادلة العريضة بمثلها. رحبت بِهِ بابتسامة تجاوزتِ الحدَّ المعقول، وأرادت منها أن تثير البهجة في نفسه. وأصاب روحي المعنوية الآخذة بالتدني شيءٌ من الحساسية، فاعترضتُ سبيلَ تبادلهما الابتسامات العريضة قائلةً: "هل ثمة فرصةٌ لجعل وجبتي من البرغر متوسطة النضج؟".

قالت لي النادلة: "بالتأكيد"، والتفتت نحو ريان، "هل يعجبك أسلوب الطبخ الشرقي؟".

"إنه ممتاز".

عادتِ النادلة إلى المطبخ بعد أن ابتسمت، فالتفتَ ريان نحوي وقال: "ماذا في وسع الجغرافيا أن تفعل بالشواء؟".

"انطلاقاً من أدنى الشرق يُقدَّمُ الشواءُ مع صلصة الخل والخردل. وفي القسم الغربي من ولاية كارولينا تعتمد الصلصة على الطماطم أكثر".

"هذا يذكرني بشيء؛ ما هو السوايت تيه؟".

"ماذا؟".

"هو شيء ما ينفك النُّدُلُ يسألونني إذا كنتُ أرغب في تناوله".

"سوايت تيه؟"، كررتُ العبارة بصوت مسموع ثمّ قلت: "(سويت تي) شاي حلو المذاق ريان. شاي مثلج مع السكر".

"إن تعلم لغة أجنبية شيء قذر. حسناً، لنعد إلى السيد دورتون. عندما تحدثنا

عنه أول مرة قلتِ إن سرقة الطائرة قد أحزنت هذا السيد".
"أرهقتهُ وأنهكته".
"وفاجأته".
"صعقته".
"مَن هو ريكي دورتون؟".
عندما قدّمتِ النادلة طعامنا طلب ريان صلصة مايونيز ما جعلنا كلتينا ننظر إليه. ففسّر طلبه بقوله: "مايونيز للبطاطا".
التفتتِ النادلةُ نحوي فهززتُ كتفيَّ معربةً عن عدم اكتراثي بالأمر. وعندما ذهبت، أضفت الكتشاب إلى البطاطا، ونقلتُ الخس والمخلل والطماطم من الصحن ووضعتُها فوق البرغر وأضفتُ إليها التوابل، ثمّ أكملت حديثي قائلةً: "أخبرتُكَ! يملك دورتون ملهيين رديئَي السمعة في كنابوليس، إلى الشمال من شارلوت".
أكلتُ لقمةً، فإذا اللحم لا هو مطبوخ جيداً ولا هو مُبخَّر، بل بينَ بين. وتجرعت شيئاً من الكولا فإذا هي كوكا كولا وليست دايت كولا. فوقعت الكآبة في نفسي بسرعة البرق.
"واظبتِ الشرطةُ على مراقبة دورتون بين الفينة والفينة بضع سنين، لكن رجال الشرطة لم يتمكنوا من ضبطه متلبساً قط".
قدّمتِ النادلة لريان كوباً متموجاً صغيراً من المايونيز، وابتسمت ابتسامةً أعرض من أن تطاق.
قال: "شكراً".
قالت: "في خدمتك متى تشاء".
شعرتُ أن عينيّ تندفعان نحو الفص الجبهي.
سأل ريان، وهو يغمس قطعة بطاطا في المايونيز: "هل يعتقدون أن نمط حياة السيد دورتون يتجاوز حدود قدرته على الكسب؟".
"من الواضح أن في حوزة الرجل كثيراً من اللَّعب".
"هل دورتون خاضع لمراقبة لصيقة؟".
"إذا بصق ريكي دون على الرصيف يُضبط".

قلبتُ زجاجة الكتشاب وأفرغتُ شيئاً من محتواها، ثم أعدتُها إلى الطاولة بقوة جاعلةً إياها تحدث صوتاً حاداً. أكلنا صامتين على مدى دقائق عدة. ثم مدَّ ريان يده برفق ووضعها فوق يدي قائلاً: "ما الذي يزعجك؟".

"لا شيء".

"قولي لي".

نظرت إليه، وإذ بقلقٍ عميق يكتنف عينيه الزرقاوين، ما جعلني أُبعد نظري عنه قائلة: "لا شيء".

"تحدثي إليَّ، يا كعكتي الحلوة"؛ كنتُ أعلم ما الذي يقلقه ولم يرق لي.

قال ريان في محاولة لسبر غوري: "ما هو؟".

أمرٌ واحدٌ سهل؛ إذ لم يرق لي أن أشعر بالاكتئاب من عملي، ولم أكن أحب أن أشعر بأنني خُدعت بسبب عطلة مؤجلة، ولم يرق لي أن أشعر بالغيرة بسبب ملاطفة بريئة مع نادلة مجهولة، كما لم أحب أن أشعر بأنه كان عليَّ أن أجيب على مكالمة ابنتي، ولم يرق لي الشعور بأنني استبعدت من دائرة حياتها. لم يرق لي الشعور بأنني فقدتُ السيطرة؛ السيطرة: تلكم كانت مشكلتي دوماً. ينبغي أن تكون تمب تحت السيطرة. تلك كانت الرؤية الوحيدة التي اكتسبتها من تجربتي الوحيدة مع التحليل.

لم أحب التحليل. ولم يكن يروق لي الاعتراف أنني بحاجة إلى مساعدة خارجية. ولم أكن أحب أن أتحدث عن مشاعري، مطلقاً. ولم أكن أرغب في الحديث عنها حتى مع طبيب نفساني، ولا مع رجل دين، ولا حتى مع ريان. أردتُ أن أنصرف وأن أنسى هذه المحادثة.

كما لو كان في الأمر خيانة، انهمرت دمعة واحدة من إحدى عينيَّ، وشعرتُ بشيء من التأثر، فوضعت ظاهر يدي على وجنتي.

"هل نذهب؟".

أومأتُ إيجاباً، وحينها سدّد ريان قيمة الفاتورة.

كان في المرأب سيارتان رباعيتا الدفع وسيارتي المازدا. اتكأ ريان على باب السائق، وسحبني نحوه، ورفع وجهي إلى الأعلى بكلتا يديه قائلاً: "تحدثي".

حاولتُ أن أخفض ذقني.

"دعينا فقط...، هل للأمر صلةٌ بالليلة الماضية؟".
"لا، الليلةُ الماضيةُ كانت...". هدأ صوتي ثم اختفى.
"كانت ماذا؟".
يا الله! لقد كرهتُ هذا.
"حسناً". أسهم نارية ومقدمة ويليام تل الاستهلالية.
مرر ريان إبهاماً تحتَ كلتا عينيّ قائلاً: "إذاً، لماذا الدموع؟".
حسناً أيُّها الرجل. أتريد مشاعر؟
أخذتُ نفساً عميقاً وتحررتُ من العبء الذي أثقل عليَّ قائلةً: "ثمةَ ملعون مريض أحرق رضيعاً حديثَ الولادة. ثمةَ أحمقٌ آخر يذبح الحيوانات البرية ويقضي عليها كما لو أنها كانت عفناً تحتَ مغسلة. وضيّع رجلان نفسيهما بسبب ارتطام بجرف صخري حين كانا يسعيان إلى تعزيز الاقتصاد الكولومبي. وثمةَ شخصٌ مسكينٌ فُجِّرَ دماغه، وأُلقي برأسه ويديه في حفرة دورة مياه"، جاش صدري وتنهدتُ سلسلة من التنهدات الخفيفة، "لا أعرف ريان. أحياناً أعتقد أن الطيبة والخير يتسابقان نحو الانقراض بسرعة تضاهي سرعة الكوندور أو وحيد القرن الأسود"، كانتِ الدموعُ تتدفق الآن، "الجشعُ والقسوةُ يفوزان ريان. الحبُ والرقةُ والتعاطفُ الإنساني في طريقها إلى أن تصبح مجرد بنود قليلة مدرجة في لائحة الأنواع المهددة بالانقراض".
ضمني ريان إلى صدره بقوة وطوقته بذراعيَّ، وبكيتُ على صدره. بعد ذلك، مسَّدَ ريان شعري حين كنتُ أحضن وجنتي في التجويف الذي تعتليه ترقوته. وبينما كنتُ أتقلب برفق، شعرت ببيردي تثب إلى السرير وتسترخي خلفي.
كانت الساعة تصدر تكتكاتٍ لطيفة، وكان قلب ريان يعزف إيقاعاً ثابتاً، ومسالماً. وعلى الرغم من أنني ربما لم أكن سعيدةً، إلا أنني شعرت بالأمان.
كانت هذه آخر مرة شعرتُ فيها بالأمان على مدى زمن طويل... طويل.

14

نظرتُ إلى الساعة؛ كانت شارة ضبط الوقت تشير إلى الرابعة وثلاث وعشرين دقيقة، وكانت بيردي قد ذهبت، وريان يشخر شخيراً خفيفاً إلى جانبي. كنتُ أحلم حلماً يدور حول تاميلا بانكس. تمددتُ حيث أنا دقيقة من الزمن في محاولة لتجميع صور مجزأة.

جدعون بانكس، جنيفا، كاتي، رضيع حديث الولادة، حفرة.

عادة ما تكون أحلامي كقطعة من الكعك، يتلقى عقلي الأحداث الأخيرة وينسج منها ضروباً من الفسيفساء الليلية. لا ألغاز محيرة قابعة ما دون عتبة الإدراك، ولا مشكلات فرويدية صعبة الحل وتبعث على التسلية في آن معاً.

إذاً، ما هو بحق الله محور هذا الحلم كله؟ أهو شعور بالذنب ناجم عن إخفاقي في الردِّ على مكالمة جنيفا بانكس؟ - حاولت الاتصال مرتين - أهو شعور بالذنب لعدم إخبار ابنتي عن ريان؟ - لقد التقت كاتي به عندما أوصلت بويد. قابلتهُ، نعم - أهو خوفٌ على تاميلا؟ وحزنٌ على وليدها الرضيع؟ ثم أضحى ذهني يعمل ويكسل.

لماذا كانت رخصةُ القيادة الخاصة بتاميلا بانكس في مزرعةٍ تابعة لسوني باوندر، الرجل الذي ضُبط حديثاً لتعامله بالمخدرات؟ هل ذهبت تاميلا إلى تلك المزرعة مع داريل تيري؟ هل يخص الكوكايين تيري؟ أم باوندر؟ لماذا تُرك في الطابق السفلي؟ أين كانت تاميلا؟ أين كان داريل تيري؟

تفكير مفاجئ رهيب: هل يمكن أن تكون الضحية التي عُثِر عليها في دورة المياه تاميلا بانكس؟ هل قتلها داريل تيري بدافع خوفه من أن تبوح بما حدث للطفل؟ أم قتلها بسبب غضبه؟ لأن الطفل لم يكن ابنه؟ لكن ذلك الأمر كان مستحيلاً. فالعظام التي عثر عليها في دورة المياه كانت منزوعة اللحم. وعثر على

رضيع تاميلا منذ أسبوع فقط؛ لكن متى مات الرضيع؟ أوجزتُ ما عرفتُ عن التوقيت: أخبرت تاميلا أختَها عن حملها في الشتاء الفائت، وغادرت منزل والدها في وقت قريب من زمن الفصح. وقد أفاد شهود عيان أنها بقيت تعيش مع تيري في بيت يقع في شارع ساوث تريون على مدى أربعة أشهر؛ من المحتمل أن يكون الرضيع قد ولد في شهر تموز/يوليو، أو حتى في وقت متأخر من شهر حزيران/يونيو. متى شُوهدت تاميلا آخر مرة؟ هل يحتمل أن تكون قد ماتت منذ أسابيع عدة؟ هل يمكن أن يكون الوسط كثيف العضوية في دورة المياه قد سرَّع عملية التحلل؟

إن لم تكن تاميلا، فمن عساها تكون الضحية التي عثر عليها في دورة المياه؟ ما سبب وجودها هناك؟ من أطلق النار عليها؟ اعتقدتُ أن الجمجمة كانت ذكورية، لكن هل كان صاحبها ذكراً؟

أين كان داريل تيري؟ هل ما ذهبتُ إليه في اعتقادي أن الجمجمة تبدو قوقازية اعتقاد غير صحيح؟ هل يمكن أن يكون ما سحبناه من دورة المياه هو رأس تيري ويديه؟ هل رأيتُ حقاً ردّ فعل في عيني رينالدي؟ هل يمكن أن يكون الرأس واليدان قد أيقظت شيئاً في ذاكرته؟ إن كان الأمر كذلك، فلماذا يبقيه طيَّ الكتمان ويحتفظ به لنفسه؟

كان سؤال سليديل سؤالاً جيداً؛ كيف يمكن لعظمين من عظام اليد التي عُثِر عليهما في دورة المياه أن ينتهيا إلى قبر ضحل مع دببة وطيور؟ مَن الذي كان قد قتل كلَّ تلك الحيوانات؟ إن لم تكن أجزاء الجثة التي عُثِر عليها في دورة المياه بقايا جثة تاميلا، فهل يمكن أن تكون قد لاقت المصير ذاته الذي لاقته تلك الضحية؟

كانت الأسئلة تدور في رأسي وتسبّب لي الدوار.

من حفرة دورة المياه حلَّق ذهني غرباً عبر البلاد إلى موقع تحطُّم الطائرة في حقل الذرة، فتصورتُ هارفي بيرس والراكب مجهول الهوية وجثتيهما المغطاتين بأغطية سوداء متموجة. مَن كان الراكب الذي عُثر على جثته على متن الطائرة التي كان يقودها بيرس؟ وماذا كانتِ العلامةُ الفارقة الغريبة الموجودة على عظم أنفه؟

عثرت ينسن على مادة متفحمة تحت حطام طائرة السيسنا؛ هل كانت تلك

www.mlazna.com-RAYAHEEN

المادة مزيداً من الكوكايين، أم شيئاً من مخدر آخر غير مشروع؟ شيئاً آخر تماماً؟ ما العلاقة التي كانت تربط بين رَجُلي طائرة السيسنا وبين ريكي دون دورتون؟ هل سرق بيرس والراكب الذي كان معه طائرة دورتون؟ أم هل كان الثلاثة فريقاً من عصابة تهريب مخدرات؟ لا يبدو الباب الصغير والمقعد المفقود منسجمين مع حال طائرة سرقت حديثاً.

أدرتُ رأسي على الوسادة؛ هل كنتُ أرتكب خطأً مع ريان؟ هل يمكن أن يجدي هذا الأمر نفعاً؟ إن لم يكن الأمر كذلك، هل في وسعنا أن نبقي على الصداقة التي تجمع بيننا؟ بالنسبة إلى شخص غريب عنا، يمكن أن تبدو ممازحتنا الدائمة ضرباً من العدائية. تلك كانت طريقتنا: عبارة عن سجال، إغاظة، مبارزة. لكن ما يكمنُ في العمق احترامٌ ومودة. إن انتهيا، فلن يكون في وسعنا أن نكون حبيبين، تُرى هل نستطيع أن نعود مجدّداً زميلين وصديقين؟

هل أردتُ أن اقترن برجل؟ هل يمكنني حقاً أن أتخلى عن كفاحي الطويل من أجل الاستقلال؟ أو يتعين عليَّ فعل ذلك؟ هل يريد ريان علاقةً تنطوي على التزام؟ هل كان قادراً على الزواج بامرأة واحدة؟ هل في وسعه أن يخلص لي بصفته زوجاً؟ هل كان في وسعي أن أصدق هذا الأمر مرةً أخرى؟

كان بزوغُ فجر اليوم في نهاية المطاف مَورِدَ ارتياح؛ عندما تجمّع ضوء الصباح شاهدتُ أشياء مألوفة تتبلور في غرفتي: صدفة محارة كنتُ قد التقطتها من الشاطئ في كيتي هوك في الصيف الماضي، كأس الشراب التي أودعتها أقراطي، صور كاتي المؤطرة، الكِبابيل التي اشتريتها من غواتيمالا... والأشياء غير المألوفة.

كان وجه ريان أكثر سمرة مما هو عليه عادةً، فقد لوّحتهُ شمس الأيام التي أمضاها في حديقة الكينغ ماونتن وفي المزرعة. وقد انعكست أول خيوط ضوء الشمس ذهبيةً على بشرته.

ضبطني ريان وأنا أحدق إليه وقال: "ماذا؟".

حدقتُ إلى عينيه اللتين مهما حدقتُ إليهما، تدهشني دوماً كثافة اللون الأزرق فيهما. هززتُ رأسي، فنهض ريان واتكأ على مرفقه قائلاً: "تبدين متوترة".

أردتُ أن أخبره عما كان يدور في ذهني، وأن أصوغ كلماتٍ ممنوعةً، وأن أسأل أسئلة محظوراً طرحها. إلا أنني تراجعت.

"إنها أشياء مخيفة".

"نعم"، وافقت.

مَن وما المخيف؟ هل هو آندرو ريان؟ أنت؟ أنا؟ رضيع في الموقد؟ تعرض الرأس لصدمة كهربائية؟

"أنا آسفة بشأن الشاطئ"، أرضية أكثر أمناً.

دخل ريان تحتَ الغطاء فجأةً" وقال: "لديّ من الوقت أسبوعان. سنذهب إلى هناك".

أومأتُ برأسي، وأبعد ريان عنه الأغطية قائلاً: "أعتقد أن اليوم هو يوم الكوين سيتي (the Queen City)".

انعطفنا بالسيارة عن ستاربكس حيث أوصلني إلى مكتب الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ. واتصلت فور وصولي بجنيفا بانكس، ومجدّداً، ليس ثمةً ردٌّ.

وخزة خوف: لم تكن جنيفا، كما لم يكن أبوها، يعملان خارج المنزل. أين كانا؟ لماذا لم يكن ثمةً مَن يردّ على الهاتف؟

كنتُ أحاول الاتصال برينالدي عندما دخل مع شريكه إلى مكتبي، فسألتُ وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى موضعها: "كيف تجري الأمور؟".

"جيدة".

"جيدة".

تبادلنا ابتساماتٍ مصطنعةً، ثم قال سليديل: "هل تحدثتِ إلى جنيفا أو جدعون بانكس حديثاً؟".

تبادل سليديل ورينالدي النظرات، ثم قلتُ: "اتصلت جنيفا يوم الاثنين، وعاودتُ الاتصال بها إلا أنها لم تجبني. وقد حاولت لتوي الاتصال بها مجدّداً، إلا أنه لا يوجد ردٌّ حتى الآن".

نظر رينالدي نحو الأسفل إلى حذائه، ونظر سليديل إليَّ نظرةً باهتةً، فالتفّت أصابع باردة حول قلبي وقلت: "هذا هو الجزء الذي ستخبرني فيه أنهما في عداد الموتى، أليس هذا صحيحاً؟".

أجاب سليديل بكلمة واحدة: "رَحَلا".

"ماذا تعني بقولك رحلا؟".

"رحلا في مهب الريح. نحن هنا لنرى إذا ما كنتِ تعلمين شيئاً، كونك وجنيفا صديقتين وما إلى ذلك".

نقلتُ طرفي بين سليديل وشريكه.

"أُسدلتِ الستارات وأُمِّن المكان تأميناً أشد إحكاماً مما يُؤَمَّن به مفاعل نووي. رأت جارةٌ سيارةَ أسرة بانكس تنسحبُ من المكان في وقت باكر من صباح يوم الاثنين. واختفى أثرهما منذ ذلك الحين".

"ألم يكن معهما أحد؟".

"لم تكن الجارة واثقة بهذا الأمر، إلا أنها تعتقد أنها رأت شخصاً ما جالساً في مقعد السيارة الخلفي".

"ما الذي تفعله حيال ذلك؟".

عدل رينالدي ربطة عنقه، وبعناية جعلها تنسدل مستقيمةً من أعلاها إلى أدناها ثمّ قال: "نحن نبحث عنهما".

"هل تحدثت إلى أبناء بانكس الآخرين؟".

"نعم".

التفتُ نحو سليديل قائلةً: "إن كان تيري هذا حثالةً كما قلتَ عنه، فمن المحتمل أن تكون جنيفا ووالدها في خطر".

"آه!".

كظمتُ غيظي، وتابعت: "يمكن أن تكون تاميلا وأفراد أسرتها قد أضحوا في عداد الموتى".

"يا دكتورة أنتِ تغطين جوقة المرتلين، بقدر ما أنا معنيٌّ بالموضوع، فكلما أسرعنا في الإيقاع بهم كان ذلك أفضل".

"أنتَ تمزح، أليس كذلك؟".

"هل سمعتِ في أي وقت مضى عن المساعدة والتحريض؟".

"جدعون بانكس في السبعين من عمره، أما جنيفا فلا حظّ لها من الذكاء".

"ماذا عن عرقلة سير العدالة، وإعاقة البحث عن الحقيقة؟".

"البحثُ عن أي حقيقة؟"، لم أكن أصدِّق هذا.

قال سليديل: "لنبدأ انطلاقاً من قضية قتل الوليد الرضيع (infantalcide)".

قاطعته قائلةً: "الكلمة هي: (infanticide) وليست (infantalcide) كما تقولُ أنت".

وضع سليديل قبضتي يديه على وركيه وأحنى ظهره، شاداً أزرار قميصه السفلي إلى أقصى حدٍّ ممكن، وقال: "أليس لديكِ أي فكرة عن مكان وجود هؤلاء الناس، الآن، هلا أخبرتني يا دكتورة؟".

"لن أقول لكَ حتى إن كنتُ أعرف".

انخفضت يدا سليديل، واندفع رأسه إلى الأمام، ونظر كلٌّ منا إلى الآخر عبر طاولة مكتبي نظرة تحدٍّ تشبه تحدي الرياح للقوارب.

قال رينالدي: "لنتحدث عن هذا الموقف الآخر".

رنَّ الهاتف الخلوي، فأخرج سليديل هاتفه من جيبه وقال: "سليديل".

أصغى لحظةً ثم صعد إلى القاعة.

نظرتُ إلى عينَي رينالدي مباشرةً وقلتُ: "عندما كنتُ أصف ما عثرنا عليه في دورة المياه يوم أمس، همَّكَ شيءٌ ما من الأمر".

"ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟".

"شيءٌ ما في عينيك".

شدَّ رينالدي كُمَّي قميصه من تحت سترته ومسدهما عند معصميه، ثمّ قال: "هل أتممتِ فحصكِ للجمجمة وعظمَي اليد؟".

"إن هذا الأمر يتربع على رأس جدول أعمالي".

اشتدَّ وهج الأضواء المشعة فوق رأسينا، وكان صوت سليديل يبلغ مسامعنا انطلاقاً من القاعة. سألتُ: "مَن هو داريل تيري هذا؟".

"قوَّادٌ، وتاجرُ مخدرات، وإباحيٌّ على الرغم من أنني متأكدٌ أن السيد تيري لا يذكر هذه المعلومات في سيرته الذاتية. أعلميني عن القرار الذي اتخذتِهِ بشأن الجمجمة".

كان رينالدي يتجه نحو الباب في الوقت الذي ظهر فيه هوكينز ماراً عبر الباب، فتوقف الرجلان كلاهما، ثمّ تجاوز هوكينز رينالدي وأعطاني مغلفاً كبيراً بني اللون. فشكرتُهُ وانسحب خارجاً.

التفتَ رينالدي ببطء ونظر إلى شريكه قائلاً: "قد يكون سكيني فظاً نوعاً ما،

إلا أنه شرطيٌّ جيد. لا تقلقي دكتورة بريتان. سنجد آل بانكس".

في تلك اللحظة مدَّ سليديل رأسه عبر فتحة الباب وقال: "تبدو الأمور كما لو أن الغرين آكرس ليست مسرح الجريمة بالنسبة إلى ضحية دورة المياه".

انتظرتُ وريناالدي حتى يكمل سليديل حديثه: "لا يوجد دمٌ. بقي المكان هذا الصباح معتماً كأنه سوق تجارية في يوم الميلاد". على الرغم من أن سليديل كان يبتسم إلا أن زاويتَي فمه بقيتا مسطحتين.

عندما غادر رينالدي وسليديل، أخذتُ مغلفَ هوكينز إلى الغرفة النتنة، وشرعتُ أظهر صورة الأشعة السينية على علب الإضاءة الكاشفة. كلُّ فيلم كان يوحي إلى سليديل بلقب جديد: أحمق...

كانت التسميات أحادية المقطع تعمل على نحو أفضل. إلا إذا انزلقت إحدى الزوايا واحتاج الفيلم إلى تعديل...

صفيحة عظمية عقب أخرى، اشتغلت على بنية الراكب؛ أضلاع، وفقرات، وحوض، وذراع، وساق، وصدر، وترقوة. عدا الصدمة الهائلة الناجمة عن تباطؤ السرعة والارتطام، بدا الهيكل العظمي طبيعياً جداً، إلى أن أبرزتُ الصفائح العظمية الأربع الأخيرة. كنت أحدق إلى كَفي الراكب وقدميه عندما اقترب مني لارابي ووقف خلفي. على مدى عشر ثوانٍ كاملة لم ينبس أحدنا ببنتِ شفة، ثمّ كسر لارابي حاجز الصمت قائلاً: "أرجو أن يكون ذلك خلافاً لما اعتقدت".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

15

كنت أحدق إلى تباين الألوان، الأبيض منها والرمادي، التي تشع من صورة الأشعة السينية، وكان لارابي إلى جانبي يفعل الشيء نفسه، فسألني: "هل رأيتِ أمراً مشتركاً عندما فحصتِ عظام الأنف؟".

"آفة واحدة".

"هل كانت نشطة؟".

"نعم".

سمعتُ صرير نعلٍ حذاء لارابي على البلاطة، ومرّر كفيه على ساعديه صعوداً ونزولاً، ثمّ سأل: "هل تعتقدين أنه جذام؟".

"من المؤكد أنه يبدو مثله".

"كيف بحق الله يمكن أن يصاب امرؤ بالجذام في كارولينا الشمالية؟".

بقي السؤال معلقاً في الهواء حين كنتُ أنقّب في طبقات دماغي العميقة، كلية الدراسات العليا، علوم التصنيف الأحيائي لأمراض العظام:

أ - توزيع تشريحي.

أشرتُ بقلمي إلى عظام إصبعَي اليد والقدم وقلت:

"في ما عدا عظام الأنف، يبدو أن العملية محصورة في عظام اليدين والقدمين، لا سيما السلاميات المحورية القريبة والسلاميات المتوسطة"؛ فوافقني لارابي.

ب - تعديل عظمي. حجم غير سوي، وشكل العظم، وفقدانه، وتشكيله غير سوي.

"أرى ثلاثة نماذج من التغيُّر".

أشـرتُ إلى دائرة يبدو أنها تعرضت لارتطام شـديد وتابعت: "بعض الآفات تبدو كُييسيَّة الشكل دائريته كتلك الموجودة على العظم الأنفي".

ثمّ أشرتُ إلى نموذج كثير الثقوب في السبابة وقلت: "ثمة تَخَشُّنٌ شريطي الشكل في بعض السلاميات".

حركت قلمي نحو سلامية تغير شكلها من دَمبل لتصبح على هيئة قلم رصاص مستدق الطرف مسنونه قائلةً: "امتصاص ثانٍ في واحدة".

قال لارابي: "يبدو لي شبيهاً بكتاب تعليمي كلاسيكي عن الأشعة مُبقع".

"هل ضبطتَ آثار أي شيء في مكان آخر من الجسم؟".

أدار لارابي راحتي كفيه كلتيهما إلى الأعلى وهزّ كتفيه كأنما أراد أن يقول: في الحقيقة، لا. ثم قال: "ثمّة عقدتان لمفاويتان متضخمتان، لكنهما - بالنسبة إليّ - ليستا أمراً مهماً. كانت الرئتان مثل قطعتي همبرغر، لذلك لم أتمكن من رؤية شيء ذي شأن".

"بالنسبة إلى الجذام الجذامي، عادةً ما تظهر الآفات الجلدية الأكثر وضوحاً على الوجه".

"نعم، وهذا الرجل ليس لديه واحدة منها على وجهه".

عودة إلى مُؤَخّرِ دماغي؛ لا توجد أي تغيرات جديرة بالملاحظة بادية للعين في النسيج اللين؛ خلخلة متقطعة قليلة الكثافة، وترقق قشري، وإشارة بقلم الرصاص إلى سلامية واحدة على الأقل.

ثمّ غصتُ في طبقات الدماغ العميقة؛ تنشؤ ورمي، أمراض عِوز مناعة، استقلابي، مُعدٍ، مناعة ذاتية، بطيء، من النوع الحميد (لا الخبيث)، أيدٍ وأقدام، بالغٌ شاب.

"لكن في وسعكِ أن تراهني بما تشائين على أنني سألقي نظرة على النُسج عندما تكون الشرائح جاهزةً".

بالكاد استطعتُ تسجيل كلمات لارابي، في حين كنتُ أفكر في ضروب التشخيص المحتملة: جذام، سل، فيتنوسا شوكية، مرض مزمن في العظام.

قلتُ، وأنا أوقف عمل أنوار العلب المخصصة لفحص صور الأشعة: "لم يحن وقت الاتصال بالأب داميان بعد، أنا عازمةٌ على القيام بشيء من الحفر".

"في الوقت الراهن، سألقي نظرةً أخرى على ما تبقى من جلد هذا الرجل وغدده اللمفاوية". هزَّ رأسه وقال: "بالتأكيد، هذا الأمر سيساعد إن كان لهذا الرجل

وجهٌ".

لـم أكـد أسـترخي في مقعـدي حين رنَّ جرس الهاتـف، وكانت المتصلة هي شيلا ينسن التي بدأت كلامها قائلةً:

"كنتِ محقّة، لم تكن المادة المحترقة تحت طائرة السيسنا تلك كوكايين".

"ماذا كانت؟".

"هـذا مـا لـم يتحـدد بعد. لكن لـم تكن المادة مخدراً. هل أُحرِزَ تقدمٌ بشأن الراكب؟".

"إننا نشتغل على هذا الأمر".

لم أذكر شيئاً عن الشكوك التي تسـاورنا بشأن صحة الرجل. من الأفضل أن ننتظر حتى نتوثّق من الأمر.

قالت ينسن: "اكتشفنا أموراً قليلة إضافية تتعلق بريكي دون دورتون".

انتظرتُ حتّى تابعت: "يبدو أن ريكي دون تورّط في سـوء تفاهم بسـيط مع فيلـق مشـاة تابـع للقـوات البحرية الأميركيـة في وقت باكر من مطلع السبعينيات، وسُجن في سجن على متن سفينة لبعض الوقت، وصُرف من الخدمة".

"مخدرات؟".

"قرر العريف دورتون أن يرسل قليلاً من الحشيش إلى الوطن بصفته تذكاراً من الوقت الذي أمضاه في جنوب شرق آسيا".

"كانت ثمة فكرةٌ أصلية".

"كان مخططه، فـي الواقـع، بارعـاً جـداً. فقـد جـرى تعيينه في قسـم شـؤون المصابين والضحايا في فيتنام. وكان يدسُّ المخدرات في التوابيت في مشرحة دان نانغ، ثم يأخذها شـخص متعاون معه فور وصول التوابيت إلى الولايات المتحدة قبل تسـليم جثة الجندي إلى أسـرته. ربما كان دورتون يعمل مع شـخص ما التقى به في أثناء جولته، شخص لم يكن يعرف روتين المشرحة".

"ذكي، ذو دم بارد، لكنه ذكي".

"باستثناء كونَ العريف أينشتاين قد أُلقي القبضُ عليه في الأسبوع الأخير من جولته".

"توقيت سيئ".

تـوارى دورتـون عـن الأنظـار فترة وجيزة عقب إطلاق سـراحه، بعد ذلك بتنا نراه. فقد عاد إلى سنيدفيل ليدير رحلات ميدانية لمصلحة غريزلي وودزمان فيشينغ كامب".

"غريزلي وودزمان؟ هل هي واحدة من تلك المؤسسات التي تساعد محاسبين من آكرون يعانون اضطرابات ناجمة عن أحلامهم؟".

"نعم، لم يستطع تعليمه وتسريحه من الخدمة أن يقصرا خيارات ريكي دون على التعامل مع مؤسسات وول ستريت الكبيرة؛ لأن هذا لم يكن ليلبي طموحاته. فبعـد سـنتين مـن عمله مدرباً على الصيـد بالصنارة، افتتح دورتون عملاً خاصاً به: السعي في البرية".

"ألا تظنين أن ريكـي دون كان قـد هـرَّب بعض المواد قبل أن يكتشـف فيلق مشاة البحرية مخططه التصديري البسيط؟".

"لا. مواطـنٌ مرمـوقٌ يقتطـع شـيئاً مـن كلِّ راتب من رواتبه الشـهرية، ويعمل في حقل الخدمة المدنية في عطل نهاية الأسـبوع. شـيء من هذا القبيل. على أي حال، في منتصف الثمانينيات، تحول عن عمله إلى العمل في نوع من ألبسة العمل المخططـة. إضافـةً إلـى معسـكر الصيد بالصنـارة، كان يملك مخزنـاً لبيع الأدوات الرياضية في موريستاون في ولاية تينيسي، والملهيين في كنابوليس".

قلتُ: "رجلُ أعمال محترم".

"وخبـرة ريكـي دون العسـكرية علمتـهُ كثيـراً عندمـا يكـون منخرطاً في شـأنٍ مخالـف للقانـون. بـات الآن يعمـل عـن بعد، ويحافـظ على رباطة جأشـه وهدوء أعصابه إلى أبعد حدٍّ حيث لا تتمكن الشرطة من إجفاله".

تحرّك شـيء ما وترسّـب في قاع ذهني، فسـألتُ: "هل قلت إنَّ دورتون من سنيدفيل؟".

"نعم".

"تينيسي؟".

"نعم، فأمُّ دورتون وعدد هائل من الأقارب لا يزالون يعيشون هناك".

تحركـتِ الفكـرةُ المترسـبةُ فـي قـاع ذهني بطيئة وكسـولة، وقلـتُ: "هل ثمةَ احتمالٌ أن يكون دورتون ملونجياً؟".

"كيف خمّنتِ ذلك؟".

"أهو منهم؟".

"بالتأكيد هو كذلك، لقد تأثرتُ. فحتى يوم أمس، لم أكن قد سمعتُ قَطُّ بالملونجيونيين". ربما تكون ينسن قد التقطت شيئاً من صوتي. "هل هذا يثير خطأً في التفكير؟".

"مجردُ حدس، يمكن ألا يكون شيئاً".

"أنتِ تعرفين كيف تصلين إليَّ".

جلستُ لحظةً عندما قطعنا الاتصال؛ حفر طبقات عليا، ودائع حديثة، الأكاديمية الأميركية لعلوم الطب الشرعي، الدورة العلمية. أيُّ سنةٍ أيُّ مدينةٍ؟

التفتُّ إلى برامج الأكاديمية الأميركية لعلوم الطب الشرعي الموضوعة على الرف في مكتبي، وفي غضون عشر دقائق عثرتُ على ما كنتُ أبحث عنه. عدت اثني عشر عاماً إلى الوراء؛ ثمةَ عرضٌ مقدمٌ من طالبٍ دراسات عليا عن تواترات المرض بين الملونجيونيين.

وبينما كنتُ أقرأ عن الأمور المجردة، تحركت الفكرة القابعة في قاع دماغي وتبلورت ببطء: "ساركويدوسيس".

عندما نظر لارابي، أرسل مصباح مكتبه ظلالاً عبر الخطوط ألقاها على وجهه، وقال: "من شأن هذا أن يعيدنا إلى الغدد اللمفاوية، والرئتين، والجلد".

"14٪ من حالات مرض الساركويدوسيس تقريباً تظهرُ انخراط الهيكل العظمي فيها، ومعظمها في عظام الكفين والقدمين القصيرة".

وضعت كتاباً عن علم الأمراض على الطاولة أمامه، فقرأ لارابي فيه لحظةً ثم اعتدل في جلسته، ووضع ذقنه على راحة يده وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ يوحي إليَّ بأنه غير مقتنع، لذلك قلتُ موضّحة: "معظم حالات هذا المرض حميدة، وهي بطيئة ظهور الأعراض، وتشفى من تلقاء ذاتها. والناس لا يعرفون أنهم مصابون حتى به".

قال: "إلى أن يجروا تصويراً شعاعياً لسبب آخر".

"بالتحديد".

"كما لو كانوا موتى".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تجاهلتُ ذلك وقلت: "يصيب هذا المرض الشباب البالغين بصورة رئيسة".
"وهو أكثر ما يكون وضوحاً عبر التصوير الإشعاعي بالرئتين".
"قلتَ إن الرئتين تشبهان الهمبرغر".
"يظهر هذا المرض أكثر ما يظهر عند الأميركيين من أصول إفريقية".
"نسبة الإصابة به مرتفعة عند الملونجيونيين".
نظر إليَّ لارابي كما لو كنتُ قد قلتُ محاربي أولمك، وتابعتُ قائلةً: "كلُّ الأمور ملائمة، حيث يوجد نتوء أناضولي في مؤخر رأس الراكب، وتجريف معدل في القواطع من أسنانه، وعظام وجنتيه متقمعة (متخذة شكل قمع). ولولا ذلك لكان شبيهاً بتشارلستون هيستون".
"أنعشي ذاكرتي في ما يتعلق بأهالي ملونجيون".
"إنهم من ذوي البشرة السمراء الدكناء إلى حدٍّ ما مع ملامح أوروبية، ولبعضهم هيئة عيونٍ آسيوية".
"أين يعيشون؟".
"معظمهم في جبال كنتاكي، في فرجينيا، وفي فرجينيا الغربية وكارولينا الشمالية".
"من هم؟".
"ناجون من مستعمرة رونوك المفقودة، ومن حطام سفن برتغالية، ومن قبائل التيه اليهودية، ومن بحارة فينيقيين. في وسعك أن تختار من النظريات ما تشاء".
"ما المفضل الراهن عندك؟".
"أحفاد المستعمرين الإسبان والبرتغاليين الذين هجروا مستوطنة سانتا إيلينا في كارولينا الجنوبية في وقت متأخر من القرن السادس عشر. من المفترض أن يكون هؤلاء الناس قد اختلطوا بالبوهاتانيين، والكتاوبا، والشيروكيين، وبعدد من القبائل الأخرى. يمكن أن يكون بينهم بعض العبيد المغاربة والأتراك، وسجناء إسبانيا وبرتغاليون تُركوا في جزيرة رونوك عام 1586".
"مَن تركهم هناك؟".
"سير فرنسيس دريك".
"مَن يكون أهالي ملونجيون حسبَ اعتقادهم؟".

"إنهم يدعون أنهم خليط من البرتغاليين، والأتراك، والمغاربة، والعرب، وأن منهم من هم من ذوي أصول يهودية، وهم مختلطون مع أميركيين أصليين".

"هل ثمة دليلٌ يدعم هذا؟".

"عندما تُقفوا بادئ الأمر في القرن السادس عشر، كانوا يعيشون في كبائن، ويتكلمون لغةً إنكليزية ركيكة، ويعرّفون أنفسهم بصفتهم برتغاليين".

أشار لارابي إشارةً من يده تنمُّ على رغبته في الاستزادة من الحديث، فتابعت: "أظهرت دراسةٌ للجينات جرت حديثاً أنه لا توجد اختلافات جوهرية بين السكان الملونجيونيين في كلٍّ من تينيسي وفرجينيا وبين أبناء كلٍّ من البرتغال، وإسبانيا، وشمال إفريقيا، ومالطا، وقبرص، وإيران، والعراق، وسكان المشرق العربي".

هز لارابي رأسه قائلاً: "كيف تتذكرين شيئاً من هذا القبيل؟".

"لا أتذكر، ثمة كثيرٌ من المواقع عبر الشبكة العنكبوتية تمّ ذِكر الملونجيونيين فيها، وأنا أتصفحها، هذا كلُّ ما في الأمر".

"ما الذي يجعل هذا ذا صلة بالموضوع؟".

"هناك عدد كبير من السكان الملونجيونيين يعيشون قرب سيندفيل، تينيسي".

"وماذا بعد؟".

"هل تتذكر ريكي دون دورتون؟".

"صاحب طائرة السيسنا".

"دورتون من سيندفيل، تينيسي".

"هذا يجدي نفعاً".

"ربما".

"سأتصل بشيلا ينسن، وسأتابع العمل على المادة القرنية في سيندفيل".

فور انتهائي من مهاتفة مندوبة هيئة سلامة النقل الوطني، أعلن سليديل وريناldi عن ظهورهما للمرة الثانية في اليوم.

سأل رينالدي: "هل سبق لكِ أن سمعتِ عن رجل يدعى دجيه. دجيه. ويات؟".

هززتُ رأسي نافيةً.

"يبدو أن اسم ويات ورد على لائحة الاتصال السريع المدرجة على هاتف

داريل تيري".
"هل يعني هذا أن تيري كان كثيراً ما يتصل بويات؟".
أومأ رينالدي بحركة من رأسه إيجاباً وقال: "من هاتفه الخلوي".
"هل حدث هذا أخيراً؟".
"كانت المكالمات الثلاثة الأخيرة قبل الساعة السابعة من صباح الأحد الماضي بوقت قصير".
"بمَن جرى الاتصال؟".
"كان الاتصال بهاتف ويات الخلوي". بدا وجه سليديل كما لو كان محموماً من شدة الحرارة.
"مع مَن كان الهاتف؟".
مسح سليديل العرق عن جبينه وقال: "المرجّح جداً أنه كان بيد ويات".
كنتُ أعدُّ لردٍّ أستطردُ به في الحديث عندما انضم إلينا لارابي، وقد ارتسمت على محياه ابتسامةٌ أعرضُ من أن يتحملها وجه هزيل كوجهه، وقال لسليديل ورينالدي: "أنتما في حضرة عبقرية".
التفتَ لارابي نحوي نصف التفاتة، ثم هزَّ قصاصة ورق في الهواء.
"جايسون جاك ويات".
حلَّ سكونٌ مُطبقٌ في مكتبي الصغير.
وبدا لارابي في حيرةٍ من عدم إظهارنا أيّ ردّ فعل، فنقّل طرفه بيني وبين سليديل ورينالدي.
"ماذا؟".
تكلَّم سليديل أولاً: "ماذا بشأن جايسون جاك ويات يا دكتورة؟".
"إنه شاب ذكر من الملونجيونيين من سيندفيل، تينيسي، يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، أعلنت جدتُهُ القلقةُ عليه أنه في عداد المفقودين منذ ثلاثة أيام".
أبعد لارابي نظره عن قصاصة الورق التي كانت في يده وقال: "قالتِ الجدة إن الشاب دجيه. دجيه. يعاني اعتلالاً مفصلياً في كفيه وقدميه. والسجلات المتعلقة بالأسنان في الترانزيت، وتبدو هذه الأوصاف مطابقة لراكب طائرة السيسنا".
لم ينبس أحدٌ ببنتِ شفة.

"هل أنتم مستعدون للاستماع إلى الجزء الأفضل من الموضوع؟".
ثلاث إيماءات تفيد الإيجاب.
"اسم الجدة هو إيفي أوبال دورتون كومبو"، ازدادت ابتسامة لارابي الواسعة إلى حدٍّ فظيع، "دجيه. دجيه. ويات، وريكي دون دورتون قريبان من الدرجة الأولى من تينيسي".

16

مرتْ ثلاثون ثانية قبل أن ينبس أحدٌ ببنت شفة، إذ كان رينالدي يحدّق إلى السقف، وسليديل يتفحص حذاءه. بدا كلٌّ منهما كما لو كان يحلُّ مسألة رياضيات معقدة في ذهنه.

انتظرنا لارابي في الخارج، كونه يعلم أنه خارج حلقتنا، لكنه لم يكن يعلم سبب ذلك، وقد تخلت عنه الابتسامة، فبدا وجهه الرَّخو كما لو أنه كان قد أمضى عمراً وهو ينخبز في فرن.

بدأتُ الحوارَ انطلاقاً من رفع إصبع السَّبَّابة: "جايسون جاك ويات يمكن أن يكون الراكب الذي كان على متن طائرة السيسنا".

قال رينالدي: "كانت طائرة السيسنا مملوكة من قِبَل ريكي دون دورتون".

أضفتُ إصبعاً.

قال سليديل: "كان ويات قريب دورتون".

رفعتُ إصبع مهرج سيرك.

قال رينالدي: "أجرى داريل تيري اتصالات متعددة بويات بما فيها اتصالات ثلاثة صبيحة اليوم الذي تحطمت فيه طائرة السيسنا".

أضفتُ خنصراً.

قال سليديل: "بعد أن أُفرغت شحنةٌ من المخدرات تزن أربعة كيلو غرامات على الأقل".

تحرك إبهامي نحو الأعلى.

قال رينالدي: "تيري هو التاجر المتعامل الذي عُدَّت صديقته في عداد المفقودين حديثاً".

شرعتُ في العدّ على أصابع اليد الثانية.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قال سليديل: "كونها قتلت ابنها".

قلت: "ربما".

تجاهل رينالدي حوارنا المتعلق بالرضيع وقال: "اثنان من أفراد أسـرة تاميلا في عداد المفقودين أيضاً".

تحرك بنصري صعوداً.

قال سليديل: "تبيّن أن رخصة القيادة الخاصة بجميلة الوجنتين قد عُثر عليها في بيتٍ إلى جانب كيلوغرامين من المخدرات ورجلٍ ميتٍ في دورة مياه".

رفعت إصبع مهرج سيرك الثانية.

"بيت في حوزة سـوني باوندر، وهو تاجرٌ ذو مستوىً متدنٍّ بلّغ الشـرطة عن رضيع تاميلا".

رفعت الخنصر الثانية.

أضفت وأنا أسقط كلتا يدي: "بيتٌ مع دببة مدفونة في الفناء".

خفف سليديل من حدة لعنة مؤكدة، واقترحتُ لعنةً من صنعي أنا.

رنَّ جرسُ هاتف في مكتب لارابي.

قال لي الفاحص الطبي: "أنتِ عازمةٌ على إتخامي بكلِّ هذا"، ثم صفقَ الباب.

فمد رينالدي يده إلى جيب داخلية، وأخرج منها علبة بلاستيكية صغيرة ووضعها على طاولتي قائلاً: "وجدتها الشرطة الكونفدرالية مخبأةً مع الكوكايين. أعتقد أنها قد تعني لكِ شيئاً".

وقبل أن أمدَّ يدي لتناول العلبة، رمقتُ رينالدي بنظرة.

"لقد خضعت لتحليل تتبع الأثر".

فتحتُ العلبة، وتفحصتُ محتوياتها، ثمّ سألت:

"ريش؟".

قال رينالدي: "ريش غير عادي على الإطلاق".

"لا أعرف شيئاً عن الريش".

هزَّ سـليديل كتفيه استخفافاً، وقال: "كنتم جميعاً مهتمين بيوغي وأصدقائه يا دكتورة".

"ذاكَ عظمٌ وهذا ريش".

سحب رينالدي ريشةً طولها ثمانية إنشات وأخذ يفتلها بين أصابعه. وحتى في ظل ضوء النيون بدت قزحيةَ الألوان وغنيةً بها.

قال: "إنها ليست لعصفور دوري مغرّد".

قلت: "لست أتتبع هذا".

"لماذا يخفي شخص ما ريش طيور مع مخدرات ممنوعة؟".

"ربما كان الريش في الأسفل، واستقر الكوكايين مصادفةً فوقه".

أعاد رينالدي الريشة إلى حيث كانت وقال: "ربما".

سلطتُ ضوءاً على عظام الدببة قائلةً: "في الواقع، كان ثمةَ نوعٌ من عظام طير مختلط مع عظام الدببة".

"أخبريني أكثر".

"هذا كلُّ ما أعرفه".

"تحديدُ الأنواع لا يضر".

"أنتَ بحاجة إلى عالم طيور".

"أتعرفين أحداً؟".

"في وسعي إجراء مكالمات قليلة". رمقتُ رينالدي بنظرةٍ حادة.

"لكن، دعونا نتحدث أولاً عن جثث لا رؤوسَ لها".

انطوت ذراعا رينالدي على ملابس كتانية من صنع بروكس برذرز.

"لا أحبُّ أن أحتجز في الظلام، أيها المخبر".

قال سليديل: "ونحن لا نحبُّ التفكير الغامض، يا دكتورة".

التفتُّ إليه: "هل ثمةَ شيءٌ لستَ مشاركاً فيه؟".

قال سليديل، وقد عبس في وجهي: "لا خيرٌ في كثيرٍ من الغزل على منوال غير مستدق الطرف".

عبستُ في وجهه رداً على عبوسه.

قال سليديل: "عندما نتوثق مما ننظر فيه سنعلن عنه".

أخذ رينالدي يعالج بأسنانه جساةً (جزءاً غليظاً من الجلد) على إبهامه. ووسط شعره الشائك بدت فروةُ رأسه شاحبةً ولامعة، وقد تناهى إلى مسامعي صوت لارابي صادراً من مكتبه. وواظب سليديل على النظر إليَّ مقطباً، وتساءلتُ في سري

إن كان في وسعه أن يستمر على هذه الحال إن أنا ركلته بحذائي على مؤخّرته.

كسر رينالدي حاجز الصمت قائلاً: "لا أرى بأساً في إشراك الدكتورة برينان في تفكيرنا".

التفتت عينا سليديل نحو شريكه، ثم عادتا لتنظرا إليَّ، فتنهّد قائلاً: "يا له من عذاب!".

"منذ ثلاث سنوات أو أربع؛ لا أذكر التوقيت على وجه الدقة؛ وصل إلى مكتبي استعلام يتطلب تحقيقاً".

"عن جثة من دون رأس أو يدين".

هزَّ رينالدي رأسه.

"أين؟".

"في ولاية كارولينا الجنوبية".

"إنها ولايةٌ كبيرة".

"فورت ميل، غافني، تشيستر"، صفّق رينالدي بيد طويلة ناتئة العظام، "لا شيء متمركز هناك، إنه لمن الصعب انتهاج نهج معاكس".

خلافاً لولاية ترهيل، تعتمد ولاية كارولينا الجنوبية على نظام محقق الوفيات، مع ممارسين يعملون بصورة مستقلة في كل مقاطعة. ويُنتخبُ محققو الوفيات انتخاباً: ممرضة، ومدير جنائزي، وصاحب مقبرة. والذين يتدربون في مجال الطب عددهم قليل، وأقل منهم عدداً المتدربون في مجال الطب الشرعي، وتُوكَل مهامّ تشريح الجثث إلى أطباء محليين.

"معظم المحققين في أسباب الوفيات في كارولينا الجنوبية لا يملكون الوسائل اللازمة للحفاظ على الجثث زمناً طويلاً".

تكلم سليديل مطلقاً أصواتاً تشبه الشخير: "اللعنة عليهم".

لسليديل براعةُ مطرقةٍ ثقيلةٍ ضخمة وحساسيتُها، لكنه كان محقًّا.

قال رينالدي: "أرسلتُ استعلاماً، آمل أن يأتينا الردُّ مع نهاية النهار".

"هل كانت هذه جثةً من دون رأس، ومن دون يدين في حالة جيدة؟".

"كما أذكر، كانت رفات مهيكلة عظمية، لكنها لم تكن ذات صلة بأي أمر كنا نحقق فيه في ذلك الوقت، لذلك لم أعرها كثيراً من الاهتمام".

"أكانت لشخص أسود أم أبيض؟".

رفع رينالدي كتفيه ثم أرخاهما.

"ذكر أم أنثى؟".

قال رينالدي: "بالتأكيد".

عندما ذهب رجلا الشرطة السرية، اتصلت هاتفياً بالجامعة، وتحدثت إلى زميل يمكن أن يعاين الريش في اليوم اللاحق. بعد ذلك، مضيتُ إلى حيث يوجد جهاز التبريد، ورتبتُ محتويات العربة التي وضعتُ عليها بقايا الجثث الحيوانية. وغلّفتُ كلّ شيء تبدو هيئته شبيهة بالطيور، ووضعت الحزمة في كيس مع علبة رينالدي الصغيرة التي تحتوي على الريش.

وبعد أن استبدلتُ بالعربة التي تحتوي على عظام الحيوانات تلك التي تحتوي على بقايا الجثة المستخرجة من دورة المياه، أمضيتُ الساعات القليلة اللاحقة أجري تحليلاً دقيقاً ما وسعني ذلك.

لقد تغيرت انطباعاتي الأولية قليلاً، على الرغم من أنني كنتُ قادرة على تحديد العمر بدقة أكثر:

العرق: أبيض.

العمر: من 25 سنة إلى أربعين سنة.

الجنس: ارم الزهر.

وعندما عدتَ إلى مكتبي، كان ريان يتصفح نسخة من كريتيف لوفينغ، وحذاؤه النايكي موضوعاً على طرف مكتبي. كان يرتدي القميص والبنطال القصير اللذين كان يرتديهما في الصباح نفسيهما ويعتمر قبعة كأس وينستون. بدا شبيهاً بما يفعله فايف أو في هاواي؛ الجمعية الوطنية لسباق السيارات القديمة.

"هل أمضيتَ يوماً طيباً؟".

"لاتا بلانتشن ثم فريدوم بارك".

"لم أعلم أنكَ مولع بالتاريخ إلى هذا الحد".

"ليس في وسع هوتش أن يحصل على ما يكفي من المادة".

"أين هو؟".

"نداء آلبو تغلب على دعوة البرية".

"إنه لمن المدهش أن يدعكَ تخرج وحدك".
"عندما شوهد آخر مرة، كان أفضل أصدقاء الرجل يحقق في محتويات غلاف أوريو".
"الشوكولاته سيئة للكلاب".
"ناقشنا هذا الأمر. كان هوتش يعتقد أن في وسعه التعامل معها".
"إن كان هوتش مخطئاً في تخمينه، فأنتَ من ينظف السجادة".
"هل تحرزين تقدماً مع الرجل الذي عثر عليه في دورة المياه؟".
"أميل إلى إحراز تقدم مرحلي".
قاذفةً ملف حالة دورة المياه على مكتبي، جلستُ مرهقةً على الكرسي وأنا أقول: "لقد أنهيتُ العمل لتوي".
قال ريان: "لقد استغرق ذلك وقتاً".
"أتى تودي وملدون مرتين اليوم".
"أتعنين سليديل وشريكه؟".
أومأتُ إيجاباً.
"ألا تعتقدين أنك تقسين على الرجل إلى حدٍّ ما؟".
"ربما يحتاج سليديل إلى تعليمات ليصنع مكعبات ثلج".
"أهو أحمق حقاً؟".
فكرتُ في ذلك؛ لم يكن سليديل أحمق فعلاً، ليس بالطريقة التي يكون فيها نبات السرخس أحمق، أو ضفدع الخشب، لقد كان سليديل هو سليديل فحسب.
"من المحتمل أنه ليس كذلك. لكنه ليس من النوع المألوف وهو مثير للإزعاج".
"ماذا يريدان؟".
حدّثتُ ريان عن جايسون جاك ويات وعن اتصاله عبر الهاتف الخلوي بداريل تيري.
"صديق السيدة والدة الطفل الرضيع؟".
أومأتُ إيجاباً.
"أكثر فضولاً وأكثر فضولاً".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"يوجد هنا فلاش آخر. يتذكر رينالدي تحقيقاً بشأن جثة من دون رأس ومن دون يدين جرى منذ سنوات قليلة مضت. كان هو وسليديل يتتبعانها".
"أتنطبق أوصافها على جثة الرجل التي عثر عليها في دورة المياه؟".
"تذكُّر رينالدي غامضٌ بعض الشيء".
"هل الجثة التي تشتغلين عليها هي لرجل؟".
"أعتقد ذلك".
رفع ريان حاجبيه في إيماءة تنم على استفسار.
"لا يوجد سمة واحدة مميزة يمكن أن تُعد قاطعةً من حيث تحديدها للجنس. فقد جربت كل قياس ممكن عبر برنامج فورديسك 3".
"دعيني أخمن: تندرج الجمجمة في نطاق التداخل".
أومأتُ إيجاباً.
"على الرغم من أنها أقرب إلى مواصفات الذكر منها إلى مواصفات الأنثى".
"كما هي الحال مع مقاييس عظام اليد".
"نعم".
"بِمَ يخبرُكِ إحساسكِ الداخلي؟".
"ذكر".
"شخصٌ أبيض بالغٌ شاب من المحتمل أنه كان يستخدم غرفة أولاد صغار. ليست تلك بدايةً سيئةً".
"أسنان صاحب الجثة رديئة ونخرة".
"أوه؟".
"كثيرٌ من الاضمحلال. على الأقل بالنسبة إلى الأسنان التي استخرجناها".
"وهل قليل منها مفقود؟".
"نعم".
"عمل قذر".
"كيف استطعتُ أن أعرف أنكَ ستقول ذلك؟".
"أيُّ عَمَلِ أسنانٍ؟".
هززتُ رأسي قائلةً: "لم يكنِ الضحيةُ يعتقد بمراجعة الطبيب لإجراء فحوصات

اعتيادية منتظمة".

"هل من شيء آخر؟".

"ربما تنقية عظام خفيفة".

"أعتقد أنكِ حققتِ بدايةً رائعةً دكتورة برينان".

"لدى رينالدي ريش أيضاً".

"ألا يبدو شبيهاً بأسلوبه؟".

"اكتشفوه مع الكوكايين في المخزن".

"أي نوع من الريش؟".

"إنه يريد مني أن أكتشف ذلك".

"هل تعرفين أياً من أدمغة الطيور الكبيرة؟".

"أعرفكَ أنت، يا كاوبوي".

جعل ريان يده تحاكي هيئة مسدس وصوبها نحوي، ثمّ قال: "هل أنتِ مستعدة لرحلة ميدانية أخرى غداً؟".

"هي... هاو"، قهقهةٌ.

هذه المرة حاكت إصبعه هيئة وَهَقٍ (حبل في طرفه أُنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار)".

كنا نمر بمحاذاة طاولة السيدة فلورز عندما رنَّ جرسُ الهاتف. أجابت، ثم مدت يداً نحوي تستمهلني.

فانتظرتُ حين كانت تتحدث، ثم وضعتِ المكالمة قيد الانتظار.

"إنه المخبر سليديل".

شعرتُ بحسرةٍ تضربني في صدري، إلا أنني قاومتُ الاندفاع نحو سلوكٍ ميلودرامي.

ابتسمتِ السيدة فلورز لي، ثم لريان. وعندما ردَّ لها الابتسامة بمثلها، أزهرت بقعةٌ وردية اللون على كلِّ وجنةٍ من وجنتيها.

"إن صوتَهُ يشبه صوتَ قطٍّ ابتلع طائر كناري".

غمز ريان: "ليست صورةً جميلةً".

ضحكتِ السيدةُ فلورز، فتلونت وجنتاها بلون التوت.

"هل تريدين أن تتحدّثي إليه؟".
مثلما أريد الإيبولا.
ذهبتُ إلى حيث أمسكُ سماعةَ الهاتف.



"لانكستر".

"لانكستر من؟".

"كارولينا الشمالية".

سمعتُ صوتَ خشخشة هاتف خلوي، ثم صوت مضغ.

"إنهـا تقـع إلى الجنوب من شـارلوت وتبعد عنها مسـافة أربعيـن دقيقةً تقريباً بالسيارة".

"أوه! مباشرةً وصولاً إلى التحويلة 5-21".

"ماذا عن لانكستر، كارولينا الشمالية؟".

"إنه هيكل عظمي". قال الكلمة مشوهةً كما لو أنها مرت عبر مضغ شيء من الكراميل مع الفول السوداني.

"منذ ثلاثة - خشخشة - أعوام".

كان سـليديل في وضع مزاجي يشـبه الهلوسـة، واشـتدت قبضتي على سماعة الهاتف.

"متجولون".

كثير من الخشخشة، وتعليق لم أستطع أن أتبين كلماته.

"حديقة".

قلتُ كأنني ألقنـه الكلام: "متجولون عثروا على هيكل عظمي من دون رأس ومن دون يدين في حديقة قرب لانكستر. أهذا ما تقوله؟".

"نعم".

صوت طقطقة كما لو كان سليديل يخلل إحدى أسنانه بظفر إبهام يده.

"هل جرى التعرّف إلى هوية صاحب ما تبقى من الجثة؟".

"لا".

"ماذا حل به؟".

"غُلّف وشحن إلى كولومبيا".

"إلى والي كاجل؟".

"هل العالم بالأنثوربولوجيا موجود هناك؟".

"نعم".

"ذبابةٌ فاكهة صغيرةٌ مُجَحدَرَةٌ (قصيرة وبدينة)، أليس له لحية تيس ويشبه الحمار البري؟".

"والتر كاجل على درجة عالية من التأهيل، وهو عالم في أنثروبولوجيا الطب الشرعي مجاز من الهيئة المختصة"، تطلّب الأمر مني بذل جهد للحفاظ على مستوى صوتي... "لم تجب عن سؤالي".

"ربما".

"ماذا يعني ذلك؟".

"انتخب مواطنون أكارم من مقاطعة لانكستر لأنفسهم مسؤولاً جديداً للتحقيق في أسباب الوفيات المشتبه فيها منذ عامين، إنه ولد جديد يدّعي أن سجل سلفه لم يكن جيداً".

"مَن عمّمَ طلب التحقيق؟".

"الشريف".

"ماذا يقول؟".

"يقول إنه عليَّ أن أتحدث إلى مسؤول التحقيق في أسباب الوفيات السابق. فالشريف حديث العهد بتوليه مهامّ منصبه أيضاً".

"وهل فعلتَ ذلك؟".

"إنه أمر فيه غِلظَةٌ. الرجل ميت".

شددتُ قبضتي على سماعة الهاتف إلى حدٍّ صار معه البلاستيك يصدر أصواتاً خافتة.

"هل مسؤول التحقيق في أسباب الوفيات الحالي يملك أي معلومات عن القضية؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"غير معروف. إنه هيكل جزئي مع أذى حيواني".
"أهذا كلُّ شيء؟".
"هذا ما دُوِّن في تقرير الشرطة الأصلي. لا شيء آخر في الملف".
"هل ثمةَ أحدٌ يحقق مع الدكتور كاجل؟".
"نعم".
"هل طابق بين هويات الأشخاص المفقودين وهوية صاحب الجمجمة التي عثر عليها في دورة المياه؟".
"من الصعب العمل من دون أي شيء يمكن الاستناد إليه".
سليديل محق في ما قاله.
"ذكرٌ أبيض، يتراوح عمره بين 25 و40 سنة، وأسنانه في حالة سيئة، وهناك أربع تعويضات سنية". حافظتُ على هدوء صوتي، وكانت أصابع السيدة فلورز تتطاير فوق لوحة أزرار حاسوبها، ومن حين إلى آخر، كانت تنظر إلى ريان، الذي كان كلما يبتسم لها، كلما زاد لون وجنتيها توردأ.
"هذا الأمر يساعد".
"لكن لا تستبعد أن تكون الجثة لأنثى إن كان كل شيء آخر يسير في هذا الاتجاه".
"ماذا تقولين بحق الله؟ ألا ينبغي أن يكون الشخص أحد الأمرين: إما ذكراً أو أنثى؟".
"نعم، على المرء أن يكون كذلك".
نظرتُ إلى ريان، فابتسم ابتسامة عريضةً.
قلت لسليديل: "سأبقي هاتفي الخلوي قيد العمل. اتصل بي عندما تعرف شيئاً".
تحتوي ثلاجتي عادةً على بقايا أطعمة جاهزة، ووجبات عشاء مجمدة، وتوابل، وحبوب بنٍّ كاملة، وكوكا كولا دايت، وحليب، وغيرها. وفي تلك الليلة، كانت ثلاجتي ممتلئةً على نحو غير معهود.
عندما فتحت الباب، سقطت حبة بصل فيداليا على الأرض وتدحرجت لتقف عند ورك بويد الذي شمها، ولعقها، ثم عاد ليجلس تحت الطاولة.

سألتُ: "هل يبحث عن علف الفاصولياء؟".
"دلني الكلب على الفرش ماركت".
ارتفعت أذنا بويد، لكن ذقنه بقي على قائمتيه.
التقطتُ حزمةً مغلفةً بورق الجزار وقلت: "هل تعرف كيف تطهو سمك سياف البحر؟".
عقد ريان ذراعيه كلتيهما وقال: "أنا ابنٌ لنوفا سكوتشيا".
"أوه... هل تحب سام آدمز؟".
"ثمة أجيالٌ من أبناء شعبي كانوا يحصلون على أرزاقهم من البحر".
فكرتُ في سرّي أنه في وسعي حقاً أن أحبَّ هذا الرجل.
قلتُ: "أبصر والداك النور في دبلن وتمرّنا على الطب في لندن".
"كانا يأكلان كثيراً من السمك".
ناولته قارورة شراب شعير.
"شكراً".
نزع غطاءها، وشرب منها جرعةً كبيرةً ثمّ قال: "لماذا أنتِ لا...".
قاطعته قائلةً: "أعرف، لماذا لا أستحم، في حين أنتَ وبويد تتصارعان على شيء من الطعام".
غمز ريان بويد، وهز بويد ذنبه لريان.
"حسناً".
لم تمضِ الأمور على هذا النحو؛ كنت قد انتهيت لتوي من فرك شعري بالشامبو عندما فُتح باب الحمام، فشعرتُ بهواء بارد يلامس جسدي، وشرعت أصابع تدلك فروة رأسي. عانقت ريان وسألته من دون أن أفتح عينيّ: "هل بدأت بتحضير السمك؟".
"لا".
"جيد".
كنا مسترخيَين على الأريكة يحضن أحدنا الآخر عندما رنَّ جرس الهاتف؛ إنها كاتي.
"ما الأمر؟".

"لقد انتهيت لتوي من تناول طعام العشاء".
"الآن؟".
نظرت إلى ساعة الحائط الموضوعة فوق الموقد، كانت 10:30.
"آه، لقد طرأت أمور".
"أمي، عليكِ أن تهوني على نفسك، وأن تكرسي بعض الوقت لنفسك".
"نعم".
"ألا تزالين تشتغلين على اكتشاف بويد الكبير؟".
"يمكن أن يثبت في النهاية أن اكتشاف بويد الكبير هو أمر ذو شأن".
"مثل ماذا؟".
"عثرتُ على عظام بشرية مختلطة مع بقايا الحيوانات".
"أنتِ تمزحين".
كان ريان يدغدغني عبر ملامستي خلف أذني. فأبعدت يده عني، وقلت: "أنا لا أمزح. على أي حال، أين كنتِ تختبئين؟".
"كنتُ أعمل في مؤسسة أبي بصفتي بديلةً، إن موظفة الاستقبال في إجازة. إن ذاك العمل مُمِلٌ جداً".
"ما العمل الذي كلفوكِ به؟".
كان ريان ينفخ هواءً عند مؤخر عنقي.
"ألعقُ المغلفات وأردُّ على الهاتف. بياليستوك أند بلوم. بياليستوك أند بلوم".
قلدت موظفة استقبال سويدية من برنامج مقدمي البرامج.
"هذا ليس سيئاً".
"فكّرتُ وليجا، في إقامة حفل عشاء".
"هذا يبدو ممتعاً".
أبعد ريان ذراعه عن كتفيّ، ووقف وهز كوب قهوته ليعرف إن كنتُ أرغب في شرب القهوة. فهززتُ رأسي، وغمغمتُ قائلةً: "لا، شكراً".
"هل ثمةَ أحدٌ آخر عندك؟".
"من الذين تنوين دعوتهم إلى الحفل؟".
عمّ سكوت لفترة قصيرة، حتّى قالت: "عندما اتصلتُ بكِ، ثمةَ رجلٌ ردَّ على

الهاتف"، سكتت لبرهةٍ ثم قالت: "ذاك الشخص يقيم معك، أليس كذلك؟ لهذا السبب تبدين مرحة".

"هل أنتِ تتحدثين عن آندرو ريان؟".

"تعرفين على وجه الدقة عمَّن أتحدث"، تذكُّرٌ مفاجئ، "لحظة، كان الأمر يزعجني، إلا أنني اكتشفتُ للتو من هو ذاك الشخص. قابلتُ الرجل عندما زرتك في مونتريال وحاول قاتل سفاح أن يعدل وضع حنجرتك بسلسلة".

"كاتي...".

"على أي حال، كان السيد عندكِ عندما اصطحبتُ بويد. هووو... أمي ذاك الشخص ممثل لعوب"، سمعتُ صدى صراخها يتردد في شقتها، "أمي تتسكع مع أحد رجال الشرطة".

"كاتي!".

تعليق بصوت يكاد يكون مكتوماً.

"أوه، نعم. هذا المتأنق يجعل هاريسون فورد يبدو مثل فريدي جيكمايستر".

تعليق بصوت يكاد لا يُسمَع.

تكلمت كاتي بصوت مكتوم: "تقول ليجا: احتفظي به".

صوتٌ قادم من مكان بعيد مجدّداً.

واظبت كاتي على الحديث حول هذه النقطة: "فكرة جيدة. تقول ليجا: أحضريه معك إلى الحفل".

"متى سينعقد هذا المهرجان؟".

"غداً ليلاً. فكرنا في أنه سيكون أمراً مسلياً أن ترتدي أبهى حلَّةٍ".

نظرتُ إلى ريان بعد أن استحممنا، إذ بدّل الرجل قميصه وسرواله الأنيقين بثياب أخرى.

"كم الساعة؟".

عند الساعة التاسعة والدقيقة السابعة عشرة من صباح اليوم التالي، دخلتُ وريان أحد المكاتب في الطابق الثالث من مبنى ماك إينري التابع لجامعة شارلوت في كارولينا الشمالية. مع أنه لم يكن مكتباً كبيراً، إلا أن الغرفة كانت مشمسة ومشرقة، وقد فُرشت سجادة ملونة من الجدار إلى الجدار منسوجة من ألوان

رئيسة، وقد شكلت أعشاشٌ منمنمةٌ حدودها الخارجية، في حين شغل مالك الحزين مكانه في وسطها.

ثمة رفوفٌ ملأت الجدار الأيسر من الأرض إلى السقف، أما الرفوف المثبتة على الجدار الأيمن، فقد وُضع عليها عشرات الصور التي طبع عليها رسوم لأقفاص كبيرة لحفظ الطيور: لامعة، ودكناء، ومدارية، ومن القطب الشمالي، ومفترسة، ولا تقوى على الطيران؛ كان التنوع في المناقير والريش مدهشاً؛ طيور منحوتة ومنقوشة جثمت على الطاولة وفي الخزائن، وتربعت في الأعلى وعلى الرفوف بين الكتب. ثمة وسائد عليها طيور مطرزة وُضعت على حافة النافذة. وثمة دمية على هيئة ببغاء تتدلى من السقف في إحدى زوايا الغرفة.

بدا المكان كما لو أن شخصاً ما استعان بخدمات عالم متخصّص بالطيور، ثم استعان بكتالوج مكرس للطيور ليؤسس المكتب بما كان يعتقد أنه أثاث مثالي.

في الواقع، كانت راشيل قد فعلت ذلك بنفسها. إنها واحدة من أبرز علماء الطيور في البلاد. وقد كانت راشيل مندلسون متحمسةً لعملها؛ كانت تعيش، وتتنفس، وتنام، وترتدي طيوراً، ومن المحتمل أنها كانت تحلم بها.

كان بيتها، كما كان مكتبها، متألقاً بموضوعات مخلوقات يكسوها ريش، منها ما هو حي ومنها ما هو ليس حياً. في كل مرة زرتها فيها كنت أتوقع أن ينقضّ طائر النُّهسي أو الطائر الملاعقي ثم يحطّ على متكأ الأريكة.

ثمة نافذة شغلت نصف الجدار الأعلى المقابل للباب، وكانت الستائر نصف مفتوحة؛ الأمر الذي يتيح رؤية جزئية لفان لاندينغهام غلين. كانت غابة نبات الرودندرون الزهري تومض مثل السراب في حرارة منتصف الصباح.

وضعت طاولة مكتب أمام النافذة مباشرةً، وفي الناحية المقابلة لها وُضع كرسيان منجّدان طُرِّز على أحدهما ببغاء البحر وعلى الآخر بجعة.

بدا كرسي المكتب كأنه شيء مصمم لرواد فضاء يشتكون من آلام أصابت عظامهم. هذا الكرسي مكرس للدكتورة راشيل مندلسون.

بالكاد نظرت إلينا عندما دخلنا، بيد أنها لم تنهض.

قالت راشيل: "صباح الخير"، ثم عطست مرتين. غطس رأسها على نحو مضاعف، وتمايلت حلية الريش التي كانت تزين بها شعرها.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قلت بعد أن استعادت راشيل وضعها الطبيعي: "آسفان لتأخرنا. لقد كانت حركة المرور رهيبةً في بولفار هاريس".

"لهذا السبب، أكون دوماً على الطريق مع بزوغ أول خيوط الصباح". حتى صوتها كان يشبه الطير، وتخالطه نغمة غريبة تشبه سقسقة العصافير وزقزقة الطيور.

سحبت راشيل منديلاً ورقيًّا من علبةٍ رُسِمت عليها بومة ونظفت أنفها به محدثةً صوتاً عالياً، ثمّ قالت: "أنا آسفة، أعاني حساسيةً".

لفت المنديل، ورمته في سلّة ما موضوعة تحت الطاولة، وتحركت بتثاقل لتقف على قدميها؛ لم يكن ثمة كثير من التثاقل، حيث لم يكن طولها يتعدى الخمس أقدام. لكن طول القامة الذي كانت تفتقر إليه المرأة عوّضته بعرض جسدها.

كانت راشيل ترتدي اليوم ثياباً ذات لون أخضر زيزفوني، وفيها كثير من اللون الفيروزي. وطوال الزمن الذي عرفتُ فيه راشيل كانت تكافح من أجل إنقاص وزنها. كانت حمية بعد حمية تحمّسها ثم تخذلها. منذ خمس سنوات، جربت حميةً غذائية اقتضت منها أن تجعل طعامها يقتصر على الخضار والمخفوق اللبني المعلب فانخفض وزنها إلى 180 باونداً، وكانت تلك أفضل نتيجة على الإطلاق حققتها في مرحلة ما بعد سن البلوغ.

لكن، على الرغم من كل ما بذلته من محاولات، لم يدُم شيءٌ. بسبب خدعة صبغوية (كروموسومية) غريبة، يبدو أن وزن راشيل عالقٌ عند 226 باونداً. لكن، كما لو كان الأمر أمراً تعويضياً، أكسبها وزنها الزائد شعراً كثّاً أصحَرَ وأجمل بشرة رأيتها في حياتي. كما أنها ذات قلب كبير بما يكفي لاستيعاب قاعة روكيتس التي تجري فيها المسابقات النهائية لموسيقى راديو المدينة.

مدت راشيل يداً ريانةً وقالت: "طاب يومك سيّد ريان".

قبّل ريان يدها قائلاً: "طاب يومك، سيدتي، أتتكلمين الفرنسية؟".

"قليلاً. أجدادي من كيبيك".

"ممتاز".

التفتت راشيل نحوي، وقد ارتفع حاجباها واستدارت شفتاها على هيئة حرف (o) دقيق.

قلت: "فقط قولي له أن يتفضّل بالجلوس"، فأفلت ريان يدها.

"تفضل بالجلوس، تفضلي بالجلوس". أومأت راشيل بحركة من راحتيها أن نتفضّل بالجلوس، فجلسنا جميعاً.

أشار ريان إلى منحوتة معدنية موضوعة فوق كومة كتب امتحانية وقال: "بطة جميلة".

صحّحت راشيل ما قاله: "هذا الطير اسمه الغطاس (طائر مائي)".

قال ريان: "في وسعك أن تدرجي هذه الزيارة في قائمته".

"أنت تعلم، لم أسمع عن هذا قط من ذي قبل".

كان وجه راشيل خالياً من التعابير بقدر ما كان وجه ريان، وقالت: "الآن، ماذا بشأن الطائر الميت؟".

شرحت الموقف ساردةً أقل قدر ممكن من التفاصيل. ثمّ قالت: "لست على دراية واسعة بالعظام، إلا أنني ممتازة جداً في ما يتعلق بالريش. لندخل إلى مختبري".

إن كان مكتب راشيل يحتوي على بضع عشرات من الطيور بأجناسها المتنوّعة، فإن مختبرها كان بيتاً لأرتال من الطيور مصنفةً تصنيفاً علمياً: عواسق (صقور أوروبية صغيرة)، ومجموعة من طير النُّهس، وتشكيلة من الكندور، وطيور الطنان، وطيور البطريق. كان ثمة طائر كيوي (طائر غير جناحي نيوزيلندي صغير) محنط في خزانة ذات واجهة زجاجية في الركن البعيد من المختبر.

قادتنا راشيل إلى طاولة ذات سطح أسود اللون ثم نشرت عليها العظام. رفعت نظارةً هلالية الشكل من صدرها إلى أنفها، وبدأت تتكلم عن المجموعة المعروضة أمامها قائلةً: "تبدو كأنها من فصيلة الببغاوات".

قال ريان: "أنا ظننت أنها كذلك أيضاً".

لم تنظر راشيل إليه، وتابعت: "إنها أسرة الببغاء: مجموعة طيور كوكاتو، وببغاوات المقو، ولورس، ومجموعة ببغاوات مُتيّمة، وببغاوات البركيت".

قال ريان: "كنت أعاني مرضاً خفيفاً بسبب عدوى من بركيت عندما كنت طفلاً".

قالت راشيل: "أكنت كذلك؟".

"أسميه بركيت".

نظرت راشيل إليّ، فتأرجح سلسالا نظارتها في انسجام تام، فأشرتُ إلى صدغي وهززت رأسي.

معيدةً انتباهها إلى الطاولة، اختارت راشيل عظم القص ونظرت إليه نظرة تقدير قائلةً: "قد يكون هذا عظماً لمقوٍ من نوع ما. إنه لأمر بالغ السوء ألا يكون لدينا جمجمة الطير".

ارتجاع (فلاش باك) لارابي يدور حول راكب بلا رأس.

"إن هذا العظم صغير جداً بالنسبة إلى عظم القص عند الببغاء الهجين، وكبير جداً إذا ما قيس بعظم القص عند الببغاء أحمر الكتف".

تحولت راشيل إلى عظم القص الذي كان في يديها مراراً وتكراراً ثم وضعته على الطاولة قائلة: "دعونا نرى الريش".

فتحت العلبة الصغيرة وأفرغت محتوياتها، ثمّ تحولت عينا راشيل إلى الطاولة مجدّداً.

إن كان لامرأةٍ أن تُحتبس وتُجمّد، فقد فعلتها راشيل؛ إذ لم يتحرك جزيء واحد من كيانها على مدى بضع ثوانٍ. ثم تحركت بوقار، والتقطت ريشةً.

"أوه...!".

"ماذا؟".

حدقت راشيل إليّ فاغرة فاها كما لو أنني نزعت من أذنها قطعةً من النيكل نزعاً، ثمّ قالت:

"من أين حصلت على هذه؟".

أعدتُ الشرح الذي كنت قد عرضته عن قبو بيت المزرعة.

"كم مضى على هذه الأشياء من زمن هناك؟".

"لا أعرف".

حملت راشيل الريشة ووضعتها على طاولة العمل، وسحبت شقين منها ووضعتهما على شريحة زجاجية، وصبت عليهما سائلاً، وحركتهما برأس إبرة وغيرت موقعهما، وغطتهما. ثم جلست على مقعد معدني لا سناد له، وعدلت جلستها، ونظرت عبر مجهر.

مرت ثوانٍ، دقيقة، اثنتان.

"أوه...!".

نهضت راشيل، وتوجهت نحو خزانة ذات أدراج خشبية طويلة، وسحبت علبة مستطيلة مسطحة، وعادت إلى المجهر وأزاحت الشريحة الزجاجية التي كانت قد هيأتها لتوها، وانتقت شريحة زجاجيةً من العلبة، ونظرت إلى الشريحة الأخيرة.

تبادلت وريان النظرات حائرَين ومرتبكين.

أتبعت راشيل الشريحة الزجاجية المرجعية الأولى بأخرى من العلبة، ثم عادت إلى الشريحة الزجاجية التي أعدت من ريشة رينالدي وقالت: "أتمنى لو كان لدي مجهر مقارن"، قالت ذلك وهي تعرض ريشة رينالدي على شريحة مرجعية ثالثة، "لكن ليس لدي مجهر مقارن".

عندما نظرت راشيل إلينا أخيراً، كان وجهها قد تورد، وحدقتا عينيها قد اتسعتا من الإثارة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

18

قالت بصوت خافت: "كانوبسيتا سبيكس 2".

سألها ريان: "أهو نوع من الببغاء؟".

ضغطت راشيل صدرها بكلتا راحتيها وقالت: "ليس أي نوع من الببغاء، إنه أكثر ببغاوات العالم نُدرةً. من المحتمل أن يكون أندر طير في العالم"، ارتفعت يداها وانخفضتا مع ثيابها فيروزية اللون، "أوه...".

سألتُ: "هل تريدين ماءً؟".

رفرفت راشيل بأصابع متشنجة وقالت: "إنه مقوٌ (ببغاء كبير زاهي الألوان)، في الواقع"، أزاحت نظارتها وتركتها تنزلق إلى صدرها.

"هل المقو نوع من الببغاء؟".

قالت وهي ترفع الريشة من جانب المجهر، وتمسدها تمسيد الودود المحب: "نعم هذه الريشة من ذيل ببغاء المقو المسمى سبيكس".

سألها ريان: "هل لديك ببغاء محنط من هذا النوع؟".

قالت وهي تنزلق من مقعدها: "ليس لدي، بالتأكيد. ذلك بفضل تدمير موائل الطبيعة، وتجارة الطيور، لقد انقرض هذا النوع. إنني محظوظة؛ لأن لدي شرائح زجاجيةً مرجعيةً للريش".

سألت: "ما الذي تنظرين إليه؟".

"أوه... حسناً، دعيني أرى"، فكرت لحظةً عبر مختصر خاص بها يتألف من الأحرف KISS وقالت: "للريش بُرائل ينبت منها ريش الطائر. وللريش ريشٌ منمنم بالغ الصغر تُسمى واحدته شُعيرة، وهي تتصل ببنيات تسمى عقداً تكون في منابت الريش. إضافةً إلى الشكل العام والبنية الإجمالية، واللون، انظر إلى الشكل، والحجم، والتصبغ، والكثافة، وتوزع تلك العقد".

ذهبت راشيل قاصدة أحد الرفوف المثبتة فوق الأدراج وعادت حاملة معها مجلداً كبير الحجم بني اللون. بعد أن توثقت من الفهرست، فتحت الكتاب المجلد وأشارت بإصبع قصيرة إلى صورة وقالت: "ذاك هو السبيكس".

كان للطير جسم ذو لونٍ أزرق مُخضَرّ ورأس شاحب، في حين كانت ساقاه داكنتين، وعيناه رماديتين، ومنقاره أسود وأقل انعقافاً مما كنت أتوقع.

"كم كان يبلغ طول هذا النوع من البغاوات؟".

"من خمسة وخمسين إلى ستين سنتيمتراً. لا هي أكبر أنواع ببغاوات المقو، ولا هي أصغرها".

"إلى أيِّ الأماكن كان يكثر تردده؟".

"الأماكن الداخلية القاحلة من وسط شرق البرازيل، ومقاطعة باهيا الشمالية، على الأغلب".

"ألم يعد هذا النوع موجوداً؟ هل أضحى نوعاً منقرضاً؟".

ضبطتُ أنا إشارة ريان إلى مونتي بيتون، ولكن راشيل لم تلتقطها.

قالت: "لقد اختفى آخر ما تبقى حيّاً في البرية من ببغاء السبيكس في تشرين الثاني/ أكتوبر من عام 2000".

سألت: "هل هذه حقيقة معروفة؟".

أومأت إيجاباً وقالت: "قصة ذاك الطير مؤثرة جداً. هل ترغبان في الاستماع إليها؟".

نظر ريان تلك النظرة، وتغضنت عيناي متخذتين وضعية تحذير، وانضغطت شفتا ريان إحداهما على الأخرى.

قلت: "كثيراً جداً".

"قررت منظمة حياة الطيور الدولية إحصاء هذا النوع وإدراجه في الموطن الوحيد المعروف التابع لها؛ مدركةً الحالة الخطرة لوضع ببغاء المقو".

"في البرازيل".

"نعم، ما يوقع في النفس الكآبة أن عددها الإجمالي وصل إلى خمسة".

قلت: "هذا الأمر ليس جيداً".

"لا، ثم تدهور الموقف منذ ذلك الحين. مع نهاية العقد، انخفض عدد ما

أضحى يُرى منها إلى صفر. وفي عام 1990، ذهب توني جوينبر الذي يعد أفضل خبراء الببغاوات في العالم إلى البرازيل ليقرر ما إذا كان ببغاء السبيكس قد انقرض حقاً في البرية. بعد أن أمضى ستة أسابيع وهو يجوب أرجاء مقاطعة باهيا بسيارة رباعية الدفع مستفسراً من كل مزارع، ومن كل تلميذ مدرسة، وصياد التقى بهم، حدّد جوينبر موقع طائر ذكر واحد يعيش في حقل صَبّارٍ على ضفة نهر قرب بلدة كوراكا".

سأل ريان وهو يقلب صور ببغاوات المقو: "أين يقع ذاك المكان؟".

قالت راشيل وهي تسترجع مجلدها وتغلقه، وتبتسم ابتسامةً فاترةً: "على بعد ألف وثلاثمئة ميل إلى الشمال من ريو دي جانيرو".

قلت بعد أن أجريت عملية حسابية ذهنيةً سريعةً: "هل عاش ببغاء السبيكس معتمداً على نفسه مدة عشر سنوات بعد رؤيته الأولية؟".

"أصبح ذاك الطير قضيةً عالميةً شهيرةً على مدى عقد من الزمن، وشرعت فرق من العلماء وقرية برازيلية برمّتها ممثلةً بأبنائها تسجل كل حركة من حركاته".

قال ريان: "يا له من مسكين".

قالت راشيل: "ولم تكتفِ بالمشاهدة، فقد تحول الموقف إلى قصة عن حيوات الطيور، ومشكلاتها باتت تروى كثيراً. اعتقاداً منهم أن جينات السبيكس أثمن بكثير من أن تُضيَّع، قررت جماعات الحفاظ على حياة الطيور البرية أن الطائر الذكر بحاجة إلى أنثى. إلا أن الرابطة العاطفية عند ببغاوات المقو تبقى مدى الحياة، ولهذا الطائر الصغير في الحقيقة زوجةٌ أنثى ذات لون أخضر لامع من فصيلة المقو".

قال ريان: "تمازج أجناس طيور صغيرة".

أجابت راشيل ريان قائلة: "شيء من هذا القبيل"، ثم نظرت إلي نظرةً تنم على حيرة وقالت: "على الرغم من أن الزوجين لم يتساكنا قط. فالذكر كان يعيش في حقل صبار، والأنثى تسكن في جذع شجرة أجوف. وقد كانا يطيران معاً في أثناء النهار، ثم يرافق الذكر الأنثى عند غروب الشمس حتى تصل إلى شجرتها ثم يعود إلى حقل الصبار حيث يعيش".

قال ريان: "يحتاج الرجل أحياناً إلى مكان خاص به".

تغضن خطان عموديان في جبين راشيل، بيد أنها تابعت حديثها قائلةً: "في عام 1995، أطلق باحثون ببغاء أنثى من فصيلة السبيكس في منطقة الببغاء الذكر، آملين أن يتزاوجا ويتكاثرا".

"آه! المرأة الأخرى مضرب المثل".

تجاهلت راشيل ذلك وتابعت: "توددت الببغاء السبيكس الأنثى للذكر، فتجاوب معها".

"هل انتهى الأمر إلى محكمة الطلاق؟".

"طار الطيور الثلاثة معاً على مدى شهر".

"عاش الثلاثة معاً وتحابّت وتزاوجت جميعاً".

سألتني راشيل: "هل هو دوماً هكذا؟".

"نعم، ماذا حدث بعد ذلك؟".

"اختفت ببغاء السبيكس الأنثى، وعاد الثنائي الغريب إلى ترتيبه الذي كان عليه سابقاً".

رمقت راشيل ريان بنظرة لترى إن كان قد قدّر مُلحَتَها الذكية حق قدرها، فسألها: "هل كان الزوج القذر منهما أم النظيف؟".

أصدرت راشيل صوتاً غريباً مضحكاً عبر أنفها: سني. سني. سني.

سألت: "ماذا حدث للببغاء السبيكس الأنثى؟".

"اصطدمت بأسلاك كهرباء".

قال ريان، وقد أجفله ما سمعه: "أوه".

"في وقت لاحق، بذل باحث كل أنواع المحاولات البارعة لتخصيب بيض الببغاء الأنثى التي ماتت، وأخيراً قايضوا فريخات حية من فصيلة ببغاء إليغر بأجنةٍ هجينة ميتة كانت الأنثى تحضنها".

"ماذا حصل؟".

أصدرت الصوت المضحك الغريب مجدّداً عبر أنفها: سني. سني. سني.

خمّنتُ قائلةً: "ثبت أخيراً أن الطيرين كانا أبوين صالحين".

أومأت راشيل إيجاباً ثمّ قالت: "وإليكما الجزء المدهش من القصة، على الرغم من أن الفراخ كانت جينياً من فصيلة ببغاء الإليغر كلياً، فإن فراخ هذه

البغاوات طوّرت أصواتاً مماثلة لصوت الأب".

قلت: "هذا مدهش".

"كان الباحثون يخططون لإطلاق الفراخ المولودة في الأسر داخل العش عندما اختفت الببغاء الكبيرة".

قال ريان: "وهل ظل البغاوان المتيمان مقترنين أحدهما بالآخر؟".

"نحن نتحدث عن بغاوات المقو، لا عن البغاوات المتيّمة".

سألتُ: "بناء على ذلك، ألا يزال هناك بغاوات من فصيلة السبيكس حيّة في الأسر؟".

تشامخت راشيل لتظهر ازدراءها وقالت: "يعيش ستون منها تقريباً في تشكيلات خاصة".

"أين؟".

"في مزرعة طيور تجارية في الفيليبين، وفي حوزة أحدهم، وفي مَطيَر خاص في شمال سويسرا. أعتقد أنه يوجد واحد منها في حديقة حيوان ساوباولو، وببغاوات عدّة من هذا النوع، وفي إحدى حدائق الببغاء في جزر الكناري".

"هل أصحابها هم علماء طيور مؤهلون؟".

"ليس أحد منهم حائزاً على إجازة جامعية في البيولوجيا".

"هل ذلك قانوني؟".

"لسوء الحظ، نعم. تعد الطيور ملكيةً خاصةً. لذلك، في وسع مالكيها أن يفعلوا بها ما يشاؤون".

"لكن مقو السبيكس كان النوع الأحيائي المدرج بالفقرة الأولى بموجب (CITES) منذ عام 1975".

بدأت جزئيات فكرة عشوائية تتشكل في دماغي، فسألتُ: "ماذا تعني لفظة (CITES)؟".

"اتفاقية التجارة الدولية الخاصة بالأنواع الأحيائية المعرضة لخطر الانقراض. الملحق 1: تعد الأنواع الأحيائية مهددة بخطر الانقراض. ويكون التبادل التجاري للنماذج الأحيائية البرية مسموحاً به في ظروف استثنائية فقط".

بدأت الجزئيات تلتحم.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"هل ثمة سوق للمتاجرة ببغاوات السبيكس الحية؟".

"كانت ببغاوات السبيكس نادرة الوجود في القرن الثامن عشر؛ لأنها كانت تُثمّنُ غالياً جداً من قبل جامعيها"، لفظت الكلمة الأخيرة بانزعاج في الواقع، "اليوم، يمكن أن يدفع مشترٍ ثري مئة ألف دولار ثمناً لها أو يزيد".

لمعت فكرة في ذهني فجأة، ولم أستطع الانتظار حتى يتصل سليديل... ولكن، لم يكن ثمة حاجة، فقد رن هاتفي الخلوي حين كنت أنعطف بالسيارة من شارع الحرم الجامعي إلى شارع الجامعة، وكان سليديل هو المتصل.

"تحدثت إلى قائد شرطة مقاطعة لانكستر".

"ماذا كان لديه؟".

"ثقوب في الغالب".

"ماذا تعني؟".

أبدى ريان اهتماماً وخفض صوت القرص المدمج هوكسلي وركمان أند ذا وولفس.

"لا أحد يعرف شيئاً كثيراً".

لم يكن هذا ما أردت سماعه.

"ذهبت العظام إلى زميلك كاجل".

"هل اتصلت به؟".

"هل أستمر في المحاولة دونما جدوى؟".

"هل جربت الاتصال به في منزله؟".

"بيته، مكتبه، مختبره".

تحدث سليديل إلى شخص آخر ثم عاد إليّ: "أخيراً، مكنني موظف استقبال الإدارة من الاتصال برقم هاتفه الخلوي بالغ السرية. أوحى إليّ صوت الرجل أنه كان يرتدي ثوباً ضيقاً جداً أحمر اللون مائلاً إلى الزرقة".

"ثم ماذا؟".

"والتر" - ردد سليديل الاسم مانحاً إياه ثلاث نغمات- "كان ينقب في إحدى جزر البوفور في كارولينا الجنوبية. قال إنه استبقى طالباً له في سنة التخرج ليقرأ له تقرير لانكستر بمجرد أن انتهى من الحفر تنقيباً عن هندي ميت".

"كان هذا لطفاً منه".

"نعم، أنا أفكر في أن أرسل إليه عبر البريد شيئاً من رقائق الشوكولاته".

"هل طابقت الأوصاف المحددة للهوية عبر هيئة التحقق من الهوية في كارولينا الشمالية؟".

"لست متوثقاً من الجنس، ولا من تاريخ حدوث الوفاة. لا يوجد أسنان قاطعة، ولا وشم، ولا مباصم، ولا طول، ولا وزن. حصلت على طبعة ورقية عن طول سولدر فيلد (Soldier Field)".

كان سليديل محقًّا؛ استناداً إلى ما عرفناه، لا جدوى من البحث عن أشخاص مفقودين عبر قاعدة بيانات قومية. غيرت المسالك وطريقة العمل.

"كنا قد التقيتُ وريان لتونا مع عالمة خبيرة بالطيور. إن مصدر ريشك طيرٌ انقرض في البرية منذ عام 2000".

"كيف وصل الريش إلى سافلة مبنى باوندر؟".

"سؤال جيد".

"هل لديكِ إجابة جيدة؟".

"يمكن أن يباع واحدُ هذه الطيور بمبلغ مئة ألف دولار".

"أنت تثيرين غيظي. من يدفع مئة ألف دولار ثمناً لطير؟".

"أناس عندهم أموال أكثر من العقول".

"هل هذا قانوني؟".

"لا، ليس قانونياً إن كان الطير برياً".

"أنت تفكرين في السوق السوداء، أليس كذلك؟".

"قد توفر تفسيراً لإخفاء الريش مع الكوكايين".

"ألا يتعين على تويتي أن تُسقسق كي تجلب الذكر؟".

"من الممكن أن تكون قد ماتت في أثناء النقل".

"لذلك احتفظ فاترُ الهمة بالريش معتقداً أنه يساوي شيئاً من المال".

"ودفن الجثة مع غيرها من الحيوانات التي ذبحها".

"ماذا عن عظام الدببة؟".

"ذاك ما أفكر فيه".

"ظننت أنك قلت إنها كانت دببةً سوداء من النوع الشائع".

"لقد قلت ذلك".

"هل ذاك نوع مهدد بالانقراض؟".

"لا".

قال سليديل بعد لحظة من الصمت: "وضعها لا يثير القلق".

"لماذا هذا العدد الكثير جداً من الدببة؟".

"أين المال؟"؛ كان ذاك سؤال ريان أيضاً.

"لست واثقة، بيد أنني أعتزم معرفة ذلك"؛ وعرفت تحديداً ما كنت عازمة على معرفته.

19

المـرة الأولـى فـي أسـبوع تقريباً، لـم تكن ثمة حاجة إلـى الذهاب إلى مركز الفحص الطبي التابع لمقاطعة مكلنبورغ. لقد فعلت كل ما أستطيع ببقايا الجثة التي عثر عليها في دورة المياه، ومع راكب طائرة السيسـنا، ومع الدببة. بات في وسـع سليديل شخصياً أن يأخذ الريش إن هو احتاج إليه على جناح السرعة.

بينما كنتُ وريان نأكل شـطائر الجبن المشـوي في متجر صودا بايك، ناقشـنا الحكمة من المغادرة والتوجه إلى الشـاطئ، وقررنا أنه من الأفضل تأجيلها بضعة أيام حتى لا يجري انتزاعنا من رحلتنا للعودة إلى شارلوت.

ناقشنا أيضاً الشكوك التي ساورتني بشأن التجارة غير المشروعة بالحياة البرية، وأيّـد ريـان نظريتـي بشـأن العثور علـى الريش مع الكوكاييـن، وفرضيتي عن العدد الكبير من الدببة السوداء المدفونة في المزرعة. ليس لديه، ولا أنا لدي أدنى فكرة عـن كيفيـة وصـول الدببـة إلـى المزرعـة، ولا عن العلاقة التي يمكـن أن تربط بين المزرعة، وتاميلا بانكس، وداريل تيري، والضحية التي عثر عليها في دورة المياه، وصاحـب طائـرة السيسـنا، والطيار، والراكب، علـى الرغم من وجود صلة واضحة بين الكوكايين وتيري.

بعـد تنـاول المقبـلات علـى عجل فـي فيليبس بلس، عدنا إلـى ملحق البيت. وبينما كان ريان يبدل ناقل سـرعة السـيارة إلى وضعية مسـننات الدوران، اتصلت بالسيدة فلورز.

والي كاجل، عالم الطب الشرعي الأنثروبولوجي، من مقاطعة لانكستر، الذي اشـتغل علـى الهيـكل العظمـي مقطوع الرأس واليديـن، كان قد اتصل بي. راجعتُ بعد ذلك رسائل البريد الصوتي المسجلة في هاتفي الخلوي:

كاتي، هاري، ابن هاري، كيت، يشعرني بضرورة الانتباه إلى أن أمه ستتصل،

هاري، ومجدّداً هاري.

بيير لامانش، رئيس قسم الطب الشرعي في مختبر الجريمة في مونتريال. قادت معلوماتٌ الشرطةَ إلى حيث كانت امرأةٌ مدفونةً في حفرة رملية منذ سبع سنوات، ولم تكن القضية تتطلب إجراءً عاجلاً، لكنه رغب في إخباري أن القضية تتطلب تحليلاً أنثروبولوجياً.

كان الترتيب الناظم للعلاقة بيني وبين مختبر العلوم القضائية والطب الشرعي قائماً على أساس أن أقصد المختبر مرةً كل شهر، فأعالج كل القضايا التي تتطلب خبرتي، على أن أعود إلى المختبر من فوري في حال اقتضى تحقيق حرج وحاسم، أو كارثة، أو استدعاء للمثول أمام محكمة حضوري. تساءلت إن كان ممكناً لقضية الحفرة الرملية أن تنتظر إلى حين عودتي المقررة إلى مونتريال نهاية فصل الصيف.

لمعرفتي أن ترنيمة هاري - كيت هاري - هاري تعني أن أختي وبضعة وعشرين فرداً من أبناء إخوتي كانوا يتحادثون، أنهيت المحادثة.

بينما كنت أقطع الاتصال، دخل رجل بصحبة أفضل صديق لديه المطبخ، كان بويد يتبعه كما يتجذب سمك القرش إلى رائحة الدم، وكان ريان المتبوع يضع عصابة ويرتدي سروالاً قصيراً، وكنزةً قصيرة الكمين كتب عليها: أدِّ أعمالاً عشوائية من اللطف والجمال.

قلت: "كنزة لطيفة".

"نصف العائدات ذهبت من أجل إنقاذ الكارنر بلو".

"ما الكارنر بلو؟".

"فراشة"، حرر ريان الطوق وتحرك الكلب مهتاجاً، "الفراشة في ورطة، ومندوب المبيعات يعاني قلقاً بالغاً حيال الأمر".

أشرت إليهما مبتسمةً أن يبتعدا عني واتصلت بابنتي التي طلبت مني مقبلات من أجل حفلة المساء الساهرة. وأخبرتها أنني اشتريت فطراً محشواً وجبناً عصابياً. وعندما سألتني إن كنت سأحضر معي الرجل الفرنسي الأجنبي الضخم، قلت لها إنني سأكون بصحبة صديق. ثم اتصلت بمونتريال؛ كان لامانش قد غادر المختبر لحضور اجتماعات ما بعد الظهيرة الإدارية، فتركتُ رسالة تتضمن موعد عودتي المقرر.

لم أكن قد رأيت هاري منذ ذهبت الأسرة في رحلة إلى الشاطئ مطلع شهر تموز/يوليو. ولأنني أعلم أن هذه الرحلة ستدوم طويلاً، أخذت قارورة كوكا كولا دايت من الثلاجة وطلبت رقم هاتف أختي.

كان الشجار يتعلق بآخر صديق لأختي، معالج بالتدليك من غالفستون؛ وفهمتُ بعد ثلاثين دقيقة القضية: لم يُرَق لكيت، وأحبته هاري.

كنت أحاول الاتصال بوالي كاجل عندما أشارت سلسلة من الأصوات القصيرة المتقطعة إلى وجود متصل آخر يحاول الاتصال بي، فتحوّلت إليه.

"هل تفحصت بريدك الإلكتروني دكتورة برينان؟"، كان الصوت عالياً ومتهدجاً كما لو كان صادراً عن دمية إلكترونية.

انتصبت شعيرات متناهية في الصغر عند مؤخر عنقي وسألتُ: "من أنت؟".

"أعرف مكان وجودك، أعرف كل شيء عنك".

أحسستُ بالضيق والغضب والخوف، وأخذت أبحث عن رد لاذع، فلم أعثر على شيء. كررت ما كنت قلته:

"من أنت؟".

"الوجه في المرآة".

اتجهت عيناي نحو النافذة.

"كومة الشعر والغبار والخيطان تحت سريرك"، نغمة صوت رتيبة، "الحيوان المتوحش في الخزانة".

دونما وعي، جنحت نحو الجدار وأسندت ظهري إليه.

"مرحباً"، حاكى الصوت الطفولي صوت أميركا أون لاين، "لديك بريد"، وانقطع الاتصال.

تسمرت في مكاني متشبثةً بالهاتف. هل الأمر يتعلق بهذه القضية؟ بقضية سواها؟ أم أنه معتوه اتصل كيفما اتفق؟

قفزت عندما رن الهاتف في يدي، وأشارت شاشة الجهاز إلى وجود رقم خاص، فضغطت على زر الاتصال، ثمّ رفعتُ سماعة الهاتف نحو أذني ببطء.

"مرحباً"، صوت رجل.

انتظرت؛ لا يزال النَفَسُ متجمداً في حلقي.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"نعم... من؟ هل ثمة أحد؟".

لكنة أهل بوسطن عالية طبقة الصوت.

"والتر كاجل".

زفير بطيء.

"مرحباً، والي".

"أهذه أنتِ، تمب؟".

"نعم، أنا".

"أأنت على ما يرام أيتها الأميرة؟".

يسبغ والي على كل واحدة من معظم النساء اللواتي يَرقنَ له لقب "أميرة"؛ بعضهن يتضايقن من ذلك، وبعضهن لا يتضايقن. فادّخرتُ غيظي لقضايا أكبر من هذه وقلت: "أنا بخير".

"يوحي صوتك بأنك منفعلة".

"لقد تلقيت لتوي مكالمةً غريبةً".

"آمل ألا تكون قد حملت إليك أخباراً سيئةً".

"من المحتمل أن يكون مجرد شخص مهووس غريب الأطوار". يا الله! ماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟

"هل كان المتحدث شخصاً يرغب في رؤيتك بثياب مثيرة؟".

"شيء من هذا القبيل".

سمعت صوت شيء يضغط على النافذة، فاستدرتُ بسرعة البرق نحو مصدر الصوت وإذ بطائر قُرقُفٍ صغير كان جاثماً فوق مِلقَم الطائر. بينما كان يحاول التقاط بعض البذور، اهتز المِلقَمُ فنقر بلطف على الزجاج.

أغمضت عينيّ وهَدَّأتُ صوتي قائلةً: "اسمع، لقد سرني اتصالك بي. هل أطلعك المخبر سليديل على ما يجري؟".

"قال إنك بحاجة إلى معلومات عن قضية قديمة".

"أجزاء من هيكل عظمي وُجِدت قرب لانكستر منذ ثلاث سنوات تقريباً".

"أتذكّرها، لا جمجمة، ولا عظام يدين. ينبغي أن يكون تقريري عن الملف موجوداً عند محقق الوفيات".

"محقق الوفيات ذاك مات. لا يوجد لدى محقق الوفيات الحالي سوى تقرير الشرطة الأصلي الذي لا يجدي نفعاً".

"لا يفاجئني الأمر"، تنهيدة عميقة، "أحدث فيَّ الرجل أثراً كذاك الذي يحدثه ثلم متناهي الصغر عند شخص ساذج أبله".

"هل لديك مانع من مناقشة ما توصلتَ إليه؟".

"طبعاً لا، أيتها الأميرة، لم تذهب القضية إلى أي مكان، كما أذكر".

"نعتقد أننا عثرنا على الجمجمة وعظام اليدين هنا في مقاطعة مكلنبورغ".

"لا، هذا مزاحٌ".

ساد صمت عبر الهاتف لحظة؛ كان في وسعي أن أتصور والي مشابكاً ساقيه، وهو يركل بإحدى قدميه، ويُعيد ترتيب أفكاره.

"أنا في بوفور، إلا أنني اتصلت بمختبري، وتلا على مسامعي أحد طلاب الدراسات العليا مقتطفات من تقريري. كان هيكلاً عظيماً كاملاً ينقصه الرأس، وعظم الفك السفلي، والفقرات الثلاثة الأولى من العنق، وعظام اليدين"، سكت لبرهةٍ ثمّ تابع: "الهيكل العظمي محفوظ بصورة جيدة، وهو خالٍ من الأنسجة اللينة والرائحة، فيه شيء من الابيضاض؛ أذى حيواني واسع، مر على تاريخ الوفاة عام على الأقل، أو يزيد".

كان والي يُجمِلُ في كلامه كما لو أنه كان يقرأ من ورقة، أو ربما كان يقرأ شيئاً من ملحوظات كان قد دونها باختصار وعلى عجل في أثناء إجرائه اتصالاً هاتفياً مع طالبه.

"ذكر، عمره ثلاثون سنة، تزيد خمس سنوات أو تنقص. قُدِّرَ العمر استناداً إلى ارتفاقات (النمو المتزامن لأعضاء الجسد المتماثلة من حيث طبيعة تكوينها) الأضلاع وعظم العانة. أو، على الأقل، استناداً إلى ما تبقى منها، أبيض البشرة".

بعد أن سكت هنيهةً تابع قائلاً: "الطول 185 سم، يزيد أو ينقص. لا أستطيع أن أتذكر ذلك على وجه الدقة. أربطة العضل واهية".

سألت: "هل ثمة دليل على وجود رضوض أو تعرض لصدمة؟".

"فقط بعد حدوث الوفاة؛ ثمة أذى قد ألحقه حيوان بالجثة. كما توحي علامات على العنق عند الفقرة الثالثة بأن الرأس فصل عن الجسد باستخدام أداة

حادة لها شفرة غير مسننة. هذا كل شيء".

"هل تولّد لديك أي انطباع أو حدس عن القضية في ذلك الوقت؟".

"شاب ذو بشرة بيضاء طويل القامة ضايق شخصاً ما. ذاك الشخص قتله وقطع رأسه ويديه. هذا يتفق مع ما ترين، أليس كذلك؟".

"إلى حدٍّ كبير".

نظرت عبر نافذتي إلى الخارج؛ كانت الأشجار المحيطة بفناء بيتي تومض من شدة الحر، وقد عادت ضربات قلبي إلى وضعها الطبيعي. مركزةً اهتمامي على رواية كاجل، أوشكت أن أنسى المكالمة التي سبقت مكالمته.

قلت: "لاقيت صعوبة في تحديد جنس صاحب هذه الجمجمة".

قال كاجل: "كان لدي المشكلة ذاتها. لم يعثر معاونو قائد الشرطة على ملابس أو أمتعة شخصية. الكلاب والراكونات (الغُريراتُ الأميركية: حيوانات ثديية كثيفة الوبر) استخدمت الجثة بوصفها وجبات طعام معدة للنقل ردحاً طويلاً من الزمن. مُضِغَ عظم الحوض إلى أبعد حدٍّ، وكذلك كانت حال نهايات العظام الطويلة. كان علي أن أحسب طول القامة استناداً إلى القصبة الصغرى (العظم الخارجي من عظم الساق) الكاملة نسبياً. باستثناء تقدير الطول، لم أرَ شيئاً بالنسبة إلى تحديد الجنس".

قلت: "هناك نساء طويلات القامة".

وافقني كاجل قائلاً: "انظري إلى لاعبات كرة السلة المحترفات. على أي حال، أعتقد أن صاحب الجثة التي عاينتها كان ذكراً طويل القامة، بيد أنني لم أكن واثقاً مئة بالمئة. لذلك، عندما أرسلت عينةً من عظم الفخذ لفحص الحمض النووي، طلبت إجراء اختبار أملوغنين".

"و؟".

"زمرتان اثنتان".

"ذكر". قلتها لنفسي أكثر مما قلتها لكاجل.

"إكس وواي يداً بيد".

"هل وافق مختبر الولاية على إجراء اختبار حمض نووي مبهم؟".

"بالطبع لا، توصل استعلام قائد الشرطة إلى وضع صاحب الجثة في عداد المفقودين، في حين توصل اختبار الحمض النووي إلى خلاف ذلك".

"ماذا حصل للهيكل العظمي؟".

"شحنته معيداً إياه إلى لانكستر عندما أرسلت تقريري عبر البريد. وقد أرسل إليّ المحقق في أسباب الوفيات إشعاراً بالاستلام".

"هل تتذكر اسمه؟".

"سنو موريه، بي. سنو. من المحتمل أن يكون قد احتفظ به أسبوعاً ثم أضرم النار فيه".

سألته: "هل التقطت صوراً؟".

"إنها محفوظة في ملف في مختبري في الجامعة".

فكرت لحظةً وسألتُ: "هل ثمة طريقة تمكنك من مسح الصور مسحاً ضوئياً وإرسالها إليّ إلكترونياً؟".

"ليس ثمة مشكلة، أيتها الأميرة، سأعود إلى كولومبيا في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم. سأمسح الصور مسحاً ضوئياً جيداً جداً، وسأرسل إليك نسخة من تقريري عبر الفاكس".

شكرته، وقطعت الاتصال، وذهبت من فوري إلى حاسوبي. على الرغم من مكالمة كاجل، كان ينتابني قلق وشوق إلى معرفة أي نوع من البريد الإلكتروني أراد مني أن أطلع عليه ذاك المجهول المتخفي الذي طاردني عبر الهاتف، على الرغم من أن مكالمة كاجل صرفت انتباهي عن هذا الأمر بعض الوقت.

أي نوع من المختلين عقلياً ذاك الذي عرف رقم هاتف منزلي؟!

ارتفع العلم عند خانة بريدي الوارد مباشرةً. أخبرني صوت مبتهج أن لدي بريداً.

وضعت المؤشر عند الأيقونة المستهدفة عبر شاشة الحاسوب، ونقرت نقراً مزدوجاً. كان نفسي ينقطع؛ ثلاث وأربعون رسالة إلكترونية. مررت المؤشر على رموزها مستعرضة إياها نزولاً إلى أسفل.

تسارعت دقات قلبي. أربع وعشرون رسالة أُرسلت من قبل شخص مجهول مستخدماً اسم الشبح.

كانت كل رسالة مزودة بملف مرفق، وكل سطر من الأسطر التي تندرج فيها عناوين الموضوعات، دونت فيه الرسالة ذاتها بخط غامق عريض واضح:

تخلّي عن المجابهة!
ارتددت إلى الخلف وأنا أتنفّس بصعوبة.
ارتجفت يدي في حين كنت أنقر نقراً مزدوجاً مستهدفةً إحدى رسائل الشبح بغية فتحها. وكانت نافذة الرسالة فارغةً، وكان المرفق بالرسالة الفارغة ملفاً بيانياً مرقماً: دجي. بي. دجي. 1. وكان وقت التحميل المقدر أقل من دقيقة.
ضغطت زر "التحميل".
سألني مزود خدمات البريد الإلكتروني، أميركا أون لاين، إن كنت أعرف المرسل.
نقطة جيدة.
راجعت دليل الأعضاء، ولم أقف على ذكر الشبح.
عدت إلى البريد الإلكتروني وأنا أشعر بالتردّد؛ عليَّ أن أعرف.
نقرت فوق كلمة: "نعم"، بغية حفظ الملف.
ببطء، كانت تتكشف صورة انطلاقاً من أسفل الشاشة: صورة وجهي وصورة نسخة عنه متراكبتان ضمن دائرة.
عرف عقلي اللاواعي من فوره في حين كان عقلي الواعي يتحرك نحو الإدراك، فانطلقت يدي اليسرى بسرعة نحو فمي.
كنت أشاهد نفسي عبر شاشة الحاسوب حيث كنت هدفاً لإطلاق نار من بندقية، وكان العرض قوياً جداً ورفيع المستوى الفني. للحظة، لم أتمكن من فعل شيء سوى التحديق. وقد تمكن مني الخوف الآن، أغلقت ذاك البريد الإلكتروني وفتحت آخر. دجي. بي. دجي. 2: ظهرت في المشهد وأنا أغادر مقهى ستاربكس. كان التدريب يجري مستهدفاً ظهري هذه المرة.
دجي. بي. دجي. 3: ظهرت في هذا المشهد وأنا أغادر مركز الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ، وجبهتي كانت هدفاً لإطلاق النار.
بينما كنت مسلوبة القدرة على الحركة إلى حدٍّ مروع، كان علي أن أرى مزيداً من المشاهد.
دجي. بي. دجي. 8: صورة أظهر فيها وريان، مُغادرَين مبنى ماك إينري في جامعة شارلوت؛ كارولينا الشمالية.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

دجي. بي. دجي. 18: أظهر في الصورة لدى دخولي مطعم بايك سودا شوب.
بينما بت أتنفس بصعوبة وبدأت أتعرق، فتحت ملفاً آخر؛ دجي. بي. دجي.
22: تصبب العرق بارداً على جلدي وتملكتني رجفة؛ جلست كاتي تقرأ ما أعتقد
أنها قصة، على أرجوحة شرفة ليجا الأمامية. كانت ترتدي سروالاً قصيراً وكنزة
من غير كُمّين كنت قد اشتريتهما من محالّ غاب. كانت قدم واحدة عارية تندفع
متكاسلة قِبالة الدرابزين، وكانت بندقيةٌ مصوبةٌ نحو رأسها.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^



لدى سماعي صوت الباب، انطلقت بسرعة إلى المطبخ: كان بويد يسرف في شرب الماء من وعائه، وكان ريان يبحث عن ماء في الثلاجة. شاهدته وهو يسوي زجاجة الماء، ويفتح غطاءها، ويرجع رأسه إلى الوراء، ثم يشرب؛ كانت بشرته تتلألأ وبدت عضلاته اللزجة المفتولة القوية تتموج في ذراعه، وعنقه، وظهره، فجعلتني رؤيته أهدأ. واحتياجي إلى وجود ذَكَر كي أهدأ أزعجني. فدفعت عني الشعورين كليهما وسألته محاولةً تزويد صوتي بنغمة تشجع على تبادل الحديث: "أكانت جولةً موفقةً؟".

التفت ريان إليّ وقد أنبأته نظرة واحدة منّي أن الأمور ليست على ما يرام، لذا، سألني: "ما الأمر؟".

"عندما كنت تستحم كنت أود أن أريك شيئاً". كان صوتي يرتعش على الرغم من محاولتي جَعلَهُ يبدو هادئاً.

"ماذا حدث، حبيبتي؟".

"أُفَضِّلُ أن أريك".

وضع ريان زجاجة الماء، ومشى نحوي، وأمسك يَدَيَّ كلتيهما بيديه وقال: "هل أنت بخير؟".

"أنا بخير".

نظرة فاحصة، وطويلة الأمد.

"تابعي تلك الفكرة".

بينما كان ريان في الطابق العلوي، تابعت تصفح ما تبقى من رسائل البريد الإلكتروني؛ تنوعت الإعدادات، لكنّ الموضوع لم يتنوع، كانت كل رسالة تحمل تهديداً.

عاد ريان بعد عشر دقائق، وكانت تفوح منه رائحة ربيع أيرلندي عبقة، وعطر من سبيد ستيك. مقبلاً رأسي، جلس على الكرسي المجاور لكرسيَّ، وبدأت أشرح لـه مـا حـدث في أثناء المكالمـة الهاتفية وأنا أعـرض عليه محتوى رسـائل البريد الإلكتروني.

تصلب وجه ريان حين كان يشاهد الصور، وكانت عضلة فكه تنتفخ من وقت إلـى آخـر ثـم تسـترخي. وبعد أن أنهينا مشـاهدة الصور، عانقني بقـوة. تكلم، وبدا صوته غريباً، وأكثر صلابةً، بطريقة ما:

"مـا دام فـيَّ نفَس لـن يتمكن أحد مطلقاً مـن إيذائك أو إيذاء ابنتك يا تمب. أعـدك بذلـك"، غـدت نبـرة صوته أكثر رقةً، وكلماته أكثر ترخيماً، "أقسـم لك، من أجلك، ومن أجلي"، ثمّ مَسَّد شعري برفق وتابع: "أريدك في حياتي، تمب بريننان".

لـم أكـن واثقـةً بنفسـي كـي أرد، وقـد شـعرتُ بارتبـاك وتشـوش، وسـرور، واندهاش: مشاعر باتت تتراقص الآن في داخلي مع الغضب، والخوف.

ضمنـي ريـان إلـى صدره بقـوة، ثم أرخى ذراعيه، وطلب مني أن يرى الصور مرة ثانية.

حيث لم يكن لدي رغبة في رؤية الصور مرةً ثالثة، تخليت عن مكاني لريان. وذهبـت لمـلء وعـاء بويـد. عندما عدت، سَـمَّرني ريان بنظرة مـن عينين زرقاوين شرستين حين سألني:

"هل وقع هنا حديثاً حادث تحطم فيه عدد كبير من السيارات؟".

"يوم الجمعة الفائت ليلاً".

"هل مات أحد المصابين لتوه؟".

"ليـس لـدي فكـرة". لـم أتوقـع أن أخضع لامتحان موجز تدور أسئلته حول الأحداث الجارية.

"هل لديكِ صحف هذا الأسبوع؟".

"في حجرة المكتب".

"أحضريها".

"هل أنت عازم على الانغماس المطلق في هذا الموضوع، أم عليَّ أن أحزر؟".

كنت أشعر بالقلق. القلق يجعلني فظةً وصعبة الميراس.

"أرجوكِ أحضري الصحف". لم يخالط صوت ريان أيُّ أثر من روح الدعابة.

أخرجت صحف الأبزرفر من علبة المواد التي يعاد تدويرها، وعدت إلى الغرفة حيث ريان.

ماتت ضحية حادث تصادم السيارات يوم الثلاثاء ليلاً في مستشفى الرحمة (Mercy Hospital). كانت مديرة في مدرسة ثانوية خاصة، لذلك كان موتها خبراً تصدّر الصحف الصادرة يوم الأربعاء.

فتح ريان رسالة البريد الإلكتروني دجي. بي. دجي. 2. صحيفة الأبزرفر متموضعة إلى يمين باب الستاربكس. وضع المؤشر عليها، وكَبَّر الصورة. على الرغم من أن الكلمات كانت غير واضحة، إلا أنها كانت سهلة القراءة:

ضحية رابعة من ضحايا حادث تصادم السيارات تُسلِم الروح

كنت ممسكة بعنوان الصحيفة الرئيس ذاته في يدي.

تكلم ريان أولاً: "لنفترض أن الصور مسحت مسحاً ضوئياً مُرتَّبة وفق تسلسل التقاطها، الصورة الأولى والثانية التقطتا صباح الأربعاء، أي يوم أمس؛ لقد ذهبنا إلى ستاربكس يوم أمس".

شعرت بخدر يسري في جسدي وقلت: "يا الله! ريان!؟"، ثمّ رميت الصحيفة على الأريكة، "ثمة معتوه خفيف العقل كان يطاردني ومعه كاميرا نيكون. من يكترث على وجه الدقة بزمن التقاط الصور الملعونة؟".

لم يكن في وسعي أن أقف هادئةً، وشرعت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

"قد توفر معرفةُ زمن بدء التقاط الصور فكرةً عن الدافع من التقاطها".

توقفت؛ كان محقًّا.

سأل: "لماذا يوم أمس؟".

عدت بتفكيري إلى الأيام القليلة الماضية وقلت: "اِختَر! يوم الجمعة أعلمت جدعون بانكس أن ابنته قتلت رضيعها. وحفرت يوم السبت تنقيباً عن الدببة. جمعت يوم الأحد، باذلة جهداً كبيراً، جثتين من طائرة السيسنا".

"حُددت هوية دورتون بصفته مالك الطائرة يوم الاثنين".

"حسناً"، وافقتُ، "حُددت هوية بيرس بصفته الطيار يوم الثلاثاء".

"تزامن هذا أيضاً مع يوم مزرعة فوت".

"ألم يُكتشف حمل طائرة السيسنا في ذلك اليوم أيضاً؟".

"عُثر على الكوكايين يوم الاثنين، وبُلغ عن العثور عليه يوم الثلاثاء".

"إن هذا يجعلني بطريقة ما أعتقد أن دورتون يقف وراء هذا. أصدر أمره يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء، وشرع أحد رجاله يلتقط صوراً يوم الأربعاء".

"ربما. ماذا عن هذا؟ كان سليديل وريناليدي قد شرعا فعلياً يستقصيان داريل تيري الأسبوع الفائت بشأن موت رضيع أسرة بانكس، وعرفا يوم الأربعاء أن تيري وجايسون جاك ويات شريكان في شأن ما وينسقان العمل في ما بينهما عبر التواصل الهاتفي".

"راكب طائرة السيسنا".

أومأت إيجاباً.

"من المحتمل أن يكون تيري من أرسل الرسائل عبر البريد الإلكتروني".

فكرت في التحذير الذي حمله عنوان كل رسالة إلكترونية وسألت: "أتراجع عمّاذا؟".

قال ريان: "أعن تعقب تيري؟".

قلت، وكانت تعابير وجهي تحاكي ما قلته: "سليديل وريناليدي يتعقبان تيري. لماذا يهددني؟".

"أنت التي فحصتِ الطفل الرضيع. أنت التي تضغطين في سبيل العثور على تاميلا وأسرتها".

"ربما". لم أكن مقتنعة؛ كم كان الضغط الذي مارسته شديداً حقاً؟

"قد يعتقد شخص ما أنك صارمة جداً في هذا الموضوع".

"لم يتّصل سليديل بمقاطعة لانكستر حتى يوم الأربعاء. طبقاً لاستنتاجك، كان هذا القذر يتعقبني عملياً في ذلك الوقت".

"ماذا عن الريش؟".

"لم نكن نعلم شيئاً عن ببغاء السبيكس قبل صباح هذا اليوم".

انضم إلينا بويد، فتوجّه ريان نحوه وفرك أذنه، ثمّ قال: "حفرنا دورة المياه يوم الثلاثاء".

"لا أحد تقريباً يعرف ما كنا نبحث عنه أو ما عثرنا عليه". أحصيت مستخدمةً

أصابعي: لارابي، وهوكينز، وسليديل، وورينالدي، وفنيُّو اتحاد سلامة النقل، ومُشغِّل عربة معدات الحفر.

استدار بويد ومسَّ يدي برفق استرعاءً للاهتمام، فداعبته ذاهلةً.

"عليَّ أن أتصل بسليديل".

"نعم".

انتصب ريان واقفاً، ولف ذراعيه حولي، وضغط خدي على صدره. كان توتره محسوساً واضحاً.

عندما تكلم ريان كان ذقنه يربّت تربيتاً رقيقاً على رأسي: "مهما يكن من أمر، فإن المخبول الذي فعل هذا لا يدرك عالم الأذى الذي يوشك أن يحل به".

تتألف شارلوت من مناطق سكنية متجاورة: إليزابيث، مايرز بارك، ديلوورث، بلازا - ميدوود. يتشبث معظم الناس في هذه المناطق بالماضي مثل نساء بوسطن اللواتي يتشبثن بسلاسل النسب التي تعرّفهن بصفتهنّ بنات الثورة الأميركية. التقسيم إلى مناطق مطبق ونافذ بموجب القانون. الأشجار محمية. فن العمارة غير التقليدية، إن لم يكن محظوراً كلياً بأمر من مالكي المنازل، ينظر إليه بعين الرفض من قبل السكان العنيدين.

لكن التشبث بالماضي تخلى عن المناطق الراقية حديثة الإنشاء في ضواحي المدينة حيث الغلبة فيها للأبنية الخرسانية، والزجاج، والفولاذ. أهل شارلوت أنفسهم، الذين يرتشفون الشراب في الباحات المظللة بأشجار المانغوليا في المساء، يفخرون بناطحة السحاب القائمة في قلب مدينتهم في أثناء يوم العمل. في الواقع، المحافظون هم المطاردون في ضواحي المدينة حديثة الإنشاء.

على بعد دائرة واحدة خارج مركز المدينة تقع أربع دوائر. خضعت ثلاث منها للتحديث (مجاراة لروح العصر) في العقود الأخيرة.

على الرغم من أنها ليست ويليامزبرغ على وجه الدقة، فإن الدائرة الرابعة هي نسخة المدينة عن مقاطعة تاريخية. أحياؤها فيكتورية الطراز ذات طابع خاص، وبيوتها ومنازلها مبنية من طوب ينم عن ذوق رفيع، وشوارعها ضيقة تغطيها أشجار باسقة وارفة الظلال. حتى إن فيها مشرب يحاكي الطراز الذي كانت عليه المشارب عندما كانت الولايات المتحدة مستعمرة بريطانية.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

في الدائرتين الأولى والثالثة، لا يوجد مظاهر تشفّ عن طابع تاريخي محافظ. في حقبة الثمانينيات والتسعينيات، جُرف القديم لمصلحة الجديد، وأفسحت البناغل (بيوت يتألف كل منها من طابق واحد) المهملة، وورشات التصليح التي أكل الدهر عليها وشرب، والمطاعم القذرة المصممة على هيئة مقصورات القطار في المجال أمام المفهوم الحديث المتيح مجالاً لاستخدامات كثيرة: مكاتب وشقق سكنية في الطوابق العليا من الأبنية، وورش تصليح متخصصة في الطوابق السفلى منها؛ ملكيات مشتركة، ومبانٍ متعددة وحدات السكن، وشرفات تزايدت كثيراً، وكلها مزودة ببرك ماء يدوية الصنع، وأسماء مثل كلاركسون غرين، وسيدار ميلز، وسكاي لاين تيراس، وتيفولي.

كان بيت ليجا المديني في حي إلم ريدج من الدائرة الثالثة المحشورة بين فرازر بارك وحقول تدريب الكواغر (الأسود الأميركية). يتألف المجمع من صفوف مزدوجة من شقق مزدوجة ثنائية الطوابق يقابل بعضها بعضاً عبر ساحات معشوشبة. لكل شقة شرفة أمامية واسعة يوجد عليها أرجوحة أو كراسٍ هزازة، ومَلاقِمُ طيور، وأُصصٌ معلقة يتدلى منها السرخس.

عند أول الغسق، بدت إلم ريدج كأنها قوس قزح ضعيفُ الألوان باهتُها. جالت في خاطري دورة التخطيط المعماري: تشارلستون، وسافانا ذات لون برتقالي ضارب إلى الصفرة، وبرمنغهام ذات لون أصفر برتقالي.

كانت وحدة ليجا السكنية هي الأخيرة من الصف الشرقي من النسق المزدوج الأوسط. كانت شقتها مطلية باللون الأحمر الفاتح، ونوافذها ذات لون بهشي عنبي (أحمر ضارب إلى الصفرة).

صعدتُ وريان الدرج وصولاً إلى الرواق، وقرعتُ جرس الباب بينما كنا ننتظر، انجذبت عيناي نحو الأرجوحة، وغار قلبي بين أضلعي. نظرت نظرةً غضبى ذات الشمال أتبعتها بأخرى ذات اليمين. أتراه يقبع في مكان ما ذاك الذي يطاردنا خلسةً، حتى في هذا الوقت، يراقبنا؟

مستشعراً خشيتي وخوفي من شر مُرتقب، شدَّ يدي. شددت يده، ضاغطةً شفتي على هيئة قوس نهايتاه متجهتان نحو الأعلى. عندما أكون وكاتي وحدنا في حال مشابهة، أُشعِرُها بشيء مما أكابد إلا أنني لا أدعها تنفذ إلى غور خوفي

العميق.

عانقتني ابنتي مبديةً استحسانها لِطلعتي ومظهري، وثوب الكتان أسود اللون المثير للإعجاب الذي أرتديه، والمزين بحلية معدنية لا تَكَلُّف فيها. ثم تحولت بناظريها إلى ريان.

كان مُواعدي قد اختار تشكيلة ثيابه من مجموعة تتألف من بنطال عاجي اللون، وسترة زرقاء، وقميص أصفر اللون باهته، وربطة عنق صفراء اللون منقّطة بالأزرق، وحذاءً رياضياً أحمر يغطي رُسغي القدمين من النوع الذي ينتعله لاعبو كرة السلة عادةً.

بحركة بالغة الدقة من حاجب عينيها إلى حدٍّ تكاد ألاّ تَبِينَ معه، ابتسمت كاتي لريان فأفقدته شهيته للطعام. ثم قادتنا إلى الداخل وقدمت لنا ضيوفها الآخرين وعرَّفتنا إليهم، براندون سالمون، صديق ليجا الحالي، وامرأة تدعى ويلو، ورجل اسمه كوتون، والوسيم وسامةً لا تُقاومُ بالمر كُرنز.

أوحت ثياب كُرنز بوجود مستعمرات كاملة من ديدان القز الشريدة التي لا مأوى لها: ربطة عنق، وبنطال، وقميص من الحرير الطبيعي، وسترة بطانتها مصنوعة من قماش نفيس شبيه بالكشمير.

قدمت لنا كاتي شراب شعير وشراباً فرنسياً، واعتذرت منا وانصرفت، ثم عادت مجدّداً وقدمت لنا شراباً فرنسياً وشراب شعير مرّةً أُخرى، ثم طلبت مني همساً أن أنضم إليها في المطبخ.

كانت هناك كتلة متفحمة قابعة في مقلاة شواء موضوعة فوق موقد الطبخ. تشبه رائحة المطبخ الرائحة التي تعشعش داخل منقل الشواء. كانت ليجا تعمل شيئاً ما في حوض غسيل الأطباق، واستدارت عندما دخلنا، ثمّ رفعت كلتا يديها تحيةً، وعادت لمهمتها.

القول إنها كانت تبدو متوترة يشبه القول إن محاسبي إنرون حققوا شيئاً من التجميع.

قالت كاتي: "أعتقد أننا أحرقنا الشواء".

ردت ليجا بشيء من الحدة: "لم نحرقه، بل اشتعلت فيه النيران. ثمة فرق هنا".

سألت كاتي: "هل في وسعك فعل شيء حيال الأمر؟".

لا يبدو الشواء محترقاً؛ لو كان محترقاً لكان أحسن حالاً مما هو عليه: يبدو الشواء متفحّماً.

وخزت الشواء بشوكة طعام، وانتُزعت منه قطع لحم مكتنزة شبيهة بقويلب من الفحم الحجري آجرية الشكل وتدحرجت لتستقر في مقلاة الشواء.

"الشواء مُحمَّصٌ".

"عظيم". انتزعت ليجا سدادة مجرى المياه، وتدفقت المياه عبر الأنابيب.

سألتها تعقيباً على ما قالته: "ماذا تفعلين؟".

"أذوّب ثلج الدجاج"، وقد أوحى صوتها أنها أوشكت على البكاء.

ذهبت إلى حيث يوجد حوض غسيل الأطباق ولكزت الصخرة (الدجاج المجمد) التي كانت تمسك بها.

استبدلت ليجا السدادة وسَلَّكَت مجرى الماء.

وفقاً لمعدل السرعة الذي كانت تعمل تبعاً له، سيستغرق ذوبان الثلج عن الدجاج عقوداً من الزمن. لذا، فتشت في خزانة المؤن حيث يوجد توابل، وسباغيتي، وحساء كامبل، وزيت زيتون، وخل بلسمي، وست علب سمك اللنغ.

"كم يبعد أقرب مخزن عن هذا المكان؟".

"خمس دقائق".

استدارت، ليجا ممسكة الدجاج وسألتُ: "هل لديك ثوم؟".

إيماءات.

"بقدونس؟".

إيماءات.

ابتسمت ليجا وهي ترتجف وقالت: "لدينا سلطة بريمو في الثلاجة".

أرسلت كاتي لإحضار بطلينوسات معلبة وخبز بالثوم مثلج.

بينما هرعت ابنتي إلى السوق، حضرت ليجا المقبّلات، وحمصتُ أنا ثوماً بزيت الزيتون، وأضفت إليه شيئاً من البقدونس الطازج. عندما عادت كاتي، أضفت البطلينوسات المعلبة، وعِترَ النعناع، وتركت الصلصة تنضج على النار، في حين كانت المعكرونة تُسلق في الماء الذي كنت قد سخنته حتى الغليان.

بعد ثلاثين دقيقة، كانت كاتي وليجا تتبادلان مع الحاضرين المجاملات والإطراءات لجودة ما "أعَدَّتا" من طعام.

لا شيء. حقاً. وصفة طعام أسرية.

على مدى تناول وجبة الطعام بدا بالمر كُرْنز مشتتاً، وكان قليل الإسهام في المحادثة. في كل مرة كنت ألتفت نحوه، كانت عيناه تنظران إلى الجانب البعيد مني بسرعة خاطفة.

أتراه خيالي أوحى إليَّ بذلك أم إن موقفه مني كان نتاج تقويمه لي؟ أم هو موقف مني بصفتي متحدثة؟ أم بصفتي حماةً محتملةً؟ أم هو موقف شخصي؟ هل أنا مصابة بجنون الارتياب؟

عندما دعتنا كاتي إلى احتساء القهوة في غرفة الجلوس، جلست على الأريكة إلى جانب كُرْنز، الذي سألته: "كيف تسير الأمور في مركز الحياة البرية والأسماك في الولايات المتحدة؟".

كنت وكُرْنز قد تبادلنا حديثاً مقتضباً عن عمله عندما كنا في نزهة عند ماك كراني. وعقدت الليلة العزم على سبر غوره سبراً أعمق.

أجاب كُرْنز قائلاً: "ليست الأمور بالغة السوء على صعيد الكفاح من أجل الحياة البرية".

"أخبرتني، كما أذكر، أنك تتخذ من كولومبيا مقراً لك".

وجه كُرْنز إصبعه نحوي قائلاً: "ذاكرة جيدة".

"هل هو عمل واسع؟".

"إنه كذلك إلى حدٍّ كبير جداً"، وابتسم ابتسامة تنم عن انتقاص من قدر الذات.

"هل لمركز خدمة الحياة البرية والأسماك كثير من المكاتب الميدانية في مناطق كارولينا؟".

"واشنطن، ورالي، وأشفيل في كارولينا الشمالية، وكولومبيا وتشارلستون في كارولينا الجنوبية. يشرف مكتب ARC في رالي على كل شيء".

"هل ARC تعني الوكيل المقيم المسؤول؟".

أومأ كُرْنز إيجاباً، ثمّ قال: "رالي هو المكان الوحيد الذي لا يؤدي العمل فيه رجل واحد"، ابتسامة صبيانية، "أو امرأة واحدة. مختبر الطب الشرعي موجود

هناك أيضاً".
"لم أكن أعلم أن لدينا واحداً".
"مختبر رولنز التشخيصي. إنه مرتبط بوزارة الزراعة".
"ألا يوجد مختبر قومي للحياة البرية والأسماك؟".
"كلارك بافين، في آشلاند، ولاية أوريغون. إنه مختبر الطب الشرعي الوحيد على كوكب الأرض المكرس حصرياً للحياة البرية. يعالج حالات من جميع أنحاء العالم".
"كم عدد وكلاء مركز الحياة البرية والأسماك؟".
"عدد الموظفين الكامل مئتان وأربعون، لكن مع تقليص عدد الموظفين تراجع إلى مئتين وهو في تناقص".
"منذ متى وأنت وكيل؟".
كان ريان يجمع الصحون عن الطاولة خلفنا. في وسعي القول إنه كان يصغي إلى حديثنا.
"ست سنوات. أمضيت السنتين الأوليين في ولاية تينيسي متدرباً".
"هل تفضل كولومبيا؟".
"إنها أقرب إلى تشارلوت". أومأ كُرنز إلى ابنتي بحركة صغيرة من إصبعه.
"هل ثمة مانع من الحديث في المهنة قليلاً؟".
ارتفع الحاجبان المثاليان ارتفاعاً يكاد لا يبين وقال: "البتة".
"أعلم أن المتاجرة غير المشروعة في الحياة البرية كبيرة. إلى أي حدٍّ هي كذلك؟".
"قرأت أنها تقدر بمبلغ يتراوح بين عشرة مليارات وعشرين مليار دولار أميركي سنوياً. هذا الرقم يحتل المركز الثالث بعد مبالغ المتاجرة غير المشروعة بالمخدرات والأسلحة فقط".
أصابني ذهول.
جلس ريان على كرسي عند الجانب البعيد من طاولة القهوة المصنوعة من جذع شجرة.
سألت: "هل ثمة متاجرة كثيرة في السوق السوداء بالطيور المُغرِّبة (النادرة

جداً)؟".

"أفترض ذلك. إن كان ثمة شيء نادر الوجود، فسيشتريه الناس"، على الرغم من إظهاره ضرباً من عدم المبالاة المصطنعة، بدا كُرْنز متضايقاً، "لكن في تقديري الشخصي، تكمن أكبر المشكلات الراهنة في الاستغلال الجائر".

"استغلال ماذا؟".

"السلاحف البحرية مثال مناسب على ما أقوله. تباع السلاحف الأميركية أطناناً في الخارج. المشكلة الأخرى الكبيرة تتمخض عنها سوق لحوم الحيوانات البرية".

"لحوم الحيوانات البرية؟".

"إنها فئران القصب العملاقة والظباء من إفريقيا، وسحالي الغابات من آسيا. تلك هي زواحف تُشَقُّ كالحية على طول بطونها، وتنتشر مثل قطع الحلوى العودية الكبيرة. وهناك ببغاوات صغيرة مُدخَّنةٌ، وحراشف بنغول (حيوان ثديي تكسو جسده حراشف متراكبة) مشوية".

لا بدَّ من أن يكون كُرْنز قد فسر الاشمئزاز الذي بدا على وجهي على أنه ارتباك.

"يسمى البنغول أيضاً آكلَ النمل. تباع حراشفه بوصفها علاجاً لمرض السِّفْلس".

سأل ريان: "هل يستورد الناس هذه الأشياء للاستخدام الطبي؟".

"يمكن أن تستخدم لأي شيء. لنأخذ السلاحف على سبيل المثال، إذ تُستخدم تروس السلاحف البحرية في صنع المجوهرات، وتذهب لحومها وبيوضها إلى المطاعم والمخابز، وتستعمل دروعها الكاملة كلوحات جدارية".

سألت: "ماذا عن الدببة؟".

ارتفع ذقن كُرْنز مائلاً جزءاً من الإنش وقال: "لا أعرف شيئاً كثيراً عن الدببة".

"يوجد في مناطق كارولينا أعداد كبيرة من السكان. أليس كذلك؟".

"نعم".

سأل ريان: "هل يعد الصيد غير المشروع مشكلةً؟".

هزة كتفين ناعمة: "لا أعتقد ذلك".

سألت: "هل سبق لمركز خدمة الحياة البرية أن حقق في ذلك؟".

"لا عِلمَ لي".

انضم إلينا صديق ليجا وطرح سؤالاً عن مزايا اللعب - في كرة السلة - بطريقة رجل لرجل مقابل اللعب بطريقة دفاع المنطقة، فتحوّل اهتمام كُزنز إلى تلك المحادثة.

كثير جداً بالنسبة إلى صيد الدببة غير المشروع.

في طريقنا إلى البيت، التمست من ريان أن يطلعني على رد فعله حول تعليقات كُزنز، فقال: "من الغريب ألا يعرف وكيل الحياة البرية في كارولينا الشمالية والجنوبية شيئاً عن الدببة".

وافقته قائلة: "نعم".

"أيروق لكِ الرجل، أم لا؟".

"لم أقل قط إنه لا يروق لي".

ثمّ سألت بعد مضي بضع ثوانٍ: "هل هذا واضح؟".

"أنا عاكف على تعلم طريقة أقرأ مشاعرك بها".

قلت متخذة وضعاً دفاعياً: "هذا لا يعني أنني لا أحبه".

إذاً، ماذا؟. "يتعلق الأمر في أنني لا أحب عدم معرفة إذا ما كان لا يروق لي".

اختار ريان ألا يلامس ذلك.

أضفت قائلة: "إنه يولّد عندي شعوراً بالقلق".

عندما وصلنا إلى ملحق البيت، أضاف ريان ملحوظةً أخرى مثيرة للقلق: "قد لا يكون قلقك بعيداً جداً عن جادة الصواب"، رمقتُ ريان بنظرة ضاعت في لجة الظلام، "أخبرتني أن بويد حقق نتيجته الكبرى في أثناء نزهة متجر السيجار تلك".

21

يشرع الأفق الشرقي في الارتشاح ارتشاحاً بطيئاً لكنه مطرد مستعيراً لونه من الرماد نحو الساعة الخامسة والنصف في آب/أغسطس في بيد مونت من ولاية كارولينا الشمالية. عند الساعة السادسة، تبدأ الشمس رحلة شروقها اليومية.

استيقظت مع بزوغ خيوط الفجر الأولى، وشاهدت الفجر يرسل طلائع أنواره إلى موجودات غرفتي: الخزانة، والمنضدة، والكرسي، والجدران.

كان ريان ممدداً على بطنه إلى جانبي، واضطجعت بيردي متمعجة عند الانحناءة المتشكلة من تجاور رُكبتيَّ، وقد مكثت في السرير حتى الساعة السادسة والنصف.

نظرت بيردي إلي بعينين طارفتين عندما انزلقت من تحت الأغطية. نهضت وقوّست ظهرها عندما كنت أجمع ثيابي الداخلية عن عاكس الضوء. سمعت حين كنت أخرج من الغرفة ماشية بهدوء على رؤوس أصابع قَدميَّ صوتاً صادراً عن مَسِّ بيردي السجادة بمخالبها.

كانت الثلاجة تهمهم لي حين كنت أحضر القهوة، وفي الخارج، كانت العصافير تتبادل أحاديث القيل والقال في ما بينها.

وأنا أتحرك بكل ما استطعت من هدوء، صببت كوباً من عصير البرتقال وشربته. ثم جمعت طوق بويد وذهبت إلى حجرة المطالعة والكتابة.

كان الكلب متمدداً على الأريكة على طوله، واضعاً قائمته الأمامية اليسرى على مسند الأريكة، واليمنى على رأسه؛ بويد المدافع الحامي.

همست: "بويد".

كان الكلب مضطجعاً على جانبه فاضطجع على الأرض على أربع، ولم يبدُ أنه تحرك في أي مرحلة وسيطة بين الحالين.

"هنا، يا صبي".
لا اتصال بواسطة الرؤية.
"بويد".
رفع الكلب عينيه ونظر إليَّ لكنه لم يتزحزح فقلت: "أترغب في المشي؟".
بقي بويد ثابتاً في مكانه، صورة من التشكك.
أرخيت الطوق، ولكن، لا حركة.
"لست مستاءة بشأن الأريكة".
أخفض بويد رأسه، ونظر إليّ، ثمّ حرك كل حاجب من حاجبيه حركة نصف دائرية.
"حقاً".
اندفعت أذنا بويد إلى الأمام ومال رأسه.
أرخيت الطوق وقلت له: "تعال".
مدركاً أن ما أقوله ليس فخاً، وأن حديثي عن النزهة كان فعلاً حقيقةً واقعةً، دار بويد مسرعاً حول الأريكة، ثم عاد إليَّ وقفز واضعاً قائمتيه الأماميتين على صدري، ثم أخفضهما ودار في المكان دوراناً سريعاً، ثم قفز وشرع يلعق وجنتي.
قلت وأنا أضع الطوق حول رقبته: "لا تدفعه".
غشَّى الأشجار والشجيرات ضباب رقيق لطيف في شارون هول. على الرغم من أنني شعرت بالطمأنينة بوجود كلب يزن سبعين رطلاً، كنت لا أزال مفعمةً بشعور الخوف من أمر غير محدد حين كنا نمشي. فواظبت على ترقب وميض ضوء ساطع خاطف، أو ومضة ضوء خاطفة تنبعث من عدسة كاميرا.
أربعة سناجب وبعد مضي عشرين دقيقة، عدتُ وبويد إلى ملحق البيت. كان ريان جالساً إلى طاولة المطبخ، وأمامه على الطاولة كوب مملوء بالقهوة وصحيفة الأبزرفر لمَّا تُفتح. ابتسم عندما دخلنا، لكنني رصدت شيئاً في عينيه، كأنه شبح سحابة عابرة فوق الأمواج.
مضى بويد نحو الطاولة خَبَباً، ووضع ذقنه على ركبة بويد، ونظر إليه آملاً أن يحظى بقطعة من اللحم المقدد.
ربت ريان على رأسه.

صببت قهوة لنفسي وانضممت إليهما. ثمّ قلت: "هاي".

انحنى ريان إلى الأمام وقبّلني، ثمّ قال: "هاي". ممسكاً بيديه كلتا يديَّ، ناظراً إلى عينيَّ؛ لم تكن نظرةً سعيدةً.

قلت وأنا أستشعر ضيقاً وخوفاً شديدين: "ماذا حدث؟".

"اتصلت بي أختي".

انتظرت.

"أدخلت ابنتها إلى المستشفى".

"أنا آسفة"، ضغطت على يديه، "أكان حادثاً؟".

"لا"، انتفخت عضلات فك ريان، "فعلتها دانييل عمداً".

لم يكن في وسعي أن أفكر في أي شيء أقوله.

"تعاني أختي انهياراً شديداً. إنها لا تقوى على الأزمات"، ارتفعت عقدة حنجرة ريان وهبطت، "الأمومة نقطة ضعفها".

على الرغم من أن فضولي كان يدفعني لمعرفة ما حدث، لكنني لم أندفع، وروى ريان القصة بطريقته:

"كانت دانييل تعاني مشكلات ناجمة عن تعاطيها المخدرات في ما مضى، بيد أنها لم تقدم قط على فعل أي شيء من هذا القبيل".

لعق بويد ثياب ريان، وتابعت الثلاجة همهمتها.

"لماذا بحق الله..."، هازّاً رأسه، ترك ريان السؤال يموت في الهواء.

"قد تكون صرخات ابنة أختك تتعالى طلباً للاهتمام". بدت كلماتي مبتذلةً حين كنت أقولها. التحدث في معرض العزاء ليس موطن قوتي.

"البنت المسكينة لا تعرف ما هو الاهتمام".

حث بويد ركبة ريان، لكن ريان لم يستجب.

سألت: "متى ستكون رحلتك؟".

زفر ريان، ورجع إلى الخلف في كرسيه قائلاً: "لست ذاهباً إلى أي مكان في الوقت الذي يترصّدك فيه أحد المختلين عقلياً بعدسة الكاميرا".

"عليك أن تذهب". لم أستطع أن أتحمل فكرة مغادرته، إلا أنني لن أدعه يبقى.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"لا سبيل لذلك".
"أنا فتاة كبيرة".
"لن أشعر بالارتياح".
"أختك وابنتها محتاجتان إليك".
"وأنت؟ ألست محتاجة إلي؟".
"لقد فقت الأشرار دهاءً من قبل".
"أتقولين إنك لست بحاجة إلى أن أكون إلى جانبك؟".
"لا، أيها الوسيم. لست بحاجة إلى أن تكون إلى جانبي"، تقدمت نحوه ومسَّدت وجنته ملاطفةً وتحبباً، فارتقت يده وتحركت حركة غريبة متعثرةً، ثمّ تابعت: "أريدك أن تكون إلى جانبي. لكن هذه مشكلتي. في الوقت الراهن أسرتك محتاجة إليك".
بات جسد ريان كله ينضح توتراً. نظرت إلى ساعة يدي؛ السابعة وخمس وثلاثون دقيقة.
يا الله، لماذا الآن؟ بينما كنت ألتقط الهاتف كي أتصل بمكتب خطوط الولايات المتحدة الجوية (USA)، أدركت مدى رغبتي العارمة في بقائه.
أقلعت الطائرة التي غادر ريان على متنها عند الساعة التاسعة والدقيقة العشرين، وبدا بويد مجروح الفؤاد بعمق عندما غادرنا المنزل وخلفناه وراءنا في الملحق.
من المطار، توجهت مباشرة إلى مركز الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ. لم يصل فاكس من كاجل. بعد أن استقرت الحال بي في مكتبي، بحثت عن رقم الهاتف، واتصلت بمركز الحياة البرية والأسماك في رالي.
أبلغني صوت أنثوي أن الوكيل المقيم المسؤول هو هيرشي زامزاو. أجابني زامزاو بعد انتظار وجيز، وعرّفته بنفسي.
"ليست ثمة حاجة إلى مقدمات يا دكتورة. أعرف من تكونين. هل الجو حار عندك كما هي الحال عندنا؟".
"نعم يا سيدي".
كانت درجة الحرارة عند الساعة التاسعة اثنتين وثمانين على مقياس فهرنهايت.

"ماذا في وسعي أن أفعل من أجلك في هذا الصباح الصيفي الرائع؟".

أخبرته عن ريش السبيكس، وسألته إن كان ثمة وجود لأي سوق سوداء للمتاجرة بالطيور النادرة.

"هناك كمية من الحيوانات البرية التي تتدفق عبر المنطقة الجنوبية الشرقية للولايات المتحدة الأميركية انطلاقاً من نصف الكرة الأرضية الجنوبي؛ ثعابين، وسحالي، وطيور. لك أن تسمي من الحيوانات ما تشائين. وإن كان النوع نادراً، فإن بعض الحمقى الذين يعوزهم رجحان العقل سيرغبون في اقتنائه. ويعد جنوب شرق الولايات المتحدة الأميركية روضةً كبيرةً بالنسبة إلى منتهكي حرمة الحياة البرية".

"كيف تُهرَّبُ الحيوانات الحية إلى داخل البلاد؟".

"بكل أنواع الأساليب الذكية. تُحشى ملصقات وتُحصر داخلها. تخبأ داخل أثواب ممغنطة"، لم يحاول زامزاو أن يخفي اشمئزازه، "ونسبة نفوق الحيوانات تبلغ أرقاماً فلكية. فكري في الأمر؛ هل سافرت حديثاً على متن طائرة أقلعت في الوقت المقرر لها؟ ما هو، في اعتقادك، مقدار ذكاء هؤلاء القميئين المشوهين في حساب كمية الأوكسجين في مساحة تخزين مخفية ومكتومة؟

لكن، بالعودة إلى الريش الذي يعنيك، تعد الطيور عملاً ونشاطاً جانبياً شائعاً عند مهربي الكوكايين الجنوب أميركيين. يحظى أحدهم بقليل من الببغاوات من صياد في قرية، ويرسلها إلى الولايات المتحدة مع شحنته اللاحقة من المخدرات. إن بقيت الطيور حيّة عادت عليه بربح وفير. إن هي ماتت، فإن ما يخسره هو ثمن الشراب الذي يرغب في احتسائه على مدى أسبوع".

سألت: "ماذا عن الدببة؟".

"أراخِصُ أميركية. لا حاجة إلى تهريبها. لدينا دببة سوداء هنا في مناطق كارولينا. تُنصَبُ شراك كل عام لعدد قليل من الدببة الفتية من أجل تعذيبها وإرهاقها بهجمات متواصلة؛ أعني: اقتتال الدببة بالنسبة إلى غير المستنيرين، هي متعة لبعض أبناء الأرياف ضحلي الثقافة. عادة، كانت توجد سوق تباع فيها الدببة الحية. لكن، مع الارتفاع الكبير في أعداد قاطني حديقة الحيوانات، جفت موارد تلك السوق إلى حدٍّ كبير".

"هل يوجد كثير من الدببة في كارولينا الشمالية؟".

"ليست من الكثرة بالقدر الذي ينبغي له أن يكون".

"ما سبب ذلك؟".

"تدمير موائلها والصيد الجائر".

"أيوجد موسم تصطاد الدببة فيه بصورة مشروعة؟".

"نعم، سيدتي. هذا الأمر يختلف بين مقاطعة وأخرى. لكن معظم الصيد المسموح به بصورة قانونية يكون في فصل الخريف وأول فصل الشتاء. بعض مقاطعات كارولينا الجنوبية تميز بين صيد ثابت وصيد مع الكلاب".

"أخبرني عن الصيد غير المشروع".

"إنه موضوعي المفضل"، بدا صوته مشوباً بشيء من المرارة، "عُدَّ قتل الدببة السوداء غير المشروع جنحةً بموجب قانون لاسي عام 1901، وجناية عام 1981. لكنّ ذلك لم يوقف الصيادين. في الموسم، يأخذ الصيادون الدب كاملاً، ويستعملون اللحم والفراء. خارج أوقات الموسم، يأخذ الصيادون ما يريدونه ويتركون الجثث لتتعفن".

"أين يقع صيد الدببة مُعظمه؟".

"قبل عشر سنوات إلى ما قبل عشرين سنة كان يقتصر على الجبال إلى حدٍّ كبير. حالياً، تتعرض الحيوانات الساحلية للضرب بالقسوة ذاتها. لكن المشكلة ليست مشكلة كارولينا فقط، فما تبقى من الدببة في أميركا الشمالية يقل عدداً عن نصف المليون. وتُكتشفُ كل عام مئات الجثث السليمة باستثناء كفوفها ومراراتها...

"مراراتها؟"، لم أستطع أن أخفي صدمتي.

"تباً للسوق السوداء. في الطب الآسيوي التقليدي، تصنف مرارة الدب في مكانة مرموقة إلى جانب قرون الكركدن، والجنسينغ، ومسك الغزلان. يعتقد أن الصفراء التي يفرزها الكبد وتُخزَّن في مرارة الدب تشفي من الحمى، والتشنجات، والأورام، والتضخمات، وألم العين، وأمراض القلب، وسمِّي ما تشائين. والكبد ليس لحماً مفروماً، أيضاً. تنظر بعض الثقافات الآسيوية إلى حساء كف الدب بوصفه طعاماً شهياً مترفاً حقيقياً. يمكن أن تباع الزبدية منه بمبلغ يصل إلى ألف وخمسمئة دولار أميركي في مطاعم معينة. خارج لائحة أصناف الطعام، بطبيعة

الحال".

"ما هي أسواق مرارات الدببة الرئيسة؟".

"تحتل كوريا الجنوبية المرتبة الأولى بسبب عدم وجود إمداد محلي من المرارات. أما هونغ كونغ، والصين، واليابان فهي لا تختلف عن كوريا الجنوبية كثيراً على صعيد طلب هذه المادة".

أخذت لحظة من الوقت لأهضم كل هذا، وقلت: "وهل صيد الدببة مسموح به من الناحية القانونية موسمياً في كارولينا الشمالية؟".

"كما هي الحال في كثير من الولايات، نعم. لكن بيع أجزاء من جسم الحيوان، بما فيها المرارات، والرؤوس، والجلود، والأيادي، والأسنان ليس مسموحاً به من الناحية القانونية. منذ سنوات قليلة خلت، نظر الكونغرس في مشروع قانون تشريعي يهدف إلى منع المتاجرة بأعضاء الدببة. بيد أن مشروع القانون لم يمر".

قبل أن أتمكن من التعليق، تابع حديثه: "انظري إلى ولاية فرجينيا؛ لدى الولاية نحو أربعة آلاف دب. يقدر مسؤولون أن ما يُقتَل منها بصورة قانونية يتراوح عددها بين ستمئة وتسعمئة دب سنوياً، إلا أنهم لا يتوافرون على أرقام ما يُصطادُ منها. منذ وقت ليس بالبعيد ضبط قرابة ثلاثمئة مرارة، وأُلقيَ القبض على خمسة وعشرين شخصاً".

"كيف؟"، صُدِمتُ إلى حدٍّ أوشكت معه أن أفقد قدرتي على صَوغ أسئلة.

"يـزوّد صيادون مسؤولين بمعلومات سرية عن الصيد في حديقة شناندواه الوطنية وحولها. يتسلل عملاء في نهاية المطاف إلى أفراد العصابة مدعين أنهم وسطاء برفقة صيادين، شيء من هذا القبيل. عملت في تنفيذ خطط سرية ذكية مشابهة تهدف إلى الإيقاع بأفراد العصابات في مقاطعة غراهام منذ عشر سنوات تقريباً".

"أليست غابة جويس كيلمر التذكارية؟".

"الأمر ذاته تماماً. قد تكون الأشجار جميلةً، لكن الدببة تُعدُّ ربحاً".

كان الخط الهاتفي يطن طنيناً خفيفاً رتيباً متصلاً في حين استرسل زامزاو منقباً في جعبة ذكرياته: "ثمة زوجان كانا مُنخرطَين في هذا العمل على مدى سبعةَ عشر عاماً. جاكي جو وبوبي ريه جاكسون. يا له من عمل كانا مُنخرطين فيه. ادَّعيا

أنهما كانا يبيعان ثلاثمئة مرارة دب سنوياً على طول الساحل الشرقي. وزَعَما أنهما كانا يحصلان على مرارات الدببة من نوادي الصيد، ومن مزارعين، ومن صيدهما ونصبهما شراكاً وأفخاخاً للدببة".

كان زامزاو منتشياً بنجاحاته وسعة معرفته: "بعض هؤلاء الصيادين، حالهم حال مومسات الشارع السابع تغلب عليهم الوقاحة ويعوزهم الذوق. يتركون بطاقات تعريف تحمل أسماءهم ويُدوَّن عليها طبيعة أعمالهم في بيوت الصيد المؤقتة سائلين إن كنت ترغب في شراء مرارات دببة، ثم يتصلون بمن يهمه الأمر من فورهم".

ريكي دون دورتون، والتنقيب في البرية، والكوكايين، والدببة، والطيور النادرة؛ جزئياتُ فكرة عشوائية كان يبحث بعضها عن بعضها المشترك في دماغي.

"كيف تعمل هذه الحلقات؟".

"ليس ثمة أمرٌ معقد. يجري التواصل بين الصياد والمشتري وجهاً لوجهٍ أو عبر الهاتف. يلتقي المشتري بالصياد في موقف للسيارات، أو ربما في موقع معزول، ثم تنعقد صفقة تجارية. يحصل الصياد على خمسة وثلاثين دولاراً أميركيّاً، وربما يحصل على خمسين مقابل كل مرارة، في حين يتقاضى الوسيط مبلغاً يتراوح بين خمسة وسبعين ومئة دولار أميركي مقابل كل مرارة. إنها قيمة عالية جداً لعمل ميدانه الشارع في آسيا".

"من أين ترسل مرارات الدببة خارج البلاد؟".

"يوجد كثير من المسالك عبر مِين، فهي واحدة من ولايات قليلة يعد فيها بيع مرارات الدببة السوداء إلى آسيا قانونياً. لكن، مرة أخرى، إنّ بيع أجزاء من دببة مقتولة في كارولينا الشمالية في أي ولاية من الولايات المتحدة ليس مشروعاً. حديثاً، أضحت ولاية أتلانتا بوابة كبيرة".

"كيف تحفظ المرارات؟".

"يجمدها الصياد سليمةً بأسرع وقت ممكن عندما يستخلصها من الدب".

"وماذا بعد؟".

"يحولها إلى شخص آسيوي سبق له أن اتصل به ونظّم العمل معه. ولأن الطزاجة تحدد القيمة، فإن معظم المرارات تجفف في المدينة التي تنتهي إليها

رحلتها، لكن ليس دوماً، فبعض المشترين الآسيويين يجرون عمليات التجفيف في الولايات المتحدة، وبذلك يكون في وسعهم أن ينقلوا كميات أكبر. حجم المرارة يعادل حجم قبضة يد الإنسان تقريباً وتزن أقل من رطل إنكليزي، ويجعلها التجفيف تنكمش إلى ثلث حجمها".

"كيف يجري ذلك؟".

"لا يتطلب الأمر تكنولوجيا عالية (high-tech)، إذ تربط المرارة بسلك أحادي رفيع، وتعلق فوق نار هادئة. التجفيف البطيء مهم، أما التجفيف السريع يعرّض الصفراء للتلف".

"كيف تُهرَّبُ إلى الخارج؟".

"مرة أخرى، لا يستدعي الأمر إعمال العقل وتوجيهه. ينقل معظمها في حقائب اليد. في حال رصد المرارات عبر ماسحات الأمن الضوئية، يدعي حاملها أنه يحمل فاكهة مجففة لأمه. وبعض الناس يطحنون المرارات ويضعونها في الشراب".

قلت: "أقل خطورة من تهريب المخدرات".

"ومربحة جداً، إذ تباع المرارة جيدة الحفظ بخمسة آلاف دولار أميركي تقريباً في كوريا، لكنّ المرارات الممتازة تباع الواحدة منها بمبلغ يصل إلى عشرة آلاف. نحن نتكلم عن دولارات أميركية".

صُعِقتُ.

سأل زامزاو: "هل سبق لك أن سمعت بكلمة (CITES)؟".

"اتفاقية التجارة الدولية المتعلقة بالأنواع الأحيائية المعرضة للخطر". كانت هذه هي الإشارة الثانية خلال يومين.

"صنفت مرارات الدببة تحت الملحق الثاني من الاتفاقية".

"يوجد دببة في آسيا. لماذا يقطعون كل هذه المسافات الطويلة إلى أميركا الشمالية كي يحصلوا على مرارة؟".

"أنواع الدببة الآسيوية التي تتألف من دب الشمس، والدب الكسلان، والدب الآسيوي الأسود، والبني، والباندا العملاق جميعها معرضة للخطر".

"يُعتقَد أن ما تبقى من الدببة في براري آسيا يعدُّ خمسين ألفاً؛ من الهند على

طول الطريق إلى الصين نزولاً إلى جنوب شرق آسيا".

"بسبب الطلب على الصفراء التي تفرزها الكبد".

"باستثناء الباندا العملاق، الدببة هي الثدييات الوحيدة المنتجة لكميات كبيرة من حمض الدببة المضاد للأكسدة".

قال زامزاو بنبرة خالطها شيء من الازدراء: "تلك هي النقطة؛ ثمانية وعشرون مستحضراً دوائياً مختلفاً على الأقل يُزعَمُ أنها تحتوي على صفراء الدببة متاحةٌ في الصين بصورة قانونية. حظرت سنغافورة بيع منتجات مستخلصة من دببة، إلا أن ثمة متاجر ما انفكت تبيع حبوباً دوائية تحتوي على صفراء الدببة، وبلورات، ومساحيق، ومراهم، ومرارات دببة كاملة مجففة. نفايات مثل شراب صفراء الدببة، وشامبو، وصابون، وغيرها تصل إلى الأسواق كل يوم. في وسعك العثور عليها في جميع الأحياء الصينية عبر الولايات المتحدة".

انقبضت معدتي اشمئزازاً وقلت: "ألا يمكن أن تربى الدببة محلياً؟".

"شرعت الصين في إنشاء مزارع لتربية الدببة في الثمانينيات؛ الوضع أسوأ تقريباً، إذ تُحشر الحيوانات في أقفاص ضيقة، وتُستحلبُ عبر ثقوب تفتح في بطونها. ويمكن أن تُبرَد أسنانها ومخالبها. وفي بعض الأحيان، يمكن أن تقطع كفوفها. وبمجرد أن تكف الحيوانات عن إنتاج الصفراء، تقتل للحصول على مرارتها".

"ألا يمكن تخليق حمض الدببة المضاد للأكسدة؟".

"بلى، وثمة بدائل نباتية كثيرة متوافرة".

"لكن الناس يريدون الشيء الحقيقي".

"لقد أصَبتِ. يتمخض التفكير الشائع عن أن حمض الدببة المُخلَّق المضاد للأكسدة ليس فاعلاً فعاليّة المستحضر طبيعياً؛ هذا هراء؛ كمية حمض الدببة الطبيعي المضاد للأكسدة المستخلص من صفراء الدببة تتراوح بين ٪0 و٪33، وهي نسبة تكاد لا تكون مورداً موثوقاً للدواء".

"المعتقدات الثقافية قديمة العهد لا تموت بسهولة".

"لماذا أنت مهتمة بببغاوات السبيكس والدببة السوداء؟".

فرزت الأحداث التي وقعت الأسبوع الماضي: ما الذي ينبغي إشراكهُ؟ ما

الذي يتعين إبعاده؟ هل الأحداث المتعلقة بتاميلا بانكس وداريل تيري؟

من الممكن أن تكون عديمة الصلة بالموضوع؛ أي سرية. هل الأحداث المتعلقة بريكي دون دورتون وتحطم طائرة السيسنا؟ - كما تقدم - ماذا عن تهديدات يوم أمس التي تلقيتها عبر بريدي الإلكتروني؟ من المحتمل أن تكون عديمة الصلة بالموضوع.

أخبرت زامزاو عما عُثِر عليه في مزرعة فوت باستثناء الجزء المتعلق برخصة القيادة الخاصة بتاميلا بانكس فقط. أخبرته أيضاً عن الهيكل العظمي الذي عُثِر عليه في مقاطعة لانكستر.

على مدى ثلاثين ثانية كاملة لم أسمع شيئاً البتةَ، ثمّ سألت معتقدةً أن الاتصال قد انقطع بيننا: "ألا تزال على الخط؟".

"أنا هنا".

سمعت صوتاً ناجماً عن ابتلاعه ريقه بصعوبة، ثمّ قال: "هل أنت في مكتب مركز الفحص الطبي؟".

"نعم".

"وهل ستمضين بعض الوقت في العمل؟".

"نعم". إلى أين - بحق الله - يمضي هذا الأمر؟

"سأكون عندك في غضون ثلاث ساعات".

22

وصل زامزاو بُعيد الظهر؛ كان رجلاً ممتلئ الجسم، ويحتمل أن يكون عمره أربعين سنة تقريباً، وهو كث الشعر غزيره، وقد قصّه قصةً قصيرةً جداً. شاحب لون البشرة، وعيناه بنيتان داكنتان متطابقتان لوناً مع شعره إضافة إلى الكلف والنمش؛ كل ذلك منحه مظهراً أحادي اللون، وهو يشبه شخصاً ما ولد وعاش حياته كلها في كهف.

متخذاً لنفسه مجلساً على الكرسي المقابل لطاولتي، دخل زامزاو في صلب الموضوع مباشرةً: "قد يكون هذا عديم القيمة، لكن كنت عازماً على المرور قريباً من هنا في طريقي إلى مأوى بيي دي للحياة البرية في مقاطعة آنسون هذا الصباح، لذلك فكرت في أن أعرِّج على شارلوت وألتقي بك شخصياً".

لم أنبس ببنت شفة، لجهلي المطبق الأمرَ الذي يمكن أن يكون على هذا الجانب الكبير من الأهمية، إلى حدٍّ جعل زامزاو يشعر بأنه يقتضي أن يقابلني وجهاً لوجه.

"منذ خمس سنوات، اختفى عميلان من عملاء مركز الحياة البرية والأسماك. أحدهما كان يعمل خارج مكتبي، في حين كان الآخر مكلفاً بأداء مهمة مؤقتة في كارولينا الشمالية".

"حدثني عنهما"، وقد شعرت بقشعريرة مبعثها الإثارة تسري أسفل عمودي الفقري.

سحب زامزاو صورة من جيب قميصه ووضعها على طاولتي؛ ظهر في الصورة شاب مستند إلى جسر حجري، وكانت ذراعاه مطويتين وبدا مبتسماً. استطعت أن أرى على قميصه شارة وعلى كتفه علامة مميزة مطابقتين للشارة وعلامة الكتف المميزة على القميص الذي كان يرتديه زامزاو.

قلبت الصورة؛ كان مكتوباً على الجهة الخلفية منها بخط اليد: بريان أيكر، رالي 27/ 9/ 1988.

قال زامزاو: "كان اسم ذاك العميل بريان أيكر".

سألت: "كم كان عمره؟".

"كان عمره اثنتين وثلاثين سنة. كان أيكر قد أمضى معنا ثلاث سنوات قبل أن يضحي في عداد المفقودين. إنه زميل لطيف".

"كم يبلغ طوله؟".

"إنه رجل طويل القامة. في وسعي أن أقول إن طوله يتراوح بين ست أقدام وعُشر القدم وست أقدام وعشري القدم".

قلت، وأنا أقلب الصورة لأمعن النظر فيها: "كان أبيض لون البشرة".

"نعم".

"وماذا عن العميل الزائر؟".

"شارلوت غرانت كوب؛ كانت غريبةً بعض الشيء وبعيدةً عن الآخرين، بيد أنها كانت جيدةً في عملها. كانت كوب قد أمضت في الخدمة أكثر من عشر سنوات".

"هل لديك صورة؟".

هز زامزاو رأسه وقال: "لم تكن كوب تحب أن تلتقط صورٌ لها. لكن في وسعي أن أطلب ملفها إن كنت تعتقدين أن لهذا الأمر ما يبرره. لدى مركز الخدمة صورة شخصية لكل عميل".

"هل كوب أنثى؟".

"نعم، بيضاء، وأعتقد أنها كانت في منتصف العقد الثالث".

"بِمَ كانت تقوم؟".

"بعملية سرية في قسم عمليات السلاحف البحرية".

"عملية سرية؟".

هز زامزاو إحدى كتفيه وقال: "كان فرانكلين يرتدي كثيراً من القمصان ذات الياقات العالية الضيقة. لم أستطع أن أتبين ما كتب على الرقعة المميزة الملصقة بالقميص. على أي حال، هل تعتقدين أن الجثة مجهولة الهوية الموجودة لديك

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قد تكون لأيكر أو لكوب؟".

"كوب خارج الدائرة. فقد أثبت فحص الحمض النووي للعظام التي عثر عليها في لانكستر أنها تعود لِذَكَر. لكن يمكن أن يكون ثمة رابط. هل كان أيكر وكوب ينصبان معاً شِراكاً للمهربين؟".

"ليس بصورة رسمية، على الرغم من معرفتي أنه أمضى وقتاً معها".

"أخبرني ماذا حدث".

"ليس لدي الكثير لأقوله. منذ ست سنوات أو سبع، زُوِّدنا بمعلومات سرية عن صيادين يشحنون سلاحف إلى شارلوت من الساحل، وينقلونها إلى مشترين في نيويورك، والعاصمة. أرسل مركز خدمة الحياة البرية والأسماك كوب لتحاول اختراق الحلقة؛ مقدرين أن الأنثى يمكن أن تصل إلى المهربين بسرعة أكبر".

"كيف؟".

"الأمر المعتاد. كانت كوب تتسكع حول الأماكن التي يختلف إليها المشتبه فيهم: مشارب، ومطاعم، حتى بعض صالات الرياضة البدنية".

"أكانت تعيش في شارلوت؟".

"كان لها شقة سكنية فيها. واحد من العقود التي تبرم على أساس شهري".

"كيف جرت الأمور معها؟".

"ليس لدي فكرة. لم تكن كوب ترسل إليّ التقارير"، تردد صوت زامزاو في حلقه من دون أن يتكلم، "ثم إن السيدة لم تكن من النوع الذي يمكن أن تسميه اجتماعياً. عندما كانت في رالي، كانت كوب شديدة الانطواء على نفسها. أعتقد أنه من الصعب أن يعمل المرء في جوٍّ من التكتم والسرية في هذا العمل".

"أو أن يكون أنثى".

"هذا ممكن".

"هل اختفت كوب وأيكر في وقت واحد؟".

"انقطع الاتصال مع أيكر ذات يوم، الاثنين كما أذكر، من شهر كانون الأوّل/ ديسمبر. كان الجو شديد البرودة، وواظبنا على محاولة الاتصال به على مدى يومين، أخيراً اقتحمنا شقته، لكن لم نعثر على أثر له".

بدا زامزاو كما لو أنه لم يكن قد تحدث عن أيكر منذ زمن طويل، لكن يبدو

أنه كان يفكر فيه مراراً وتكراراً.

"عندما عدنا من شقته، عرفنا أنه شوهد آخر مرة يوم الجمعة السابق ليوم اقتحامنا شقته. اعتقدنا أنه من المحتمل أن يكون الثلج قد جرفه إلى مكان ما. بحثنا عنه في الأنهار، وفي البرك المنجرفة، وفي أماكن من هذا القبيل، ولكن، لم نعثر البتة على أيكر أو على سيارته".

"هل كان ثمة ما يشير إلى أنه كان يخطط للمغادرة؟ حسابات مصرفية مفرغة؟ وصفات دوائية مفقودة؟".

هز زامزاو رأسه ثمّ قال: "طلب أيكر شراء عدة صيد عبر الإنترنت قيمتها مئتا دولار أميركي في الأسبوع الذي سبق زمن اختفائه. وكان في حسابه الادخاري في مصرف فرست يونيون (First Union) مبلغ أربعة عشر ألف دولار أميركي".

"لا يبدو أن الرجل كان ينوي الرحيل. ماذا عن كوب؟".

"كانت معرفة ظروف اختفاء كوب أشد صعوبة. وفقاً لما أدلى به جيرانها كانت منعزلة تَلزَمُ المنزل وحيدة، وكانت تختفي في كثير من الأحيان أياماً عدة. اقتنع المالك بفكرة فتح الشقة بعد أسبوع من اختفاء أيكر. بدا الوضع داخل الشقة كما لو أن كوب قد عزمت على مغادرة الشقة مدةً قصيرةً ثم تعود".

ظننت أنه قال لحظة.

"هل كان أيكر وكوب على علاقة؟".

تجهم وجه زامزاو وقال: "دار حديث عنهما هذا محوره. قام أيكر برحلات عدة إلى شارلوت عندما كانت كوب هنا. وقد أظهرت تسجيلات أنهما يتهاتفان؛ لكن يمكن أن يكون ذلك مرتبطاً بالعمل".

حافظت على وتيرة صوتي كي أخفي اندهاشي وقلت: "يعود الهيكل العظمي الذي فحصته لشخص طويل القامة، وأبيض البشرة، وذَكَر. هذا ينطبق على المواصفات التي أعطيتني إياها. عمر أيكر مناسب لعمر صاحب الهيكل العظمي، وكذلك حال الإطار الزمني. يبدو أن الجثة يمكن أن يكون صاحبها عميلك المفقود".

"كما أذكر، تحتفظ إدارة شرطة رالي بسجلّين لأسنان أيكر وكوب كليهما. لم تَحتَج إليهما البتة".

كنت شديدة التشوّق للتحدث إلى سليديل لدرجة أوشكت معها أن أدفع زامزاو بسرعة وبصورة تعوزها اللياقة خارج مكتبي. لكن، كان لدي موضوع واحد إضافي أردت أن أطرحه، فقلت: "هل تعرف عميلاً يدعى بالمر كُزنز؟".

تحرك زامزاو على الكرسي الذي كان جالساً عليه وقال: "قابلته".

انتظرته كي يدلي بمزيد من التفاصيل، لكنه لم يفعل، فسألته: "ما انطباعك؟".

"شاب".

"وماذا؟".

"شاب".

"تحدثت إلى كُزنز منذ عهد قريب، وسألته عن صيد الدببة في مناطق كارولينا، وقد بدا أنه لا يعرف إلا شيئاً يسيراً جداً".

نظر زامزاو مباشرة إلى عيني. "ما الذي ترمين إليه؟".

""إنه لا يعرف شيئاً عن تهريب الطيور النادرة".

نظر زامزاو إلى ساعته ثم قال: "لا أعرف كُزنز معرفةً شخصيةً، لكن الرجل يجذب نصيبه من المعجبات".

وجدت التعليق غريباً، إلا أنني كففت عن متابعة الموضوع.

"أتمنى لك حظاً طيباً يا دكتورة".

نهض زامزاو، ووقفت. بينما كان يلتفت ليذهب، التقطت صورة بريان أيكر وسألت: "هل لي أن أحتفظ بها؟".

أومأ زامزاو موافقاً، ثم قال: "إن احتجتِ إليّ، فلا حاجة إلى الرسميات".

بهذا، كان قد ذهب.

وأنا أنظر إلى المكان الذي خَلاَّه زامزاو حيث كان يجلس على الكرسي، تساءلت: تُرى ما الذي حدث للتو؟ خلال محادثتنا كان الرجل ودوداً وصريحاً، لكن، لدى ذكري اسم بالمر كُزنز، انكمش الرجل مثل مُدَرَّع (حيوان ثديي، لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظمية الصغيرة) ضُرب بعصا.

هل كان زامزاو ذاك الصنف من البشر الذي يحفظ للناس مقاماتها، ويرفض أن يتكلم بسوء عن موظف زميل؟ هل كان يعرف شيئاً عن صديق كاتي ولا يرغب في إطلاع أحد عليه؟ هل كان ببساطة لا يحيط علماً بالرجل؟

قطع تيم لارابي عليَّ الاسترسال في أفكاري عندما سأل: "أين صديقك الصغير؟".

"إن كنت تعني المخبر ريان، فقد سافر بالطائرة عائداً إلى مونتريال".

"يا له من أمر بالغ السوء. إنه شخص يناسب مزاجك".

ارتفعت يد إلى وجنتي: "لقد تمكنت منك". جعل لارابي يده تحاكي هيئة مسدس وأطلق النار علي.

"أنتَ مرح إلى أقصى حدٍّ، قد يدفع هوكينز عربة نقل المرضى إلى هنا عندما أموت ضحكاً".

أخبرته عمّا كنت قد علمت من والي كاجل بشأن الهيكل العظمي الذي عُثِر عليه في لانكستر، وعن المحادثات التي أجريتها مع هيرشي زامزاو.

قال لارابي: "سأتصل برالي، وأرى إن كان في وسع أحد أن يحضر سجلات الأسنان الخاصة بأيكر".

"جيد".

"هل يمكن أن يكون هذا اليوم يوم انفراج وكشف؟ اتصلت ينسن، واتصل سليديل، وهناك حفل شاي خلال نصف ساعة".

"هل لديهم أخبار؟".

تحقّق لارابي ثم نقر على ساعته قائلاً: "قاعة الرقص الرئيسة خلال ثلاثين دقيقة. اللباس غير رسمي"، تمعجت زاويتا فم لارابي نحو الأعلى، "وفي شعرك وميض أيضاً".

سرحت عيناي بعيداً جداً إلى حدٍّ ظننتُ معه أنهما لن تعودا إلى وضعهما المعتاد مطلقاً.

عندما ذهب لارابي، توثقت من جديد من السيدة فلورز. لم يكن قد وصل فاكس من كاجل بعد.

راجعت الرسائل المرسلة إلي عبر الهاتف الخلوي: ينسن، سليديل، كاجل.

حاولت الاتصال بكاجل عبر هاتفه الخلوي، لكن، لا ردّ.

مراسل متخصص بالجرائم لدى صحيفة شارلوت أبزرفر اتصل.

زميل في جامعة كارولينا الشمالية؛ غرينسبورو.

جربت الاتصال بكاجل مجدّداً، لكن، لا ردّ حتى الآن.

نظرت إلى ساعتي؛ إنه وقت العرض.

وضعت قميصي الوردي الداخلي في وسط دفتر التسجيل الخاص بي وتوجهت إلى قاعة الاجتماعات؛ كان لارابي وينسن يناقشان مزايا النمور مقابل الدلافين. كانت المحققة التابعة لهيئة سلامة النقل القومية ترتدي جينزاً وقميصاً قطنياً ذا لون كاكي ضارب إلى الصفرة من ماركة Old navy، وتنتعل صندلاً. بدا شعرها الأشقر القصير كما لو أنه جُفِّف وصفِّف لتوه.

وصل سليديل وريناللدي في حين كنت أصافح ينسن؛ كان رينالدي يرتدي سترة زرقاء، وبنطالاً رمادياً، ويضع ربطة عنق باللونين الفيروزي والأصفر، من ماركة Jerry Garcia. وكان سليديل يرتدي قميصاً غير رسمي؛ يبدو من قماش ياقته أن القميص شبيه بشيء اشتراه أحدهم من بضائع معروضة على طاولة مارت؛ تلك التي تباع بأسعار مخفضة جداً بعد أن يكون الجيد منها قد نفد فعلاً.

بينما كان الآخرون يشربون القهوة، أحضرت لنفسي قارورة كوكا كولا دايت. سألت عندما اتخذ كلٌّ منا لنفسه مقعداً: "من يبدأ أولاً؟".

لوح لارابي براحة يده مشيراً إليّ. فأعدت على مسامعهم ما كنت قد قلته للفاحص الطبي عن الجثة التي اكتُشِفت في لانكستر، وشرحت كيفية وقوفي على التفاصيل من والي كاجل، وقدمت شرحاً للرابطة المحتملة بين العمود الفقري وبين الرأس واليدين التي عُثِر عليها في دورة المياه. ثم أوجزت ما كنت قد علمته من هيرشي زامزاو ومن راشيل مندلسون بشأن صيد الدببة المحظور والمتاجرة غير المشروعة بالأنواع الأحيائية النادرة والمهددة بالانقراض. أخيراً، كشفت النقاب عن المفاجأة المدهشة المتعلقة بفقدان عَميلَي إدارة الحياة البرية بريان أيكر وشارلوت غرانت كوب.

بينما كنت أتكلم، كان رينالدي يدوّن ملحوظات على مفكّرته، وكان سليديل مصغياً في حين كانت ساقاه ممدودتين إلى الأمام وإبهاماه مدسوستين في حزامه.

على مدى ثوانٍ عدة، لم ينبس أحد ببنت شفة. ثم صفعت ينسن الطاولة قائلة: "نعم!".

زحفت عينا سليديل نحوها، وكررت ما قالته: "نعم".

فتحت ينسن زمام حقيبة جلدية، وأخرجت منها أوراقاً عدة، ووضعتها على الطاولة، وقلبتها بإصبعها وصولاً إلى إحداها في الوسط، ثم توقفت وقرأت بصوت عالٍ: "احتوت المادة المتفحمة المستخرجة من أسفل بطن راكب طائرة السيسنا على هيدراستين شبه قلوي، وبربرين كندين، وبربرستين".

سأل سليديل: "هل هذه المواد تشكل أوفالتين؟".

قالت ينسن: "إنها تشكل غولدن سيل".

انتظرنا جميعاً كي تتابع، وانتقلت ينسن إلى ورقة أخرى: "هيدرا ستيس كندنسيس. غولدن سيل. يعتقد أن للجذور والجذامير (جمع مفرده جذمور: ساق أرضية شبيهة بالجذر) خصائص طبية بسبب الهيدراستين والبربرين. استخدم الهنود الحمر (سكان أميركا الأصليون) الغولدن سيل بوصفها مادة مطهرة وفي معالجة لسعات الأفاعي. واستعملتها قبائل الإيروكوا لمعالجة السعال الديكي، والالتهاب الرئوي، واضطرابات الجهاز الهضمي. واستخدمها الرواد الأوائل بوصفها غسولاً للعين، ولمعالجة التهاب الحلق وتقرحات الفم. وبدأ الطلب التجاري للغولدن سيل زمن الحرب الأهلية تقريباً - أبعدت ينسن بصرها عن ملحوظاتها المكتوبة - وهي الآن العشبة الأكثر مبيعاً في أميركا الشمالية".

"تستخدم من أجل ماذا؟"، نمَّت لهجة لارابي لدى طرحه السؤال عن ازدرائه للأدوية العشبية.

عادت ينسن إلى مطبوعاتها: "احتقان الأنف، وتقرحات الفم، والتهابات العين والأذن، وتستخدم بوصفها مطهراً موضعياً، ومليناً، ومضاداً للالتهابات، واختر ما تشاء. يعتقد بعض الناس أن الغولدن سيل تقوي جهاز المناعة وتزيد فاعلية الأعشاب الطبية الأخرى، ويعتقد آخرون أنها يمكن أن تسبب الإجهاض".

زفر لارابي عبر شفتيه، ونظرت ينسن إلينا لتتأكد إذا كنا لا نزال نصغي إلى ما تقوله.

"أجريت بحثاً مقتضباً عبر الشبكة العنكبوتية"، اختارت مطبوعةً ثالثةً، "جرت عمليات حصد كبيرة جداً ومركزة للأسواق المحلية والعالمية على حدٍّ سواء؛ الأمر الذي جعل الغولدن سيل في مأزق حالياً. من الولايات السبع والعشرين التي تنمو هذه النبتة فيها، تعدها (النبتة) سبع عشرة ولاية معرضةً للخطر. تضاعف سعر بيعها

بالجملة أكثر من ست مرات في العقد الأخير".

قال سليديل: "استدعي بوليس الأزهار".

سألت: "هل تنمو عشبة الغولدن سيل في كارولينا الشمالية؟".

"نعم، لكن في عدد قليل من الأماكن فقط؛ غولدن سيل هولو، على سبيل المثال، وفي أعماق الجبال في مقاطعة جاكسون".

"هل تعد مهددة بخطر الانقراض في كارولينا الشمالية؟".

"نعم. وبسبب تلك الحال، لا بدّ من الحصول على إذن لاقتلاع تلك العشبة أو لاستنباتها ضمن الولاية. هل سبق لكِ أن سمعت بكلمة CITES؟".

"نعم"، ثلاث مرات.

"تحتاجين إلى إذن من الإدارة القائمة على تنفيذ بنود الاتفاقية الدولية المتعلقة بالأنواع الأحيائية المعرضة لخطر الانقراض CITES؛ لتصدير جذور نبتة الغولدن سيل المزروعة أو البرية أو لتصدير أجزاء منها. كي تحصلي على إذن يجب عليك أن تبيني أن الجذور والجذامير والبذار الخاصة بكِ أتت من مخزون أصلي مكتسب بصورة مشروعة، وأن الأعشاب زُرِعت على مدى أربع سنوات أو أكثر من دون زيادة مستمدة من البراري".

سأل رينالدي: "هل من الصعب الحصول على إمداد من الجذور الحية التي يمكن بواسطتها الزرع والاستنبات في هذا البلد؟".

"جداً".

سألت: "هل توجد سوق سوداء للغولدن سيل؟".

"توجد سوق سوداء لجميع الأعشاب التي يعثر عليها في جبال كارولينا الشمالية، بما فيها عشبة الغولدن سيل. إلى حدّ تعيين قوة مهامّ خاصة من الوكالة الخامسة في أبالاتشيا".

"يوجد فعلاً فرقة خُضَر". نفخ سليديل وجنتيه وهزّ رأسه، كما يفعل كلب يمد رأسه من النافذة الخلفية لسيارة.

"تألّفت فرقة المهام من وكلاء عن مصلحة الحدائق القومية، ومصلحة الغابات في الولايات المتحدة الأميركية، وإدارة الزراعة، وإدارة الحياة البرية في كارولينا الشمالية، وإدارة الحياة البرية والأسماك في الولايات المتحدة الأميركية يرأسها

مكتب النائب في الولايات المتحدة".

عمّ الصمت المجموعة، في حين كان كلٌّ منا يحاول دمج تقرير ينسن مع ما توصّلتُ إليه. كسر سليديل حاجز الصمت قائلاً: "كان أحد المتسكعين يتنشق عقاراً مخدراً خارج مزرعة فوت. نعرف ذلك؛ لأننا عثرنا على منتج في القبو. أنتِ تقولين إن المكان كان يستخدم أيضاً للمتاجرة المحظورة بحيوانات نافقة. أليس كذلك؟".

قلت: "أنا أشير إلى أن هذا احتمال".

"هل تعنين بوصفه نشاطاً تجارياً جانبياً إلى جانب المتاجرة بالكوكايين؟".

قلت ببرود: "نعم، وربما كان الطير على قيد الحياة".

قال رينالدي: "وهذا ما يحتمل أن يكون العميل أيكر قد توصل إليه واطلع عليه".

قلت: "ربما".

قال سليديل: "لذا، يُروِّع المجرم، ويقتل أيكر، ويتخلص من رأسه ويديه دفناً في دورة المياه، وينقل جثته إلى مقاطعة لانكستر. أليس كذلك؟"، بدا سليديل غير مقتنع.

قلت: "سنعلم عندما نحصل على سجلات الأسنان".

توجّه سليديل إلى ينسن بالحديث قائلاً: "طائرة السيسنا التي يعنيك أمرها كانت تنقل أيضاً شحنة مخدرات؛ أصبت الهدف، وبذلت جهداً كبيراً. ولكن، لماذا تكلفين نفسك عناء موضوع الأعشاب؟".

"نشاط تجاري جانبي".

"مثل طيور برينان".

لم أكلف نفسي عناء التعليق.

قالت ينسن: "نعم".

"لماذا غولدن سيل؟ لماذا لا يكون جينسنغ أو شيئاً ما ينبت شعرك أو يثير فيك الرغبة؟".

نظرت ينسن إلى سليديل كما لو أنها كانت ترى عنكبوتاً ميتاً: "غولدن سيل يبدو منطقياً أكثر".

"ما سبب ذلك؟".

"بعض الناس يعتقدون أنها قد تخفي مخدرات معينة في بولك".

"وهل تفعل؟".

"هل يمكن أن تجعل منك جرعة كوكايين نجماً على صعيد موسيقى الروك؟".

تسمّرت عينا كلٍّ من ينسن وسليديل، ولم ينبس أحد منهما ببنت شفة على مدى ثوانٍ عدة. ثم دس سليديل مجدّداً إبهامه في حزامه.

"كنا نستجوب باوندر".

"وماذا؟".

"لا نزال نتوق إلى رؤية تيري أو دورتون".

"ربما يتعين علينا إعادة التفكير في ذلك".

كأنما أصبحنا، نحن الخمسة، شخصاً واحداً. كان جو هوكينز واقفاً عند مدخل القاعة عندما قال: "من الأفضل أن تأتوا لتروا هذا".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

23

تبعنـا هوكينـز وصـولاً إلى الـرُّواق، وفي الزاوية المتشـكلة من مدخل المبنى والرُّواق وجدنا عربة نقل الجثث، وقد وضع عليها حمل ثقيل مغطى؛ كان حملها كيساً شديد الانتفاخ.

مـن دون أن ينطق بكلمـة، فتـح هوكينز زمـام الكيس الذي كان يغلف الجثة. حنينا رؤوسنا إلى الأمام اهتماماً وانتباهاً، شأننا شأن تلاميذ صفٍّ مدرسي في رحلة ميدانية.

أسماها غران استبصاراً. مدعياً قدرة على علم الغيب بوصفه ميزةً أسرية، أنا أسميها تفكيراً استنتاجياً مستنداً إلى وقائع ومقدمات منطقية. ربما كان الأمر عائداً إلـى سـلوك هوكينـز وتصرفاتـه، أو ربمـا مرده الصورة التي كونتها في ذهني. على الرغم من أننا لم نلتقِ قط، علمت أنني أحدق إلى ريكي دون دورتون.

كان لـون بشـرة الرجـل لون الجلد الطبيعـي القديم، وثمة ثنيات اتخذت هيئة خطـوط عموديـة علـى جانبـي أذنيـه وعينيه وزاويتـي فمه. كانت وجنتـاه مرتفعتين وعريضتين، وأنفه عريضاً، وكان لون شعره أسودَ فاحماً وممشطاً سبطاً إلى الخلف. افترَّت شفتاه اللتان أرخاهما الموت جاعلاً لونهما قرمزياً عن أسنان مُصفرة وغير متناسقة.

مات ريكي دون دورتون عاري الصدر، وقد تمكنت من رؤية سلسلتين ذهبيتين فـي طيـات عنقه، وشـارة البحرية في ذراعـه اليمنى أعلاها، وكلمتَي SEMPER FI (اللتين تعنيان: ثابت الولاء) تشكلان نصف دائرة تحت الشارة.

تفحص لارابي تقرير الشـرطة وقال: "حسـناً، حسـناً، السـيد ريتشـارد دونالد دورتون".

قال سليديل يخاطبنا جميعاً: "ابن الساقطة".

سلمني لارابي الورقة، واقتربت من ينسن حيث نتمكن من قراءتها معاً.

سأل لارابي هوكينز: "هل أحضرته للتو؟"، فأومأ الأخير إيجاباً.

وفقاً للتقرير، وُجِد ريكي دون ميتاً في سريره في موتيل في ضواحي البلدة.

قال هوكينز: "سجل دورتون اسمه في موتيل، وكان بصحبة امرأة، عند الساعة الواحدة وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل. قال موظف الاستقبال في الموتيل: كان كلاهما ثَمِلَين. وقد عثرت خادمة على الجثة عند الساعة الثامنة تقريباً من صباح اليوم. طرقت الباب فلم تلقَ جواباً، فحسبت أن الغرفة شاغرة. قد تكون المسكينة لا تزال تتصفح إعلانات المطلوبين حتى ساعة حديثنا هذه".

سأل سليديل: "من أمسك بالقضية؟".

"شيريل وباكس".

"مخدرات".

قال هوكينز: "غرفة احتوت على كمية من الأدوية وإبر الحقن تحت الجلد تكفي لتجهيز عيادة في العالم الثالث".

سأل سليديل: "أليس في وسعنا الافتراض أن رفيقة دورتون في منتصف الليل تحاكي الصالحات طهراً وعفافاً، وأنها كانت تعمل لإنقاذ روحه؟".

قال هوكينز: "اشتبه موظف الاستقبال في الموتيل في أن المرأة كانت من بنات الهوى، وهو يعتقد أن دورتون كان هناك في وقت سابق؛ بالطريقة ذاتها، سجل اسمه في الفندق في وقت متأخر من الليل. كان مواعداً امرأةً من بنات الهوى".

قال لارابي: "يتجول على جناح السرعة، يسعفه الحظ، فيؤمّن غرفة".

قال سليديل، وهو يرمي التقرير على الكيس الذي غلف الجثة: "أعتقد أن حظ ريكي دون قد تخلى عنه".

شاهدت الورقة وهي تنزلق على عربة نقل الجثث لتستقر عند سلسلتي الذهب غاليتي الثمن اللتين تطوّقان عنق ريكي دون.

قبل مغادرته، انتزع مني وعداً أن أناقش رسائل اليوم الفائت التي تلقيتها عبر البريد الإلكتروني مع سليديل أو رينالدي. على الرغم من أن قلقي قد تضاءل إلى حدٍّ كبير بين عشية وضحاها، فقد بقيت متوترة الأعصاب. كنت ميالة إلى

استعراض الرسائل بوصف ذلك عملاً يقوم به شخص مخبولٌ مهووسٌ بالاتصالات الإلكترونية، إلا أنني عاهدت نفسي ألا أدع الخوف يحرف حياتي عن مسارها. عمل كما هو معتاد. بيد أنني اتفقت مع ريان على نقطة واحدة: إن كان التهديد حقيقياً، فإن كاتي عُرضة للخطر أيضاً.

حاولتُ أن أحذر ابنتي ليلة الاحتفال، إلا أن ردة فعل كاتي تمثل في سخريتها من رسائل البريد الإلكتروني. وعندما ثابرت على تحذيري إياها انزعجت، وقالت إن عملي أصابني بجنون العظمة.

لها من عمرها بضع وعشرون سنة، وصامدة للرصاص، البنت سرُّ أمها.

في جلسة تتسم بالخصوصية والسرية في مكتبي، عرضت وصفاً لصوري، وصور ابنتي، وصور بويد. اعترفت بالذعر الذي انتابني يوم أمس، وبالقلق الذي ما انفك يلازمني اليوم.

تكلم رينالدي أولاً وقال: "أليس لديك فكرة عمَّن عساه يكون هذا الشبح؟".

هززت رأسي وقلت: "ما استطعتُ وريان اكتشافه من معلومات أميركا أون لاين التتبعيّة هو أن الرسائل أرسلت إلى عنواني البريدي في جامعة شارلوت في كارولينا الشمالية عبر بريدين أعيد إرسالهما ثم أحيلا من الجامعة إلى عنواني لدى أميركا أون لاين".

"أكان هذا الجزء الأخير من صنعك أنتِ؟".

"نعم، أنا جعلت كل بريدي الإلكتروني خاضعاً لإعادة توجيه"، هززت رأسي، "ليس في وسعكما مطلقاً تتبع المرسل الأصلي".

قال رينالدي: "يمكن فعل ذلك، لكن ليس الأمر سهلاً".

سأل سليديل: "هل بدأ التقاط الصور صباح يوم الأربعاء؟".

أومأت إيجاباً.

قال سليديل: "ربما التقطت الصور بواسطة كاميرا رقمية، لذلك ليس ثمة سبيل لتتبع آثار بصمات عبر شركة لتحميض الأفلام ومعالجتها".

قال رينالدي: "ومن المحتمل أن تكون المكالمة قد أجريت عبر أحد الهواتف العمومية. هل تريدين منا أن نضعك قيد المراقبة؟".

"هل تعتقد أن لهذا ما يبرره؟".

توقعت منهما ضرباً من عدم المبالاة، ونفاد صبر ربما، لكن، كان صدق استجابتهما مثيراً.

"سنُسَيِّر دوريات حيث تكونين".

"شكراً لكما".

قال سليديل: "ماذا بشأن مكان إقامة ابنتك؟".

تخيلتُ كاتي تتأرجح في أرجوحة على الشرفة الأمامية مسترخية، وغير مدركة لما يجري، ثمّ قلت: "تسيير دوريات مكثفة من أجلها سيكون أمراً جيداً".

"لك ذلك".

عندما ذهبنا، توثقت من السيدة فلورز مرةً أخرى. لم يكن قد وصل فاكس من كاجل. وأكدت لي أنها ستسلم التقرير فور الانتهاء من طباعته.

لدى عودتي إلى مكتبي، حاولت التركيز على الكم المتراكم من البريد والعمل الورقي. بعد ثلاثين دقيقة، رن جرس الهاتف. أوشكت أن أرمي علبة الصودا إلى الأرض وأن أنتزع سماعة الهاتف انتزاعاً.

إنها السيدة فلورز؛ لم يكن فاكس كاجل عن التقرير الخاص بالهيكل العظمي الذي اكتُشِف في لانكستر قد وصل، لكن السجلات الخاصة بأسنان بريان أيكر كانت قد وصلت. فطلب مني الدكتور لارابي أن أحضر إلى غرفة التشريح الرئيسة. وعندما وصلت، كان الفاحص الطبي يرتب الصور الشعاعية في علبتي إضاءة كاشفة، كل مجموعة منها تتألف من اثني عشر فيلماً دقيقاً تظهر أسنان الفكين العلوي والسفلي. وكان جو هوكينز قد أخذ مجموعة واحدة من صور الجمجمة والفك اللذين عُثِر عليهما في دورة المياه، في حين وفر طبيب أسنان بريان أيكر الأخرى.

نظرة واحدة كانت كافيةً، فقال لارابي: "لا أعتقد أننا سنحتاج إلى طبيب أسنان متخصّص بالطب الشرعي من أجل هذه المجموعة".

قلت موافقةً إياه: "لا".

أظهرت صور الأشعة السينية الخاصة ببريان أيكر تيجاناً ودعامات في ضرسين من أضراس الفك العلوي وفي ضرسين من أضراس الفك السفلي، وثمة دليل واضح على عمل أجري على قناة الجذر. لكنّ صور الأشعة السينية للجمجمة التي

عُثِر عليها في دورة المياه لم تُظهِر شيئاً. ولم يصل تقرير والي كاجل يوم الجمعة، ولا حتى يومي السبت والأحد.

كنت أقصد خلال تلك الأيام، مرتين يومياً، مركز الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ، وكنت أتصل مرتين يومياً برقمَي مكتبه وبيته وبرقم هاتفه الخلوي؛ لا ردّ مطلقاً.

كنت أراجع بريدي الإلكتروني مرتين يومياً بحثاً عن صور ممسوحة مسحاً ضوئياً؛ أخبار سيئة وأخبار جيدة: لا يوجد صور من كاجل، لا يوجد صور من الشبح.

أمضيت عطلة نهاية الأسبوع وأنا أتساءل عن عظام لانكستر. إن كانت الجمجمة والبقايا الخلف قحفية (الواقعة خلف مؤخر الرأس) تعود لشخص واحد بعينه، فإنها ليست لبريان أيكر. فلمن عساها تكون؟

هل ذهبت الجمجمة التي عُثِر عليها في دورة المياه حقاً مع هيكل كاجل العظمي؟ لم يَعدُ كونه عندي مجرد حدس فطري، إذ ليس لدي بيانات أكيدة. هل يمكن أن نكون فعلياً إزاء شخصين مجهولي الهوية؟ ماذا حدث لبريان أيكر؟ ماذا حدث لشارلوت غرانت كوب؟

فكرت ملياً أيضاً في المكان المحتمل لوجود تاميلا بانكس وأسرتها. لم يكن أفراد أسرة بانكس أناساً محنكين، فكيف استطاعوا أن يتواروا عن الأنظار ببساطة؟ لماذا كان عليهم أن يفعلوا ذلك؟

قمت بزيارة خاطفة صباح يوم السبت إلى بيت أسرة بانكس، كانت ستائر النوافذ المرنة لا تزال مسدلة، وثمة كومة من الصحف كانت على الشرفة. طرقت الباب وقرعت الجرس مرات عديدة، فلم يُجِب أحد.

كان ريان يتصل بي يومياً عبر الهاتف ويطلعني على حال أخته وابنتها. ولم تكن الأمور في هالفاكس تبعث على التفاؤل.

أخبرت ريان عن موت ريكي دون دورتون، وعن حديثي إلى هيرشي زامزاو بشأن صيد الدببة غير المشروع، وعن فقدان عَميلَي الحياة البرية، وعن النتائج التي توصلت إليها ينسن بشأن الغولدن سيل. وسألني إن كنت قد أعلمت سليديل أو رينالدي برسائل البريد الإلكتروني التي أرسلها إلي الشبح، فأكدت له أنني فعلت،

وأنهما كثّفا دوريات المراقبة من حولي وحول بيت ليجا الريفي.

كنت في كل مرة نقطع الاتصال فيها أرى ملحق البيت قفراً غريباً موحشاً. لقد رحل ريان، وبرحيله رحلت أمتعته، وملابسه، وضحكه، وروائحه، وطبخه. على الرغم من أنه لم يمكث في بيتي إلا زمناً قصيراً، إلا أن حضوره ملأ عليّ المكان. افتقدته واشتقت إليه كثيراً؛ أكثر بكثير مما تخيلت في حياتي كلها أنني سأفعل.

غير ذلك، كنت أشغل نفسي وأمضي الوقت لغير ما غاية؛ أعبث كما كان يحلو لأمي أن تسمي سلوكاً من هذا القبيل؛ أركض وأمشي مع بويد، وأثرثر مع بيردي، وأعتني بشعري، وأزيل من حاجبيَّ الشعر غير المرغوب فيه، وأسقي النباتات. كنت دائمة الاحتراس؛ أنظر حولي وخلفي وأرهف السمع بحثاً عن أصوات غريبة.

يوم السبت، أقنعتني كاتي بحضور سهرة في وقت متأخر من الليل في آموس؛ للاستماع إلى فرقة تطلق على نفسها اسم فرقة عطلة نهاية الأسبوع (Weekend Excursion). كانت الفرقة آسرة، وشائقة، وموهوبة، وقوية بما فيه الكفاية لجعل الناس يسعون إلى الصحارى للإصغاء إلى مؤشرات تؤكّد وجود حياة في الفضاء. في لحظة بذاتها صرخت في أذن كاتي طارحة عليها سؤالاً: "أما من أحد يرقص؟".

"قد يفعل عدد قليل من المهووسين".

جالت في خاطري أغنية فرقة آبا (ABBA) القديمة **ملكة الرقص** (Dancing Queen)؛ الأزمنة تتغير.

بعد أن فرغنا من سهرة آموس، احتسينا شيئاً من الشراب في مشرب قريب اسمه غيل ميل. طلبت أنا شراباً هو مزيج من البيرة واللايم، في حين طلبت كاتي شيئاً آخر. لقد أضحت ابنتي، بالتأكيد، فتاةً كبيرةً الآن.

يوم الأحد، اعتنت كل منا بأظافر يدي وقدمي الأخرى وتدريمها وطلائها، ثم لعبنا الغولف في نادي كرمل كونتري.

كانت كاتي نجمةً في فريق كرمل للسباحة، وقد بلغت الأدوار نصف النهائية في سباقات السباحة الحرة حين كانت في الرابعة من عمرها. ترعرعت في ملاعب غولف نادي الكرمل وملاعب التنس فيه، وفيه كانت تتصيد بيض الفصح، وعلى

مروجه الخضراء كانت تشاهد الألعاب النارية التي كانت تطلق في الرابع من تموز/ يوليو.

كنتُ وبيت نستمتع استمتاعاً بالغاً في الولائم التي كانت تولم في نادي الكرمل، ونرقص تعتلينا كرات الزينة التي كانت تتدلى في رأس السنة، ونحتسي الشراب، وتثير إعجابنا المنحوتات الجليدية. انعقدت كثير من صداقاتنا الأكثر حميميةً في ذاك النادي.

على الرغم من أنني بقيت من الناحية القانونية متزوجة، وبقائي كذلك يخولني حقّ استخدام مرافق النادي، فقد كان وجودي في ذلك المكان يشعرني بأنني غريبة، كأنني بذلك أزور مكاناً تكتنفه ذكرى ضبابية. كان الناس الذين رأيتهم وكأنني رأيتهم في حلم، فقد كانوا مألوفين وغير مألوفين في آن معاً.

تلك الليلة طلبتُ وكاتي البيتزا وشاهدنا فيلم **واجه أولياء الأمور** (Meet the Parents). لم أسأل إن كان اختيارها للفيلم ينطوي على مغزى أو إن كان له دلالة. ثم إنني لم أستعلم عن المكان الذي يمضي فيه بالمر كُرنز عطلة نهاية الأسبوع.

صباح الاثنين، نهضت من نومي باكراً وراجعت بريدي الإلكتروني؛ لم أتلقَّ بعد صوراً من كاجل أو رسائل من الشبح.

بعد أن اصطحبت بويد في جولة حول المجمع السكني المحيط بمنزلي، توجهت إلى مركز الفحص الطبي في مكلنبورغ وأنا على ثقة تامة بأن تقرير كاجل سيكون على مكتبي؛ لا يوجد فاكس.

عند الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين اتصلت بكاجل أربع مرات عبر كل رقم من أرقام هواتفه؛ لا يزال البروفسور ممتنعاً عن الرد.

عندما رن جرس الهاتف عند الساعة العاشرة، أوشك جسدي أن يندفع خارجاً من جلدي.

"أعتقد أنك قد سمعت".

"سمعت ماذا؟".

استشعر سليديل خيبة أملي من صوتي، وقال: "ماذا؟ أكنتِ تتوقعين مكالمة من ستينغ؟".

"كنت آمل أن يكون المتصل والي كاجل".

"ألا تزالين تنتظرين ذاك التقرير؟".

"نعـم"، لولبـت شـريط سـماعة الهاتـف حول إصبعي، "إنه لأمـر غريب؛ قال كاجل إنه سيرسل الفاكس يوم الخميس".

"والتر؟"، سحب سليديل الاسم سحباً فجعل نطقه يستغرق ثلاثة مقاطع.

"كان ذلك منذ أربعة أيام".

سمعت صوت الكرسي الذي يجلس عليه سليديل يئن تحت وطأة ثقَلِ ردفيه.

"إن كان أيكر في الخارج، فماذا عن الشخص الآخر؟".

"خيمة مختلفة".

"ماذا؟".

"لقد كان عميل قسم خدمة الأسماك والحياة البرية الآخر أنثى".

"لعلك أخطأتِ في تصنيف العظام".

"هذا ممكن بالنسبة إلى البقايا التي عُثِر عليها في دورة المياه، إلا أنه لا يصح بالنسبة إلى الهيكل العظمي الذي عُثِر عليه في لانكستر".

"ما سبب ذلك؟".

"أرسـل كاجل عيِّنة من العظم؛ لإجراء اختبار الحمض النووي عليها. وتبين أن الأملوغنين لذكر".

"ها نحن نعود مرة أخرى. الفنون السوداء".

تركته يصغي إلى الصمت بعض الوقت، ثمّ قال: "ألا تزالين على السمع؟".

"هل ترغب في أن أشرح لك معنى كلمة أملوغنين (Amelogenin)، أم تفضل أن تبقى في القرن التاسع عشر؟".

"اختصري".

"هل سمعت بالحمض النووي؟".

"لست كليَّ البلاهة".

هذا أمر مشكوك فيه.

"أملوغنين في الواقع موضع لبّ السن (نسيج يملأ تجويف السن)".

"موضع؟".

"مكان من جزَيء الحمض النووي يرمز إلى سمة بعينها".

"أسألك بحق الله، ما علاقة لب السن بالجنس؟".

"لا شيء. لكن عند الإناث، يحتوي الجانب الأيسر من المورثة (الجينة) على انشطاب صغير للحمض النووي غير الأساسي، وينتج منتجاً أقصر لدى تكبيره".

"هكذا يظهر موضع لب السن اختلاف الطول بين الجنسين".

"بالتحديد"، لم أصدق أن سليديل استوعب هذا الأمر بهذه السرعة الفائقة.

"هل تفهم كروموزومات الجنس؟".

"لدى الفتيات صبغيان سينيان، ولدى الفتيان صبغي سيني وآخر صادي".

تابعت الشرح: "عندما تحلل منطقة موضع لب السن (Amelogenin)، تظهر لدى الأنثى عصابة واحدة كونها تمتلك صبغيين سينيين. في حين يظهر لدى الذكر عصابتان، إحداهما لها حجم عصابة الأنثى والأخرى أكبر منها قليلاً؛ لأن للذكر صبغيين أحدهما سيني والآخر صادي".

"وقد ثبت أن العظام الموجودة في حوزة كاجل تعود لذكر".

"نعم".

"والجمجمة التي في حوزتك تعود لذكر".

"ربما".

"ربما؟".

"لدي شعوري الداخلي بأنها كذلك. لكن لا يوجد شيء نهائي حيال هذا الأمر".

"في ما يتعلق بالجنس".

"في ما يتعلق بالجنس".

"لكنها ليست لأيكر".

"ليست له إن نحن حصلنا على سجلات الأسنان الصحيحة".

"لكن يمكن أن يكون الهيكل العظمي له".

"لن يكون له إن هو توافق مع الجمجمة التي عثرنا عليها في دورة المياه".

"وأنت تعتقدين أنه يتوافق معها".

"يبدو أنه يتوافق معها. إلا أنني لم أطّلع على الصور أو العظام الأصلية".

"ألا تعتقدين بوجود سبب ما يحتمل أن يكون قد حمل كاجل على تغيير رأيه، فشرع في تجنب الرد على مكالماتك؟".

"كان متعاوناً جداً عندما تحدثنا".

كان الصمت الذي طغى على الاتصال هذه المرة من اختيار سليديل، ثمّ قال بعد برهةٍ: "أتغامرين بالذهاب في رحلة صغيرة بالسيارة إلى كولومبيا؟".

"سأكون بانتظارك عند السُّلم".

24

بعـد خمـس عشـرة دقيقـة مـن مغادرتنا مركـز الفحص الطبي في مكلنبورغ، قصدتُ وسـليديل كارولينا الجنوبية، وقد انتشـرت على جانبي الطريق آي 77 في غير ما نظام أو اتسـاق محالّ تجارية، ومطاعم، وأماكن ترفيهية تبيع سـلعها وتقدم خدماتها بأسـعار هي الأرخص مقارنةً بمثيلاتها في مكان آخر. وتعد هذه المنطقة نسخة كارولينا من نوغاليس أو تيخوانا.

كاروويند في باراماونت. منافذ بيع بأسـعار رخيصة، مشـروبات فروغال ماك دوغـلاس بأسـعار مخفضـة. كانت الولايـات المتحدة الأميركيـة التراثية ذات يوم، التي هُجِرت الآن، مكاناً لتمضية أيام العطلات، ولشراء ملابس رخيصة الثمن من المحال الواقعة على جانبي الطريق منخفضةً عن مستواه.

خطط رينالدي للقيام برحلة استقصائية إلى سـيند فيل، تينيسـي لجمع بعض المعلومات عن ريكي دون دورتون وجايسـون جاك ويات. وخطط رينالدي أيضاً لجمع بعض المعلومات الأساسية عن الطيار، هارفي بيرس، وكان عازماً على إجراء محادثة ذات مغزى مع سوني باوندر.

قفلت ينسن عائدةً إلى ميامي.

اقتصد سليديل في كلامه مذ أقلني بسيارته، مفضلاً الإصغاء إلى قرقعة مذياع سيارته على الاستماع إلى صوتي. سـاورني شـك في أن بروده ناجم عن كرهي الشديد للفكاهات التي تتخذ من الأمور الجنسية موضوعاً لها.

من جانبي، أقول حسناً فعلت يا سكيني.

بعـد مضـي وقـت قصير شـرعت الطريق تتلوى بنا وتتثنـى ذات اليمين وذات الشـمال بين تلال تكسـوها غابات من أشـجار الكودزو الكثيفة المعترشـة. ناوب سليديل بين النقر على مقود السيارة والتربيت على جيب قميصه. كنت أعرف أنه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بحاجة إلى نيكوتين، لكنني أحتاج الأوكسجين. رفضت منحه إذناً بإشعال شيء يدخنه على الرغم من تنحنحه وتنهده ونقره وتربيته الكثير.

تجاوزنا المخارج التي تفضي إلى فورت ميل وروك هيل، ثم تجاوزنا لاحقاً الطريق السريعة 9 التي تفضي شرقاً إلى لانكستر. فكرت في الهيكل العظمي منزوع الرأس الموجود في حوزة كاجل، وتساءلت: ترى ماذا سنجد في مختبره؟

فكرت أيضاً في آندرو ريان، وفي أوقات أمضيناها معاً نعمل في مسرح جريمة مُنقبين بين الركام والنفايات، وفي أماكن خَرِبةٍ وقذرة بحثاً عن جثة. بين سليديل وريان، مع من تراني، أفضل العمل؟

مقر جامعة كارولينا الجنوبية الرئيس قائم في مركز عاصمة الولاية، وتتشعّب منه ثمانية فروع لكل منها حرمه الجامعي. ربما كان مؤسسو ولاية البالميتو يرهبون الغرباء أو يكرهونهم، ربما كانت قدراتهم المالية محدودة، ربما كانوا ببساطة يفضلون تعليم أبنائهم في عقر دارهم.

أو ربما توقعوا أن تنعقد طقوس احتفال الباخوسيين بحلول الربيع في ميرتل بيتش، فحاولوا - عبر العصور - أن يكبحوا جماح نوع مختلف جداً من الزيارة.

في كولومبيا، سلك سليديل طريق بل ستريت وانعطف شمالاً عند طرف الحرم الجامعي. عندما فشل في العثور على موقف للسيارة في المكان المخصص للزوار، انسحب وركنها في المكان المخصص لسيارات أعضاء الهيئة التدريسية.

قال سليديل، وهو يضع مفاتيح السيارة في جيبه: "سينظم أحد الراسخين في العلم والثقافة مخالفة؛ لأنني ركنت السيارة حيث لا ينبغي لي أن أركنها. هل تعرفين يا دكتورة ماذا سأقول له؟".

على الرغم من أنني لم أبدِ اهتماماً، فقد تابع سليديل حديثه قائلاً: "سأسمعه من الكلام ما يكره".

كان الخروج من برج الثور قاسياً؛ كانت الشمس شديدة الاتقاد، وكانت الأرض تميد تحت أقدامنا حين كنا نعبر شارع بدلتون. تدلت الأغصان فوق رأسينا

ساكنةً كأنها حفاضات أطفال رطبة معلقة على حبال غسيل في يوم سكنت الرياح فيه.

تقع مرافق قسم الأنثروبولوجيا التابع لجامعة كارولينا الجنوبية في صحن مبنى يسمى كلية هاملتون. شُيِّد البناء عام 1943 لتحفيز المجهود الحربي، ويبدو مبنى هاملتون الآن كما لو أن في وسعه أن يستعمل شيئاً من تحفيزه الذاتي.

دخلتُ وسليديل إلى المكتب الإداري وقدمنا نفسينا إلى موظفة الاستقبال. مبعدةً نظرها عن شاشة الحاسوب، حيتنا المرأة بنظرة من عينيها خلف نظارة من نوع دام إدنا. كانت في العقد الخامس من عمرها وعلى جبهتها طفح جلدي توتي اللون يشبه الفطر، وقد تكدس شعرها فوق رأسها عالياً.

طلب سليديل مقابلة كاجل، فأعلمته موظفة الاستقبال أنه غير موجود.

متى رأته آخر مرة؟

كان ذلك منذ أسبوع، يوم الجمعة.

هل كان كاجل موجوداً في الحرم الجامعي منذ ذلك الوقت؟

هذا ممكن، على الرغم من أنهما لم يلتقيا منذ ذلك الوقت.

سأل سليديل عن موقع مكتب كاجل.

الطابق الثالث. الدخول إلى المكتب مستحيل من دون إذن خطي.

سأل سليديل عن موقع مختبر كاجل.

الطابق الثاني. أعادت موظفة الاستقبال التركيز على نقطة الإذن الخطي.

أبرز سليديل الشارة التي تثبت أنه رجل أمن.

تفحصت موظفة الاستقبال شارة سليديل، وكان أحمر الشفاه يزحف نحو التجاعيد ويشع من شفتيها اللتين أطبقتهما إطباقاً محكماً. لو أنها لاحظت وجود كلمتي "شارلوت؛ مكلنبورغ"، لما تركتنا نمضي في عملنا. استدارت قليلاً، وطلبت رقم هاتف، ثم انتظرت، ثم قطعت الاتصال، وطلبت رقم هاتف آخر، وانتظرت مجدّداً، ثم علقت الاتصال. نهضت وهي تتنهد تنهداً مسرحياً، ومشت نحو خزانة أدراج معدة لتصنيف ملفات، وفتحت الدرج العلوي، وأخرجت واحداً من عشرات المفاتيح، ودققت في ما كتب على البطاقة المرفقة به.

تقدمتنا في السير خطوات عدة لتقلل من فرصة الحديث إلينا، وقادتنا مضيفتنا

إلى الطابق الثاني عبر ممر مسقوف، ومروراً بمحاذاة ركن إلى باب خشبي فيه نافذة مزودة بزجاج مبرغل. ثمة لوحة مثبتة على الزجاج كتب عليها بخط أسود عريض:
مختبر تحديد الهويات البشرية.

قالت موظفة الاستقبال، وهي تمرر إبهامها جيئة وذهاباً على البطاقة المرفقة بالمفتاح: "إلامَ تحتاجان بالتحديد؟".

قلت: "وعدني الدكتور كاجل يوم الخميس الماضي أن يرسل إليّ تقريراً عن حالة وصوراً، ولم أستلمها. لا أستطيع الوصول إليه عبر الهاتف، والأمر مُلِحٌّ جداً".

"يمضي الدكتور كاجل وقته في عمل ميداني طيلة فصل الصيف، ولا يأتي إلى المكتب إلا في أيام عطلة نهاية الأسبوع. أواثقة أنه كان ينوي القيام بذلك من فوره؟".

"بالتأكيد".

ثمة ثنيتان اثنتان جعدتا الطفح الجلدي توتي اللون في جبهتها؛ قالت: "الرجل محل ثقة كبيرة جداً، وفي وسع المرء أن يتوقع سلوكه لشدة التزامه بما يعد به".

حَدَّبت موظفة الاستقبال جسدها كله عندما أدارت المفتاح كأنما أرادت الإيحاء بحركة معصمها بأن ثمة اختراقاً أمنياً من الممكن أن يتشكل. دفعت، وهي تعتدل في وقفتها، الباب نحو الداخل، وأشارت إليّ محذرةً تحذيراً صارماً: "لا تفسدي ترتيب أي من أشياء الدكتور كاجل"، قالت أسياء بدلاً من أشياء، "بعضها دليل شرطة رسمي".

كما قالت سرطة بدلاً من شرطة.

قلت: "سنكون حذرَين جداً".

"راجعاني قبل أن تخرجا".

رمقت موظفة الاستقبال كلاً منا بنظرة حادة قبل أن تسير عبر الممر.

قال سليديل، وهو يتجاوزني داخلاً إلى الغرفة عبر الباب المفتوح: "ساقطة فقدت عملها في الكفالة الاجتماعية".

كان مختبر كاجل نسخة أقدم عهداً من مختبري في كارولينا الشمالية. إنه

أمتن بنياناً من مختبري، فهو مجهز ببلاط ورخام، في حين أن مختبري مجهز ببلاستيك ومعدن مطلي.

أجريت مسحاً سريعاً؛ طاولات عمل، مصارف مياه، مجاهر، علب إضاءة، منضدة نسخ، جهاز تهوية، هيكل عظمي معلق، ثلاجة، حاسوب.

مال سليديل برأسه نحو جدار تغطيه من الأرض حتى السقف خزائن وقال: "ما المخبأ في هذه الخزائن المقفلة في اعتقادك؟".

"عظام".

"يا الله!".

بينما كان سليديل يتفحص بدقة أدراج الخزائن المفتوحة، تفحصت أنا مكتب الغرفة الوحيد الذي خلا سطحه إلا من دفتر مسوّدة. ثمة درج ملفات إلى اليسار فيه وثائق من نماذج مختلفة ومتنوعة: أوراق مسح آثاري، أوراق جرد خاصة بالدفن، أوراق فارغة معدة كي تدون عليها خصائص العظام، وثائق طلبات استرداد خطية سمعية بصرية. وضم الدرج الأوسط الطويل تشكيلة الأقلام المعتادة، ومسيمرات ذات رؤوس بلاستيكية، ومشابك ورق، وربطات مطاطية، وأختاماً، وقطع نقد معدنية.

لا شيء غير عادي؛ إلا أن كل شيء كان منظماً ومرتباً في علب منفصلة، وفتحات، ومنافذ، وقد أرفق كل شيء ببطاقة تثبت عليه ودُوّن عليها ما يعرفه، وكانت الأشياء كلها نظيفة جداً. وقد رتبت كل المحتويات في مواضعها بدقة هندسية.

قال سليديل وهو يسير خلفي: "موسوس تافه قليل الشأن".

دققت في الدرجين إلى جهة اليمين: قرطاسية، مغلفات، ورق طابعة، قصاصات تصنيف ورقية، أوراق تدوين ملحوظات؛ اللوازم العادية ذاتها...

سأل سليديل: "هل يبدو مكتبك مثل هذا؟".

"لا، وجدت ذات مرة سمكة ذهبية صغيرة ميتة في درج مكتبي. حُلَّ لغز اختفائها في الربيع الماضي".

"لا يبدو مكتبي شبيهاً بهذا بالتأكيد".

كوني متآلفة مع سيارة سليديل، لم أكن راغبة في تصور هيئة مكتبه.

"هل ثمة مؤشر على وجود التقرير؟". هززت رأسي نفياً.

انتقل سليديل نحو أدراج المكتب السفلية، في حين بدأت أبحث في خزائن الملفات الموجودة إلى يسار المكتب؛ ضم أحد الملفات مواد صفية، وكان آخر غاصاً بوثائق تقارير خاصة بالطب الشرعي.

بنغو!

عبر الغرفة، صفق سليديل صفقاً عنيفاً الإطار الحامل لأحد الأدراج، وقال: "يتعين علي أن أحصل على بعض الهواء كي أتنفس".

"جميل".

لم أقل شيئاً عن الملفات. أن يذهب سليديل ليدخن في الخارج خير لي من أن يبقى ويتنفس في وجهي.

كانت الملفات مرتبة ترتيباً زمنياً. ثلاثة وعشرون ملفاً تعود إلى العام الذي فحص فيه سليديل هيكل لانكستر العظمي. وجدت ملفين يعودان إلى الشهر الموافق، لكن لا شيء عن الجثة مقطوعة الرأس.

راجعت السنوات السابقة واللاحقة، ثم أجريت مسحاً لكل بطاقة مرفقة بكل ملف تبين محتوياته؛ ولم يكن التقرير موجوداً.

عاد سليديل بعد عشر دقائق؛ كانت تفوح منه رائحة جِمالٍ، وتفوح رائحة عرق تحت إبطيه، ورائحة عرق ممزوجة برائحة كريم وضعه على شعره.

قلت: "عثرت على ملفات كاجل المتعلقة بالقضايا".

"أوه، نعم؟"، اتكأ سليديل على مكان يعلوني، ورائحة الدخان تفوح من أنفاسه.

قلت: "تقرير لانكستر غير موجود بينها".

سأل سليديل: "هل في وسعنا الافتراض أن والي وضعه في غير مكانه؟".

"لا يبدو هذا وارداً، لكن، تابع البحث".

عاد سليديل إلى صفق الأدراج صفقاً عنيفاً، وعدت إلى طاولة المكتب وأجريت مسحاً للوحة البيانات. شأنه شأن السيدة فلورز، كان والي كاجل مصراً على ترك مسافات متساوية الأبعاد وزوايا قائمة: بطاقة بريدية مرسلة من شخص يدعى جين، صور بولارويد التقطت في موقع تنقيب عن الآثار، ثلاث صور لقِطَّةٍ،

مطبوعة عليها أسماء متبوعة بأرقام تحويلات هاتفية رباعية في جامعة.

وسط لوحة البيانات لائحة مهام مكتوبة بخط اليد يليها عمود تواريخ، وقد شطبت منها المهام التي يتعين العمل عليها حتى يوم الخميس دلالةً على إنجازها.

قلت: "انظر إلى هذا".

انضم إلي سليديل عند طاولة المكتب، وأشرت إلى بند بين مهام كاجل غير المكتملة: **سحب صور وكتابة تقرير من أجل برينان.**

"هل يستخدم المسطرة لتشطيب ما يريد تشطيبه من الأشياء؟ يا له من رجل... يتقن عمله".

"ليست هذه هي النقطة المهمة. على الرغم من أن موظفة الاستقبال لم تره، فقد كان كاجل هنا يوم الخميس. هل حقيقة عدم تشطيب البند تعني أنه لم يسحب الملف قط؟ أم أنه سحبه، ثم نسي؟".

"يبدو أن والي لم يسقط أمراً قط من دون الإشارة إليه إشارة تفصيلية وتشطيبه".

"ربما اعترضه أمر حال دون إتمامه عمله".

"ربما".

"من المحتمل أن يكون شخص آخر قد أخذ الملف".

قال سليديل وقد خامر صوته شك: "من؟".

"لا أعرف".

"من يعرف حتى إن الشيء اللعين موجود؟".

رددت عليه بحدة ونزق إذ أثار موقف سليديل غيظي: "قرأ أحد طلاب كاجل في الدراسات العليا أجزاء لكاجل عبر الهاتف".

"من المحتمل أن يكون كاجل قد أخذ مادة التقرير إلى حاسوب المنزل".

"ربما".

"لكنه لم يرسل إليك التقرير قط".

حسناً، سكيني. انضح بما فيك.

"أو الصور".

"لا شيء".

"إذاً، أين هي بحق الله؟".
"سؤال ينم على ذكاء وفطنة".
"وأين هو بحق الله البروفسور الطيب؟".
"وسؤال آخر ينم على فطنة وذكاء".
بدأ ينتابني شعور سيئ حيال سلامة كاجل.
انخفضت نظرتي المحدقة نحو الحاسوب وماسحته الضوئية المسطحة. شاهدني سليديل وأنا أضغط زر التشغيل. وبينما كانت تُظهر وحدة المعالجة المركزية عبر شاشة الحاسوب أن الجهاز مقفل، ظهرت موظفة الاستقبال التكساسية عبر مدخل الباب صارخةً: "ما تظنين أنكِ فاعلة؟".
"وجدت ملفات القضايا لدى الدكتور كاجل وراجعتها، إلا أن الملف الذي أبحث عنه مفقود".
"وهل تعتقدين أنك، لهذا السبب، عازمة على استخدام حاسوبه الخاص؟".
"قد نكتشف من خلال حاسوبه إن كانت الصور قد مسحت ضوئياً".
أصدرت شاشة الحاسوب وميضاً وطلبت إدخال كلمة السر، فسألت موظفة الاستقبال: "هل لديك كلمة السر؟".
"أنا لا أعطيها لأحد مطلقاً"، قالت ذلك كما لو أنني طلبت منها أن تعطيني الرقم السري لحسابها المصرفي، "إضافة إلى ذلك، أنا لا أعرفها".
"هل ثمة شخص آخر يستخدم الحاسوب؟".
"جين رودين".
"هل هو طالب الدكتور كاجل في الدراسات العليا؟".
أومأت موظفة الاستقبال إيجاباً من دون أن تتحرك فيها شعرة، ثم قالت: "جين في إجازة يمضيها في فلوريدا وتستمر حتى نهاية الفصل الدراسي الذي يبدأ مطلع الخريف. غادر يوم الجمعة"، امتدت إصبع طويلة مطلية بطلاء جعلها تلمع وأشارت إلى الحاسوب، "لكن الماسحة الضوئية لا تعمل. لدي طلب إصلاح موجه إلى قسم خدمات الحاسوب منذ أسبوعين على الأقل".
تبادلتُ وسليديل النظرات؛ ماذا الآن؟
سألتها: "هل طلب الدكتور كاجل منك أن ترسلي أي فاكسات الأسبوع

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفائت؟".

اختفت اليدان بين الذراعين المطويتين على الصدر، واهتزت ورك، وتقدمت قدم واحدة تنتعل صندلاً إلى الأمام؛ كانت أظافر القدمين مطلية بلون أحمر لامع شأنها شأن أظافر اليدين؛ وقالت: "سبق لي أن أخبرتك، لم أرَ الدكتور كاجل الأسبوع الفائت. وفضلاً عن ذلك، هل تعلمين عدد أعضاء هيئة التدريس الذين أعد مسؤولة عنهم؟ أو كم هو عدد طلاب الدراسات العليا ومن هم في سنة التخرج وبائعي الكتب والزوار وسواهم ممن يتقاطرون إلى مكتبي؟"، خمنت أننا قد وقعنا تحت وطأة الترويسة التي تستخدمها في حديثها سواهم، "عملي ضرب من الجنون، فأنا أوفر نصف أعمال المشورة الطالبية هنا".

قلت: "لا يمكن أن يكون هذا سهلاً".

"الاهتمام بفاكسات أعضاء هيئة التدريس غير منصوص عليه ضمن مهام عملي".

"لا بد من أنك تستقبلين كثيراً من الزوار".

"نتلقى نصيبنا".

"هل تلقى الدكتور كاجل اتصالات هاتفية من متصلين غير اعتياديين الأسبوع الفائت؟".

"ليس من شأني أن أتحدث في هذا الأمر".

ما معنى هذا بحق الله؟

"هل استقبل الدكتور كاجل أي زوار الأسبوع الماضي؟".

توقفت عن الكلام زمناً طويلاً في حين كانت تختار كلماتها، ثمّ قالت: "قد لا أتفق مع الدكتور كاجل في نمط حياته الذي اختاره. لكنه رجل جيد، وأنا لا أسأل عن ارتباطاته".

سأل سليديل بأسلوب خشن: "هل أتى أحد لمقابلة كاجل؟".

ارتفع أحد حاجبي السكرتيرة وقالت: "ليس بك حاجة إلى أن تكون نكداً رديء الطبع أيها المخبر"، ثمّ أومأت إيجاباً.

فغر سليديل فاه، ما حال دون أن يقول شيئاً.

"ألم تتعرّفي إلى زائر الدكتور كاجل؟"، أومأت موظفة الاستقبال نفياً.

"ماذا كان يريد؟".

"سأل الرجل عن الدكتور كاجل، وأعلمته أن البروفسور خارج البلدة"، هزت موظفة الاستقبال كتفاً واحدة منمشة استخفافاً، "غادر".

قال سليديل: "هل في وسعك أن تصفي الرجل؟".

"قصير القامة، أسود الشعر كثيفه، كثيف جداً ولامع".

"كم عمره؟".

"لم يكن في مقتبل العمر. هذا ما أقوله لك".

قال سليديل بنبرة حادة: "أكان يضع نظارة؟ هل كان حليق الذقن؟".

"كُفَّ عن استخدام الأسلوب الجاف معي، أيها المخبر".

أرخت موظفة الاستقبال ذراعيها وأزالت بيدها عن تنورتها بقعةً لا وجود لها، كان هذا أسلوبها الرامي إلى التخفيف من حدة أسئلة سليديل الاستجوابية، وقالت: "لا شارب ولا لحية، لا شيء من ذاك القبيل".

سألتها: "هل في وسعك أن تتذكري أي شيء آخر عن الرجل؟".

"كان يضع نظارة شمسية غريبة، لذلك لم أتمكن من رؤية عينيه".

حملق سليديل في وجهها غاضباً وقال: "ماذا رأيت عندما نظرت إلى وجهه؟".

صفقت موظفة الاستقبال سطح المكتب بمفتاح وقالت: "نفسي. هذا مفتاح خزائن الحائط. راجعاني لدى مغادرتكما المبنى".

أمضيتُ وسليديل الدقائق الأربعين اللاحقة نفتش في كل رفٍّ، ودرج، وخزانة لم نكن قد فتشناها في المكان. لم نعثر على شيء ذي صلة بقضية لانكستر، ولا على شيء يشير إلى المكان الذي ذهب إليه كاجل.

عدت إلى طاولة المكتب محبطةً، ومرّرت، دونما جدوى، رؤوس أصابعي تحت الحافة البلاستيكية لدفتر المسوّدة؛ لا شيء.

رفعت إحدى الزوايا وبحثت تحتها. كان ثمة بطاقة واحدة تحت دفتر المسوّدة على المكتب، فالتقطها؛ كان الشعار شبيهاً بشارة شرطة. كنت على وشك قراءة المعلومات المطبوعة عندما ظهرت موظفة الاستقبال في مدخل الباب مجدّداً، وكادت أنفاسها أن تنقطع بسبب اعتلائها درجات السلم بسرعة كبيرة قائلة: "لقد تحدثت لتوي مع رفيق الدكتور كاجل في السكن"، كانت يد مرتعشة تُرَوِّحُ الهواء

أمام وجهها، "الدكتور كاجل في وحدة العناية المركزة يتلقى تنفساً اصطناعياً".

واضعةً ذراعيها كلتيهما على صدرها، نقلت موظفة الاستقبال طرفها مني إلى سليديل، ثم إلي مجدّداً، وقد اتسعت حدقتا عينيها اللتين تؤطرهما المسكرة رعباً وهلعاً.

"يا الله! لا يعتقد الأطباء أنه سيمكث بين الأحياء اليوم".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

25

كان كاجل يقيم في فيلا قرميدية صغيرة مجاورة لفيلات قرميدية صغيرة، وهي تبعد مسافة قصيرة بالسيارة عن كلية هاملتون. كان خشب المبنى مطلياً باللون الأرجواني، ويوجد في شرفة المنزل الأمامية أربعة كراسٍ قائمة المساند أرجوانية اللون وُضعت بمحاذاة بعضها بعضاً بدقة بلغت حدّ الكمال. كان العشب مجزوزاً من كل جانب من جوانبه بدقة عسكرية. وكانت أغصان شجرة بلوط معمرة تظلل النصف الأيمن من البيت، وقد زحفت جذورها تحت الأرض كأنها أصابع عملاقة متمعجة تتشبث في الأرض طلباً للمساندة. وتكثفت نباتات حولية زاهية الألوان عبر الممشى وحول الأعمدة التي تقوم عليها الشرفة. بينما كنا ندنو من المنزل، كانت رائحة أزهار البتونيا، والزهور المخملية تعطر الهواء الحار والرطب بعبقها.

بينما كنا نصعد درجات السلم، ضغط سليديل حاملاً معدنياً أخضر اللون معلقاً على البيت بإبهامه. وكان شخص ما قد لف خرطوم مياه الحديقة حلقات متطابقة تماماً.

"أحسب أننا في المكان الصحيح".

استُجيبَ لقرع الجرس في ثوانٍ. كان الرجل أصغر سناً مما كنت أتوقع، وشعره أسود مدهوناً بجل، ومرفوعاً، ومجموعاً عند الجبهة بعصابة مطاطية مرنة. أظنه في منتصف العقد الثالث من عمره، ويزن مئة وأربعين باونداً.

"ألستما الشرطيّين القادمين من شارلوت؟".

من دون أن يكلّف نفسه عناء تصحيح اعتقاده، أبرز سليديل شارته.

"لورانس لوبير". تراجع لوبير إلى الوراء، "تفضلا بالدخول".

دخلنا بهواً صغيراً إلى اليسار منه مشعاع مغطى، وأمامنا ثمة أبواب خشبية منزلقة، وإلى اليمين ممر عقدي مقنطر. تقدمنا لوبير عبر الممر المقنطر إلى غرفة

المعيشة التي كانت أرضيتها مكسوةً بخشب بلوط لامع ومصقول، وقد وُضع عليها سجاد وأُثِّث بأثاث بوتري بارن. وقد تدلّت من السقف فوق رؤوسنا مروحة خشبية تدور دوراناً بطيئاً.

مد لوبير لنا يداً مُدَرَّمة الأظفار قائلاً: "تفضلا بالجلوس. هل لي أن أقدم لأي منكما شراباً بارداً؟".

جلستُ وسليديل على طرفي أريكة. كانت تفوح في الغرفة رائحة أزهار اصطناعية يطلقها جهاز معطر جوّ متصل بمقبس كهربائي.

رفع لوبير مسند قدمين من الأرض، وأسنده إلى الجدار، ونظر إلى الترتيب، ثم أعاد وضع المسند وفق ترتيب جديد.

إلى جانبي سمعت سليديل يزفر عبر شفتيه، فنظرتُ إليه نظرة تحذير.

استعيدت الطاقة الحيوية المنزلية التي تعرف بالفنغ شوي، لقد عاد لوبير وجلس على كرسي مقابل لنا.

"واو! أنا لا أروق لدولوريس. أعتقد أن لها الحق في ذلك".

قال سليديل: "إنها ملكة الجمال الجنوبية في الجامعة".

"كان عليّ أن أتصل بها هاتفياً بعد انهيار والي، لكن..."، ثنى لوبير أحد كاحليه مصدراً طقطقة خفيفة، "لم أتصل".

قال سليديل، وقد طغت على صوته حدته المعهودة: "وما سبب ذلك؟".

"لا أحب دولوريس".

"وما سبب ذلك؟".

نظر لوبير إلى عيني سليديل مباشرةً، وقال: "إنها لا تحبني"، طقطق كاحل قدمه مراتٍ عديدةً، "ولا يريد والي مطلقاً أن يعلم أحد بحاله عندما لا يكون على خير ما يرام. إنه..."، تردد لوبير ثمّ قال: "يشتكي من مشكلات صحية"، بوب. بوب. بوب، "يحب الرجل أن يبقى وضعه الصحي قيد الكتمان، لذلك لم أعلن عن إصابته بوعكة صحية".

"أعتقد أنه يفضل أن تسير الأمور على ذاك النحو".

بوب. بوب.

"لكن عندما حضرتما واتصلت دولوريس بي، حسناً، لم أستطع أنا أن أكذب

حيال الأمر"، كرر لوبير لفظ كلمة **أنا** أربع مرات، "لأنه لا جدوى والحالة تلك من الكذب".

قلت: "قل لنا، من فضلك، ماذا حدث".

"ليس لديّ الكثير لأقوله، أتيت إلى المنزل يوم الخميس ليلاً فوجدت والي ملقى على أرض الحمام متلوياً"، ارتفعت يد وأشارت إصبع عبر ممرٍّ ثانٍ إلى زوايا عند يمين المدخل الذي دخلنا عبره غرفة المعيشة، "في ذلك المكان. كان يعاني مشكلات تنفس وكان وجهه متورداً بسبب ما يعانيه، وكاد لا يقوى على الكلام، إلا أنني استطعت أن أفهم منه أنه يعاني ضيقاً في صدره؛ الأمر الذي أفزعني إلى أبعد حدٍّ. واستطعت أن ألاحظ أنه كان قد تقيأ".

ارتعشت اليد في طريقها إلى صدر لوبير، وتابع: "أخذته إلى السيارة، واسمحا لي أن أخبركما أنه لم يكن ذلك سهلاً حيث كانت ساقاه ترتعشان وكان يئن قائلاً إنه أوشك أن يموت".

تساءلت: لِمَ لم يتصل لوبير بالإسعاف؟ لكنني لم أسأله.

"عندما وصلنا إلى غرفة الطوارئ، كان قد توقف عن التنفس".

انتظرنا لوبير كي يستأنف كلامه، لكنه لم يفعل. فسألته وأنا أحثه على الكلام: "هل أعطوه هواء عن طريق جهاز التنفس الصناعي؟".

"نعم، بدأ والي يتنفس من تلقاء ذاته لكنه لم يستيقظ؛ ولم يستيقظ حتى الآن".

سألته بشيء من الرفق واللين: "هل كانت أزمة قلبية؟".

"أعتقد ذلك. لم يرد الأطباء في الحقيقة أن يكشفوا لي عن كثير من الأمر"، بوب. بوب، "أنا لست من أسرته، وأنت تعرفين ذلك".

كانت المروحة فوق رؤوسنا تطن طنيناً ناعماً، وكانت رائحة الأزهار الاصطناعية قد بدأت تبعث على الغثيان.

"عشتُ ووالي معاً وقتاً طويلاً. أرجو حقاً أن يجتاز هذا الوضع الصعب والخطر بسلام". احمرَّ محيطا عَيْنَي لوبير.

"أنا أرجو ذلك أيضاً. إنه رجل ممتاز".

رائعة، يا برينان.

شد لوبير أصابعه، وبدأت إحدى إبهاميه تنقر على الأخرى.

حيال الأمر"، كرر لوبير لفظ كلمة أنا أربع مرات، "لأنه لا جدوى والحالة تلك من الكذب".

قلت: "قل لنا، من فضلك، ماذا حدث".

"ليس لديّ الكثير لأقوله، أتيت إلى المنزل يوم الخميس ليلاً فوجدت والي ملقى على أرض الحمام متلوياً"، ارتفعت يد وأشارت أصبع عبر ممرٍّ ثانٍ إلى زوايا عند يمين المدخل الذي دخلنا عبره غرفة المعيشة، "في ذلك المكان. كان يعاني مشكلات تنفس وكان وجهه متورداً بسبب ما يعانيه، وكاد لا يقوى على الكلام، إلا أنني استطعت أن أفهم منه أنه يعاني ضيقاً في صدره؛ الأمر الذي أفزعني إلى أبعد حدٍّ. واستطعت أن ألاحظ أنه كان قد تقيأ".

ارتعشت اليد في طريقها إلى صدر لوبير، وتابع: "أخذته إلى السيارة، واسمحا لي أن أخبركما أنه لم يكن ذلك سهلاً حيث كانت ساقاه ترتعشان وكان يئن قائلاً إنه أوشك أن يموت".

تساءلت: لِمَ لم يتصل لوبير بالإسعاف؟ لكنني لم أسأله.

"عندما وصلنا إلى غرفة الطوارئ، كان توقف عن التنفس".

انتظرنا لوبير كي يستأنف كلامه، لكنه لم يفعل. فسألته وأنا أحثه على الكلام: "هل أعطوه هواء عن طريق جهاز التنفس الصناعي؟".

"نعم، بدأ والي يتنفس من تلقاء ذاته لكنه لم يستيقظ؛ ولم يستيقظ حتى الآن".

سألته بشيء من الرفق واللين: "هل كانت أزمة قلبية؟".

"أعتقد ذلك. لم يرد الأطباء في الحقيقة أن يكشفوا لي عن كثير من الأمر"، بوب. بوب، "أنا لست من أسرته، وأنت تعرفين ذلك".

كانت المروحة فوق رؤوسنا تطن طنيناً ناعماً، وكانت رائحة الأزهار الاصطناعية قد بدأت تبعث على الغثيان.

"عشتُ ووالي معاً وقتاً طويلاً. أرجو حقاً أن يجتاز هذا الوضع الصعب والخطر بسلام". احمرَّ محيطا عَيْنَي لوبير.

"أنا أرجو ذلك أيضاً. إنه رجل ممتاز".

رائعة، يا برينان.

شد لوبير أصابعه، وبدأت إحدى إبهاميه تنقر على الأخرى.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"أفترض أنه يتعين علي أن أتصل بأخته، إلا أن علاقتهما ليست جيّدة. وأواظب على التفكير في أنه سيستعيد وعيه في أي لحظة ويطلب غليونه، وفي أن كل شيء سيكون على ما يرام"، صالب لوبير ساقيه مجدّداً وطقطق كاحليه، "ما سبب وجودك هنا؟".

قلت: "تحدثت إلى الدكتور كاجل عبر الهاتف يوم الخميس، ووعدني أن يرسل إليّ تقرير حالة وصوراً. لم أستلمها قط، فتساءلتُ والشرطي السري سليديل، إن كان من المحتمل أن يكون قد أحضر ما طلبته إلى البيت عازماً على إنجازه هنا".

"إنه يعمل أحياناً هنا على حاسوبه الشخصي المحمول. إلا أنني لم ألاحظ أي شيء في البيت".

"مجلد؟ مظروف؟".

هز لوبير رأسه نفياً.

"حقيبة؟".

"يحمل والي عادةً حقيبةً. هذا إضافةً إلى حاسوبه الشخصي المحمول الثمين"، بوب. بوب، "إنه لا يحتفظ بجهاز حاسوب هنا"، نهض لوبير، "سأبحث في غرفته".

نهض سليديل متثاقلاً ووقف على قدميه ومد يداً، وقال: "ما رأيكما في أن ألقي نظرة خاطفة على سيارة البروفسور وتفتشان أنتما غرفته؟".

"أي شيء مهما يكن"، هز كتفيه كأنه يقول افعل ما يحلو لك.

أخرج لوبير مجموعة من المفاتيح، واستدار ومشى نحو الجهة الخلفية من المنزل، فتبعته، بينما خرج سليديل عبر الباب الأمامي.

كانت غرفة كاجل نظيفةً نظافة غرفة في وحدة عناية مركزة، ومرتبةً ترتيب غرفة شخص مصاب بوسواس قهري. مفاجأة كبيرة.

استغرق البحث خمس دقائق، ولم أرَ ما يشير إلى وجود ملف أو صور في خزانة كاجل أو أدراج مكتبه أو تحت سريره. لم يكن ثمة مكان آخر مرشح للبحث فيه. محبطةً، تبعت لوبير إلى غرفة المعيشة كما لو كنت ظله.

قال لوبير، وهو يضع إحدى قدميه تحته عندما كان يعود إلى كرسيه الذي

كان جالساً عليه: "دعيني أفهم هذه النقطة، هل تحدثت إلى والي يوم الخميس؟".

أجبته: "نعم، كان في بوفورت".

"هل كان ينوي العودة إلى البيت ليرسل إليك هذا التقرير فقط؟".

"قال إنه كان متوجهاً إلى البيت في كل الأحوال".

"أوه!".

انضم سليديل إلينا مجدّداً، هازاً رأسه، فسألتُ لوبير: "هل فاجأك هذا الأمر سيد لوبير؟".

"في أثناء فصل الصيف، لا يعود والي إلى كولومبيا مطلقاً يوم خميس. كان يمكث دوماً في غرفة مستأجرة في بيت شخص آخر حتى يوم الجمعة. لهذا السبب تملّكتني الدهشة حين وجدته هنا".

"أليس لديك فكرة عن سبب محتمل كامن وراء عودته باكراً؟".

سحب لوبير قدمه من تحته، وصالب ساقيه، وطقطق كاحليه مرات عديدة. وتحرك كاحله جيئة وذهاباً أكثر من ذي قبل.

"أنا نفسي كنت خارج البلدة طوال الأسبوع".

قال سليديل: "ما سبب ذلك؟".

"أنا أعمل في مجال المبيعات".

"ماذا تبيع سيد لوبير؟".

"مضخات من النوع الهيدروليكي".

لو كان هذا محاولة لقول كلام ينطوي على شيء من الدعابة والفكاهة، فإن أسلوب لوبير كان جافاً جداً.

"لم يكن من المفترض أن أعود قبل يوم الجمعة، إلا أن مواعيدي انتهت واختتمت في وقت أبكر من الذي توقعته".

قال سليديل: "هل أبرمت الصفقة الكبرى؟".

"في الواقع، لا".

سألته: "هل لديك أي تخمين للسبب الذي يمكن أن يكون قد حمل والي على اختصار أسبوع عمله في بوفورت؟".

على الرغم من أن إحدى كتفيه ارتفعت تعبيراً عن عدم المبالاة وعدم

الاكتراث، فقد بدا التوتر على وجه لوبير واضحاً.
قلت في معرض حثي إياه على الكلام: "نحن هنا بصدد التحقيق في جريمة يا سيد لوبير".
تنهد تنهيدة عميقة وقال: "كان والي يخطط لمواعدة"، تحركت كتفه وقال: "مواعدة من أجل لقاء من خلف ظهري".
ساد صمت طويلٌ، حتى سليديل كان لديه من الدهاء ما يكفي لعدم كسر جداره، ثمّ كسره لوبير متابعاً: "التقى والي بأحد الأشخاص. لم يكونا يعرفان أنني رأيتهما معاً، بيد أنني فعلت. كان ذلك في مقهى قريب من الحرم الجامعي يوم جمعة منذ أسبوعين".
قال سليديل: "وماذا بعد؟".
تفقد لوبير أصابع قدميه العاريتين وهو يقول: "كان ثمة أمور محددة كما تعرف".
قال سليديل بصوت أكثر إمضاءً من نصل الشفرة: "أعرف؟".
رفع لوبير رأسه وحدق إلى وجه سليديل قائلاً: "لم يبدُ أنه كان اجتماع عمل".
"هل كانا يعقدان...".
قاطعت سليديل قائلة: "هل في وسعك أن تصف الرجل؟".
تنفس لوبير تنفساً عميقاً، وتقوس حاجباه ثمّ قال: "إنه وسيم".
"هل في وسعك أن تكون أكثر تحديداً؟".
"رائع البنية، ولون بشرته أسمر أخاذ".
"هل هو طويل القامة؟".
"لا".
"هل يضع نظارة؟ هل كان حليق الذقن؟ هل في بدنه وشوم؟".
هزات رأس مستمرة تفيد النفي.
"ماذا عن شعره؟".
"شعره مصبوغ بلون أسود، ومقصوص وفق أسلوب يحاكي نمط هف غرانت".
قلّب لوبير عينيه بأسلوب جعل كاتي تبدو مبتدئةً ومتخلفةً في هذا المجال،

وصالب ساقيه، وعاد إلى النقر على إبهامه.

"ألا تعرف هذا الشخص؟".

هز رأسه نفياً، فسألته بلطف: "هل واجهت أنت والدكتور كاجل أيّ صعوبات؟".

زفر سليديل بصوت مسموع عبر شفتيه، فتجاهلته، وهز لوبير كتفيه بأسلوب ينمّ عن شيء من عدم المبالاة، وطقطق كاحليه وهو يقول: "بعض الصعوبات. لا شيء يستحق الذكر".

"هل ثمة فرصة بأي حال من الأحوال تمكن الدكتور كاجل من التحدث إلينا؟ تمكنه من التواصل؟".

نهض لوبير، ومشى نحو المنضدة وأجرى اتصالاً. بعد وقفة قصيرة، سأل عن حالة كاجل، وأصغى، ثم شكر الطرف الآخر، وقال إنه سيذهب للزيارة، وقطع الاتصال.

مرر لوبير، وهو يدير ظهره لسليديل، راحة يده على وجنتيه، وتنفس تنفساً عميقاً. ثم سوّى كتفيه مستقيمتين، ومسح يده بسرواله القصير، واستدار قائلاً: "لا يزال في غيبوبة".

"في أي مستشفى؟".

انزعج لوبير قليلاً وأجاب: "في بالتيمو هلث ريتشالاند. هو في غرفة العناية القلبية المركزة. اسم طبيبه كنيث مكميلان".

تحرك سليديل نحو الباب، ونهضت مقتربةً من لوبير سائلةً إياه: "هل ستكون على ما يرام؟".

أومأ لوبير إيجاباً.

وأنا أخرج لوبير بطاقة من حقيبتي، كتبت اسمي ورقم هاتفي الخلوي على عجل، وأعطيته البطاقة، وشددت على يده قائلةً: "إن عثرت على الملف المفقود، أرجُ أن تعلمني من فضلك. كما أرجو أيضاً أن تتصل بي عندما يستعيد الدكتور كاجل وعيه".

نظر لوبير إلى البطاقة، ونظر إلى سليديل نظرةً خاطفةً، ثم قال لي: "سأتّصل بك بالتأكيد".

التفت إليّ سليديل وقال: "لديك يوم استثنائي حقاً".

لا تزال يد لوبير اليسرى تمسك سماعة الهاتف بإحكام شديد، وقد انتفخت أوتار معصمه مثل جذور شجرة بلوط حية.

أشعل سليديل سيجارة بمجرد أن وطأت أقدامنا أرض رصيف الشارع. وفي غمرة لهيب الحر الشديد، فتحت بابي وانتظرت حتى يفرغ من التدخين. سألته: "أتعتقد أن هناك أي ضررٍ من تحولنا إلى المستشفى؟".

"ليس في الأمر ما يضر". بينما كان يمسح جبهته بأحد معصميه، فتح باب السائق بقوة وارتمى خلف مقود السيارة.

كان سليديل محقًّا؛ لم يكن في الأمر ما يضر، ولم يكن فيه ما ينفع.

كان والتر كاجل بالنسبة إلى العالم ميتاً على النحو الذي وصفه لوبير. ولم يكن في وسع طبيبه تقديم أي شرح، إذ كانت دلائل كاجل الحيوية قد استقرت. لم يظهر قلبه أنه أصيب بضرر، وتعداد كرياته البيضاء، ومخطط موجات دماغه، والمخطط الكهربائي لقلبه جميعها كانت طبيعية. لم يكن الرجل ببساطة يستيقظ.

ما إن غادرنا المستشفى حتى بدأ سليديل يثرثر: "يبدو الأمر كما لو أنه قد حدثت اضطرابات في مدينة ملكة".

لم أرد.

لاذ سليديل بالصمت راصداً تعابير وجهي. بيد أن صمته لم يدم طويلاً: "هل تعتقدين أن لوبير وموظفة الاستقبال الغستابو يصفان السنجاب ذاته؟".

"هذا محتمل".

"هل تظنين أن كاجل كان يقابل هذا الشخص سراً بطريقة مشبوهة؟".

"يحتمل أن يكون لوبير قد تخيل الخليل الرومانسي تخيلاً. يمكن أن يكون الأمر أي شيء".

"أي شيء مثل ماذا؟".

كنت أطرح على نفسي السؤال ذاته.

"مثل طالب محتمل".

"قالت موظفة الاستقبال الغستابو إن الشخص الذي كان يسأل عن كاجل لم يكن ولداً صغيراً".

"ينخرط البالغون في دراسة المقررات الجامعية".
"كان سيترك أيُّ شخص مهتم ببرنامج ما رسالةً في مكتب إدارة الكلية".
صحيح.
"شخص يعمل في مجال ما".
سأل سليديل: "لماذا يقابل الشخص في مقهى؟".
"مندوب شركة تأمين".
"الأمر ذاته".
"والتر كاجل رجل ناضج".
أطلق سليديل صوتاً يشبه الشخير ازدراءً، وقال: "من المحتمل أن السنجاب كان يمضي وقت إجازة في مكان مجهول".
كان كره سليديل الشديد للشّاذين يضغط على أعصابي.
"يحتمل وجود أي عدد من الأشخاص يمكن لكاجل أن يشاركهم في احتساء القهوة".
"ولد وسيم حسن الطلعة شديد الجاذبية لم يسبق أن رأته عينا أي شخص قريب من الرجل. أهذا ما تقصدينه؟".
قاطعته قائلةً: "هذا الوصف ينطبق على كثير من الرجال".
"أتعنين ما تقولينه؟".
"نعم".
"هل ينطبق على رجال حقيقيين؟".
"على رجال جذابين!".
"أتعرفين أحداً منهم؟".
"صديق ابنتي". قلت ذلك من دون أن أفكر في ما أقوله.
"هل أنت واثقة أنه شاب؟"، ربّت سليديل على شعره، وصفق أحد معصميه، وأطلق من حلقه ما يشبه الشخير ابتهاجاً بفكاهته.
أغمضت عينيّ، واخترت مقطعاً من كلمات أغنية تغنيها فرقة الإيغلز؛ "هوني عليك".
خرجنا بالسيارة من كولومبيا الساعة الرابعة. كانت أشعة الشمس تومض ثم

تخبو عبر أغصان الأشجار كأنها دولاب النار. تمّلكني شعور بالعدائية الشديدة حيال سليديل؛ الأمر الذي جعلني ألوذ بالصمت طوال الوقت وصولاً إلى شارلوت. عندما أشعل سيجارة، اكتفيت بفتح نافذتي قليلاً، وثابرت على معالجة أحداث اليوم في ذهني.

لماذا أطلقت تلك الإشارة إلى بالمر كُرنز؟ هل كان مجرد رد فعل غير محسوب على تملق سليديل، أم كان رؤية غير واعية لشيء ما كنت أفتقد إليه؟ هل كنت أرتاب من بالمر كُرنز؟ جواب صادق: نعم. لماذا؟ ألأنه كان يواعد ابنتي؟ ألأنه كان يبدو مفتقراً إلى معرفة العمل الخاص به؟ ألأنه كان وسيماً ويعيش في كولومبيا؟

تُرى من هو الشخص الذي قابله والتر كاجل في المقهى؟ من ذا الذي زار قسم الأنثروبولوجيا؟ هل كان أحد الشخصين متورطاً في قضية اختفاء تقرير كاجل؟ هل كان أحد منهما مسؤولاً عن انهيار كاجل؟ هل كان لوبير ودولوريس يصفان الشخص ذاته؟

كنت دوماً أعود إلى السؤال ذاته: أين ذاك التقرير؟

عاهدت نفسي على اكتشاف الأمر، وقد أثمر ما عاهدت نفسي عليه أسرع مما كنت أتوقع.

www.mlazna.com-RAYAHEEN



كانت الساعة تشير إلى الخامسة والثلاثين دقيقة عندما أنزلني سليديل من سيارته عند مركز الفحص الطبي في مقاطعة مكلنبورغ، وكان تيم لارابي في طريقه إلى الخروج من مبنى المركز.

سألته: "هل لديك من أخبار عن ريكي دون؟".

"ليس هناك أيّ دلائل على وجود صدمة؛ يبدو أنه تناول جرعةً زائدة. لكن علينا انتظار التقرير المتعلق بالسموم".

"هل وجدت ما يشير إلى استخدام ما يدل على إدمان؟".

"نعم، طبعاً، هذا لا يعني أنه لم يدفعه شخص ما لتجاوز الجرعة يوم الجمعة الفائت".

لخصت له رحلتي إلى كولومبيا مع سليديل.

"أين يعيش كاجل هذا؟".

أخبرته.

"هل أخذه لوبير إلى مستشفى ريتشلاند؟".

"نعم".

"غريب، حيث إن مستشفى بابتيست موجودة في المكان نفسه عند سمتر وتايلور".

"أليست ريتشلاند أقرب مستشفى؟".

"لا".

"ربما لم يكن لوبير يعلم هذا".

هز لارابي رأسه وقال: "الناس يتساقطون كالذباب يا عزيزتي".

"أنا ذاهبة للاتصال بمقاطعة لانكستر، وسأرى إن كان في وسعي الوصول

إلى شيء يتعلق بتقرير كاجل".
"اذهبي يا فتاتي". دفع لارابي الباب الزجاجي، وذهب.
وأنا أجلس إلى طاولتي، بحثت عن الرقم واتصلت:
"إدارة شريف مقاطعة لانكستر".
بعد أن عرّفت عن نفسي، طلبت الشخص المسؤول.
"معاون الرئيس رو غير موجود الآن".
أوجزت في جملتين العلاقة المحتملة بين الهيكل العظمي الذي عثر عليه في مقاطعة لانكستر وما عثر عليه في مزرعة فوت، وتكلمت حول مشكلاتي المتعلقة بحصولي على نسخة من تقرير الأنثروبولوجيا، وسألت إن كان في وسع أي شخص آخر أن يساعدني.
"اسمحي لي أن أتبين إن كان أحد رجال شرطة التحقيق موجوداً".
سكوت، تكتكات عدة، ثم صوت أنثوي.
"تيري وولسي".
كررت كلامي المعسول.
"الشخص الذي كانت تلك القضية منوطة به انتقل. عليك أن تتحدثي إلى نائب الرئيس رو".
"هل أنت مطلعة على القضية؟".
"أتذكرها. هيكل عظمي منزوع الرأس، كان قد اكتُشف في حديقة الولاية منذ ثلاث سنوات تقريباً".
"ما أفهمه هو أنه كان يوجد شريف مختلف حينذاك".
"هال كوبر. خسر الانتخابات، وهو متقاعد مقيم في فلوريدا".
"هل كان المحقق في أسباب الوفيات المشتبه فيها سنو موريه؟".
"نعم". حذرة.
"هل تعرفت إلى السيد سنو؟".
"الدكتور سنو، كان طبيباً مولداً. وظيفة الطبيب الشرعي المحقق ليست وظيفة تفرغ هنا".
"من هو المحقق الحالي في أسباب الوفيات؟".

"جيمس بارك".
"هل هو طبيب آخر؟".
"يملك بارك داراً للجنائز، إنه شيء يدعو للسخرية. فعلى يدي سنو يرى الناس الحياة، وعلى يدي بارك يغادرونها".
بدت شبيهة بنكتة قديمة أضحت مملة لكثرة ما سردت.
"هل بارك رجل يسهل العمل معه؟".
"إنه يؤدي ما يقتضيه عمله منه".
"هل من سبب يحمله على الاحتفاظ بتقرير الأنثروبولوجيا ذاك؟".
"ليس ثمة سبب يشركني في الاطلاع عليه".
يا له من عذاب. جربي مقاربة رفيقات السلاح.
قلت بعد لحظة تردد مؤثرة، وقد بدأت نغمة خفيفة جداً من الإحباط تخالط صوتي: "حقاً، اسمعي، أنا أعمل مع المخبرين سليديل وورينالدي هنا في شارلوت. أيتها المحققة ولسي، سأكون صادقة؛ لا أعتقد أن هذين الرجلين يطلعانني على الأمور المهمة".
"ما الذي ترمين إليه؟".
كثير جداً من أجل الأخوة.
"لا يبدو من المحتمل أن يتلاشى تقرير الدكتور كاجل من جهاز المعلومات".
"هذا أمر يحدث".
"هل واجهت في أي وقت مضى تلك المشكلة في قضية من القضايا؟".
تجاهلت سؤالي.
"من المؤكد أن هذا الأنثروبولوجي يحتفظ بسجلات. لمَ لا تسألينه عن نسخته؟".
"لقد فعلت. تعرض كاجل لأزمة صحية، وقد فُقد ملفه وصوره".
"أي نوع من الأزمة الصحية تلك التي تعرض لها؟".
شرحت لها الأمر المتعلق بانهيار كاجل، ودخوله في غيبوبة لاحقاً.
كان ثمة وقفة طال أمدها، وضجيج ناجم عن أصوات مجموعة من الأشخاص في الغرفة.

"وهل أُزيلَ هذا الملف من ملفاته؟".

"يبدو الأمر كذلك؟".

سمعتها تلتقط أنفاسها مرات عديدة، ثم سمعت أصواتاً تخشخش، ربما كانت ناجمة عن نقلها سماعة الهاتف من إحدى يديها إلى الأخرى. قالت بصوت يعتريه شيء من الخشونة كما لو أن شفتيها أضحتا الآن أكثر إطباقاً على فمها: "هل في وسعك أن تقابليني غداً؟".

قلت وقد حاولت أن أخلّص صوتي مما يوحي بأن الأمر فاجأني: "بالتأكيد. مقر الإدارة في بيجلاند رود. هل هذا صحيح؟".

"لا تأتي إلى هنا".

وقفة أخرى أقصر أمداً في حين كنا كلتانا نفكر في الأمر.

"هل تعرفين أين يقع الكوفي كب، حيث يمر المورهيد تحت شارع آي - 77؟".

"طبعاً"، كل الناس في شارلوت يعرفون مقر محل الكوفي كب، "لديّ بعض العمل سأقوم به غداً. قابليني عند الساعة الثامنة".

"سأكون جالسةً إلى النضد".

عندما أنهينا الاتصال، جلست طوال خمس دقائق كاملة.

كان زامزاو أولاً والآن وولسي. ما عساه يكون الكلام الذي يتعين على المحققة أن تقوله مما لا يمكن أن يقال في لانكستر؟

عندما وصلت إلى البيت، كان بويد وبيردي نائمين في حجرة المطالعة والكتابة، الكلب على الأريكة، والقطة انسلّت إلى مخبأ على أحد رفوف الكتب خلف مكتبي. لدى سماعه أصوات وقع خطى، نزل بويد إلى الأرض متثاقلاً، وأخفض رأسه، ثم نظر إليّ، وكان لسانه متدلياً من بين أنياب فكه السفلي.

"مرحباً، أيها الفتى الكبير"، صفّقت وجلست القرفصاء.

وثب بويد، ووضع قائمتيه الأماميتين على كتفيَّ، واندفع إلى الأمام ليلعق وجهي. قوة حماسته دفعتني ورمتني على كفلي. وأنا أتكور على معدتي، دفعت ذراعيّ كلتيهما فوق رأسي. دار بويد حولي ثلاث مرات، ثم حاول استئناف مسح وجهي بلعابه.

عندما استويت قاعدةً، كانت بيردي تنظر إلينا بأقصى درجة من الاستنكار والاستهجان اللذين يمكن لتعابير وجه قطة أن تظهرهما. بعد ذلك وقفت، وقوّست جسمها، وقفزت إلى الأرض، واختفت في القاعة.

"اسمع، بويد".

جمد بويد هنيهةً، وقفز إلى الوراء، ودار دورةً أخرى.

"انظر إليّ. لم يعد مظهر جسدي لائقاً. لقد رأيت ريان. ما رأيك؟".

لف بويد مرةً أخرى جرياً.

"أنت محقّ. عليّ أن أتمرن".

بعجلة وقفت على قدمي، وصعدتُ السلم إلى غرفة نومي، واستبدلت بملابسي أخرى رياضية. عندما عدت إلى المطبخ وحررت بويد، اندفع الكلب مهتاجاً أيما اهتياج.

"اجلس".

حاول بويد أن يتوقف بصورة مفاجئة، ففقد توازنه، وانزلق ليصطدم بإحدى قائمات الطاولة.

قطعت الطريق القصيرة وصولاً إلى رادكليف، ثم إلى الفريدوم بارك، بعد ذلك درت حول البحيرة، ثم قفلت عائدةً عبر الكوين رود وست. كان بويد يبطئ السير على طول الطريق مقترحاً بين فينة وأخرى توقفات عند نقاط لها جاذبية خاصة عند الكلاب.

جرينا في وقت متأخر بعد ظهر أحد أيام آب/ أغسطس بين أمهات شابات يدفعن عربات وضعن فيها أطفالاً صغاراً، وبين رجال مُعمَّرين يصحبون كلاباً هرمةً في نزهة، وبين فتيان يرمون صحوناً طائرةً في الهواء ويركلون كرات قدم ويركبون دراجات هوائية.

جعلني اليوم الحار ثقيل الظل واعيةً تمام الوعي للصوت. سمعت أوراق الشجر تهمس متجاوبة مع النسيم العليل الرقيق. وسمعت صوت أرجوحة طفل تتأرجح جيئة وذهاباً في الحديقة، وصوت ضفدع وحيد لا أنيس له، وأصوات إوز، وصوت سمندل.

مع أنني بقيت متيقظة، لم أرَ أي شيء يشير إلى وجود مُصوِّر، ولم أسمع

صوت مصراع كاميرا يتكتك. وشعرت بامتنان لمرافقة بويد إياي.

لدى عودتنا إلى شارون هول كنت أتصبب عرقاً، وكانت دقات قلبي أكثر وأسرع من أن تحصى. تدلى لسان بويد كأنه شريحة لحم رقيقة.

لتهدئة بويد، سمحت له أن يشتمّ الأرض في أثناء سيره. كان بويد يهرول خبباً مثقلاً من غصن إلى شجرة إلى مغرس زهرة متقناً عمله الروتيني المتمثل بالاشتمام، ومتوقفاً بين الفينة والأخرى لاشتمام أعمق غوراً وللتبول.

تماشياً مع حملتي الجديدة الرامية إلى تحقيق اللياقة البدنية، تألفت وجبة طعام العشاء الرئيسة التي تناولتها من طبق كبير من السلطة وملاطفة عذبة من آندرو ريان، بينما تألفت وجبة بويد من قطع صغيرةٍ من اللحم المحمر.

كنت عند الساعة العاشرة أتضور جوعاً، وكنت قد أخرجت لتوي لبناً وجزراً وشيئاً من الكرفس من الثلاجة عندما رن جرس الهاتف.

"ألا تزالين تعتقدين أنني أكثر الرجال وسامةً، وذكاءً، وإثارةً على هذا الكوكب؟".

"أنت رائع جميل تبهر النفس ريان".

أنعش صدى صوته قلبي؛ وأنا أبتسم ابتسامة طفل عريضة، قضمت قطعة من جزرة، فسألني: "ماذا تأكلين؟".

"جزراً".

"منذ متى تأكلين خضاراً نيئةً؟".

"الجزر جيد مفيد لك".

"أحقاً؟".

"مفيد لعينيك".

"إن كان الجزر نافعاً للعيون إلى هذا الحد، فكيف أرى هذا العدد الكبير جداً من الأرانب الميتة على الطريق؟".

"هل ابنة أختك على ما يرام؟".

"لا شيء على ما يرام. هذه الفتاة وأمها تجعلان أسرة أوزبورن تبدو طبيعيةً".

"أنا آسفة".

"بيد أن الأمر ليس ميئوساً منه، أعتقد أنهما تصغيان. ينبغي ألاّ يمتد المقام بي

هنا أكثر من يومين. ما برحت أفكر في العمل على إطالة أمد الإجازة أسبوعاً ثالثاً".
"أوه؟"، أرسلت ابتسامتي الآن بريقاً تلألأ في الفضاء.
حمل بويد ملء فمه من قطع اللحم المحمر وأسقطها على قدمي.
"لديّ عمل لم أنجزه في شارلوت بعد".
"أحقاً؟"، هززت قدمي، وانزلقت قطع اللحم على الأرض، ثمّ أكلها بويد.
"عمل شخصي".
كان بمعدتي حاجة شديدة إلى تلفّظ ما فيها اشمئزازاً وقرفاً من منظر قطع اللحم وهي تنزلق على الأرض. إلا أنها استشعرت التعليق.
"كيف حال الكلب؟".
"إنه على ما يرام".
"هل من تطورات طرأت على العظام التي عثر عليها في دورة المياه؟".
"رحلة برية مع سكيني!".
"الرجل إنسان بدائي".
"هل رأيت أرانب ميتة؟".
"قالت موظفة استقبال إدارة قسم الأنثروبولوجيا إن شخصاً لا تعرفه كان قد زار كاجل، وهو قصير القامة أسود الشعر، ورصد لوبير أيضاً كاجل مع شخص غريب".
"هل كان الوصفان متطابقين؟".
"تقريباً، على الرغم من أن لوبير أكد حقيقة أن الرجل كان رائعاً؛ كان ينظر إليه بوصفه منافساً له".
"كثيراً ما يحدث هذا لي".
"لم تشر موظفة الاستقبال إلى أن الزائر كان وسيماً على نحو لافت".
"الجمال ما يراه الناظر إليه جمالاً".
"أظن أن عين موظفة الاستقبال قد رصدت ذلك".
"هل الأطباء في حيرة من أمرهم حيال انهيار كاجل؟".
"يبدو هذا جلياً".
أخبرت ريان عن محادثتي إلى تيري وولسي، وعن الاجتماع المقرر انعقاده

صباح اليوم اللاحق.

"هي من المباحث، لذلك أنا واثقة أنها حقيقية".

"نحن جميعاً حكماء وصالحون".

"ليس لدي فكرة عما تريده".

"يمكن لفكرة ما أن تكون أمراً خطراً".

"إنه لأمر غريب ريان".

"إنه أمر غريب".

"لا تعاضدني".

"أعرف ما أفضل أن أفعله لك".

معدتي تنقلب.

"هل تلقيت مزيداً من رسائل التهديد عبر البريد الإلكتروني؟".

"لا".

"ألا يزالون يسيّرون دوريات مكثفة حول مكان وجودك؟".

"نعم، وحول منزل ليجا الريفي".

"جيد".

"بدأت أفكر في أن دورتون كان وراء الأمر كله".

"لماذا؟".

"عندما عُثِر على ريكي دون ميتاً توقفت رسائل البريد الإلكتروني".

"هذا ممكن... يحتمل أن يكون شخص ما قد وضع حداً لدورتون".

"أشكرك على طمأنتك إياي".

"أريد منك أن تتوخي الحذر".

"لم أفكر في ذلك".

"في وسعك أن تكوني مصدر إزعاج شديد حقيقي، برينان".

"أعمل على ذلك".

"هل يحظى الكلب بما يكفي من الاهتمام؟".

"ذهبنا في جولة طويلة لطيفة بعد ظهر اليوم".

"كانت درجة الحرارة اثنتين وخمسين على مقياس فهرنهايت في هالفاكس

اليوم".
"بلغت درجة الحرارة أربعاً وتسعين في شارلوت اليوم".
"أمشتاقةٌ إليّ أنت، سيدة تمبرنس؟".
بدأ حديث الانسجام.
"قليلاً".
"اعترفي بالأمر حبيبتي، أنا الرجل الذي جعل حلمك يتحقق".
"لقد عثرت على خيالي الجامح على نحو غير متوقع ريان".
"طابت أوقاتك".
بعد أن قطعنا الاتصال، اتصلت بكاتي؛ لا رد. فتركت رسالة.
شاهدتُ برفقة بويد وبيردي الجولات القليلة الأخيرة من لعبة كريكيت بين البرفز والكبس. أنهيت أكل الجزر، وقضم بويد عظمةً، ولعقت بيردي شيئاً من اللبن. في مرحلة من مراحل الأكل تبادلا الأدوار؛ أطلنا تعاقب الناس؛ ثمّ نمت عند الساعة الحادية عشرة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

27

لشارلوت مؤسسات كثيرة مكرسة للحفاظ على الجمال وتبجيله: ذا مينت ميوزيم أوف آرت، سبيريت سكوير، ذا ماك جيل روز غاردن، هوترز.

لا يندرج تقاطع مورهيد وكلاركسون في تلك اللائحة؛ على الرغم من أنه لا يفصل بينها وبين الحي العصري المترف سوى مجمعات عمرانية قليلة، فإن قُطعةَ الأرض هذه من الدائرة الثالثة لا يزال عليها أن تختبر ذات يوم ولادةً جديدةً مماثلةً، والمعابر التي تعتلي الطريق السريعة، والمستودعات الآخذة في القدم، والأرصفة المتصدعة، ولوحات الإعلانات المتقشرة تبقى الصفة المعمارية المميزة المهيمنة؛ مهما يكن من أمر، العمل يزدهر في كوفي كب.

كل صباح وظهيرة يحتشد حرفيون وعمال كادحون، وعمال حكوميون، ومحامون، وقضاة، ومصرفيون، وسماسرة يعملون في مجال الوساطة العقارية من البيض والسود في هذا المطعم (الكوفي كب) فيغص بهم المكان. ليست الأجواء المحيطة هي ما تشدك إلى هذا المكان، إنما الطبخ؛ الطعام البيتي الذي يملأ قلبك دفئاً، ثم ما يلبث في نهاية المطاف أن يجعله مفعماً بالإثارة.

مطعم الكوفي كب مملوك منذ عقود من قبل مجموعة من الطهاة السود. ولا يتغير فيه طعام الإفطار مطلقاً: بيض، وفريك، وفطائر السلمون المقلية، وكبد مهروسة، ولحم مقدد، ولحم عادي مأخوذ من الفخذ، وأنواع من الكعك الساخن والبسكويت. خلال الغداء، يكون الطهاة أكثر مرونةً إلى حدٍّ ما، فتنتشر لوائح الطعام على لوحتين أو ثلاث لوحات: لحم مطهو، شريحة لحم بلدي، أضلاع، دجاج مقلي أو مشوي أو يقدم مع الزلابية. تتضمن الخضر: الكرنب، والفاصولياء المرقطة، والملفوف، والبروكولي الذي يقدم في طبق خزفي عميق القعر، والكوسا مع البصل، والبطاطا بالكريما، وبازيلاء الهالة السوداء. كما يوجد على الغداء خبز

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ذرة إضافةً إلى البسكويت.

ليس في وسعك مطلقاً أن تجد جيني كريج أو فيرجي يتناولان الطعام في الكوفي كب.

وصلت عند السابعة والدقيقة الخمسين، وكان موقف السيارات غاصاً بالسيارات، لذلك ركنت سيارتي في الشارع. وأنا أشق طريقي بصعوبة بين زبائن المطعم الدائمين المنتظرين عند الباب، لاحظت أن جميع الطاولات مشغولة. ألقيت نظرةً عجلى على النضد، كان هناك سبعة رجال، وامرأة واحدة نحيلة جداً، ذات شعر كستنائي قصير كثّ ومقصوص فوق الجبين، وهي في الأربعين من عمرها تقريباً.

مشيت إلى حيث كانت تجلس وعرّفت بنفسي. عندما نظرت وولسي إليّ، تمايل قرطان مصنوعان من الفضة وفيهما حليتان من الفيروز متساوقين مع حركتها. بينما كانت كل منا تعرّف نفسها إلى الأخرى، شغر كرسيّان دوننا. الرجلان اللذان كانا يحولان بيني وبينها انتقلا إليهما. ثمة بطاقتان اسميتان، واحدة على جيب كلٍّ منهما تعرفانهما بوصفهما غاري وكالفين.

بينما كنت أشكرهما، جلست. ثمّ دنت مني امرأة سوداء، وفي يدها رزمة ورق وقلم رصاص - تباً للحمية والنظام الغذائي - طلبت بيضاً مقلياً، وبسكويتاً، وفطيرة سمك سلمون.

كان طبق وولسي خالياً إلا من كومة من جريش علتها كمية كبيرة من الزبدة.

قلت: "ألست مولعة بالجريش؟".

قالت: "أواظب على المحاولة".

عادت النادلة، وسكبت القهوة في كوب أبيض سميك، ووضعته أمامي، ثم حملت المغلاة وجعلتها فوق كوب وولسي، ووضعت يداً على إحدى خاصرتيها، ورفعت حاجبيها فأومأت وولسي إيجاباً وبدأت القهوة تتدفّق.

بينما كنت آكل، عرضت وولسي معلوماتٍ ضروريةً عنها ما قدرت أنها مناسبة لتكوين صورة واضحة عنها. كانت تعمل منذ سبع سنوات بصفتها مخبرة في لانكستر، وقبل ذلك، كانت تعمل في سلك الشرطة في بنساكولا، فلوريدا وانتقلت إلى الشمال لأسباب شخصية: "الأسباب الشخصية" تزوّج بامرأة أخرى.

عندما أنهينا الفطور، طلبنا أن يملأ كوبانا قهوةً مجدّداً.

دونما تمهيد قالت ولسي: "أخبريني القصة كاملةً".

مستشعرة أنها امرأةٌ لا تحب المواربة والغموض، فعلت. الموقد، الدببة، طائرة السيسنا، دورة المياه، الكوكايين، المقو، عميلا مركز الحياة البرية والأسماك المفقودان، الهيكل العظمي منزوع الرأس، تقرير كاجل.

كانت ولسي تناوب بين احتساء قهوتها وتحريكها بملعقة، ولم تتكلم إلى أن أنهيت كلامي.

"أنت تعتقدين أن الجمجمة وعظام اليدين التي عثرت عليها في مقاطعة مكلنبورغ، وفي كارولينا الشمالية، وفي دورة المياه تتطابق مع العظام التي عثرنا عليها في حديقة الولاية في مقاطعة لانكستر، كارولينا الجنوبية".

"نعم، لكن البقايا التي عُثِر عليها في مقاطعة لانكستر مشوهة وتالفة، ولم أتمكن من قراءة تقرير الأنثروبولوجيا أو من استعراض الصور".

"لكن، إن كنت على صواب، فإن جون دو ليس عميل مركز الحياة البرية والأسماك هذا".

"بريان أيكر، نعم، أسنانه باستثناء الجمجمة".

"لكن إن لم يكن للجمجمة واليدين صلة بالهيكل العظمي، فعندها، لا يزال من الممكن أن يكون صاحب الهيكل العظمي المجهول الذي عُثِر عليه في لانكستر هو بريان أيكر".

"نعم".

"في هذه الحالة، يبقى أصحاب الجثث التي تشتغلين عليها مجهولي الهويات".

"نعم".

"مَن من المحتمل أن يَثْبُت أخيراً أنها والدة الرضيع الميت أو صديقها؟".

"تاميلا بانكس أو داريل تيري. أمر مستبعد جداً، لكن نعم".

"مَن يمكن أن يكون متورطاً في تهريب المخدرات، ومرارات الدببة، وأنواع الطيور المهددة بالانقراض؟".

"نعم".

"من تلك المزرعة المهجورة حيث عثر على الجمجمة والدببة".

"نعم".

"ومن المحتمل أن يكون هذان المتعاملان هما الشريكين التجاريين اللذين حطما طائرة السيسنا في أثناء إلقاء الكوكايين منها".

"هارفي بيرس وجايسون جاك ويات".

"اللذان من المحتمل أنهما كانا يعملان لحساب تاجر مخدرات ما يملك ملهَيَين رديئَي السمعة ومخيمات حياة برية".

"ريكي دون دورتون".

"الذي عُثِر عليه ميتاً في فندق رخيص رديء السمعة في شارلوت".

"نعم. انظري، أنا أحاول فقط أن أجمع الأشياء المجزأة بعضها إلى بعض".

"لا تتخذي وضعاً دفاعياً. أخبريني عن كاجل".

"لقد فعلت".

وضعت ولسي ملعقتها وقالت: "ما يجب عليّ قوله ينبغي ألا يسمعه أحد سواك. هل فهمتِ؟".

أومأت إيجاباً.

"كان سنو موريه رجلاً طيباً، وكان متزوجاً وله ثلاثة أولاد؛ كان أباً عظيماً. لم يفكر البتة في ترك زوجته"، أخذت نفساً، "وكنتُ وإياه، مرتبطين بعلاقة زمن وفاته".

"كم كان عمره؟".

"كان عمره ثمانية وأربعين عاماً. وُجد فاقداً للوعي في مكتبه. كان في وضع سيئ ومات من فوره تقريباً في غرفة الطوارئ".

"هل شُرِّحت جثته؟".

هزت ولسي رأسها ثمّ قالت: "لأسرة موريه تاريخ مع مشكلات القلب. مات أخوه عن عمر يناهز الرابعة والخمسين، ومات أبوه عندما كان عمره اثنتين وخمسين سنة، وكان جده في السابعة والخمسين حين توفي. حُضِّرت الجثة وضمخت في أربع وعشرين ساعة. تولى جيمس بارك أمر كل شيء".

"هل هو الطبيب المتخصص بفحص جثث الموتى الذي حلّ محل الطبيب الشرعي سنو؟".

أومأت ولسي إيجاباً وقالت: "في الواقع، ليس الأمر غير اعتيادي في مقاطعة لانكستر. لموريه قلب عليل. وكانت زوجته في حالة هستيرية شديدة، وقد رغبت أسرته في أن ينقضي الأمر في أسرع وقت ممكن".

"ولم يكن ثمة طبيب شرعي".

قالت وهي تضحك وقد تردد في حلقها صوت يشبه صوت الشخير: "صحيح".

"يبدو أن السرعة كانت فائقة جداً".

"سرعة كبيرة جداً ملعونة".

نظرت ولسي بعيداً عبر النضد، ثم عادت لتنظر إليّ قائلةً: "شعرت بأن ثمة أمراً لم يكن صحيحاً، أو ربما كنت أعاني شعوراً بالذنب فقط، أو شعوراً بالوحدة. لست واثقة من السبب، إلا أنني ذهبت إلى غرفة الطوارئ، وسألت إن كان هناك شيء في وسعي إرساله للكشف عن مواد سمية، وقد سحبوا دماً بالتأكيد ولا يزالون يحتفظون بالعينة".

توقفت ولسي عن الكلام إلى حين انتهاء النادلة من سكب القهوة مجدّداً في كوبها.

"أشارت الاختبارات إلى وجود كميات كبيرة من الإيفدرين في دمه، وهي مادّة منبّهة للأعصاب".

انتظرت.

"كان موريه يعاني حساسيةً أعني أنه كان يعاني. لكنه كان طبيباً ذا قلب عليل، ولم يكن الرجل ليلمس أي شيء يحتوي على إيفدرين. حاولت ذات مرة التحدث إليه عن وصفة طبية لدواء من أجل الجيوب الأنفية؛ وكان عنيداً في رفضه".

"هل الإيفدرين سيئ بالنسبة إلى الذين يعانون ضعفاً في قلوبهم؟".

أومأت ولسي بحركة من رأسها إيجاباً وقالت: "الذبحة الصدرية، ومشكلات الغدة الدرقية، وارتفاع ضغط الدم، وأمراض القلب. كان موريه يعرف ذلك كله".

اتكأت واقتربت مني وأخفضت صوتها قائلةً: "كان موريه يمعن النظر في أمر ما قبل وفاته".

"ما هو؟".

"لا أعرف. بدأ يخبرني ذات مرة، ثم توقف، ولم يعد إلى الحديث عن الأمر مجدّداً قط. وقد مات بعد مضي شهرين".

اعترى وجهها شيء خطف بريقه لم أستطع تحديد ماهيته، ثم تابعت: "أعتقد أن ذاك الأمر كان يتضمن الهيكل العظمي منزوع الرأس ذلك".

"لماذا لم تفتحي تحقيقاً".

"حاولت، لم يأخذني أحد على محمل الجد. الجميع توقعوا أن يموت موريه شاباً بسبب إصابته بنوبة قلبية، وقد فعل. ليس في الأمر لغز؛ نهاية القصة".

"ماذا عن الإيفدرين؟".

"كان الجميع أيضاً يعلمون بأمر حساسيته، ولم يرغب قائد الشرطة في الاستماع إلى نظرية مؤامرة".

"أكان هذا وصفه للأمر؟".

"قال إنه سيتحدّث لاحقاً عن الحقول المعشوشبة وعن رماة من ذوي المرتبة الثانية".

قبل أن أتمكن من الكلام، غرد هاتفي الخلوي، فنظرت إلى الرقم وقلت: "إنه المخبر سليديل".

انتزعت ولسي البطاقات المدسوسة تحت الصحون وقالت: "سآخذ هذه وأقابلك في الخارج".

"شكراً".

شاقةً طريقي بين الطاولات، أجبتُ على الاتصال.

"أهذه أنت دكتورة؟"، بالكاد كنت أسمع صوت سليديل.

"ابقَ على الخط".

انتظمت ولسي في رتل تنتظر دورها لتسديد قيمة الفاتورة، بينما خرجتُ إلى موقف السيارات. كان الصباح حاراً والريح ساكنةً، والسحب رقيقةً لا قِبَلَ لها في حجب زرقة السماء.

أعاد سليديل طرح سؤاله: "أهذه أنت دكتورة؟".

"نعم"، كان يتوقع أن ترد عليه أوبرا وينفري عبر هاتفي الخلوي.

"حظي رينالدي بيوم طيب جداً البارحة".

"أنا أصغي".

"ربما يكون قد كسا عظامك العارية بشيء من اللحم".

"أسمع ما تقوله".

"تبين أن جايسون جاك ويات، الراكب الغامض لدينا، قد أمضى كثيراً من الوقت وهو يطارد أناساً خلسةً وينصب فخاخاً. جدته في سيندفيل تصنفه في مرتبة أعلى بدرجة واحدة من صائد التماسيح. إليك هذه النقطة فقط: كان جايسون جاك متخصصاً بالدببة. ثمة محتال مسجل في ويلدرنس كويست، يحتفظ بألف بطلينوس، وقد وفّر له جايسون جاك دباً؛ كي يضمه إلى مجموعة تذكارات صيده".

توقفت سيارة وترجل منها اثنان من السود. كانت المرأة ترتدي تنورة حمراء ضيقة وقصيرة، وبلوزة وردية اللون، وجورباً أسود، وتنتعل حذاءً عالي الكعب. كان لحمها ناتئاً من كل مكان تركت فيه ثيابها فجوةً. عضلات ذراعي الرجل وساقيه مفتولة، بيد أن معدته هي التي كانت تلين وترق وتخضع حباً للدهن والشحم والفريك. وبينما كان سليديل يتحدث، شاهدتهما يدخلان إلى الكوفي كب.

قلت: "لا شيء غير قانوني، بطبيعة الحال".

"طبعاً لا. وسيندفيل الشاب الآخر كان من الممكن أن يكون رئيساً لغرفة التجارة لو لم يرحل عن الدنيا في وقت قريب جداً".

"ريكي دون".

"دونالد ترمب السيندفيلي".

"هل اعترفت الجدة أنهما يعرفان بعضهما بعضاً؟".

"قدم ريكي دون لقريبه الموهوب، لكن الأقل حظاً، عملاً موسمياً في مخيم صيد الويلدرنس كويست. وكان يرسله في مهامّ من وقت إلى آخر".

"مهامّ؟".

"يبدو أن عمل جايسون جاك كان يتوافر على فوائد سفر رائعة".

"طائرة ريكي دون".

"كان يقوم أيضاً برحلات طويلة بالسيارة".

"هل تعتقد أن ويات كان يروّج المخدرات لمصلحة ريكي دون؟".

"هذا يمكن أن يوفر تفسيراً لشحنة المخدرات التي عثرنا عليها في الكبينة".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"ليس في الأمر مزاح".

"هل سبق لي أن مازحتك؟".

"هل حصل رينالدي على إذن؟".

"بطبيعة الحال، كان سيحصل على إذن، إلا أن الجدة أصرت على إلقاء نظرة سريعة كي تتوثق من عدم إقدام أحد على العبث بممتلكات جايسون جاك منذ وفاته. وطلبت من رينالدي أن يوصلها إلى حيث توجد تلك الممتلكات بسيارته".

"ستحل علي اللعنة".

"لذلك ربما كان جايسون جاك قاتل الدببة مضطلعاً بمهام نقل المخدرات من مكان إلى آخر لمصلحة ريكي دون دورتون، وكان يتعامل قليلاً بالمرارات بوصف ذلك عملاً إضافياً".

"هل تعرف الجدة أي شيء عن اتصالات جايسون جاك الهاتفية القليلة بداريل تيري؟".

"لا".

"ألم يتحدث سوني باوندر بعد؟".

"لا يزال ساكتاً كأنه قط ميت".

"ماذا عن الطيار؟".

"لا نزال نبحث عن معلومات عن هارفي بيرس".

ظهر عند باب الكوفي كب رجل شعره مضفور جدائل ومجموع ومعقود خلف رأسه، وحول عنقه سلاسل ذهبية، ويضع نظارة شمسية باهظة الثمن في اللحظة التي كانت ولسي تمر عبر الباب. بدا شيء منه مألوفاً لي.

عاد الرجل إلى الوراء فاسحاً في المجال لولسي كي تمر، ومزلقاً نظارته التي كانت تظلل عينيه نحو أنفه، ومشى خلفها وكاد أن يكون ملتصقاً بها.

كان سليديل يقول شيئاً، إلا أنني لم أكن أصغي إليه.

أين سبق لي أن رأيت هذا الوجه؟ كافح ذهني محاولاً تحديد نمط تعرفه عندي. هل التقيت به شخصياً؟ أم رأيت هذا الوجه في صورة؟ هل حدث هذا حديثاً؟ أم كان في ماض بعيد؟

كان سليديل مواظباً على التحدث، وكان صوته يصل خفيفاً وضعيفاً عبر

الهاتف الخلوي.

رأت وولسي تعابير وجهي فالتفتت نحو الكوفي كب، بينما كان الرجل قد اختفى في الداخل.

"ماذا؟".

أشرت بإصبعي.

"مرحباً؟"، مدركاً أنه فقده، كان سليديل يحاول استعادة انتباهي إليه.

كنت قد أوشكت أن أقطع الاتصال وأعود إلى المطعم عندما ظهر الرجل مجدّداً، كان يحمل كيساً ورقياً أبيض اللون بإحدى يديه، ومفاتيح باليد الأخرى. وهو يعبر الطريق متجهاً نحو سيارة لكزس سوداء، فتح باب السيارة الخلفي، ووضع الطعام على المقعد، وصفق الباب. وقبل أن ينزلق إلى المقعد خلف مقود السيارة، أدار الرجل وجهه نحو الجهة التي نقف عندها؛ لا ظلال؛ رؤية أمامية مباشرة كاملة، فتفحّصتُ الملامح.

أزلت عن هيئته التي يبدو عليها الضفائر والجديلة الصغيرة التي تتدلى خلف رأسه؛ اتصال بين الخلايا العصبية! يبدو أن حرارة الجو آخذةٌ في الانخفاض، وتكثف النهار حولي.

"يا له من هراء رهيب!".

قال سليديل: "ماذا؟".

قالت وولسي: "ماذا؟".

سألتُ وولسي، وأنا أشير بالهاتف الخلوي إلى سيارة اللكزس:

"هل في وسعك أن تقتفي أثر ذاك الرجل؟".

"أتعنين الرجل مجدول الشعر؟".

أومأتُ إيجاباً، وردت على إيماءتي بإيماءة، ثمّ انطلقنا مسرعتين إلى سيارتها.

28

"بريتان!".

ثبَّتُّ حزام أمان مقعدي وتهيأت للتشبث ضد اتجاه اندفاع السيارة في حين كانت وولسي تبدل وجهة السيارة 180 درجة.

"ما الذي يحدث بحق الله؟".

كان يخالط صوت سليديل رنينٌ مهتاج يشبه ذاك الذي يصدر عن شخص عالق وسط الزحام يصرخ طلباً للنجدة من أشياء لا يراها تتخبط في ظلمة ليل حالك.

أدنيت الهاتف من أذني وقلت: "لقد عثرت لتوي على داريل تيري وحددت مكانه".

"كيف تعرفين أنه تيري؟".

"عرفته استناداً إلى الصورة التي أخذتها من جدعون بانكس".

"أين؟".

"في مطعم الكوفي كب حيث كان يشتري طعاماً".

قلت لوولسي، وأنا أشير إلى طريق مورهيد: "تلك الوجهة".

قال سليديل: "ما تظنين أنك فاعلة؟".

"أتعقبه".

صدر عن عجلات السيارة صوت خفيف حين كانت وولسي تنعطف بالسيارة شمالاً نحو مورهيد، متجاهلة الشاخصة الطرقية التي تمنع انعطافاً من هذا القبيل. كانت سيارة اللكزس تتقدمنا مسافةً أبقتها ضمن نطاق قدرتي على رؤيتها. كذلك لم يحترم تيري إشارات السير الضوئية.

قلت لوولسي: "لا تشعريه بأننا نتعقبه".

قالت لي: شكراً على نصيحتك، في حين بقي تركيزها ونظرها منصبين على قيادة السيارة، وكانت يداها متشبثتين بالمقود.

جأر سليديل قائلاً: "يا الله! أمجنونة أنتِ؟".

"قد يوصلنا إلى تاميلا بانكس".

"ابقـي بعيـدةً عـن تيري. ذاك المعتوه سيجهز عليكِ مـن دون أن تكلفيه عناء بذل الجهد".

"لن يعرف أننا نتعقبه".

"أين أنتِ؟".

اتخذت وضع الاستعداد حين كانت وولسي تنعطف بالسيارة مرةً أخرى.

"أنا في منطقة فريدم درايف".

سمعت سليديل يستنجد بريناالدي، بعد ذلك أضحى صوته وثاباً كما لو كان يتكلم وهو يعدو.

"يـا اللـه، بريـنان! لمـاذا لا تستطيعين أن تذهبـي مـع أصدقائـك إلـى مركـز للتسوق".

لم أحبذ أن أرد على ذلك.

"أريـدك أن تنسـحبي فـوراً وأن توقفي السـيارة إلى جانـب الطريق. دعي هذا الأمر لعناصر الشرطة السرية".

"أنا الآن مع إحدى العاملات في الشرطة السرية".

"من؟".

"تيـري وولسـي. لديهـا الشـارة التي تثبت انتماءها إلى الشـرطة السـرية وكل شيء. إنها تقوم بزيارة لنا من ولاية كارولينا الجنوبية".

"في وسعك أن تكوني سبباً في إزعاج شديد وحقيقي، يا برينان".

"لست متفرداً في هذا الرأي".

سمعت أبواباً تُصفَق ثم صوت محرك سيارة يُشغَّل.

"حددي موقعك".

قلت: "نحن نتجه شرقاً على طريق توكاسيجي. انتظر..."، لدى رؤيتها أضواء مكابح سيارة، أبطأت وولسـي السير كي ترجع إلى الوراء، وعندما انعطف تيري

يميناً، زادت ولسي السرعة وانعطفت؛ كان تيري ينعطف شمالاً عند التقاطع اللاحق.

زادت ولسي سرعتها على طول المجمع المحاذي وانعطفت عند زاويته، في حين كان تيري ينعطف يميناً عند نهاية المجمع، اندفعت ولسي بالسيارة إلى الأمام وانعطفت نحو الجهة ذاتها. عند هذه النقطة توارت سيارة اللكزس عن أنظارنا، فقلنا في وقت واحد: "تباً لك".

قال سليديل: "ماذا؟".

كنا في منطقة مجاورة لشوارع كثيرة المنعطفات وفي مكان يفضي إلى طرقات غير نافذة. لطالما ضللت طريقي في متاهات تشبه هذه.

أسرعت ولسي وصولاً إلى مدخل شارع صغير يفضي إلى الجهة اليسرى؛ لا توجد سيارة لكزس.

بينما كانت ولسي تقطع الطريق المحاذية لمجمع سكني بسرعة، كنت أتفحص مداخل الشوارع والسيارات المتوقفة؛ لا لكزس.

عند التقاطع اللاحق نظرنا كلتانا شمالاً ثم يميناً، وقلت: "هناك!".

كانت اللكزس متوقفة بعد منتصف طريق تقع إلى اليمين من حيث كنا نقف، فانعطفت ولسي بالسيارة، ثم أوقفتها.

"... يا لك من...". نمّ صوت سليديل على أنه كان منزعجاً جداً، لذلك وضعت الهاتف على أذني وزودته بالعنوان.

هتف سليديل قائلاً: "لا تفعلي أي شيء. لا تفعلي شيئاً. لا تفعلي شيئاً أبداً!".

"ألا توافق على أن أتصل بمطعم صيني؟ ما رأيك في أن أطلب شيئاً من لفافة البيض على أن يأتوا بها إلى السيارة؟".

بضغطة من إبهامي قطعت الاتصال في أثناء حديثه الذي يحاكي الانفجار صوتاً.

سألتني ولسي، في حين كانت عيناها تلقيان نظرةً شاملةً على الشارع: "هل لدى صديقك أيّ فكرة عن مجيئنا إلى هنا؟".

"سيتحمّس للفكرة".

"هل هو متصلب قليلاً؟".

"لا يتأتى لقب سكيني من حجم سرواله".

أمعنت النظر في ما يحيط بي؛ باستثناء لوح من الخشب المعاكس هنا وهناك، بدا أن البيوت لم يطرأ عليها سوى قليل من التغييرات مذ شيدت في وقت يعود إلى حقبة الكساد الكبير: كان الطلاء متقشراً، في حين كان الصدأ والعفن الجاف يتنافسان في سباق عدو.

أبدت ولسي ملحوظةً وقالت: "قد لا يكون سبب وجود فتاك حضور اجتماع يهدف إلى جمع تبرعات من أجل عمل خيري".

"من المحتمل ألاّ يكون كذلك".

"من هو؟".

شرحت لها أن تيري كان تاجر مخدرات مرتبطاً بتاميلا، وحدثتها عن طفل تاميلا، وعن أسرتها المعدة في عداد المفقودين، ثم قلت: "ليس في وسعي اجتناب التفكير في أن لكل أمر صلةً بالموضوع. لا أقع على دليل، بل على شعور داخلي ينبئني بأن لدى تاميلا مفتاح الوضع برمته".

أومأت ولسي في حين كانت عيناها تتنقلان، وكانت هي تقوّم الوضع.

ظهر رجل من بيت يفصل بينه وبين البيت الذي دخل إليه تيري بابان. كان يرتدي قميصاً حريريًّا أسود فوق كنزة ذات لون أبيض أدكن، وبنطالاً ممزقاً. ثم أتت بعده امرأة ترتدي تنورة جينز تغطي الوركين دون الخصر، وقد تدلى بطنها كأنه بطيخةٌ كبيرةٌ بنية اللون.

نظرت إلى ساعتي؛ لقد مضت سبع دقائق مذ قطعت الاتصال مع سليديل. مرت قربنا سيارة فورد تمبو، وتجاوزتنا، ثم أبطأت السير قبالة سيارة تيري اللكزس، ثم تحركت بسرعة وتوارت عن الأنظار عند منعطف ركن الشارع البعيد.

سألت: "هل تعتقدين أننا لوحظنا؟".

هزت ولسي كتفيها تعبيراً عن عدم مبالاتها، ومدت يدها إلى أزرار التحكم بمكيف الهواء ورفعت مستوى التكييف، فتدفّق الهواء البارد من المروحة.

نظرت إلى الساعة مجدّداً؛ لقد مضت ثماني دقائق مذ قطعت الاتصال مع سليديل. مجموعة من المراهقين السود، يرتدون جميعاً سراويل فضفاضةً، وقد أداروا حواف قبعاتهم التي يعتمرونها إلى الخلف، ظهروا عند زاوية الشارع وهم

يسيرون مختالين كما يفعل أفراد العصابات. اعتلوا الرصيف وساروا باتجاهنا. لدى اكتشافهم سيارة وولسي، تناكبوا واحتشدوا وشكلوا مجموعة متراصة في دائرة وكانت رؤوسهم مجتمعة. بعد ثوانٍ قليلة، أدوا استعراض مصافحة بهلوانياً، ثم استأنفوا سيرهم باتجاهنا.

عندما وصلوا إلى حيث كنا نقف، قفز اثنان من المراهقين فاعتليا غطاء محرك السيارة، واتكأ كل منهما على مرفقيه، وصالبا سيقانهما على هيئة تحاكي تصميم نايكي (Nikes). ودار ثالث نحو باب وولسي، وطوق رابعٌ بابي.

لاحظت يدي وولسي تنخفضان عن مقود السيارة، وقد اتخذت ذراعها اليمنى وضعية الجهوزية قليلاً، في حين كانت كفها مشدودةً إلى جانب فخذها اليمنى.

نظرت إلى عضو العصابة الذي تمركز إلى جانبي؛ بدا أنه في الخامسة عشرة من عمره تقريباً وأكبر حجماً بقليل من حيوان ابن مِقرَض (حيوان شبيه بابن عرس) الأليف، وقد أشار إليّ طالباً مني أن أنزل نافذتي، لكنني تجاهلته. باعد ما بين قدميه، وشبك ذراعيه، وحدق إليّ. حينها، حدقت إليه خمس ثوانٍ كاملةً ثم أشحت بوجهي عنه.

كان زميله عضو العصابة الآخر أكبر سناً ومزيناً بذهب يكفي لإعادة تمويل الوورد كوم (World Com)، نقر بِبُرجمة سبابته على زجاج نافذة وولسي وقال: "ماذا في الأمر؟".

سعى صوته إلى مسامعنا خفيفاً ضعيفاً عبر السيارة المقفلة نوافذها والمغلقة أبوابها، لكننا تجاهلناه.

وضع الفتى ذراعيه وجبهته على نافذة وولسي وقال: "أنتما، أُختَيَّ البيضاوين. يبدو أنكما تزاولان بعض الأعمال التجارية، أليس كذلك؟".

عندما تكلم، كانت الجهة اليمنى من وجهه تتحرّك، كما لو أن الجهة اليسرى منه كانت تعاني شللاً، أو ربما يكون قد تعرض لإصابة تمخضت عن تعطيل نشاط الأعصاب في تلك الجهة.

"تبدين جميلة. أنزلي الزجاج كي أتمكن من التحدث إليك".

أشاحت وولسي بوجهها عنه، ما جعل الفتى يدفع الزجاج بصورة عمودية مستخدماً راحتيه كلتيهما، عندها، حركت وولسي يدها اليسرى حركةً ترمي إلى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إبعاده. رجع الفتى خطوةً إلى الوراء وحدّق إليها غاضباً، فرمقته بنظرة مماثلة.
إحدى عشرةَ دقيقةً.

مثبتاً قدميه ومتخذاً وضع الاستعداد، أحاط الفتى المرآة الجانبية بكلتا يديه، والتفت نحو وولسي، مبتسماً ابتسامةً جانبية.

لن أعرف مطلقاً إن كانت وولسي تحاول الوصول إلى المسدس أو إلى الشارة التي تثبت انتماءها إلى الشرطة السرية. في تلك اللحظة، كانت سيارة سليديل التوروس تنعطف عند ركن الشارع، وتقترب إلى جانب الطريق، حتّى توقفت خلفنا.

على الرغم من أنهم لم يكونوا عند نهاية الطرف الأعلى للمنعطف الذي قدمت منه سيارة سليديل، فقد تمكن اللصوص الصغار الذين واظبوا على مضايقتنا من الهاتف من مسافة تسعين متراً تقريباً منبهين لقدوم سيارة شرطة. عندما فتحت أبواب سيارة التوروس، انزلق رجلا الطليعة من على غطاء محرك سيارة وولسي وشرعا في الانسحاب. أما الفتى الذي كان واقفاً بالقرب من نافذتي، رمقني بنظرة أخيرة عنيفة، وانضم إليهما. أما الفتى الفظ الذي كان واقفاً قرب باب السائق اعتدل في وقفته، وشكّل يده اليمنى على نحو يحاكي المسدس هيئةً، وأطلق إيمائياً طلقةً على وولسي. ثم صفق غطاء محرك سيارة وولسي براحتيه عدة مرات صفقاً قوياً تمخض عن أصوات مدوية، وسار متوجهاً نحو رفاقه مختالاً.

بينما اندفع سليديل نحونا كأنه ريح مرسلة، توقفت سيارتان من سيارات دوريات الشرطة خلف التوروس. وبينما ترجلنا من السيارة قلت: "مخبر سليديل، أود أن ترحب بالمخبرة وولسي".

مدت وولسي يداً كي تصافحه لكن سليديل تجاهلها، فأبقت وولسي يدها ممدودةً بينهما. ثمّ رأيت بطرف عيني رينالدي يخرج من سيارة التوروس ويمشي نحونا مشية المتمهل.

وجه سليديل إبهاماً نحو وولسي، وقال: "أهذه هي المخبرة التي تتحدثين عنها؟"، كان لون وجهه أحمر ضارباً إلى الأرجواني، وكان وريد في جبينه يضخ بغزارة.

قلت: "اهدأ وإلا ستجعل أحد صماماتك ينفجر".

"منذ متى تولين صماماتي اهتماماً...؟".
وجّه سليديل عبوسه نحو وولسي وسألها: "هل أنت على رأس عملك؟".
"لانكستر".
"لستِ مخولةً صلاحيةً للعمل هنا".
"لا، على الإطلاق".
بدا أن ذلك يسلبه بعض الصلاحيات. بينما انضم إلينا رينالدي، صافح سليديل وولسي مصافحةً تعوزها الحماسة. ثم تصافح رينالدي ووولسي.
سحب سليديل من جيبه منديلاً مسح به وجهه وفقاً لطريقته المعهودة، وقال: "ما موضوع اهتمامك هنا؟".
"كنتُ والدكتورة برينان نتناول طعام الإفطار معاً. كما تعلم؛ تُطلعُ إحدانا الأخرى على بعض الأمور. وقد طلبت مني أن أصحبها بسيارتي إلى هذا الموقع".
"أهذا كل ما في الأمر؟".
"هذا يفي بالغرض في الوقت الراهن".
"آهه!"، استدار سليديل نحوي وسألني: "أين تيري؟".
أشرت إلى البيت الواقع خلف سيارة اللكزس.
"أأنت واثقة من أنه تيري؟".
"إنه تيري. دخل إلى البيت منذ نحو خمس عشرة دقيقة".
قال رينالدي: "سأرسل قوة مساندة إلى الخلف"، فأومأ سليديل موافقاً، ذهب رينالدي إلى سيارة دورية الشرطة الثانية حيث تبادل مع السائق بعض الكلمات، ثم سارت سيارة الدورية بمحاذاة المجمع السكني وتوارت عن الأنظار عند منعطف الشارع.
جمع سليديل المنديل بعضه إلى بعض ودسه في جيب خلفي ثمّ قال: "إليكما ما يتعين عليكما فعله: ستدخلان إلى سيارة الشيفروليه التي تخص هذه السيدة المخبرة اللطيفة وستبتعدان من هنا. اذهبا إلى صالون يعتني بالأظافر، اقصدا مدرسة تعلم اليوغا، التحقا بدار العبادة، وبيعا كعكاً يرصد ريعه للأعمال الخيرية. لا يهمني الأمر، لكن أريد أن يفصل بينكما وبين هذا المكان بون شاسع".
شبكت وولسي ذراعيها، وتجمهر الغضب في عضلات وجهها.

قلت: "انظر يا سليديل. أنا آسفة إن كنت قد جرحت شعورك المرهف باللياقة وآداب السلوك. لكن داريل تيري موجود داخل ذلك البيت. قد تكون تاميلا بانكس وأسرتها معه. وقد يكونون في عداد الأموات. في كلتا الحالتين، من المحتمل أن يكون تيري قادراً على إيصالنا إليهم. لكن فقط حين نتعقبه كأننا ظله".

قال سليديل بصوت يقطر سخريةً: "لم أفكر في ذلك قط".

قاطعته قائلةً: "فكر في الأمر".

"انظري، دكتورة برينان، كنت أروّض حثالة الناس عندما كنت تغيرين أحذية الباربي الخاصة بك. أنت لم تحطمي أي أرقام قياسية على صعيد السرعة الأرضية بعثورك على تيري!".

قالت وولسي: "قد نرغب في إبقاء وتيرة أصواتنا منخفضة".

استدار سليديل نحوها، وقال وهو يتفرس فيها: "هل أنت الآن تعرضين أفكاراً وإلماعاتٍ ذكية عن الطريقة التي يتعين علي اتباعها في قيامي بعملي؟".

حدقت إليه وقالت: "ليس ثمة معنى في محاولة ترويضك".

نظر سليديل إلى وولسي نظرة حقد وعداوة، ولكن، لم ترف عينا وولسي أبداً.

انضم رينالدي إلينا مجدّداً. وبينما كنت أنظر من فوق كتف وولسي، لاحظت ستارة تتحرك عند نافذة أمامية من البيت الذي أوقف تيري سيارته أمامه، فقلت: "أعتقد أننا بتنا مُراقبين".

سأل سليديل رينالدي: "هل أنت جاهز؟".

وهو يحل أزرار سترته، التفت رينالدي ولوح بيده لرجلي الشرطة الموجودين بسيارة الشرطة الباقية في مكانها، وسرعان ما فُتح الباب.

في تلك اللحظة، انفتح باب البيت الأمامي بسرعة وبقوة، واندفع منه شخص يعدو عبر الشارع، واختفى أسفل ممشى في الجانب المقابل.

29

لم يفجّر سليديل صماماً، ولم يحمل داريل تيري على الركوع على الأرض. بقدر ما تسعفني الذاكرة، في وسعي أن أصف ما حدث على النحو الآتي:

انطلق سليديل وريناليدي بأقصى سرعة بمحاذاة المجمع، وكانت أرجلهما ترتفع وتنخفض بحركات ميكانيكية كأنها مقابض مضخات في حين كانت ربطتا عنقيهما تتطايران في الهواء متجهتين إلى الخلف، وقد تخطيا رجلي الشرطة عدواً في ثوانٍ.

بينما كان الأربعة يجتازون الشارع متجهين نحو البيوت المقابلة للمكان الذي توقفت فيه سيارة اللكزس، تبادلت وولسي النظرات، ثم هرعنا إلى سيارة السيدة المخبرة اللطيفة الشيفروليه.

قطعت وولسي بالسيارة الشارع المحاذي للمجمع السكني بأقصى سرعة وصولاً إلى المنعطف، وانعطفت بقوة جعلت عجلات السيارة تصدر أصواتاً قوية. ضغطت بإحدى يدي على مقبض الباب وبالأخرى على "التابلو". انعطافة أخرى عنيفة جعلت السيارة تتمايل بنا عند نهاية الزقاق، وتطايرت الحصى من عجلات السيارة وارتطمت بحاويات وهياكل سيارات صدئة متوقفة عن يميننا وعن شمالنا.

قلت: "هناك!"، تمكنت من رؤية رينالدي، وسليديل، وأحد رجال الشرطة على بعد نحو تسعة أمتار.

زادت وولسي السرعة ثم كبحت السيارة. وأنا أميل بجسدي إلى الأمام ثم أعود به إلى الخلف، أجريت قراءةً سريعةً للموقف.

وقف رينالدي وأحد رجال الشرطة وقد باعد كل منهما بين ساقيه، وكان كل منهما يقف على أهبة الاستعداد وفي يده مسدس. كان سليديل منحنياً مسنداً يديه إلى ركبتيه يتنفس تنفساً عميقاً مستهلكاً جرعاتٍ كبيرةً من الهواء، وكان وجهه يميل

إلى اللون البنفسجي، في حين كان وجه رينالدي بلون اللحم المشرح.

قال رينالدي لاهثاً وهو يمسك المسدس بكلتا قبضتيه ويصوبه إلى الأمام: "شرطة!".

كان الرجلان المطروحان أرضاً يتخبطان مثل عنكبوت مُسَمَّر: شرطي في الأعلى وطريدةٌ باتت فريسةً أسفل منه. كان كلاهما ينخران نخراً، وكان ظهراهما داكنين يتصببان عرقاً. تمكنت من رؤية حصّى وحطام هاتف خلوي في ضفائر شعر دقيقة مجدولة من تحت كتف الشرطي اليمنى.

صرخ الشرطي الواقف: "لا تتحرك!".

ازدادت وتيرة التخبط.

"اجمد...!"، قالها الشرطي الواقف وهو يصرخ باذلاً قصارى جهده؛ احتجاجات مكبوتة، وأشخاص تابعون لذاك المطروح أرضاً يتلوون على الرصيف.

"الآن! وإلا أطلقت النار على دماغك الفارغ!".

قابضاً على معصم، لوى الشرطي المصارع ذراع الرجل الذي كان منبطحاً على الأرض ووجهه إلى الأسفل، جاعلاً إياها خلف ظهره. احتجاج آخر، ثم توقف التخبط. عندما مدّ الشرطي المصارع يده ليفك خطاف الأصفاد من حزامه، هز الرجل مضفور الشعر جسده هزاً عنيفاً، وأخذ الشرطي المصارع على حين غرة، وبدأ يدور من جانب إلى آخر وتحرر من قبضة الشرطي، ثم وقف على قدميه وترنح، وتقدم إلى الأمام وهو يدور منحنياً نصف انحناءة. دونما تردد، عشقت وولسي ناقل سرعة السيارة الارتدادي، ولقمت محرك السيارة بالبنزين فجأةً وبسرعة، ورجعت بها إلى الوراء، ثم بسرعة أيضاً تقدمت بها إلى الأمام مغلقةً الزقاق بسيارة الشيفروليه، حينها هبّ الشرطي المصارع واقفاً على قدميه وعبر الزقاق، ثمّ ضرب وشريكه الرجل في وقت واحد، وحجزاه بينهما وبين جانب سيارة الشيفروليه.

"لا تتحرك أنت أيها الـ...!".

مجدّداً، لوى الشرطي المصارع إحدى ذراعي الرجل وجعلها خلف ظهره. عندما سمعت صوتاً صاعقاً ناتجاً عن ارتطام رأس الرجل بسقف السيارة، ترجلتُ ووولسي من السيارة، ونظرنا إلى الرجل الذي أُحنيَ فوق السيارة. كانت الأصفاد

قد أحاطت بمعصميه، ووضعت فوهة مسدس الشرطي على صدغه.
بينما كان الشرطي المصارع يلهث بشدة، ركل ساقَي الرجل مباعداً بينهما وبدأ بتفتيشه. تمخض تفتيشه عن حيازته على مسدس من نوع غلوك نصف أوتوماتيكي عيـار 9 ملـم، وكيسـين صغيرين مقفلين، كان أحدهمـا مملوءاً ببودرة بيضاء اللون، في حين كان الآخر مملوءاً بحبوب صغيرة الحجم بيضاء اللون.
بينما كان الشرطي المصارع يناول شريكه المخدرات، أمسك بتلابيب الرجل وضيق الخناق عليه. أمسك الشرطي الواقف الكيسين ورجع خطوةً إلى الوراء وقد أبقى فوهة المسدس موجهة إلى صدر الرجل.
حدق داريل تيري إلينا، وكانت إحدى شفتيه تنزف دماً.
كانت السلاسل الذهبية قد تعقدت في عنقه، في حين بدت ضفائر شعره كأنها مسحت أرض حلبة مصارعين.
وضـع كل مـن سـليديل وريناﻟـدي مسدسـه في قرابه واقتربـا من تيري، وكان سليديل لا يزال يتنفس بصعوبة.
متجنباً النظر المباشـر إلى عيونهما، التفت تيري وحرك جسـده نحو الخلف، ثم حركه مجدّداً كما لو أنه لم يكن واثقاً ممّا يفعل بقدميه.
شبـك كل مـن سـليديل وريناﻟـدي ذراعيـه على صدره ونظرا إلى تيري، ولم ينبس أحد رجلي الشرطة ببنت شفة، ولم يتحرك أحد منهما. كما ظل تيري مطرقاً رأسه ساكناً ينظر إلى الأرض.
بعد قليل، أخرج سليديل من جيبه علبة سجائره، وأخرج منها سيجارة بأسنانه، وعرض العلبةَ على تيري الذي قال له، وقد بدا وجهه مسفوعاً محموماً، وقد تطاير الشرر من عينيه غضباً: "أترغب في التدخين؟".
هز تيري رأسه هزةً شديدةً جاعلاً ضفائر شعره تهتزّ خلف عنقه. أشعل سليديل السـيجارة، وعبَّ شـيئاً من دخانها، ووضع يديه على خاصرتيه، ونفث الدخان ثمّ قال: "حبوب مخدرة ومسحوق مخدر. هل تخطط لبيع الاثنين معاً؟".
تمتم قائلاً: "لا أتاجر بها".
قال سـليديل: "أنا آسـف يا داريل. لم أسـمع ما قلته"، ثم التفت نحو شـريكه وقال: "هل استوعبت ما قاله؟"، فهز ريناﻟـدي رأسه نافياً: "ماذا تقول يا داريل؟".

أدار تيري عينيه نحو سليديل، لكن ضوء الشمس الشحيح الذي تسلل إلى الزقاق كان قد حجبه ظهر المحقق، الذي كان ينظر شزراً حول وجهه إلى أحد الجانبين، وقال: "اللعنة... إنها ليست لي".

"لديّ مشكلة واحدة مع ما تقوله يا داريل. كانت المخدرات تقوم برحلة في ثيابك".

"لقد خُدِعتُ".

"من يمكن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل؟".

"أنا رجل ناجح في عملي، وللإنسان أعداء. أنت تدرك ما أقوله، أليس كذلك؟".

"نعم، أنا أدرك. أنت رجل نزِق يا داريل".

"ليس لديك دليل ضدي. كل ما في الأمر أنني رجل يهتم بعمله".

قال سليديل: "ما نوع العمل الذي تقوم به؟"، فهز تيري كتفيه استخفافاً، وتجاهله.

عبّ سليديل دخاناً، وألقى بعقب السيجارة أرضاً، وداسه بقدمه قائلاً: "لمصلحة من تعمل يا داريل؟".

هزة كتفين أخرى تعبيراً عن الاستخفاف.

"أتعرف في ما أفكر يا داريل؟ أعتقد أنك منخرط في نشاط مزدوج". هز تيري رأسه وعقف عنقه.

تنهد سليديل خائب الأمل وقال: "هل هذه الأسئلة عسيرةٌ جداً عليك يا داريل؟".

التفت سليديل نحو شريكه قائلاً: "ما رأيك يا إيدي؟ هل تعتقد أن ما نقوله شديد التعقيد والصعوبة حيث يتعذر على داريل استيعابه؟".

قال رينالدي: "في وسعنا أن نجرب مقاربةً أخرى. تعلمت ذلك من عملي الميداني في مضمار التحقيق. تعلمت أن المقاربات تتنوع".

هز سليديل رأسه، ثمّ نظر إلى تيري قائلاً: "كيف كان ذلك؟ لماذا فعلت ما فعلته بتاميلا بانكس وطفلها الرضيع؟".

أبدت عينا تيري أول ملمح من ملامح الخوف وقال: "لم أفعل شيئاً لتاميلا.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كنا معاً".

"معاً؟".

"كنتُ وتاميلا معاً، فلماذا أؤذيها؟".

"هـذا أمـر جيـد. أليس كذلـك يـا إيدي؟ أعني أن يكونا معاً أمـر عظيم، ألا تعتقد ذلك؟".

وافق رينالدي قائلاً: "كل ما نحتاج إليه هو الحب".

التفت سليديل نحو تيري وقال: "لكن أنت تعلم يا داريل، أحياناً يكون لامرأة من النساء عينان تائهتان، أتعرف ما أقصده؟". غمز سليديل بعينيه غمزةً مبالغاً فيها، "طريقتي في التفكير، أن تكونا معاً مما يعني أن تكونا معاً. يتعين على المرء أحياناً أن يضبط سلوك فتاته. يا للعذاب! كلنا سبق لنا أن سلكنا هذا المسلك".

مال تيري برأسه إلى أحد الجانبين وقال: "إنّ ضرب المرأة عمل خسيس".

"هل يحتمل أنها كانت صفعةً واحدةً خفيفةً؟ أو لكمة على الكليتين؟".

"لا يا رجل، أنا لست منخرطاً في ذاك القرف".

"ماذا عن ضرب طفل رضيع؟".

ضـرب تيـري الأرض بعقـب قدمـه، وأدار رأسـه إلـى الجانـب الآخـر قائلاً: "هراء...".

ارتفع حاجبا سليديل تعبيراً عن اندهاش زائف ألمّ به وقال: "هل نقول شيئاً يرمي إلى الإساءة إليك يا داريل؟"، التفت سليديل نحو شريكه وقال: "إيدي، هل تعتقد أننا أسأنا إليه؟ أم تعتقد أن لدى السيد التِرق سراً لا يريد أن يطلعنا عليه؟".

تابـع رينالـدي الاستعراض المسـرحي، وقال موجهاً كلامه إلـى تيري: "لدينا جميعاً هياكل عظمية، نعم. لكن الهيكل العظمي الذي كان لدى تيري ضئيل جداً ومتناهٍ في الصغر ألقي به في موقد ضخم بغيض".

"لم ألحق أي أذى بتاميلا".

"ماذا حصل للطفل الرضيع؟".

"الطفل ميت. هذا كل ما في الأمر".

"وبدا موقد النار كأنه نصب تذكاري مؤثر: أليس كذلك؟".

ضـرب تيـري مـرة أخـرى علـى الأرض بعقـب قدمـه وقال: "يا رجـل، لماذا

تحاول أن تعاملني على هذا النحو؟".

"نحن آسفان حقاً يا داريل. ندرك أن هذه الانتكاسة الصغيرة قد تؤخر صنعك مستكشفَ العُقابِ (Eagle Scout)".

حرك تيري قدميه وقال: "ربما أقوم بعمل صغير. هذا لا يعني أنني أعرف شيئاً عن تاميلا".

"أتقول عملاً صغيراً؟ لقد ضبطناك لتونا وفي حوزتك ما يكفي من حبوب ومخدرات لإرسال أبناء إخوتي الثلاثة إلى جامعة هارفرد".

تقدم سليديل خطوتين إلى الأمام، وجعل وجهه في مواجهة وجه تيري وقريباً جداً منه، حيث لم يكن يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة وقال: "أنت تسقط سقوطاً سيئاً يا تيري".

حاول تيري أن يرجع إلى الوراء إلا أن سيارة الشيفروليه حجزته وأبقته عالقاً بينها وبين سليديل قريباً جداً منه وضمن نطاق أنفاسه.

"أتعرف كم يمكث قتلة الأطفال في السجن؟".

أدار تيري رأسه جانباً إلى أقصى مدى أتاحه له عنقه.

قال من فوق كتفه مخاطباً رينالدي: "أقول ثلاثة أشهر تقريباً. هل تعتقد أن هذا يبدو لك مناسباً؟".

"نعم. ربما تمتد إلى أربعة أشهر إن كنت جلفاً قاسياً".

"مثل داريل".

"مثل داريل".

لم أستطع أن أتحمل أكثر، لذلك قلت: "من فضلك، هل تعرف أين تاميلا؟".

رفع رأسه ونظر إلي من فوق كتف سليديل، وقد تسمرت عيناه في عيني لحظةً؛ كانت لحظة فقط، لكنها كانت كافيةً. شعرت كما لو أنني كنت أنظر إلى فراغ مظلم لا طائل تحته، ثمّ أشاح بوجهه عني من دون أن ينبس ببنت شفة.

قلت ميممة وجهي شطر جانب وجهه: "أرجوك، لم يفت الوقت بعد على مساعدتك نفسك".

حرك تيري قدميه وهو يشخر عبر أنفه ازدراءً، وهز كتفيه صلفاً واستخفافاً. ما انفكت فكرة رهيبة تدور في رأسي. تاميلا وأسرتها في عداد الأموات. هذا

الرجل يعرف. هذا الرجل يعرف أموراً كثيرةً.
بينما كنت أشاهد تيري مقتاداً، انتابني شعور بارد يبعث على الغثيان.
في مركز الفحص الطبي التابع لمقاطعة مكلنبورغ، كان باب مكتب تيم لارابي مفتوحاً. خامرني شعور بأنه كان جالساً في مكتبه، فناداني حين كنت أمر بجانب مكتبه.
"إنك تبحثين عن المتاعب مع إدارة شرطة نيويورك".
دخلتُ إلى مكتبه وتابع قائلاً: "يقال إنك رغبت في إجراء بحث مفتوح عن تيري، لذلك تعين على سليديل اعتقالك".
"ليس في وسع سليديل اعتقال أحد. أنا فكرت في أنه يجب عليّ إجراء إنعاش قلبي رئوي له".
"هل قال تيري لك شيئاً مفيداً؟".
"إنه بريء".
سأل لارابي: "ماذا الآن؟".
"بمجرد التقاطهما أنفاسهما، فإن رينالدي وسليديل عازمين على استجواب تيري استجواباً قاسياً، وقد جعلا منه منافساً لسوني باوندر. أحدهما سيعيد توظيف المال من جديد".
"أنا مراهن بمالي على باوندر".
"رهان جيد. السؤال هو: ما مدى معرفة سوني؟".
ارتسمت على وجه لارابي نظرة طفل لا يقوى على كتم سرٍّ وقال: "هل لك أن تحزري مَن في المخزن؟".
هذه هي طريقة لارابي في الإشارة إلى الميت الذي يوضع بصورة مؤقتة في مكان حفظ الجثث مجهولة الهوية.
"ريكي دون دورتون".
"أخبار قديمة".
"أسامة بن لادن".
"أفضل من ذلك".
أشرت إليه بأصابعي أن يتبعني؛ كان الاسم آخر ما توقعت أن أسمعه.

30

"بريان أيكر".

نبأ مثير خلّف لدي اهتياجاً كبيراً غامراً شبيهاً بذاك الذي ينتابك قبيل ترجلك عن متن سفينة دوارة إلى اليابسة. كان أحد الأبراج التي شيدتها من عيدان تخليل الأسنان ينهار.

"هل أنت واثق؟".

"عثر على الجثة في سيارة أيكر. ووُجد كثير من مُعيِّنات الهوية على الجثة. مطابقة تامة على الأسنان".

"لكن الجمجمة، وعظام لانكستر..."، لفظت الكلمات بسرعة واهتياج فاختلطت مع بعضها.

"ليس فتاك. تعرفين سابقاً أن الجمجمة لم تكن جمجمته. تبين أخيراً أن العظام ليست له أيضاً".

"كيف؟ أين؟"، كنت تحت تأثير صدمة عنيفة جداً؛ الأمر الذي حال دون طرحي أسئلة ذات مغزى.

"سحبوا سيارته من بحيرة صغيرة من حديقة الولاية في كراودرز ماونتن".

"ماذا كان يفعل أيكر في كراودرز ماونتن؟".

"لم يكن يولي مقود السيارة اهتماماً".

"هل استغرق العثور عليه خمس سنوات؟".

"يبدو أن البحيرة ليست شعبيةً".

"ماذا الآن؟".

"تعاني المنطقة جفافاً، ومستويات المياه منخفضة. انزلق طفل من السد، أو سقط من مرطم البحيرة، أو حدث أمر لعين. كانت السيارة تبعد مسافة مترين

تقريباً عن مكان رسو قارب، وكان سقفها منخفضاً خمسين سنتيمتراً تقريباً عن سطح الماء".

أمور تحدث دوماً: زوجان يغادران مطعماً، ثم يختفيان، وبعد سنتين يُعثَر على جثتيهما في قاع بركة ماء في منطقة مجاورة. جد يغفل عن أطفال، ويتوجه إلى البيت. عُثر في الميلاد اللاحق على سيارة الهوندا العائدة ملكيتها للرجل المسن في مجرى للمياه تحت الطريق السريعة. أمّ تحرر المكبح وتقود سيارة الأسرة المكشوفة لتصطدم بصهريج بمن فيها من أولاد وغيرهم، وبعد أربعة أشهر ترتطم المروحة (الداسرة المسيرة) التي تكون مثبتة عند مقدم سفينة، بجسم معدني فتسحب السيارة وتنتشل جثث الضحايا من الوحل.

تقع آلاف الحوادث كل سنة على صعيد قيادة السيارة، ولعب الغولف، وركوب الدراجات، أو على صعيد السير على الأقدام. لا أحد يكتشف أي شيء، ثم يكتشف شخص ما أمر حادثة معينة.

تابع لارابي كلامه قائلاً: "كانت النوافذ مقفلة، والسيارة محكمة الإغلاق بما يكفي للحيلولة دون دخول السلطعونات والأسماك إليها. لم يبدُ أيكر في هيئة شديدة السوء إذا أخذنا في الحسبان الزمن الطويل الذي أمضاه وهو يعاقر الشراب".

"أين؟".

أخطأ لارابي فهم سؤالي.

"في المقعد الخلفي".

"هل أرسلت الجثة إلى تشابل هيل؟".

هز لارابي رأسه نافياً وقال: "كان طبيبان باثولوجيان من أطبائهم في إجازة وآخر مريضاً. سألني الرئيس إن لم يكن لدي مانع من أن أؤدي المهمة هنا".

هززت رأسي ذاهلةً، كان ذهني مشغولاً بالعظام التي لن تكن عظام بريان أيكر، وقد رصد لارابي الحالة النفسية التي كانت تعتريني، فقال: "أعتقد أن ذلك يجعلك في حيرة من أمرك بشأن الجمجمة التي عُثِر عليها في دورة المياه وعظام لانكستر".

"نعم".

"هل حصلتِ على التقرير الذي كنت تنتظرينه؟".

"لا".

بينما كان لارابي ينتظر، كنت أُقَلِّبُ الأمور في رأسي. كان لا يزال منتظراً عندما رن هاتفه. بعد لحظة تردد، أمسك به.

انسحبتُ إلى مكتبي لأقلّب الأمور في رأسي بشكل أوضح، لكنّ العملية لم تسر سيراً حسناً. جربت أن أصب مزيداً من القهوة في فنجاني، لكن، لم يطرأ تحسن.

بعد أن شغّلت حاسوبي المحمول، جربت أن أنظم حاسوبيًّا ما اكتشفته وعلمته في الأيام الإحدى عشرة الأخيرة.

مجموعة أمكنة: مزرعة فوت، موقع تحطم الطائرة، مقاطعة لانكستر؛ كارولينا الجنوبية، كولومبيا؛ كراودرز ماونتن، ستيت بارك.

ألم تكتشف جثة لانكستر في ستيت بارك أيضاً؟ دونت ملحوظةً.

مجموعة أُناس: تاميلا بانكس، هارفي بيرس، جايسون جاك ويات، ريكي دون دورتون، داريل تيري، سوني باوندر، والتر كاجل، لورانس لوبير، سنو موريه، جيمس بارك، بريان أيكر.

تصنيف واسع جداً، لذا، حاولت تقسيمه إلى وحدات أصغر.

أشرار: هارفي بيرس (ميت)، جايسون ويات (ميت)، ريكي دون دورتون (ميت)، داريل تيري (رهن الاعتقال)، سوني باوندر (رهن الاعتقال).

ضحايا؛ هذا ما لم يُجدِ نفعاً. كنت أضع كثيراً من علامات الاستفهام بعد الأسماء، ثمّ فرّعتُ المجموعة إلى شُعب.

ضحايا مؤكدة: طفل تاميلا بانكس الرضيع، صاحب الجمجمة وعظام اليدين التي عثر عليها في دورة المياه، صاحب الهيكل العظمي الذي عثر عليه من دون رأسه في مقاطعة لانكستر.

ضحايا محتملة: تاميلا بانكس وأسرتها، والتر كاجل، سنو موريه، بريان أيكر.

هل تنتمي تاميلا بانكس وأسرتها إلى هذه المجموعة؟ هل أصابهم مكروه حقاً، أم إنهم ببساطة رُوِّعوا وأُجبِروا على الاختفاء؟

هل يمكن أن يُعدَّ طفل تاميلا بانكس الرضيع خارج هذه المجموعة؟ هل يمكن أن يكون الطفل الرضيع قد مات ميتةً طبيعية؟ عرفت بسبب فحص العظام

أن الرضيع استوفى زمن الحمل الطبيعي، لكن من المحتمل أن يكون قد وُلِد ميتاً.

هل كان انهيار كاجل حقيقياً، أم أن دخوله في غيبوبة كان نتيجةً لعمل مدبر بطريقة ما؟ هل كان زائر كاجل المجهول الذي زاره في الجامعة هو الرجل ذاته الذي رآه لوبير معه في المقهى؟ لماذا لم ينقل لوبير شريكه إلى أقرب مستشفى؟ أين كان تقرير كاجل عن العظام التي عُثِر عليها في لانكستر؟

هل كانت أسباب موت سنو موريه طبيعيةً؟ هل كان المحقق في أسباب الوفيات المشبوهة في مقاطعة لانكستر قد أعاد فتح تحقيق بشأن الجثة مقطوعة الرأس والبدين عندما توفي؟ لماذا؟

هل ينتمي دورتون إلى هذه الفئة؟ مات دورتون بسبب تعاطيه جرعة زائدة من مخدّر. هل كان ذلك من فعله وتدبيره الذاتي؟ أم أنه كان مدبّراً؟

لم أتوصل إلى أي نتيجة.

أمسكت قلماً وورقة، وحاولت أن أصل بين الأمور مستعينةً برسم بياني. رسمت خطاً يصل بين دورتون وويات وطبعت فوقه كلمة **ملونجيونيان**. ثم مددت الخط وصولاً إلى بيرس وطبعت كلمة **سيسنا** على الأسماء الثلاثة جميعها.

وصلت بين تيري وباوندر وطبعت على الخط الواصل بينهما **مزرعة فوت**، ومددت الخط وصولاً إلى كلمتي "جمجمة دورة المياه"، ومن ثم إلى الاسم: تاميلا بانكس.

وصلت اسم تيري بالخط الذي يضم دورتون وبيرس وويات وطبعت عليه على عجل كلمة **كوكايين**.

رسمت مثلثاً يربط بين كاجل، وسنو، وبقايا الجثة التي عثر عليها في لانكستر، ثم عقفت الخط لأصله بالجمجمة التي عثرت عليها في دورة مياه مزرعة فوت. ثم مددت من كل ذلك خطاً، وأضفت خطوطاً صغيرةً تتفرع منه أفردتها لعظام الدببة وريش الطير، ورسمت منها خطاً يصل إلى جايسون جاك ويات، وأضفت آخر، وكتبت اسمَي بريان أيكر وشارلوت غرانت كوب عند نهاية الخط. أمعنت النظر في عملي اليدوي الذي بدا كشبكة عنكبوت تتضمّن أسماء وخطوطاً متقاطعة.

هل كنت أحاول الربط بين أحداث لا رابط بينها؟ بين أشخاص متفاوتين وأماكن متباعدة؟ كلما ازددت تفكيراً، كلّما ازددت إحباطاً بسبب ضآلة المعرفة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

التي حصلت عليها.

عودة إلى الحاسوب الشخصي.

ضحايا محتملة: بريان أيكر.

الجمجمة التي عُثِر عليها في دورة المياه وبقايا الهيكل العظمي التي عثر عليها في لانكستر؛ لا هذه ولا تلك يمكن أن تعود إلى عميل مركز الحياة البرية والأسماك. قاد أيكر سيارته بعيداً عن مركب راسٍ وغرق. كنت بصدد شطب اسمه من مجموعة الضحايا المحتملة عندما أوقفت يديّ فكرة تثير القلق. لماذا عثر على أيكر في المقعد الخلفي لسيارته؟

سؤال طيِّع سهل. دفعت مقعدي إلى الخلف، وذهبت سعياً وراء الحصول على إجابة.

كان لارابي يعمل في الغرفة النتنة، وعرفت السبب لحظة دخولي؛ كانت بشرة أيكر مرقَّطةً باللونين الزيتوني والبني، وقد أصبحت جثته شمعية؛ إنّ التعرض للهواء لم يُحَسِّن حاله.

ما تبقى من رئتي أيكر تمدد مشرحاً ومفلطحاً على لوح فليني عند الجزء الأدنى من قائمة طاولة التشريح. ثمة أعضاء أخرى متحللة تركت في وعاء معدني معلق.

سألت، وأنا آخذ أنفاساً قصيرةً متتابعةً وأتوقف طلباً للراحة: "كيف تسير الأمور؟".

"ثمة تشكل لشحم نسيجي واسع النطاق. الرئتان ضعيفتا البنية إلى حدٍّ بعيد ومتحللتان. سائل متعفن في الشعب الهوائية"، بدا لارابي محبطاً كما شعرت، "ما تبقى؛ الحيز الهوائي المتبقي بدا مخففاً، لكن قد يكون ذلك ناجماً عن فقاعات هوائية".

انتظرت، في حين كان لارابي يعتصر محتويات معدة أيكر ويفرغها في مرطبان ويسلم العينة إلى جو هوكينز.

"هل كان غرقاً عرضياً؟".

"لا أجد أي شيء يوحي بما هو خلاف ذلك. الأظافر متكسرة، ويبدو أن اليدين قد تأكّلتا. لا بد من أن الرجل المسكين كان قد كافح كي يخرج من السيارة،

ومن المحتمل أن يكون قد حاول كسر النافذة".

"هل ثمة وسيلة يمكن أن تحدد بصورة قاطعة أن الموت كان بسبب الغرق؟".

"إنـه لمـن الصعـب جداً تحديد هذا الأمر بعد خمس سـنوات أمضاها الرجل في الماء. قد يساعد في هذا المجال فحص الدياتومات".

"ما هي الدياتومات؟".

"متعضيات مجهرية توجد في العوالق (حُيَيوِنات ونباتات طحلبية تطفو عادةً بكميات وافرة فوق سـطح الماء) والمياه العذبة والرُّسوبات البحرية. وُجدت بعد حقبة قصيرة من الانفجار الكبير. إنها تعيش بأعداد ضخمة لا حصر لها. في الواقع، بعض أنواع التربة تتشـكل كلياً من أشـياء بسـيطة من هذا القبيل. هل سبق لك أن سمعت بالتربة الدياتومية المتحجرة؟".

"أختي تستخدم تراباً دياتومياً لتنقية مياه مسبحها".

"تماماً. تسـتخرج هـذه المـادة تجارياً؛ كي تسـتخدم في عمليات الكشـط، وبوصفها مادة تساعد على التنقية".

تابع لارابي حديثـه حيـن كان يفتـح معـدة أيكر ويفحصها: "يـا لهـا من متعة عظيمة حقاً أن تنظري إلى الدياتومات مُكَبَّرة. إنها صدفات صغيرة جميلة تنمو في تربة غنية بالسليكا (مادة كيميائية تحتوي على السليكون) من كل الأنواع والأشكال والتكوينات".

"ذكِّرني بالعلاقة بين الدياتومات والغرق".

"نظرياً، بعض أنواع المياه تحتوي على ضروب معينة من الدياتومات. لذلك، إن عثرتِ علـى دياتومـات في أعضاء الجسـد، فهذا يعنـي أن الضحية ماتت غرقاً. يعتقد بعض الأطباء الشرعيين أن في وسعك أن تربطي بين ضحية ماتت غرقاً وبين قوام محدد للماء".

"تبدو متشككاً".

"بعض زملائي يحتفظون بكميات كبيرة من الدياتومات. أنا لا أفعل ذلك".

"لماذا؟".

تجاهل لارابي السؤال وقال: "الناس يبتلعون الدياتومات".

"إن كان في وسعنا الحصول على دياتومات في تجويف نقي في عظم طويل، ألا

نكون قادرين على استنتاج أنها وصلت إليه عبر تدبير أجري للقلب؟".

فكّر لارابي في هذا الأمر وقال: "نعم من المرجح أن يكون في وسعنا ذلك"، وجّه مشرطاً نحوي، "سنفحص عظم فخذ. علينا أيضاً أن نرسل عينةً من مياه البحيرة. إن وجدوا دياتومات في عظم الفخذ، فسيكون في وسعهم أن يقارنوا الهيئة التي تتبدى عليها إحداهما بالأخرى".

"نقطة جيدة".

انتظرت، في حين كان لارابي يقطع مريء أيكر طولياً، ثم قلت: "هل العثور عليه في المقعد الخلفي أمر ينطوي على أهمية؟".

"من المرجح أن يكون وزن المحرك قد جذب مقدم السيارة نحو الأسفل مخلفاً آخر فقاعة هواء عالقة في أعلى مؤخرها. عندما يعجز الضحايا عن فتح أبواب السيارة، يزحفون إلى الخلف ونحو أعلى نقطة داخلها ليتمكنوا من التنفس أطول وقت ممكن. أو أحياناً تطفوا الجثة متجهةً إلى الخلف".

هززت رأسي.

"بطبيعة الحال، سنجري تنظيراً شعاعياً بحثاً عن سم يحتمل وجوده، وسنخضع عينات من السيارة وسلم القارب في مسرح الحدث للتحليل. إلا أنني لا أرى أي أمر يثير الشك".

كانت ملابس أيكر وأمتعته الشخصية تجفف على طاولة العمل، فمشيت إلى حيث كانت لإلقاء نظرة عليها. كانت بمنزلة إلقاء نظرة عبر التلسكوب على آخر صباح أمضاه العميل فوق اليابسة، وكان يرتدي قليلاً من الملابس الملطخة بالوحل والطين: ألبسته داخلية، قميص طويل الكمين مخطط باللونين الأبيض والأزرق، بنطال جينز، جورب رياضي، حذاء أديداس رياضي، سترة سوداء من الصوف.

هل لبس أيكر جوربه قبل أن يرتدي الجينز؟ هل ارتدى بنطاله قبل قميصه؟ شعرت بالحزن لحياة انتهت على نحو مفاجئ جداً.

إلى جانب الملابس وضعت محتويات جيوب أيكر: مشط، سكين منمنمة من النوع الذي يستخدمه الجيش السويسري، ثلاثة وعشرون دولاراً أميركياً من العملة الورقية، أربعة وسبعون سنتاً من العملة المعدنية، محفظة جيب مع شارة مركز حماية الحياة البرية والأسماك، بطاقة هوية صادرة عن تلك الجمعية، محفظة

بطاقات اسمية من الجلد الطبيعي.

إضافة إلى رخصة قيادة سيارة صادرة من كارولينا الشمالية، أزاح هوكينز بطاقة اتصال هاتفي بالأماكن البعيدة، وبطاقة أيه. أف. أف. على متن خطوط الولايات المتحدة الجوية (US Airways)، وبطاقتين ائتمانيتين إحداهما صادرة من شركة دينرز كلاب (Diners Club)، والأخرى من شركة فيزا (Visa)، وكانت جميعها في المحفظة الجلدية المستطيلة.

لبست قفازاً في يدي اليمنى، ومررت إصبعاً على الصورة المثبتة على رخصة قيادة السيارة. العينان البنيتان الراسختان كانتا بعيدتين كل البعد عن هذا التشوه المغاير لكل ما هو طبيعي الملقى على طاولة لارابي، وكذلك كان الشعر رملي اللون.

أحنيت رأسي وأنا على مقربة منه، وتفحصت الوجه، متسائلةً: تُرى ماذا كان يفعل أيكر على متن قارب راسٍ في كراودرز ماونتن؟ ثمّ سحبت رخصة قيادة السيارة وقلبتها.

كان ثمة بطاقة أخرى ملتصقة بها من الخلف. فصلتها مستخدمةً ظفر إبهامي لهذه الغاية. بطاقة زبون متميز لدى سوبر ماركت هاريس تيتر. وضعت البطاقة على الطاولة، وعدت أنظر إلى رخصة القيادة.

التقطتُ أنفاسي وقلت: "ثمة شيء عالق وملتصق خلف هذه البطاقة". التفت هوكينز ولارابي كلاهما لينظرا إليَّ. التقطت ملقطاً من أحد الأدراج، وحررت ببطء ورقة مسطحة وأخرجتها من خلف رخصة القيادة.

"تبدو ورقة مطويةً".

استخدمت الملقط مجدّداً، وحررت الورقة من أحد أطرافها، ثم استخدمت الملقط مرةً أخرى فانتشرت الورقة المطوية فوق الطاولة. على الرغم من أنها كانت ملطخةً ومبقعةً، فإن حروفها كانت واضحة.

قلت، وأنا أفرد الورقة فوق صينية لحملها وعرضها تحت عدسة التكبير: "يبدو أنها نوع من ملحوظة مكتوبة بخط اليد. قد يكون المدون فيها عنواناً أو رقم هاتف أو اتجاهات طريق".

قال هوكينز: "أو وصية أخيرة".

قال لارابي: "يرجح أكثر أن تكون لائحة تسوق".

بـدا هوكينـز متخـذاً موقفـاً دفاعياً إذ قال: "يمكـن أن يكون الرجل قد خربش كلمـات علـى عجـل، ثـم دس الورقـة التـي خربش عليها في محفظتـه ظناً منه أنها ستحفظ. يبـدو أن هـذا مـا كان قـد حدث على وجه الدقة. لقـد وُقيت الورقة بلل الماء؛ لأنها كانت موضوعة بين البطاقات، الأمر الذي حال دون تسرب الماء إليها".

أصاب هوكينز في فهمه لطريقة حفظ الورقة.

بينما كنت أضيء الضوء المحيط بعدسة التكبير، انضم إليّ هوكينز ولارابي. نظرنـا جميعـاً إلـى الكتابة عبر الإضـاءة والتكبير. وكان ما تبقـى مما كان قد كتب عليها ما يلي:

o question. C o ins dirty.
ding to lumbia.
Be car
See you in tte day

حتى في ظل ظروف مثالية، سيكون من الصعب فك رموز الكتابة على عجل.

قـال لارابـي: "يحتمـل أن تكـون العبارة الأولـى: No question تعني من غير شك".

وافقنا، على ما قاله.

اقترحت أن العبارة الثانية: Something to Columbia تعني شيء ما لكولومبيا.

وقلت: "هل يمكن أن تكون الكلمة:

(Sending?) = إرسال.

(Lending) = إقراض.

(Heading) = توجيه.

(Landing) = هبوط.

قال هوكينز: "شيء قذر".

(Clowns) = مهرجون.

(Collins) = كولينز.

"قد لا يكون ذاك الحرف C. يمكن أن يكون O أو Q". "أو G".

أدنيت العدسة المكبرة من الورقة. أحنينا رؤوسنا وحدقنا إليها، وكان كل منا يحاول أن يجعل من الكلمات المطموسة والملطخة شيئاً يفيد معنًى مفهوماً ومعقولاً.

لم يكن الأمر جيداً. ثمة أجزاء من الرسالة لم تكن مقروءةً.

قلت: "أراكما في مكان ما في أحد الأيام".

قال هوكينز ولارابي: "حسناً".

قلت: "أيكون ذلك في شارلوت؟".

قال لارابي: "ممكن".

"كم هو عدد الأمكنة التي تنتهي أسماؤها بالأحرف لوت؟".

قال لارابي وهو يعتدل في وقفته: "سأتوثق من ذلك مستعيناً بأطلس. في أثناء ذلك، يمكن أن يكون المتخصصون بالتوثق من الوثائق قادرين على فعل شيء".

"جو، اتصل بقسم التوثق من الوثائق، واسأل إن كان علينا أن نبقي هذه الورقة مبللةً أو يتعين علينا تجفيفها".

خلع هوكينز القفّاز كما خلع ثوب الأطباء، وغسل يديه، وتوجه نحو الباب تاركاً الغرفة معتمةً.

بينما كان لارابي يستأنف عمله في تشريح الجثة، أخبرته عن غيبوبة كاجل، وعن نقاشي مع تيري وولسي. عندما أنهيتُ حديثي، نظر إليّ من خلف القناع وقال: "أتعتقدين أنه باستطاعتك أن تعملي في ظل عدد كبير من الافتراضات؟".

قلت: "ربما".

عند الباب التفت لأدلي بتعليق واحد أخير: "لكن، ماذا لو لم أكن أعمل في ظل ذلك؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

31

وماذا إن فاتني أمر ما؟

بدلاً من تعزيز إحباطي عبر إجراء مزيد من التمرين المحوسب، ذهبت إلى البرّاد، وسحبت الجمجمة التي عثرت عليها في دورة المياه وعظام اليدين، وأجريت إعادة تحليل شامل.

مـا انفكـت بقايـا الجثـة تعزف النغمة ذاتها: شـاب أبيض البشـرة له من العمر بضع وثلاثون سنةً.

لكنها ليست جثة بريان أيكر.

عودة إلى الحاسوب الشخصي: عثر على الجمجمة وعظام اليدين في مزرعة فوت. عثر على عظام الدببة وريش طائر المقو في مزرعة فوت. هل كانت مصادفةً؟

الهيكل العظمي الذي عُثِر عليه في مقاطعة لانكستر كان بلا رأس وبلا يدين. هل كانت مصادفةً؟

عُثِر على الهيكل العظمي في لانكسـتر منذ ثلاث سـنوات. اختفى بريان أيكر منذ خمس سنوات. هل كانت مصادفةً؟

اختفى بريان أيكر وشارلوت غرانت كوب في وقت واحد تقريباً.

أكان ذلك مصادفةً؟

عظـام الدببـة وريـش الطائـر المهـدد بالانقـراض، عميـلا مركز الحيـاة البرية والأسماك المفقودان. هل كان ذلك مصادفةً؟

فكّري في ما هو خارج إطار الصندوق يا برينان.

كنت بصدد إغلاق الغطاء عندما رن الهاتف.

"مرحباً"، كان سليديل على الخط.

"ماذا لديك؟".

"باوندر يغرد كما يفعل الكنار مع خيوط الفجر الأولى".
"أنا مصغية".
"كان تيري يعمل بالكوكايين لمصلحة دورتون".
"ثمة مفاجأة في الأمر".
"حصـل دورتـون على المادة من مصدر تهريب جنوب أميركي، وكان هارفي بيرس يلتقطها في مكان ما في الشرق قرب مانتيو، وينقلها بعربة إلى شارلوت من الساحل، ومن هناك تذهب إلى أماكن في الشمال وفي الغرب".
قلت تخميناً: "كان تيري يدفع مالاً لباوندر مقابل استخدام مزرعة ماما فوت بعدّها نقطة ترحيل".
"مرحى لكِ. لقد أصبتِ".
"وكان جايسون جاك قريب دورتون يكسب رزقه من تجارة الأسرة".
"إليك الجزء الذي سيروق لك حقاً: يبدو أن بيرس أُقنعَ بشراء طير من شخص جنوب أميركي في وقت سابق، وباعه مقابل ربح مُجزٍ. علم دورتون بذلك، فقرر المقاول، وصاحب الملهيين سيئَي السـمعة، وأمير المخدرات أن يشـرع في مزاولة عمل جديد".
"دعني أخمن؛ أفاد ريكي دون من مهارات جايسون جاك الصغيرة في الصيد".
"ورَّدَ بيرس أيضاً منتجاً من البلاد الواطئة (المنطقة الأوروبية التي تضم هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ)".
حيوانات نادرة وحميمة واستثنائية تذبح من أجل الربح. ما أنبلنا من مخلوقات بشرانية شبيهة بالإنسان!
"شرع دورتون في العمل مع مصدر تهريب آسيوي، وأصبح ملك الصفراء.
سألته: "من؟".
"لا يعرف باوندر اسـمه. قال إنه يعتقد أن المغفل كان كورياً. كان لديه نوع من الخط الداخلي".
"خط داخلي عمّاذا؟".
"لم يكن المعتوه واثقاً. لا تقلقي. سنقتفي أثر الرجل".
"ماذا يقول تيري؟".

"أريد محامياً".

"كيف يفسر تيري المكالمات الهاتفية التي أجريت بين هاتفه الجوال وهاتف جايسون جاك ويات الخلوي؟".

"يقول التافه الصغير أشياء ليست كما تتراءى للمرء. أنا أعيد صياغة ما قاله".

كنت إلى حدٍّ ما خائفةً من طرح السؤال اللاحق، ولكنني طرحته: "ماذا عن تاميلا بانكس وأسرتها؟".

"يدّعي تيري أنه لا يعرف شيئاً".

"ماذا عن الطفل الرضيع؟".

"وُلد ميتاً".

قسوة سليديل أشعرتني بضيق شديد، لذا قلت: "نتحدث عن وليد ميت، أيها المخبر".

قال بصوت علت نغمته وانخفضت على نحو رتيب: "أستميحك عذراً. لقد فاتني حضور درس تعليم حسن السلوك في المدرسة هذا الأسبوع".

"اتصل بي عندما يتوافر لك مزيد من المعرفة".

أنهيتُ الاتصال بحركة عنيفة، وأدرتُ رأسي إلى مسند الكرسي، وأغمضت عينيَّ. تدفقت الصور عبر ذاكرتي: عينان تعوزهما الرعاية. بؤبؤا العينين المشدوهان انشداهَ خِدرٍ ابتلعا قزحيتيهما. وجه جدعون بانكس المعذب، ودوران جنيفا صامتةً عند مدخل الباب. عظام الطفل الرضيع المجزأة والمتفحمة.

فكرت في ابنتي؛ فكرت في كاتي الرضيعة مرتدية لباس نوم ناعماً يغطي حتى قدميها؛ في كاتي الطفلة وهي ترتدي ثوب سباحة وردي اللون، وفي قدمين رياناتين ترشرشان الماء في حوض سباحة بلاستيكي؛ في كاتي المرأة الشابة وهي ترتدي سروالاً قصيراً وتدفع بساقيها الطويلتين المسفوعتين بأشعة الشمس أرجوحةً منصوبةً على شرفة البيت الأمامية.

مشاهد من حالة سَويَّة في كنف حياة طبيعية. مشاهد لن يكون لطفل تاميلا الرضيع نصيب منها مطلقاً.

كنت بحاجة إلى شيء، إلا أنني لم أكن واثقة من ماهيته. أمسكت الهاتف وطلبت رقم هاتف ابنتي، لكن مَن ردّت عليّ كانت شريكتها في السكن. كانت

ليجا تعتقد أن كاتي ذهبت إلى ميرتل بيتش مع بالمر كُزنز، لكنها لم تكن واثقة؛ لأنها كانت بعيدة عن المنزل.

هل كانت كاتي ترد على المكالمات عبر هاتفها الخلوي؟

لا.

قطعت الاتصال وأنا أشعر بالخوف.

ألم تكن كاتي تعمل موظفة استقبال مؤقتة في مؤسسة بِيت؟

كان هذا يوم الثلاثاء.

أليس لكُزنز عمل يذهب إليه؟

كُزنز. ما الأمر الذي يشعرني بعدم الارتياح حيال هذا الشخص؟

التفكير في كُزنز عاد بي إلى أيكر.

عودة إلى الصندوق.

التمسي مخرجاً لكِ.

شرعت في طباعة أفكار عشوائية على الشاشة.

فرضية: بقايا الجثة التي عُثِر عليها في لانكستر والبقايا التي عُثِر عليها في دورة المياه كانت لشخص واحد.

\استنتاج: ذاك الشخص ليس بريان أيكر.

\استنتاج: ذاك الشخص ليس شارلوت غرانت كوب. أكّد اختبار الحمض النووي أن صاحب بقايا جثة لانكستر كان ذكراً.

تعليق سليديل الذي قال فيه إن طفل تاميلا الرضيع ولد ميتاً أغضبني.

هل جافيت العدل في حكمي عليه؟ ربما. ما برحت سلسلة أفكاري تنقطع أم كان ما كنت عليه قلقاً على ابنتي؟

لقد كان سليديل. كان الرجل متعصباً ويكره الشاذين كراهيةً شديدةً.

فكرت في معاملته جنيفا وجدعون بانكس معاملةً تفتقر إلى اللباقة. فكرت في ملحوظاته الساخرة عديمة الاكتراث بمشاعر الآخرين التي استهدف بها لورنس لوبير ووالي كاجل. ماذا كان ذلك المستنقع المجازي المتعلق بالنوم في خيام وشراء ملابس داخلية؟

أم لؤلؤته المتعلقة بأدوار الجندر؟

ما بدا فحماً تبين أنه سدادة ذهبية. وما بدا جذاماً تبين أنه ورم.

نظرية سليديلية: ليست الأمور دوماً كما تبدو. أم هل كانت نظريةً تيريةً؟

خارج إطار المربعات الأربعة. فكرة غير واردة، لكن ماذا بحق الله؟

ذهبت إلى حيث كنت قد وضعت حقيبتي، وسحبت منها البطاقة التي أخذتها من تحت سجل كاجل، واتصلت برقم الهاتف المدون عليها.

رد عليّ صوت نسائي قائلاً: "شعبة إنفاذ القوانين في كارولينا الشمالية".

قدمت طلبي.

"ابقي على الخط، من فضلك".

صوت نسائي آخر: "الحمض النووي".

قرأت الاسم عن البطاقة.

"إنه خارج المكتب هذا الأسبوع".

فكرت لحظةً وقلت: "تيد سبرينغر، من فضلك".

"من المتصل؟".

عرّفت بنفسي.

"ابقي على الخط".

مرت ثوانٍ... دقيقة.

"سيدتي الأنثروبولوجية. ماذا في وسعي أن أفعل من أجلك؟".

"مرحباً تيد. اسمع، أريد منك أن تسدي لي معروفاً".

"أفصحي عن حاجتك".

"عالجت شعبتك قضيةً للطبيب الشرعي التابع لمقاطعة لانكستر منذ ثلاث سنوات، وكانت لهيكل عظمي من دون رأس ويدين". قرأت من جديد الاسم عن البطاقة، وبينت له أن الرجل لم يكن موجوداً.

"والتر كاجل هو من أجرى الفحص الأنثروبولوجي".

"هل لديك رقم ملف؟".

"لا".

"هذا يجعل الأمر أكثر صعوبةً، لكن ليبارك الله أجهزة الحواسيب، ففي وسعي أن أبحث عنه. ما الذي تحتاجين إليه بالتحديد؟".

"أتسـاءل إن كان في وسـعك إلقاء نظرة على الجزء المتعلق بالأملوغنين في القضية، لترى إن كان ثمة شيء يبدو غريباً".

"هل أنتِ على عجلةٍ من أمرك؟".

ترددتُ.

قـال سـبرينغر: "أعـرف، توديـن لـو كان ممكنـاً أن تحصلي علـى مبتغاك يوم أمس".

"سأكون مدينةً لك".

قال: "سأجمع المعلومات التي طلبتها".

"مارغي والأولاد قد لا يوافقون".

"أخذت هذه النقطة في الحسبان. أمهليني ساعاتٍ قليلةً".

أعطيته رقم هاتفي الخلوي.

اتصلتُ بعد ذلك بهيرشي زامزاو على رقم هاتف مكتبه في مركز الحياة البرية والأسماك في رالِيف.

"أنـا بحاجـة إلـى معلومـة بدافع من فضولي. هل تعـرف مكان وجود أي من أفراد أسرة شارلوت غرانت كوب؟".

"ترعرعت كوب في كلوفر، كارولينا الجنوبية. كان والداها لا يزالان يعيشان فيها عندما فُقدت شارلوت، ولم يكونا - كما أذكر - متعاونين جداً".

"لماذا؟".

"أصرا على أن كوب ستظهر".

"أكان ذلك إنكاراً ورفضاً؟".

"مَن يدري. ابقي على الخط".

لففت سلك الهاتف حين كنت أنتظر.

"أعتقـد أنهمـا كانا ناشـطين حقيقيين ضمن إحـدى المجموعات الدينية هناك حيث يعيشان، لذلك أظن أنهما لا يزالان مقيمين في هذا العنوان. سمعت شارلوت تتحدّث عـن أقاربهـا مـرةً واحـدةً فقط، وقد تولّد لديّ انطباع أنه ليس هناك رابط يربطهم ببعضهم بعضاً".

وأنا أكتب الرقم، خطر في بالي سؤال: "كم كان طول قامة كوب؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"لـم تكـن صغيـرة الحجم كمـا لم تكن طويلة القامة وقويـة البنية. هل بلغك خبر عن بريان أيكر؟".

قلت: "تيم لارابي يشرّح جثته هنا اليوم".

"يا له من رجل مسكين".

"هل كان أيكر يعمل على أمر ما في كراودرز ماونتن؟".

"هذا ما لا علم لي به".

"هل لديك أي فكرة عن السبب الذي حمله على الذهاب إلى هناك؟".

"ليس لدي أدنى فكرة".

نظرت إلى ساعتي؛ إنها السادسة وأربعون دقيقة. لم أُصِب طعاماً مذ تناولت طعام الإفطار في مطعم كوفي كب مع وولسي.

مضت ثلاث عشرة ساعةً وبويد حبيس البيت.

"بويد".

انقـض بويـد علـى المـرج الأخضر انقضـاض الحلفاء علـى النورماندي. بعد أن التهم التشيز برغر، اشـتريت له طعاماً من البرغر كينغ. وقد أمضي عشـر دقائق محاولاً التحديق إلى عيني عساي أتنازل له عن طعامي، وخمس دقائق أخرى وهو يلعق الورقتين اللتين كانتا تغلفان الشطيرتين.

مظهـراً مـا يمكـن عـدّه مزيداً من ضبط النفس وعنفواناً ملحوظاً، لاك بيردي طرف شـطيرة البطاطا المقلية بالدهن مصغِّراً لقمته، ثم جلس ومد إحدى قائمتيه، ونظف ما عَلِق فيها بعنايةٍ.

كانت القطة والكلب نائمين عندما اتصل تيد سبرينغر بي هاتفياً من كولومبيا عند الساعة الثامنة.

قلت: "يوم عمل المتخصصين بعلم الأحياء المجهري طويل".

"كنـت أشـتغل علـى بعـض العينـات. اسـمعي، عثـرت علـى الملـف المتعلق بالهيكل العظمي الذي يعنيك أمره، وربما يوجد بين طياته شيء ما".

قلت: "ما أسرع ما كان هذا!".

"حالفني الحظ. ما مدى معرفتك بمركز نشاط الأملوغنين؟".

"تظهـر عصابـة واحـدة عند الفتيـات وعصابتان عند الشبّان، إحداهما بحجم

عصابة النساء والثانية أكبر حجماً من عصابة النساء والفارق في الحجم بينهما بسيط جداً".

"الجواب هو بي. زائد".

"شكراً".

"يظهر الألموغنين بوصفه عصابتين على هلام، لكنّ ثمة اختلافاً بسيطاً ودقيقاً ليس في وسع كل شخص رصده ومعرفته. تكون للعصابتين الكثافة ذاتها عند الذكور الطبيعيين... هل أنت معي؟".

قلت: "أعتقد أن كلمة الطبيعيين ستكون الأكثر أهميةً".

"عند الذكور الكلاينفلتر، العصابة التي تمثل الكروموسوم إكس تكون كثافتها ضعف كثافة العصابة التي تمثل الكروموسوم واي".

"أقلت الذكور الكلاينفلتر؟". حاول ذهني أن ينشحذ، إلا أنه عبثاً كان يفعل.

"النمط النووي إكس إكس واي، حيث يوجد ثلاثة كروموسومات للجندر بدلاً من اثنين". لم ينتبه زميلي إلى اختلاف الكثافة.

"هل لدى مجهول الهوية متلازمة كلاينفلتر؟".

"النظام ليس دقيقاً مئة بالمئة".

"لكن هل متلازمة كلاينفلتر هي احتمال قوي في هذه القضية؟".

"نعم، هل هذا الأمر يساعد على شيء؟".

"إن هذا مجرد احتمال".

جلست منقطعة عن الحركة، مثلي في ذلك مثل غنيمة صيد محشوة ومثبتة في حاضنة.

متلازمة كلاينفلتر.

إكس إكس واي.

شغلت جهاز الحاسوب، وولجت إلى صفحات الإنترنت. كنت أبحث في موقع جمعية متلازمة كلاينفلتر عبر الشبكة العنكبوتية عندما شرع بويد يمس برفق ركبتي.

"ليس الآن يا بويد"، لكنه مس ركبتي مجدداً. نظرت إليه وقد وضع بويد قائمته على ركبتي، ورفع خطمه، وأطبق فكيه فجأةً. عليكِ أن تذهبي.

"هل هذا مشروع؟".

اندفع بويـد متحـركاً فـي الغرفة بقوة وأخذ يدور بسـرعة، وأطبق فكيه، ودور عينيه.

نظرت إلى الساعة؛ إنها العاشرة وخمس عشرة دقيقة. يكفي.

أغلقت جهاز الحاسـوب وأظلمت الغرفة، ثمّ توجهت نحو سـير طوق بويد.

حاول الكلب أن يشدني بقوة إلى خارج الغرفة وهو يرتعش راغباً في الإغارة مرة أخيرةً قبل أن يأوي إلى النوم.

كان الظلام مطبقاً تقريباً على ملحق البيت، لا يخفف من شدته سوى وميض خاطف يومض ثم يخبو عبر الأشجار. داخل البيت، كانت الساعة الموضوعة فوق رفّ الموقـد تتكتك. خـارج البيت، كانت الحشـرات تنقـض على النوافذ، وكذلك العث، وكانت أجسامها ترتطم بالنوافذ المنخلية فتسمع أصوات ارتطامها.

عندما دخلنا المطبخ تغير سـلوك بويد. أصبح جسـمه متوتراً، وارتفعت أذناه وذيله. دمدمة قصيرة الأمد، ثم اندفع إلى الأمام وشرع ينبح عند الباب.

ارتفعت يدي بسرعة إلى صدري. وهسهست له كي يصمت، ثمّ قلت: "تعالَ إلى هنا"، ولكنه تجاهلني.

أسكته، ولكن... واظب الكلب على النباح.

بينما كان قلبي يخفق بشدة، دَرَجتُ نحو الباب خلسةً وببطء، وألصقت ظهري بالجدار، وأنصتُّ.

بوق سيارة، حشرات حزيران، جداجد، لا شيء خارج إطار الأحوال العادية.

غدا نباح بويد أكثر إلحاحاً، وارتفع شعر عنقه وظهره، وتصلب جسده.

أسكته مرة أخرى، ومرةً أخرى تجاهلني.

بينمـا كان ينبـح بويـد سـمعت صـوت حركـة خفيفة، ثم صوتَ صريـرٍ ناعماً فاستحال داخلي إلى جليد؛ كان ثمة شخص!

صرخت خلايا دماغي: اتصلي بالرقم 911! اركضي واقصدي الجيران! اهربي عبر الباب الأمامي!

مـمّ أهـرب؟ مـاذا أقـول إن اتصلت بالرقم 911؟ أأقول لهم إن ثمة شـبحاً في شرفة منزلي؟

أأقول لهم إن الشبح يقف خلف باب بيتي الخلفي؟

مددت يدي إلى بويد كي أمسك به، لكنه تفلت مني وواظب على اعتراضه.

هـل كان البـاب مقفـلاً؟ عادةً كنت جيدةً حيال مقتضيات الأمن، لكن، أحياناً كان يفوتني الانتباه إلى ذلك. هل نسيت عندما استعجلت إخراج بويد؟

تحسست القفـل بأصابـع ترتجـف؛ كان مقبض الباب الصغير المستطيل في وضع أفقي. هل كان مقفلاً؟ ألم يكن مقفلاً؟ لم أستطع التذكر.

هل عليّ أن أجرب مقبض الباب لأعرف إن كان الباب مقفلاً؟

لا تصدري صوتاً! لا تدعيه يعرف أنك هنا!

هل شـغلت جهاز الأمان؟ أفعل ذلك عادةً قبيل ذهابي إلى السرير مباشـرةً. تحولت عيناي نحو اللوحة.

ليس ثمة ضوء أحمر وامض، اللعنة!

يـداي ترتجفـان الآن. أزحـت طرف سـتار النافـذة قليلاً؛ ليل حالك السـواد. كافحت عيناي كي تتكيفا، لكن، لا شيء.

أدنيت وجهي من زجاج النافذة، ونظرت إلى جهة الشمال ثم إلى جهة اليمين مطلةً عبر الفتحة الصغيرة التي أنشأتها بإزاحتي الستار؛ لا شيء.

اقترحت عليّ إحدى خلايا دماغي الرشيدة أن أضيء مصباح الشرفة. تلمست يدي المفتاح الكهربائي؛ لا، لا تشعريه بأنك في المنزل، فتجمّدت يدي.

في تلك اللحظة، تردّد ضوء في السماء؛ أومض ثم خبا. ثمّ ظهر ظلاّ شخصين من قلب الظلام، فسرى الأدرينالين في جسدي بسرعة صاروخية.

كان الظلاّن واقفين في شرفة بيتي الخلفية على بعد أقل من قدمين من وجهي المروَّع.

32

وقف الشكلان البشريان متسمّرين، شكلان أسودان وسط ليل حالك الظلمة. أرخيت الستار وانكمشت إلى الخلف، وبلغ قلبي حنجرتي هلعاً وذعراً إذ بات يخفق بقوّة.

أهو المجرم؟ وهل هو بصحبة شريك متواطئ معه؟

بالكاد كنت أتنفس، واختلست نظرةً خاطفةً أخرى.

بدا أن المسافة بين الشكلين البشريين قد تقلصت.

ماذا أفعل؟

أنتج دماغي المروَّع أفكاراً منوعة مبنية على المقترحات ذاتها.

اتصلي بالرقم 1911! أضيئي مصباح الشرفة! اصرخي عبر الباب!

تواصل نباح بويد مطرداً لكنه ليس شديد الاهتياج.

ومضت السماء وميضاً خفيفاً، ثم عادت حالكة السواد.

هل كان عقلي يخدعني، أم أن الظل الأكبر حجماً يبدو مألوفاً؟

انتظرت؛ هناك مزيد من الوميض، وقد أضحى أطول أمداً الآن: ثانية، وثانيتين، وثلاث ثوانٍ.

يا الله!

بدت حتى أضخم حجماً مما هي عليه في ذاكرتي.

مست يدي الجدار مساً رفيقاً ومرت عليه مروراً سريعاً وعثرت على مفتاح الكهرباء. أضاء المصباح المتدلي الشرفة بضوء أصفر اللون ضارب إلى الحمرة.

"اصمت يا بويد".

"أهذه أنتِ، يا جنيفا؟".

"لا تتركي الكلب ينقض علينا".

نزلت إلى الأسفل، وشددت وثاق بويد. ثم حررت قفل المزلاج وفتحت الباب.

أحاطت جنيفا امرأةً شابةً بإحدى ذراعيها أدركت من فوري أنها تاميلا، في حين جعلت الذراع الأخرى عند وجهها. كانت الأختان كلتاهما تشبهان أيلاً مذعوراً، وكانت عيونهما قد عشيت بسبب تعرضها للضوء بصورة فجائية.

قلت، وكنت لا أزال أشد وثاق الكلب: "تفضلا بالدخول".

عقب انجلاء الموقف، توقف نباح الكلب ليفسح في المجال أمام هزّ الذيل، فلم تتزحزح الأختان من مكانهما. تراجعت نحو المطبخ ساحبة الكلب معي حتى استطاعت جنيفا أن تفتح الباب المنخلي، وتدفع تاميلا برفق إلى الداخل، وتبعتها.

قلت: "لن يُلحِق بكما أي أذى".

بدت الأختان حَذرتين.

"حقاً".

أضأت مصابيح المطبخ، وحرّرت بويد الذي قفز إلى الأمام، وشرع يشتمّ ساقي تاميلا، وضاعف نشاط تحريك ذيله؛ فما كان من جنيفا إلا أن تسمّرت مكانها.

انحنت تاميلا وربتت برفق على رأس الكلب وهي مترددة، فتلوّى بويد ولعق أصابعها. بدت أصابعها بالغة النعومة، وبدت اليد كأنها يد فتاة في العاشرة من عمرها، باستثناء أظافرها المطلية بطلاء أحمر قانٍ.

جلست القرفصاء واضعة إحدى ركبتيها على الأرض، ومسدت وبره.

قلت وأنا أنقّل طرفي بين الأختين: "كثير من الناس يبحثون عنكما". حاولت أن أخفي اندهاشي؛ بعد كل هذا الوقت، تاميلا واقفةٌ الآن في مطبخي فعلاً وحقاً.

قالت جنيفا: "نحن على ما يرام".

"ماذا عن أبيكِ؟".

"والدي بخير".

"كيف اهتديتِ إليّ؟".

"كنتِ قد تركتِ عندي بطاقتكِ".

ينبغي أن يزول اندهاشي بسبب ذلك.

"كان أبي يعرف كيف يهتدي إليك".

تركت الأمر يمر، مفترضةً أن جدعون بانكس كان قد حصل على عنوان بيتي من أحد المصادر الجامعية.

قلت: "أشعر براحة عظيمة لرؤيتكما سالمتين. هل لي أن أقدم لكما كوبين من الشاي؟".

سألتني تاميلا وهي تنهض: "هل لديك كوكا كولا؟".

"لدي دايت".

قالت وقد خاب أملها: "حسناً".

أشرت إلى الطاولة، فجلستا وتبعهما بويد ووضع ذقنه على ركبة تاميلا.

لم أكن راغبةً في الكوكا كولا، غير أنني أحضرت ثلاث قوارير كي أبدو لائقة اجتماعياً. لدى عودتي إلى الطاولة، وضعت الكوكا كولا أمامهما وجلست على الكرسي.

كانت جنيفا مرتديةً كنزةً من القطن مفتوحةً عند الرقبة على هيئة حرف V، والبنطال ذاته الذي كانت ترتديه يوم زرتُ وسليديل والدها. بدت أطرافها مكتنزةً منتفخةً، وكذلك بدا بطنها، في حين كانت بشرتها عند مرفقيها وركبتيها متشققةً ومتجعدةً.

كانت تاميلا مرتديةً صُدَيرَةً حمراء اللون تستر الصدر من دون الظهر منعقدةً خلف عنقها وأضلاعها، وتنورةً من البوليستر باللونين الأحمر والبرتقالي. وكانت تنتعل صندلاً وردي اللون مرصعاً بأحجار من الماس الصناعيّ الزائف موزعة على شريط ربطه البلاستيكي. لها ساقان وذراعان طويلة ونحيلة.

كان التناقض بينهما صارخاً. كانت جنيفا فرسَ نهرٍ، في حين كانت تاميلا غزالةً خالصةً.

انتظرت.

جالت جنيفا بناظريها في أرجاء المطبخ. كانت تاميلا تمضغ لباناً، وحكت بعصبية على طوق بويد. بدت عصبيةً وغير قادرة على البقاء هادئةً أكثر من ثانية. انتظرت...

انتظرتُ جنيفا من الوقت ما يكفي كي تستجمع أفكارها، وما يكفي تاميلا

كي تهدّئ أعصابها. انتظرتُ من الوقت ما يكفي لخمس حركات كاملة تتعاقب فيها الأحداث في مقطوعة فرانز شوبرت الموسيقية المعروفة باسم تراوت كوينتت.

أخيراً، كسرت جنيفا جدار الصمت، وعيناها تنظران إلى علبة الكوكا كولا، وقالت: "هل داريل رهن الاعتقال؟".

"نعم".

"لماذا أُودِعَ السجن؟"، لمع برق ساطع عبر النافذة خلفها.

"ثمة دليل على أن داريل يتعامل بالمخدرات".

"هل سيمضي زمناً طويلاً في السجن؟".

"لست محامية يا جنيفا. إلا أنني أعتقد ذلك".

"تعتقدين". لسبب ما وجهت تاميلا التعليق إلى جنيفا.

قلت: "نعم".

قالت تاميلا: "كيف تعرفين؟"، وهي تدير رأسها ذات اليمين وذات الشمال.

"لا أعلم على وجه اليقين".

مجدّداً، ساد صمت طال أمده. ثم: "لم يقتل داريل الطفل الرضيع".

"أخبريني عمّا حدث".

"لم يكن الطفل ابن داريل. كنت أعيش معه، لكنه لم يكن ابن داريل".

"من أبوه؟".

"شاب أبيض اسمه باك هارولد. لكن ليس هذا ذا شأن. ما أنا بصدد قوله هو أن داريل لم يلحق الأذى بالطفل".

هززت رأسي.

"لا يخص الطفل داريل وأنا لا أحب أن يُنسَب إليه. هل تدركين ما أقوله؟".

"أخبريني ما الذي حل بطفلك الرضيع؟".

"كنت أعيش في منزل داريل... حسناً، لم يكن المنزل منزله إلا أنه كان يعيش فيه؛ في إحدى الغرف. بدأت أشعر في أحد الأيام بشيء من الألم، فاستنتجت أن وقت ولادتي قد حان. لكن الألم كان يشتد ويتفاقم، ولم يحدث شيء. أدركت أنّ هناك خللاً ما".

"ألم يوفر أحد لك رعايةً طبيّةً؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ضحكت ونظرت إليّ كما لو أنني اقترحت عليها أن تقدم طلباً إلى يال.

"بعد تلك الليلة وفي اليوم اللاحق، وُلِد الطفل أخيراً، لكنه كان غير طبيعيّ".

"ماذا تعنين؟".

"كان لونه أزرق ولم يكن يتنفس".

تلألأت عيناها، ثمّ أشاحت بوجهها عني ومسحت وجنتيها براحتَي يديها. اخترق صدري رمح صلب، وصدقت قصتها، وتألمت لحال هذه المرأة الشابة ولخسارتها التي تفوق القدرة على التحمل. تألمت لحال كل النساء الشبيهات بتاميلا ولحال أطفالهن، فمددت ذراعي ووضعت يدي فوق يدها، لكنها سحبت يدها، وأخفضت يديها كلتيهما إلى حضنها.

سألتها بلطف: "هل وضعت طفلك في الموقد؟".

هزت رأسها إيجاباً.

"هل أمركِ داريل بفعل ذلك؟".

"لا، لا أعرف لماذا فعلت ذلك، أنا من قام بذلك. لا يزال داريل يعتقد أن الطفل ابنه، وما برحت تستثيره رحلة الأبوة".

"أفهم ما تقولينه".

"لم يفعل أحد شيئاً لذلك الطفل"، تلألأت الدموع على وجنتيها، وكان صدرها النحيل ناتئ العظام يجيش تحت قمة صديريتها الحمراء، "كل ما في الأمر أنه ولد وهو يريد أن يكون ميتاً".

مسحت تاميلا وجنتيها مجدّداً، وقسوة إيمائها تنم عن الغضب والحزن اللذين يختلجان في صدرها. بعد ذلك أطبقت أصابعها وأسندت وجهها إلى قبضتيها.

"ألم تتمكني من إنعاشه؟".

لم يكن في وسع تاميلا إلا أن تهز رأسها.

"لماذا اختبأتِ؟".

نظرت تاميلا من فوق براجمها إلى جنيفا التي قالت: "تابعي. نحن هنا. أخبريها الآن".

"تشاجر ذات يوم داريل مع باك. قال له باك إنني كنت أخدعه وإن الطفل لم يكن ابنه. جُنَّ جنون داريل، وقرر أنني قتلت طفلي استخفافاً به وإهانةً له. قال إنه

سيعثر علي ويذيقني سوء العذاب".

"أين ذهبتِ؟".

"إلى الطابق السفلي من مبنى كُرنز".

"هل أبوكِ موجود هناك الآن؟".

هزَّتا رأس.

"قصد أبي أخته في سمتر. اصطحبته معها، وقالت إن لا شأن لها بنا".

"لماذا أتيتما لمقابلتي؟".

لم تنظر أيّ من الأختين إليَّ.

"لماذا يا جنيفا؟".

واظبت جنيفا على النظر إلى أصابعها الملتفة حول علبة الكوكا كولا، ثمّ قالت بصوت أجش: "سنخبرها".

هزت تاميلا كتفيها هزةً مفادها: افعلي ما يروق لك.

"طرق ابن عمي باب البيت علينا هذا الصباح، وشرع يصرخ قائلاً إن صديق أختي يجدّ في البحث عنها ويصيح في وجهينا طالباً منا الخروج من البيت. كان أبي مفعماً بالغضب منا وكذلك كانت حال قريبنا، وكان داريل راغباً في قتلنا".

كانت جنيفا مطرقةً، لذا، لم أتمكن من رؤية وجهها. لكن الارتجاف الذي اعتراها كشف النقاب عن يأسها.

"كان علينا أن نغادر المكان الذي كنا فيه، وليس في وسعنا أن نذهب إلى بيتنا؛ لأن داريل يجوب الأماكن بحثاً عنا"، خفت صوتها شيئاً فشيئاً، "أضحينا بلا مكان نأوي إليه".

شرعت تاميلا في الكلام: "أنا لم..."، لكن لم يكن في وسعها أن تتابع كي تقول ما رغبت في قوله.

مددت ذراعيَّ ووضعت يديَّ كلاً منهما على إحدى يدي كل منهما؛ لم تبعد هذه المرة يدها.

"ستمكثان معي إلى أن يصبح ذهابكما إلى البيت مأموناً". كانت كلماتها كلمات إنسانة مقموعة. أما الصوت، فقد كان صوت طفلة أصابها الذعر.

اصطحبت بويد في نزهة دامت خمس دقائق، ثم أمضينا نصف ساعة نبحث

عن مناشف وغطاء سرير لأريكة النوم إذ مضى زمن طويل لم تكن تستخدم فيه.

في الوقت الذي استقرت فيه الأختان بانكس وضمن بويد مكاناً له على الرغم من اعتراض جنيفا، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بكثير.

بلغ بي القلق حدّ الأرق، فأخذت حاسوبي المحمول إلى غرفة نومي وشغلته، واستأنفتُ بحثي المتعلق بكلاينفلتر. كنت قد أمضيت عشر دقائق في البحث حين رن هاتفي الخلوي.

"ما الخطب؟"، أثار صدى صوتي ريان.

حدثته عن جنيفا وتاميلا.

"أواثقة أنت أنهما أخبرتاك الحقيقة؟".

"أعتقد ذلك".

"حسناً، توخي الحذر. قد يكون المتسكع تيري متخذاً منهما واجهةً لإخفاء أمر ما يدبره".

"أنا حذرة دوماً". لا حاجة بي إلى ذكر لحظة عدم اليقين تلك المتعلقة بالقفل. أو جهاز الإنذار الذي لم أضعه موضع التشغيل.

"ينبغي أن يكون قد فُرِّج عنك غمّ لاطمئنانك إلى سلامة أفراد أسرة بانكس".

"نعم، وأعتقد أنني قد اكتشفت أمراً آخر".

"هل لاكتشافك علاقة بالأشكال المتشابهة؟".

"هل سبق لك أن سمعت بمتلازمة كلاينفلتر؟".

"لا".

"كيف تشكلت الكروموسومات؟".

"ثلاثة وعشرون زوجاً تشكل صفاتي الموروثة".

"هذا يوحي بأن ثمة شيئاً ما طبيعي فيك".

"حسناً"، سمعت صوت عود ثقاب ينقدح، ثم صوت نفس عميق، "من فضلك؟".

"كما أشرت بذكاء، يتوافر الأفراد الطبيعيون على ثلاثة وعشرين زوجاً من الكروموسومات وراثياً، ويأتي واحد من كل مجموعة من كل من الأبوين. يطلق على اثنين وعشرين منها اسم الصبغيات، في حين يحدد الزوج الثالث والعشرون

جنس المولود".

"إكس إكس يكسبك جوارب وردية اللون، إكس واي يكسبك جوارب زرقاء اللون".

"أنت إنسان عظيم البراعة يا ريان. أحياناً يتمخض أمر ما عن إخفاق تام في تكوين البويضة أو النطفة، فيولد فرد يتوافر على كمّ كبير جداً من كروموسوم بعينه أو كمّ قليل جداً من كروموسوم بذاته".

"متلازمة داون".

"بالتحديد. الناس المصابون ببلاهة مُغلية خِلقية (المنغوليّون)، أو بمتلازمة داون يكون لديهم زيادة كبيرة من الكروموسوم في الزوج الصبغي الواحد والعشرين. يطلق على هذه الحالة أيضاً اسم تريسومي 21".

"أعتقد أننا وصلنا إلى السيد كلاينفلتر".

"أحياناً ينطوي الخلل على افتقار إلى كروموسوم تحديد الجنس، وأحياناً ينطوي على زيادة فيه. تعاني النساء المصابات بهذا المرض (xO Women) حالةً تسمى متلازمة ترنر. ويعاني الرجال المصابون به (xxY Men) حالةً تسمى متلازمة كلاينفلتر".

"ماذا عن رجال الواي أو (yo Men)".

"هذا غير ممكن. فالحياة غير ممكنة من دون وجود إكس".

"حدثيني عن كلاينفلتر".

"بوجود الكروموسوم واي في الخصائص الجينية الوراثية للأفراد الذين تحتوي خريطتهم الجينية على المورث إكس إكس واي، فإن المصابين بمتلازمة كلاينفلتر هم ذكور. لكن، لكل منهم خصيتان صغيرتان، ويعانون نقصاً في هرمون التستوستيرون ويعانون عقماً".

"هل هم مختلفون من حيث التكوين الجسدي؟".

"الرجال الذين يعانون بسبب إصابتهم بمتلازمة كلاينفلتر تكون أجسادهم غير متناسقة الطول وشعر وجوههم وأجسادهم خفيفاً. تكون أجساد بعضهم أكثر امتلاءً عند خصورهم وأوراكهم منها في الأجزاء العليا من أجسادهم. وتنمو الثنادي (مفردها ثندوّة وهي للرجل بمنزلة الثدي للمرأة) عند بعضهم على نحو يتجاوز

حدود النمو الطبيعية".

"هل نسبة الناس الذين يعانون هذا المرض كبيرة؟".

"قرأت أرقاماً تفيد بأن نسبة الذين يعانونه تتراوح ما بين 500/ 1 و800/ 1 بين الذكور. هذا ما يجعل متلازمة كلاينفلتر الأكثر شيوعاً بين الحالات التي تنطوي على خلل صبغي متعلق بالجنس".

"هل ينطوي هذا المرض بالضرورة على خصوصية تَسِم سلوك الذين يعانونه؟".

"الأشخاص المصابون بهذا المرض يعانون نسباً مرتفعةً من صعوبات التعلم، وانخفاضاً في حاصل الذكاء الفعلي أحياناً، لكن الذكاء عندهم يكون عادةً ضمن الحدود الطبيعية. تفيد الدراسات بوجود زيادة في مستويات العدوانية لديهم أو في مستويات السلوك المعادي للمجتمع".

"لا أتصور أن هؤلاء الفتيان يشعرون حقاً بالرضا عن أنفسهم وهم يشبون".

قلت موافقةً إياه: "لا".

"لماذا نحن مهتمان بمتلازمة كلاينفلتر؟".

أخبرته عن بريان أيكر، وسردت له ما دار بيني وبين سبرينغر وزامزاو من مناقشات، ثم أشركته في فكرتي غير المؤطرة.

"لذا، أنت تعتقدين أن الجمجمة التي عثرت عليها في دورة المياه ذات مواصفات تتماشى مع الهيكل العظمي الذي عثر عليه في لانكستر، وعليه يحتمل أن تكون الجثة جثة شارلوت غرانت كوب".

"نعم"، أخبرته سبب ذلك، "إنه موشح طويل".

قال ريان: "أخبرك زامزاو أن كوب لم تكن طويلةً جداً".

"قال إنها لم تكن طويلةً جداً. إن كانت عظام الساق طويلةً على نحو لا يتناسب مع طولها، فإن هذا من شأنه أن يخالف تقدير الارتفاع".

"ما الذي تنوين القيام به؟".

"أقصد أسرة كوب، وأطرح بعض الأسئلة".

قال ريان: "لا يمكن أن يتمخض هذا عن ضرر".

أطلعته على ما علمت من وولسي وسليديل.

"أكثر فضولاً وأكثر فضولاً". أَحَبَّ ريان قول ذلك.

ترددت.

ماذا بحق الله.

سألته: "هل سأراك قريباً؟".

قال: "سنلتقي في وقت أقرب مما تتصورين".

"نعم!".

بعد الاطلاع على خريطة عبر محرك البحث ياهو (Yahoo!) مشيت متثاقلةً إلى السرير.

لا يمكن أن يتمخض هذا عن ضرر. فكرت، وكان تفكيري صدى لما قاله ريان.

كم كنا على خطأ!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

33

في الصباح اللاحق، استيقظت عند الساعة السابعة والنصف. أوحى الصمت المطبق على غرفة المطالعة أن جنيفا وتاميلا كانتا لا تزالان ميتتين بالنسبة إلى العالم. بعد أن اصطحبت بويد في نزهة في المنطقة المجاورة، ملأت الأوعية المخصصة لطعامه، ووضعت رقائق الذرة وأقراص نخالة قمح بالزبيب على طاولة المطبخ، ودونت ملحوظةً مختصرةً كتبتها على عجل، وقفزت إلى داخل السيارة.

تقع كلوفر خلف الحدود الفاصلة بين كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية مباشرةً، وفي منتصف الطريق بين نهر كتاوبا المبني عليه سد يحجز مياهه ويطلق عليه اسم بحيرة ويلي، وبين حديقة الكوين بارك القومية، وهي الموقع الذي يتنزه فيه ريان وبويد.

تطلق صديقتي آن على البلدة اسم كلو – فاي مانحةً إياها اسم: (Je ne sais quoi panache).

في ساعات السير على الطرقات خارج أوقات ذروة الازدحام تستغرق الرحلة إلى كلو – فاي أقل من ثلاثين دقيقة. لسوء الحظ، كل سائق مسجل في بالتيمو أو في ولاية أولد نورث كان على الطريق ذاك الصباح. انضم إليهم سائقون آخرون من تينيسي وجورجيا، وأوكلاهوما، وغوام. تسللت ببطء إلى طريق آي – 77 مناوبةً بين احتساء قهوة الستاربكس والتربيت على مقود السيارة.

أُسست كلوفر عام 1887 بوصفها محطة لتوقف القطارات، ثم ازدهرت بوصفها مركز نسيج مطلع القرن التاسع عشر. المياه التي كانت تتسرب من خزانات السكك الحديدية أبقت المكان رطباً ومفروشاً بالبرسيم، وهذا ما أكسب المكان اسم كلوفرباتش. طامحين لتكوين صورة تفرض نفسها أكثر، أو ربما راغبين في أن ينأوا بأنفسهم عن اليوكمز والسكراج (مجموعات سكانية قادمة من الأرياف

قليلة المعرفة والثقافة)، قد قرر أعضاء إحدى لجان المواطنين في ما بعد اختصار الاسم إلى كلوفر.

لم يُجدِ تلميع الصورة نفعاً. على الرغم من أن كلوفر لا تزال مقراً لعدد قليل من المطاحن، وأن أشياء مثل أجزاء المكابح ومستلزمات الجراحة مكدسة بكميات كبيرة في منطقة مجاورة خارج البلدة، لا تحدث أمور كثيرة هناك. إن قراءة متأنيةً لنشرات غرفة التجارة توحي بأن الأوقات الطيبة يمكن أن يعيشها المرء في أماكن أخرى، وليس في هذا المكان. من تلك الأماكن: بحيرة ويلي، وجبال بلو ريدج، وشواطئ كارولينا، وفي الأماكن التي تجري فيها ألعاب بيسبول فرسان شارلوت، وفي كارولينا بانثرز حيث تجري ألعاب كرة القدم.

ثمة عدد قليل من البيوت التي شُيِّدت في حقبة ما قبل الحرب تختبئ في التلال حول كلوفر، إلا أنها ليست شبيهةً ببيوت الريف الفرنسي الجذابة. إنها بلدة ذوي الياقات الزرقاء (العمال الكادحين)، أو، بمعنى أدق، بلدة من لا ياقات لهم.

عند الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، كنت في الموقع الذي تعبر فيه الطريق يو أس 321 الطريق أس سي 655 قلب مركز بلدة كلوفر النابض. ثمة مبانٍ بعضها يتألف من طابقين وبعضها يتألف من ثلاثة طوابق مبنية من قرميد أحمر اللون اصطفت على طول الطريقين المعبّدتين اللتين تشكلان التقاطع. يمكن للمرء أن يستشف من دون أن يسأل أن الطريق 321 يطلق عليها اسم الشارع الرئيس في تلك المنطقة.

تذكرت الخريطة التي اطلعت عليها عبر محرك البحث ياهو، فمضيت في سبيلي جهة الجنوب عبر الشارع 321، ثم انعطفت يساراً إلى شارع فلات روك. بعدها انعطفت ثلاث مرات جهة اليمين فوجدت نفسي في طريق غير نافذة تصطف على جانبيها أشجار الصنوبر والسنديان. العنوان الذي زودني به زامزاو أدى بي إلى بيت قائم على مسطح إسمنتي مستطيل الشكل على بعد سبعين متراً من حيث كنت أقف عند الطرف البعيد من الشارع.

ثمة شرفة صغيرة أمامية عند مدخل البيت وُضع عليها كرسيان معدنيان من النوع الذي يستعمل في الحدائق. كان أحد الكرسيين من دون وثار، في حين وُضع على الآخر وثارٌ أخضر اللون مزركش بالأزهار. رأيت إلى اليمين من الشرفة حديقة

خضار. وقد امتلأت باحة المنزل الخارجية بمدوَّمات (لعب أطفال...).

ثمة سقيفة ناتئة من جانب المبنى دُلِّيت منها أكواب مليئة بأكوام من أشياء غريبة الأشكال ومغطاة بغطاء بلاستيكي أزرق اللون. كما هناك صفٌّ من أشجار القارية - الجوزية (أشجار فارعة الطول موطنها أميركا الشمالية) ألقت بظلالها عبر اللوح المعدني المتأرجح الصدئ الذي يشكل حدّ السقيفة الأيسر.

دخلت عبر الدرب المفروش بالحصى، وأوقفت محرك السيارة عن العمل، واجتزت فناء المنزل وصولاً إلى الباب الأمامي. تعرّفت إلى بعض أنواع المدوَّمات مثل ليتل بو بيب، سليبي أند دوبي، بطةٌ أمٌ تقود أربع بطات صغيرة جداً بدت نسخاً طبق الأصل منها.

حين قرعت الجرس، ردت امرأة شبيهة بهيكل عظمي ذات عينين كبيرتين جداً مقارنة بحجم وجهها. كانت ترتدي سترة من الصوف مهلهلة فوق ثوب نسائي منزلي. كانت المرأة نحيلةً إلى حدٍّ يخالها الناظر إليها معه مشجباً عُلِّقت عليه ثياب.

تحدثت المرأة إليّ عبر باب خارجي مصنوع من الألمنيوم والزجاج، وقالت: "ليس لديّ شيء هذا الأسبوع". ورجعت إلى الوراء كي تغلق الباب الداخلي.

"أأنت السيدة كوب؟".

"هل أنت من اللواتي يحببن تضييع الوقت؟".

"لا، يا سيدتي. أنا لست كذلك. أود أن أتحدث إليك عن ابنتك".

"ليس لدي ابنة".

همّت المرأة بإغلاق الباب من جديد، ثم ترددت، وارتسمت خطوط عمودية على جبهتها ناتئة العظام المتجعدة.

"من أنتِ؟".

سحبت بطاقة من حقيبتي وأدنيتها من زجاج الباب، فقرأت ما كان مدوناً على البطاقة، ثم نظرت إليّ بعينين ممتلئتين بأفكار لا صلة لها بي.

قالت: "فاحصة طبية؟".

قلت تبسيطاً للأمر: "نعم، يا سيدتي".

اهتز الشبك المصنوع من الألمنيوم عندما فتحت الباب لي، وتسرب هواء بارد إلى الخارج كأنه منبعث من قبر فتح حديثاً. قادتني المرأة، من دون أن تنبس ببنت

شقة، إلى المطبخ، وأشارت إلى طاولة صغيرة ذات قوائم خضراء عتيقة يعلوها شيء شبيه بالخشب، وأومأت إليّ أن اجلسي إليها. كان داخل البيت المتنقل قد عبق برائحة مبيد العث الصنوبرية، وبرائحة دخان السجائر.

سألتني حين كنت أجلس: "أتشربين قهوةً؟".

"نعم، من فضلك".

أعتقد أن المكيف كان مثبتاً عند درجة حرارة 13 مئوية، فجعل البردُ القشعريرةَ تسري في رقبتي وذراعيَّ.

أحضرت المرأة كوبين من خزانة علوية، وملأتهما من مِغلاة قهوة كانت موضوعةً على النضد.

"أنت السيدة كوب، أليس كذلك؟".

قالت: "نعم، أنا". وضعت الكوبين على الطاولة، وقالت: "أتريدين حليباً؟".

"لا، شكراً لك".

سحبت السيدة كوب علبة سجائر من فوق الثلاجة، وجلست على الكرسي المقابل للكرسي الذي أجلس عليه. بدت بشرتها شمعيّةَ القوام، ورمادية اللون وقد نتأت ناميةٌ من تحت جفن عينها اليسرى.

"ألديك ولّاعة؟".

أخرجت من حقيبتي علبة أعواد ثقاب، وأشعلت واحداً، وأدنيته من سيجارتها.

"لا أستطيع مطلقاً أن أعثر على الأشياء التافهة الملعونة عندما أحتاج إليها".

سحبت نفساً عميقاً من دخان السيجارة، ونفثته، ونقرت بإصبعها علبة الكبريت وقالت: "أبعدي هذه. فأنا لا أريد أن أدخن كثيراً"، ضحكت ضحكةً تردد بسببها صدى صوتها في حلقها، "إنه ضار بصحتي".

دسست علبة الكبريت في جيب بنطالي الجينز.

"تريدين أن تتحدثي عن صغيرتي".

"نعم، يا سيدتي".

سحبت السيدة كوب منديلاً ورقياً من جيب سترتها، ونظفت أنفها، ثم أخذت مَجَّةً أخرى من السيجارة.

"مات زوجي، وستحل ذكرى رحيله الثانية في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر

القادم".
"أنا آسفة لفقدانك إياه".
"كان رجلاً طيباً. كان رجلاً عنيداً، لكنه طيب القلب".
"أنا على يقين من أنك تفتقدين إليه".
"يعلم الله أنني أفتقد إليه".
برز وقواق من الساعة الجدارية المثبتة فوق حوض غسيل الأطباق معلناً أن شارة ضبط الوقت تشير إلى تمام الساعة. أصغت كلتانا إلى صوته؛ عشر تغريدات.
"أهداني تلك الساعة احتفالاً بذكرى مرور خمسة وعشرين عاماً على زواجنا. إنها جهاز بسيط ما انفك يعمل كل هذه السنين".
واظبت السيدة كوب على المجّ من سيجارتها، في حين كانت عيناها مسمّرتين عند نقطة تتوسط المسافة في ما بيننا؛ على مرحلة مرت عليها سنون. ثم تغيرت نظرتها فجأةً عندما خطرت لها فكرة مفاجئة، فنظرت إليّ سائلةً: "هل عثرتِ على ابنتي؟".
"ربما نكون قد عثرنا عليها".
"هل هي ميتة؟".
"هذا محال، سيدة كوب. الهوية معقدة".
وضعت عقب السيجارة بين شفتيها، وشرعت تمج دخاناً وتنفثه عبر أنفها. ثـم نفضت رماد السيجارة، وأخذت تعالج جمرتها بتدويرها فوق صحن معدني صغير إلى أن انطفأت.
"سألتحق بتشارلي الابن قريباً. أعتقد أنه قد آن الأوان لوضع مجموعة قليلة من الأمور في نصابها".
نهضت عن كرسيها، ومشت نحو مؤخر البيت القطيرة، وسمعت صوت حفيف حذائها على السجادة المفروشة بين البابين الداخلي والخارجي، ثمّ سمعت صوت حفيف وخشخشة. بدا الصوت كأنه صوت باب يتحرك. مر الوقت عليّ بطيئاً ثقيلاً يبعث على الجنون؛ خلتها دقائق، ساعاتٍ، عقداً من الزمن ما انفك منبه الساعة يوقوق عبرها.
أخيراً، عادت السيدة كوب حاملةً ألبوم صورٍ ضخماً أخضر اللون محاطاً

بشريط أسود.

"أعتقد أن كبش الفداء سيغفر لي".

وضعت الألبوم أمامي وفتحته على الصفحة الأولى.

كان يصدر عن تنفسها صوت صافر حين كانت تتكئ فوق كتفي وهي تدفع نحوي بصورة قوية مفاجئة؛ صورة طفلٍ مدثرٍ ببطانية مزركشة.

تحركت إصبعها نحو صورة عربة طفل قديمة الطراز وقد وُضع الرضيع فيها.

قلّبت صفحات عدة: طفلٌ يحمل مطرقةً بلاستيكية، طفلٌ يرتدي مئزراً من قطن أزرق اللون ويعتمر قبعة راكب دراجة هوائية.

صفحتان أخريان: صبي مضفور الشعر في السابعة من عمره تقريباً يعتمر قبعة رعاة بقر ويضع قراب مسدس مزدوجاً. الصبي نفسه مرتدٍ ثياب لاعب بيسبول وقد وضع مضرب كرة البيسبول على كتفه.

ثلاث صفحات: مراهق يمد راحة يده في حركة توحي بالاعتراض، ووجهه أدير بعيداً عن عدسة الكاميرا. كان المراهق في السادسة عشرة من عمره تقريباً، وكان يرتدي قميص غولف ضخماً وسروالاً قصيراً فضفاضاً.

لقد كان الفتى راعي البقر؛ لاعب كرة البيسبول القوي، على الرغم من أن لون شعره أضحى أكثر قتامةً الآن. الوجنة التي أتاحت الصورة رؤيتها كانت ناعمةً ووردية اللون ومنقّطة بحب الشباب، كانت وركا الصبي واسعتين، وكان جسده أنثوياً ناعماً، مع غياب واضح لبنية عضلية تميزه.

نظرت إلى السيدة كوب التي قالت: "ابني. تشارلز غرانت كوب".

دارت حول الطاولة، وجلست، وأحاطت الكوب بيدها.

استمعنا كلتانا إلى وقواق الساعة وهو يتكتك ستين مرةً.

كسرتُ حاجز الصمت قائلة: "لقد عانى ابنك وقتاً صعباً خلال سني مراهقته".

"لم يختبر تشارلي الابن التغييرات الملائمة التي تطرأ على المراهق، ولم ينمُ شعر لحيته، ولم يتغير صوته قط، و..."، خمس تكات، "أنت تعرفين".

إكس إكس واي، صبي يعاني متلازمة كلاينفلتر.

"أعرف، سيدة كوب".

"يمكن أن يكون الأولاد قساةً جداً".

"هل حدث أن خضع ابنك لفحص طبي أو عُولِجَ؟".

"رفض زوجي الاعتراف بأن ثمة أمراً ينطوي على خلل أو علة عند تشارلي الابن. عندما أدرك سن البلوغ، واتضح أنه لم يحدث شيء سوى أن تشارلي الابن بات يزداد وزناً أكثر فأكثر، ساورني شكّ في أن ثمة أمراً لا يسير كما ينبغي، لذا، اقترحتُ أن نعرضه على الأطباء".

"ماذا قال الأطباء؟".

"لم نذهب لاستشارة أطباء قط"، هزت رأسها، "كان السيد كوب يكره أمرين اثنين بكل ما أوتي من قدرة على الكره؛ الأطباءَ والشاذين. هذا ما كان يدعوهم به، حسناً، أنت تعرفين".

سحبت منديلاً ورقياً ونظفت أنفها مجدّداً.

"كان التحاور شبيهاً تماماً بالتحاور مع كتلة من الرماد. كان تشارلي الأب يعتقد حتى آخر يوم في حياته أن كل ما يتعين على تشارلي الابن فعله هو أن يمتّن بنياناً ويَصلُبَ عوداً. هذا ما كان مواظباً دوماً على قوله له. كن قوياً وصلباً يا ولد. كن رجلاً. لا أحد يحب شاباً شبيهاً بالبنات. لا أحد يحب شاباً شبيهاً بالفتيات".

نظرت إلى صورة الصبي، وفكرت في الأولاد الوقحين الذين يزعجون الأولاد الرصينين في قاعات الصفوف المدرسية، وفكرت في أولاد يسلبون أولاداً أصغر سناً منهم نقودهم التي يتعين أن يشتروا بها أطعمتهم، وأيضاً فكرت في المتشدقين المتنمرين الساعين إلى رصد عيوب الآخرين ونقاط ضعفهم ليستنزفوهم كما تستنزف دماء الجروح التي لا تندمل، فكّرت في أولاد يوبخون أولاداً آخرين بطريقة ساخرة ومهينة، ويعذبونهم، ويضطهدونهم إلى أن يحملوا ضحاياهم في نهاية المطاف على الاستسلام والخضوع لهم من تلقاء أنفسهم.

شعرت بالغضب، والإحباط، والحزن، وقلت تخميناً: "بعد أن غادر تشارلي الابن المنزل قرر أن يحيا حياة أنثى".

هزت رأسها موافقةً على ما قلته، ثمّ قالت: "لست واثقة على وجه الدقة من الوقت الذي تحوّل فيه، لكن هذا ما فعله تماماً. زارت..."، كافحت من أجل استخدام الضمير المناسب، "زارنا مرةً، لكن تشارلي الأب أسرف في توبيخه بأسلوب عنيف، وأمره ألاّ يعود إلينا إلى أن يعتدل ويستقيم مسلكاً. لم أكن قد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

رأيت تشارلي منذ أكثر من عشر سنوات عندما..."، مزيد من الارتباك الناجم عن البحث عن الضمير المناسب، "عندما أضحى في عداد المفقودين".

ابتسمت وتابعت: "تحدثت إليه من دون أن يعرف تشارلي الأب أنني فعلت".

"هل حدث هذا مراتٍ عديدةً؟".

"كان يكلمني مرةً في الشهر تقريباً. كان حارس غابة كما تعلمين".

"عميل قسم مركز الحياة البرية والأسماك. هذا عمل شاق شديد التطلب".

"نعم".

"متى كانت آخر مرة تحدثت فيها إلى تشارلي الابن؟".

"كان ذلك في مطلع شهر كانون الأول/ ديسمبر منذ خمس سنوات. تلقيت مكالمةً من شرطي بعد ذلك بوقت لم يكن طويلاً، سألني الشرطي إن كنت أعرف مكان وجود شارلوت. ذاك كان الاسم الذي بات تشارلي الابن يُطلقه على نفسه... تُطلقُهُ على نفسها".

"هل كان ابنك يعمل على أمر ما بصفة خاصة وقت اختفائه؟".

"كان يعمل على أمر يتعلق بأناس يقتلون دببَةً. كان شديد الاهتمام بتلك المسألة. كان يقول إن ثمة أُناساً يذبحون دببةً بوحشية فقط؛ كي يحصلوا على حفنة من الدولارات. لكن – كما أذكر – كان يتحدث عن هذا الأمر بوصفه نشاطاً جانبياً، لا مهمةً رسميةً. كما لو كان أمراً عرف به مصادفةً. أعتقد أنه كان من المفترض أن يكون معنياً، في الواقع، بسلامة السلاحف وحمايتها".

"هل ذكر أي أسماء؟".

"أعتقد أنه قال شيئاً ما عن صيني. لكن مهلاً..."، ربتت بإصبع ناتئة العظام على شفتيها ثم رفعتها في الهواء وتابعت: "قال إن هناك شخصاً في لانكستر وآخر في كولومبيا. لا أدري إن كان لهذا الأمر علاقة بالدببة أو بالسلاحف. إلا أنني أذكر أنني تساءلت عن الأمر في وقت لاحق؛ لأن تشارلي الابن كان يعمل في كارولينا الشمالية، لا هنا".

دقت الساعة مرةً واحدةً معلنةً أن شارة ضبط الوقت تشير إلى نصف الساعة.

"أتريدين مزيداً من القهوة؟".

"لا، شكراً".

نهضت كي تملأ كوبها مجدّداً، واستأنفت الحديث معها: "عُثِر على بقايا هيكل عظمي، سيدة كوب. أعتقد أنه من المحتمل أن تكون بقايا هيكل ابنك العظمي".

انخفضت كتفاها بصورة ملحوظة وقالت: "هل سيتصل أحد بي ليخبرني؟".

"سأتصل بك بنفسي عندما نتوثّق".

كوّرت قبضتيها ووضعتهما في جيبي سترتها.

"سيدة كوب، هل لي أن أطرح عليك سؤالاً واحداً أخيراً؟".

هزت رأسها معربة عن موافقتها.

"لماذا لم تطلعي أولئك الذين يحققون في اختفاء ابنك على هذه المعلومات؟".

استدارت نحوي بعينين حزينتين وقالت: "قال تشارلي الأب إن تشارلي الابن يحتمل أن يكون قد رحل إلى سان فرانسيسكو أو إلى مكان آخر يمكّنه من الاستمرار في أسلوب حياته، واقتنعت منه".

"هل حدث أن قال ابنك أي شيء يوحي بأنه كان يفكر في الانتقال؟".

"لا".

رفعت كوبها وأدنته من شفتيها، ثم أعادته إلى حيث كان على النضد.

"أعتقد أنني صدّقت ما رغبت في تصديقه".

نهضت قائلةً: "ينبغي لي أن أذهب".

طرحت سؤالاً واحداً أخيراً عند الباب: "هل تقرأين الكتاب المقدس كثيراً؟".

"لا، يا سيدتي، لا أفعل".

ثم قالت بصوت يكاد لا يُسمع: "مهما حاولتُ وفكرتُ، فليس في وسعي أن أفهم العالم".

قلت: "سيدة كوب، مهما حاولتُ وفكرتُ، في أحسن أيامي، فليس في وسعي أن أفهم نفسي".

بينما كنت أشق طريقي على نحو متلوٍّ بين المدوّمات، شعرتُ بعينين خلفتهما ورائي، عينين مسكونتين بالإرباك والحزن والشعور بالفقدان والخسارة.

بينما كنت أتوجه نحو سيارتي، استرعى انتباهي شيء موضوع على زجاج السيارة الأمامي.

ماذا بحق الله؟

خطوتان أخريان وبدا الشيء أكثر وضوحاً.

توقفت في مساري حيث أنا، وارتفعت إحدى يديَّ بسرعة إلى فمي وقد شعرت بالغثيان.

وأنا أعاني صعوبةً في البلع، اقتربت خطوتين، ثلاثاً، أربع خطوات.

يا الله!

شعرت بالغثيان، وأغمضت عينيَّ.

زحفت صورة عبر ذهني، وتسارعت ضربات قلبي وتزايدت فبلغت عنان السماء، ثمّ انفتحت عيناي فجأةً.

هل أنا الآن في مرمى بصر الشبح؟ هل ثمة من يتعقبني؟

كان عليَّ أن أرغم نفسي على النظر إلى التشكيل المروع قليلاً الموضوع على زجاج سيارتي الأمامي.

ثمة سنجاب محشور بين زجاج السيارة وماسحة الزجاج. كانت عيناه تبدوان كالزجاج، وبطنه مفتوحاً، وأحشاؤه منتشرة مثل فطور على جذع شجرة متعفن.

34

نظـرت حولـي بسـرعة خاطفـة؛ كان الباب الداخلي وبـاب الألمنيوم مغلقين؛ تفحصت الكتلة. ورأيتُ امرأة تمشي الهوينا بصحبة كلب هجين.

هـل ثمـة مـن يتعقبني؟ فشـعرتُ بقشـعريرة تسـري في أحشـائي؛ وأنـا ألتقط أنفاسي، رفعـت ماسـحة الزجـاج، وأمسـكت السـنجاب من ذيله، وقذفت به إلى الأشجار. على الرغم من أن يديَّ كانتا ترتجفان، فقد كان عقلي يدوّن ملحوظات تلقائياً: قاسٍ، ولم يمت منذ وقت قريب. سحبت مناديل ورقية من صندوق القفاز في السيارة، ونظفت الزجاج، وانزلقت إلى خلف المقود: استخدمي الأدرينالين. انطلقي.

شغلتُ محرك السيارة، وانطلقت بسرعة كبيرة على الطريق.

كانـت المـرأة التي تسـير سـيراً وئيـداً والكلـب ينعطفـان عند ركن الشـارع، فانعطفتُ معهما.

كانت المرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً، وبدا أنها مواظبة على التنزه سيراً على قدميها. كانت ترتدي حمالة صدر ليكرا وسروالاً قصيراً، وتضع سماعة رأس مرفقة بهوائي صغير يؤطر شـعراً أشـقر مسـرحاً على هيئة ذيل فرس. كان الكلب مشدود الوثاق إلى إحدى حلقات الطوق الزرقاء.

أنزلتُ زجاج النافذة وقلت: "اعذريني".

التفت الكلب، والمتنزهة لم تلتفت.

"عذراً"، صرخت وأنا أقود السيارة ببطء.

اندفـع الكلـب نحو السيارة، وكادَ أن يطرح صاحبتـه أرضاً. توقفت، ونزعت السماعة وأبقتها معلقةً حول عنقها، ونظرت إليّ بحذر.

وضـع الكلـب قائمتيـه الأماميتين على بابي وبدأ يشـتمّ رائحتي، فمددت يدي

وربتٌّ على رأسه.

بدا أن المتنزهة استرخت قليلاً فسألتها: "هل تعرفين السيدة كوب؟"، كان هدوء صوتي يعطي انطباعاً زائفاً عن الاهتياج الذي يعتلج في داخلي.

قالت وهي تلهث: "أهه...".

"بينما كنت أقوم بزيارة لها، وُضِع شيء على زجاج سيارتي الأمامي. أريد أن أسأل إن كنتِ لاحظتِ وجود أي سيارات أخرى قرب قطيرتها".

"في الواقع، لاحظت. هذه الطريق غير نافذة؛ لذلك لا تشهد كثيراً من حركة المرور". ثمّ وجهت إصبعاً نحو الكلب، ثم نحو الأرض وصرخت في الكلب قائلةً: "غاري، اجلس".

غاري؟

"كانت سيارة من نوع فورد إكسبلورر سوداء اللون، يقودها رجل ليس فارع الطول، شعره كثيف، يضع نظارة شمسية".

"ألون شعره أسود؟".

"شعر كثيف"، قالت مقهقهةً: "زوجي أصلع، وهو يقول إن صلعه جعلني ألاحظ الشعر على رؤوس الرجال. على أي حال، كانت سيارة الإكسبلورر متوقفة قبالة الممر الذي يفضي إلى بيت السيدة كوب تماماً. لم أستطع أن أميز السيارة، لكن كان عليها لوحات صادرة من كارولينا الجنوبية".

نادت المرأة غاري، فنزل إلى الرصيف، ثم قفز عائداً إلى جانب السيارة القريب مني.

"هل السيدة كوب على ما يرام؟ أحاول أن أزورها، بيد أنني لا آتي إلى حيث تقطن كثيراً".

قلت وفكري مشغول بالغريب أسود الشعر: "أنا على يقين من أنها تقدر الضيوف والعشرة".

"نعم".

وهي تجرّ غاري من حيث يقف قرب بابي، أعادت المرأة السماعة الرأسية إلى حيث كانت واستأنفت السير.

جلستُ لحظةً أفكّر في وجهتي المقبلة، وقلت في سرّي: لانكستر وكولومبيا.

قصير وأسود الشعر. شعر أسود كثيف؛ هذا ينطبق على رفيق والي كاجل الذي كان معه في المقهى، وأوصافه مطابقة لبالمر كُزنز. بل هذا ينطبق على مليون رجل في أميركا.

هل ينطبق هذا الوصف على الشبح الذي يهدّدني؟ ما الذي كان يجري بحق الله؟ اسكني واستأمني ولا ترتاعي.

أخذت نفساً عميقاً وحاولت الاتصال بهاتف كاتي الخلوي؛ لا جواب، فتركتُ رسالةً أودعتها بريدها الصوتيّ.

لانكستر وكولومبيا؛ اتصلت بلورانس لوبير لأستفسر عن والي كاجل. طنّ جهاز الرد الآلي على المكالمات، فتركتُ رسالةً. ثمّ اتصلتُ بدولوريس في قسم الأنثروبولوجيا التابع لجامعة كارولينا الجنوبية:

أخبار رائعة. بدأ والي كاجل يستفيق من الغيبوبة ويستعيد وعيه. لا، لم يُفصِح متماسكاً وقادراً على ربط الأمور منطقياً بعد. لا، لم يأتِ أي زوارٍ آخرين للسؤال عنه في الجامعة.

شكرتها وقطعت الاتصال.

ماذا يمكن أن تنجز رحلة أخرى إلى كولومبيا؟ هل يمكن أن تؤدي إلى تجفيل لوبير؟ أيحتمل أن تجعل الفزع يدب في نفس بالمر كُزنز؟ هل يمكن أن تتمخض عن تحديد موضع إقامة كاتي؟ هل تثير محاولة تحديد موضع إقامة كاتي حنقها إلى أبعد حدّ؟ هل هذا الأمر يزعج سليديل إزعاجاً شديداً؟ هل أقصد لانكستر؟

تقع كلوفر في منتصف الطريق المؤدية إلى هناك. لن يزعج هذا الأمر كاتي، وسيتغلب سليديل على الأمر.

لم يُفصِح كاجل متماسكاً وقادراً على ربط الأمور ربطاً منطقياً بعد.

توجهتُ جنوباً عبر الطريق رقم 321، ثم شرقاً عبر الطريق رقم 9، وما انفكت عيناي تنظران على نحو متواصل إلى المرآة التي تتيح رؤية الطريق من خلف سيارتي. شاهدت مرتين ما اعتقدت أنهما سيارتان سوداوان من نوع إكسبلورر؛ أبطأت السير مرتين، وتجاوزتني السيارتان في المرتين كلتيهما. على الرغم من أنني بتُّ هادئةً رابطةَ الجأش ظاهرياً، ما برحت القشعريرة تسري في أوصالي.

عندما كنت على بعد خمسة أميال من لانكستر، اتصلت بتيري وولسي في

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قسم الشريف.
رد علي صوت رجل قائلاً: "المخبرة وولسي ليست في العمل اليوم".
"هل لي أن أتصل بها عبر هاتفها المنزلي؟".
"نعم، في وسعك فعل ذلك، يا سيدتي".
"لكن ما ليس مسموحاً لك به هو تزويدي برقم هاتفها".
"لا، يا سيدتي، ليس هذا متاحاً لي".
اللعنة! لماذا لم أحصل على رقم هاتف منزل وولسي؟
تركت رسالة لوولسي.
"ماذا عن تزويدي برقم هاتف طبيب المقاطعة الشرعي؟".
"هذا ما يمكنني تزويدك به"، أعطاني رقم هاتفه، "يحتمل أن يكون السيد بارك في عمله الآن"، لم يوحِ صوته بأنه كان صادقاً في ما يقوله، "إن لم يكن هناك، يمكنك أن تجربي الاتصال به في المكان المُعد لتجهيز الموتى للدفن".
شكرته. وبينما كنت أقطع الاتصال، رأيت سيارة جيب سوداء اللون أخرى. عندما أبعدت نظري عن الهاتف الخلوي حيث كنت أطلب رقم مكتب الطبيب الشرعي، كانت السيارة قد ذهبت، وازدادت القشعريرة حدّةً.
كان عامل المقسم محقاً في ما ذهب إليه، إذ لم يكن بارك في مكتبه. أودعت رسالتي الرابعة في عشر دقائق، ثم توقفتُ عند محطة للوقود؛ للاسترشاد عن الاتجاهات التي تفضي إلى مركز تجهيز الموتى للدفن.
تشاور عامل المحطة مع مساعده الشاب، ودار بينهما نقاش مطول أفضى إلى التوصل إلى اتفاق في نهاية المطاف: "اسلكي الطريق السريعة رقم 9 إلى أن تبلغي شارع وست ميتينغ، ثمّ انعطفي يميناً إلى شارع مموريال بارك درايف، واعبري المسارات، وانعطفي يميناً مرةً أخرى بعد أن تقطعي مسافة ربع ميل تقريباً، ثم انظري إلى الشاخصة الطرقية. إن اجتزت المقبرة، فهذا يعني أنك قد ذهبت في الطريق بعيداً جداً".
لم يتمكن أحد منهما من تذكر اسم الطريق التي يقع فيها مركز تجهيز الموتى للدفن.
من ذا الذي يحتاج إلى محرك البحث ياهو؟! لدي اثنان، لا واحدٌ فقط.

إضافة إلى ذلك، كانت تعليماتهما وتوجيهاتهما دقيقةً. بعد خمس عشرة دقيقةً وانعطافتين، رأيت شاخصة خشبيةً تدعمها ركيزتان بيضاوان، خُطَّت عليها أحرف بيضاء تُقرأ وفقاً للآتي: مركز بارك لتجهيز الموتى، وقد أدرجت عليها الخدمات التي يوفرها المركز.

انعطفتُ وسلكت طريقاً متمعجة خاصةً تصل بين الطريق العامة والمبنى الذي أقصده، وتحدها من جانبيها نباتات الأزالية وأكوام من خشب البقس.

بعد أن انعطفت بالسيارة المرة التاسعة أو العاشرة، شاهدتُ أرضاً محددةً مفروشةً بالحصى ومجموعة مبانٍ. أوقفت السيارةَ، وأجريت مسحاً سريعاً لمجموعة المباني. لم يكن مركز بارك لتجهيز الموتى كبيراً، إذ يتألف مبناه الرئيس من طابق واحد مبني من طوب ويتصل به جناحان وقسم مركزي متموضع في المقدمة، ومجموعتان من النوافذ يتألف كل منها من ثلاث نوافذ موزعة على جانبي المدخل الرئيس، ومدخنة تعتلي السطح المطلي بطبقة إسفلتية.

خلف المبنى الرئيس، رأيت دار عبادة صغيرة مبنية من الطوب لها برج صغير جداً وأبواب مزدوجة. وخلف دار العبادة هناك مبنيان خشبيان، أكبرهما مساحةً يحتمل أن يكون مرأباً، في حين يحتمل أن يكون الأصغر مساحةً مخزناً.

نباتات اللبلاب والونكةِ المعترشة غطت الأرض حول الأبنية وبينها، في حين زحفت الطحالب صوب أساسات تلك الأبنية. أما أشجار الدردار والسنديان، فقد أبقت المجمع كله يتفيأ في ظل دائم.

بينما كنت أنظر حولي، سرت في أوصالي ضروب القشعريرة، وأضاف عقلي إلى الخدمات المدرجة في اللائحة المثبتة عند المدخل خدماتٍ أخرى: تجهيز الموتى للدفن، ترميد، دعم الحزن، تخطيط، ظل دائم.

أوقفني الميلودراما يا برينان. إنها نصيحة طيبة. مع ذلك، أزعجني المكان وجعل الخوف يتملكني.

أذنت لنفسي بالدخول إلى ردهة صغيرة. ثمة أحرف بلاستيكية كتبت بلون أبيض على لوحة رمادية كانت تشير إلى أمكنة الاستقبال، وغرفة الترتيب، وغرفة محامل الكريات الفولاذية، وقاعتي الاستقبال ذاتَي الرقمين واحد واثنين. قاعة الاستقبال الثانية محجوزة لشخص يدعى إلدريدج مابلس.

ترددت: هل عبارة "غرفة الترتيب" هي تعبير مُلَطَّفٌ للمكتب. هل المقصود من كلمة "استقبال" هو استقبال الأحياء؟ كانت الأسهم البلاستيكية البيضاء تشير إلى أن المكانين كليهما يقعان أمامي تباعاً.

دخلت عبر باب الردهة قاعةً مزخرفةً يغطي أرضها سجاد مزين بأزهار الخزامى، وجدرانها وردية اللون باهتة. كانت أبواب القاعة والأشغال الخشبية فيها ذات لون أبيض لامع، وأعمدتها كورنثية مطلية بلون أبيض لامع ومزخرفة في أعلاها برسوم لأغصان أشجار تحاكي الطراز المعماري الإغريقي، أما السقف فهو مزين برسوم لوريدات حلزونية الشكل تعانق الجدران عند حدود تلاقيها مع السقف.

أم هل هي من الطراز المعماري الدُّوريّ (طراز في العمارة الإغريقية المغرقة في القِدم)؟ أليس للأعمدة الإغريقية تيجانٌ في أعاليها؟ ليست الأعمدة الإغريقية من غير الدورية تعتليها حليات معماريةٌ وردية الشكل.

توقفي! ملأت أرائك الملكة آن والكراسي الثنائية كل فراغ مجاور للأعمدة، وإلى جانب كل منها طاولات مصنوعة من خشب الماهوغاني (خشب صلد ذو لون بني ضارب إلى الحمرة يصنع منه الأثاث الفاخر عادةً) عليها أزهار حريرية وعلب مناديل ورقية.

كانت أُصصٌ زُرِعَ فيها نخلات تسد بابين مزدوجين إلى يميني وإلى الشمال مني، ووُضعت ساعة حائط قائمة على الأرض مباشرةً في نهاية الممر، وقد كانت تكتكاتها البطيئة والرتيبة مصدر الصوت الوحيد في خضم السكون الساحق الرهيب.

ناديت بصوت ناعم: "مرحباً، هل من أحد هنا؟"، لم يجب أحد، ولم يظهر أحد.

أعدت ما قلته مجدداً بصوتٍ أعلى قليلاً، والساعة تواظب على التكتكة: "هل من أحد هنا؟".

لقد كان صباحي الموعود مع الساعات التي تتكتك.

كنت أفكر في "غرفة الترتيب" مقابل "الاستقبال" عندما صرخ هاتفي الخلوي. فقفزت من مكاني ثم نظرت حولي، آملةً ألاّ يكون فزعي قد رُصِدَ. عندما لم أرَ أحداً، هرعت إلى البهو، وضغطت على زر استقبال المكالمة، وقلت بصوت يرمي

إلى لفت انتباه محدثي كي يخفض صوته: "نعم".
"مرحباً"، قالها بطريقة تفتقر إلى الكياسة.
جال ناظراي جولةً دائريةً كاملةً في المكان. ألم يتعلم الرجل قط أن يقول "مرحباً" بطريقة محترمة؟
قلت "نعم"، بصوت يرمي إلى لفت انتباهه مرةً أخرى كي يخفض صوته.
"أأنت في دار عبادة أو في مكان من هذا القبيل؟"، بدا وهو يتكلم أن صوته تخالطه ضحكة تهكمية من ضحكاته المعهودة التي تختزل وجوده كله.
"شيء من هذا القبيل".
"أين أنت بحق الله؟".
"في مركز لتحضير الموتى للدفن. ما سبب اتصالك؟".
ساد صمت عبر الهاتف حين كان سليديل يفكر ملياً في السؤال، ثمّ قال: "طلب مني الدكتور لارابي أن أحيطك علماً بأنه حصل على معلومات من قسم التوثق من الوثائق مُقدّراً أنك ترغبين في الاطلاع على فحواها".
أخفق عقلي لحظةً من الزمن في ربط الأمور، وقلت: "هل يتعلق الأمر بالملحوظة المدونة التي عثرت عليها أنت والدكتور في ثياب أيكر؟".
لم أكلف نفسي عناء اكتشاف مصدر الملحوظة الصحيح.
قال سليديل: "يقول الدكتور إنك كنت محقةً في ما يتعلق بموضوع كولومبيا".
في تصرف يعوزه التفكير السليم ويفتقر إليه، أدرت ظهري إلى مدخل الردهة، كما لو كان السيد مابلس الميت يمثّل تهديداً يتمثل بتنصته على ما أقوله.
"هل كان مَن كَتَبَ الملحوظة متوجهاً إلى كولومبيا؟".
"يبدو الأمر كذلك. لقد استخدم العاملون في قسم التوثق من الوثائق ضرباً من الضوء الذي له مفاعيل مؤكّدة في محاولة لإظهار قليل من الحروف الممحية، وتدبروا أمرهم، ونجحوا في تحقيق ذلك".
"هل من شيء آخر؟".
صُفِق بابٌ على مقربةٍ من دار العبادة الصغيرة أو ربما قرب المرأب. فتحت، على عجلٍ، باب المدخل فتحةً تكاد لا تُرى، واختلست النظر؛ لم يكن ثمة أحدٌ في مرمى بصري.

"الكلمة الأخرى الوحيدة التي تمكنوا من إظهارها كانت كُرنز".

توهج ذهني كما يتوهج الشرر في أثناء احتكاك الأسلاك الكهربائية ببعضها بعضاً: ليس ثمة مجال للشك. كُرنز قذر، وهو متوجه إلى كولومبيا؛ اكتملت الكلمات.

كان ما سمعته بمنزلة صفعة تنبيه.

إنه رجل قصير القامة، مفتول العضلات، ذو شعر كثيف أسود اللون. عميل هيئة الحفاظ على الحياة البرية والأسماك الذي لا يعرف شيئاً عن صيد الدببة الجائر غير المشروع؛ بالمر كُرنز.

كان سليديل يتكلم، إلا أنني لم أكن أسمعه. كنت أستعيد في ذهني حيثيات النقاش الذي دار بيني وبين ريان: بقايا الجثة التي عثرتُ عليها في دورة المياه يوم الثلاثاء، والشبح الذي بدأ يلتقط صوره يوم الأربعاء.

كان بالمر كُرنز في مزرعة فوت يوم السبت، ويعرف ما الذي عثر عليه بويد.

هل كان كُرنز هو من وضع السنجاب على زجاج سيارتي الأماميّ؟ هل كان ذاك التصرف تهديداً آخر من الشبح؟ أكان يتعقبني؟ هل كان يحتجز كاتي؟ هل سيؤذيها كي يعاقبني ويخضعني ويتمكن مني؟

كان قلبي يخفق خفقاناً شديداً، وتصبب العرق من راحة يدي الممسكة بالهاتف الخلوي.

قلت: "سأتصل بك لاحقاً".

كان سليديل يتكلم مهتاجاً فاختلط كلامه ببعضه بعضاً.

قطعت الاتصال وأقحمتُ الهاتف في حقيبتي بيدين ترتجفان، واندفعت خارجةً من الباب الأمامي، واصطدمت بصدر يحاكي الحجر صلابةً.

كان للرجل من طول القامة ما لقامتي من طول تقريباً، وكان يرتدي بذلة سوداء اللون مخطّطةً باللون الأبيض وقميصاً ذا لون أبيض لامع.

تمتمت معتذرةً، وتنحّيتُ جانباً لأمُرّ. امتدت ذراع نحوي، وأطبقت أصابع فولاذية على عضدي. فشعرت بجسدي يدور بسرعة، ورأيت شعراً أسود اللون كثيفاً، ورأيت صورة وجهي تنعكس في عدستَي عينين صلبتين، وانفغر فاهي اندهاشاً وذهولاً.

امتدت أصابع وانبسطت مغطيةً أذني اليسرى، ودُفعَ رأسي إلى الأمام بسرعة وقوة فارتطم بالباب محدثاً صوتاً حاداً، وتجمهر الألم في جمجمتي.

كافحت كي أخلص نفسي، فأمسكت بي يدان أشبه ما تكونان بملزمة، ثم أطبقت أصابع على شعري إطباق براثن وحش على فريسة، وسُحِبَ رأسي إلى الخلف بسرعة وقوة، فشعرت بالدم يسيل على وجنتي ممزوجاً بالدمع المنهمر من عينيَّ.

مرة أخرى، دُفِعَ رأسي إلى الأمام وصُفِقَ بالخشب. كما سُحب عنقي مجدّداً إلى الخلف، ثم إلى الأمام. شعرت بارتطام، وبصوت مكتوم ناجم عن ارتطام كأنه كان يسعى إلى مسامعي من مكان بعيد، ثم فقدتُ الوعي.

35

شممت رائحة عفن فطري، وطحلب، وشممت رائحةً ثقيلةَ الوطأة تبعث على الإغماء كأنها رائحة مرارة تُقلى في مقلاة.

تناهت إلى مسامعي أصوات إوَزٍّ، أو أصوات أحد ينادي آخر من مسافة بعيدة.

أين أنا؟ منكبّة على وجهي على شيء صلب. لكن أين؟

كان ذهني يجود بعرض صور مجزأة لا رابط بينها: مقطورة، محطة وقود، بيت تجهيز الموتى للدفن، شخص يدعى مابلس.

تحسست أصابعي الأرض من حولي؛ ناعمة، وباردة، ومنبسطة. ثمّ ربتُّ على السطح، وشممتُ رائحته؛ إنه إسمنت.

نقّلتُ إحدى يدي على وجهي، فشعرت بدم متخثر ومتقشر، وعين متورمة، وورم ناتئ من وجنتي بحجم تفاحة.

ومضة ذهنية أخرى: بذلة سوداء مخطّطة باللون الأبيض.

الهجوم!

ثم ماذا؟

شعرت بذعر مفاجئ يتجمهر في صدري. وأصدرت خلاياي الرمادية المعذبة أوامر، ولكن، لا تجاوب: استيقظي! الآن!

حاولت النهوض لأجثو على ركبتيَّ، متكئةً على راحتي يدي كلتيهما. كانت ذراعاي أشبه ما تكونان بالمطاط، وسرى ألم في عظام جمجمتي، وانقبضت معدتي وتشنجت. فأرخيت جسدي على الأرض، فالتصق الإسمنت البارد بوجنتي.

كانت ضربات قلبي تضج في أذنيَّ.

أين؟ أين؟ أين؟

أمر آخر مسعور صارخ: تحركي!

أدرتُ جسدي واستلقيت على ظهري، ثمّ جلست ببطء. اتقد شعاع ضوء أبيض في ذهني، وبلغ الارتعاش لساني. سحبت كاحليّ نحو كفلي، وأرخيت ذقني، وأخذت نفساً عميقاً، حتّى تراجعت حدة الغثيان والدوار شيئاً فشيئاً.

ببطء، رفعت رأسي، وفتحت عيني الوحيدة التي بقيت سليمةً، وحدقت ممعنةً النظر في ما يحيط بي؛ كان الظلام شبيهاً بجسم صلب. فانتظرت حتى يتوسع بؤبؤ عيني، إلا أنه لم يفعل.

بحذر شديد، تكورت جاثيةً على ركبتيَّ ونهضت، ومددت ذراعي أتلمس الظلام. فاقدُ القدرة على الإبصار يعوضُ عن الرؤية بالحماسة؛ كانت حالي حالَ فاقد البصر.

خطوتان واصطدمت راحتا كفيَّ بإسمنت عمودي، فسرتُ مُجانبةً ثلاث خطوات وصولاً إلى ركن. ثمّ تحولت تسعين درجةً متتبعةً الجدار العمودي تتقدمني يدي اليمنى، في حين تتحسس يدي اليسرى الإسمنت وفقاً لطريقة بريل.

يا الله! كم هو صغير سجني! كم هو صغير!

أحسست بالعرق يتصبب من وجهي، ومن عنقي. أربع خطوات أخرى وارتطمت قدمي اليسرى بجسم صلب، فانحنيت إلى الأمام، ثمّ مددتُ يديّ كلتيهما إلى الأمام ونحو الأسفل في لجة الظلام، حتى ارتطمتا ارتطاماً عنيفاً بشيء خشن وصلب عندما اصطدمت ساقي بشيء على الأرض اصطداماً آلمني إيلاماً مبرحاً. فصرخت من شدة الألم، وارتعدت أوصالي ذعراً.

مجدّداً، ارتعش فمي، وشعرتُ بطعم مرّ المذاق.

تعثرت حين اصطدمت بما شعرت أنه سناد حجري، وسقطت فوقه، وجُعِلت يداي وذراعاي على الأرض خلفي، في حين ظلت قدماي تحتكان بالحافة القريبة.

تهالك جسدي على الإسمنت، وانهمرت دمعةٌ من عيني السليمة، وسالت على وجنتي. رشحت دمعة أخرى من زاوية عيني المتورمة، فشعرت بها تحرق وجنتي المصابة لدى انسيابها عليها؛ عرق بارد يتصبب، ودموع حارقة، وقلب تزداد ضرباته سرعةً.

مزيد من الصور باتت ترد بسرعة أكبر الآن: صورة رجل قويّ شبيه بالبلدغ (كلب قوي البنية ضخم الرأس) وذي شعر أسود كثيف، وصورة عدستي عينيه

المعدنيتين، وانعكاس هزلي لوجهي المروَّع.

إنها استعادة ارتدادية للأحداث؛ ثمان وأربعون ساعة.

تبادل كلمات بين سليديل وموظفة الاستقبال المشاكسة.

"ماذا رأيت؟".

"نفسي!".

كانت دولوريس تشير إلى عدسات عاكسة كالمرآة!

يا الله! كان الرجل الذي هاجمني هو نفسه الذي زار كاجل!

كاجل، الذي أمضى الأسبوع الأخير في غيبوبة.

فكري!

كانت وجنتي ملتهبة التهاباً حارقاً، وقصبة ساقي تنبض ألماً، وكان الدم محتبساً في عيني المتورمة.

فكري!

صور مختلفة الأشكال والألوان: سيدة تتنزه مشياً على قدميها وتضع سماعة رأسية، السيدة كوب، الوقواق، الصور.

التقطت نفسي.

أعواد الثقاب!

دسست أصابعي في جيب الجينز الخلفي؛ فارغ.

بحثت في الجيب الآخر، وكسرت ظفري في غمرة نوبة جنوني المستعرة المؤقتة. كما بحثت في الجيبين الأماميين كليهما؛ منديل ورقيّ واحد، وقطعة نقدية معدنية من فئة الخمسة سنتات، وبنس واحد. لكنني وضعت علبة أعواد الثقاب في جيبي؛ أنا على يقين أنني فعلت. لقد طلبت مني السيدة كوب أن أفعل ذلك. ربما لم أكن أتذكر كما ينبغي. فكري في تسلسل الأحداث ببطء أشد.

لديّ شعور بأن الجدران من حولي تعتصرني. تُرى هل المكان الذي حوصرت فيه شديد الضيق؟ يا الله! رهاب الاحتجاز آثار الخوفَ والألمَ.

كانت يداي ترتجفان حين كنت أنقلهما من جيب إلى آخر.

ينبغي أن تكون أعواد الثقاب في جيبي. رجاءً!

جربت أن أبحث في الجيب المربع الصغير الذي يعتلي الجيب الأيمن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الأمامي. فانغلقت أصابعي على جسم مستطيل سميك من أحد طرفيه، وخشن الملمس من الطرف الآخر؛ علبة كبريت!

لكن كم عدد الأعواد التي تحتويها؟

قلبت الغطاء وتحسست بإصبعي وإبهامي؛ ستة أعواد.

عُدّيها!

ستة أعواد؛ ستة فقط!

اهدأي! قسّمي الغرفة إلى أربعة أقسام، وحددي مكان ضوء، وحددي موقع مخرج.

متجهةً صوب ما أملت أن يكون مركز الغرفة، باعدت بين قدمي، وأخرجت عود ثقاب ومرّرته على الجهة الخشنة من علبة الكبريت لإشعاله، فتفتتت مادة الكبريت التي تغلف رأس عود الثقاب من دون أن تشتعل.

اللعنة! انخفض عدد أعواد الثقاب إلى خمسة.

أخرجتُ عود ثقاب آخر، وضغطت رأسه على علبة الكبريت بإبهامي. اشتعل عود الثقاب، وتمخض اشتعاله عن لهب أضاء قميصي، لكن باستثناء القميص كان ما تسلط الضوء عليه قليلاً. رفعت عود الثقاب عالياً، ومشيت مشياً وئيداً إلى الأمام، وكونت انطباعاً ذهنياً خاطفاً. استناداً إلى ما تمكنت من رؤيته، بدت الغرفة كبيرة إلى حدٍّ ما.

ثمة علب كرتونية وعلب مصنوعة من الورق المقوى على طول الجدار الذي مشيت بمحاذاته. كان السناد الحجري الذي تعثّرت به ملقًى على الأرض، وكانت هناك رفوف معدنية، وزوايا معدنية مثقبة تحمل الرفوفَ وتثبتها في أمكنتها، وهناك فجوةٌ بين الرفوف والجدار.

رميت عود الثقاب، إذ أحرقتِ النارُ أصابعي، فخيّم الظلام.

مزيد من المشي وفقاً لطريقة بريل. عند نهاية الرفوف أشعلت عود ثقابي الثالث؛ باب خشبي في وسط الجدار البعيد. زَوَّيتُ عود الثقاب محركة إياه نحو الأسفل؛ كي يرتفع اللهب إلى أعلى، وبحثت عن مفتاح الضوء.

لا شيء.

انطفأ اللهب، فرميت عود الثقاب، ومشيت نحو الباب، وبحثت لمساً عن

مقبضه، فعثرت عليه وأدرته.

مقفل!

اندفعت مهتاجةً ورميت بثقلي كله على الخشب، وكورت قبضتي يدي، وركلت، وصرخت. وشعرت برغبة عارمة في الصراخ غضباً وإحباطاً. عدت إلى الوراء، واستدرت، ومشيت خطوات عدة، وأشعلت عود ثقابي الرابع.

انبثقت طاولة من قلب الظلام الدامس. ثمة أشياء رُصَّت فوق الطاولة، وأشياء ذات أحجام كبيرة مكدسة إلى جانبها.

انطفأ لهب عود الثقاب.

جمعت مراكز استعادة الذاكرة البصرية عندي النظرات الخاطفة لتشكل رسماً مجملاً؛ كان طول الغرفة عشرين قدماً وعرضها اثنتي عشرة قدماً تقريباً.

حسناً، مساحة لا بأس بها. خفّت حدة رهاب الاحتجاز عندي قليلاً؛ إلا أن خوفي لم يتراجع.

كانت الرفوف والعلب الكرتونية موضوعةً بمحاذاة أحد الجدران، في حين كانت المنضدة أو طاولة العمل عند الجدار المقابل له، والمواد المخزّنة إلى جانبها، والباب عند نهاية الغرفة البعيدة.

أعدت تمركزي في الغرفة، وأدرت ظهري إلى الباب، وتحركت ببطء إلى الأمام، وكانت غايتي تفحص الجدار الخلفي تفحصاً أوثق.

راجفة، وضعت رأس عود الثقاب ما قبل الأخير على الجهة الخشنة من علبة الكبريت. قبل أن أشعله، شعرت بأن اللون في هذا الجزء من الغرفة أقرب إلى البيوتري منه إلى الأسود. استدرت إلى الخلف، وتمكنت من رؤية مستطيل في مكان يعلو الطاولة؛ فنظرتُ إليه بمزيد من الاهتمام؛ كان المستطيل نافذةً مغطاةً بشبك من الأسلاك المعدنية، وسخام، وغبار.

وأنا أضع علبة الكبريت في جيبي، اعتليت الطاولة، ثم تمطيت واقفة على رؤوس أصابع قدمي، وأتلعت عنقي، ونظرت إلى الخارج. كانت النافذة نصفها دون مستوى الأرض تحيط بها كرمة تكاد أن تغطيها. كان في وسعي أن أرى، عبر الجزء العلوي منها، أشجاراً، وسقيفةً، وضوءَ قمر شحيحاً بين سحب أرجوانية داكنة.

سمعت مزيداً من الأصوات التي لا يُفهم فحوى كلامها، وأدركت أن هذه الأصوات الحادة تأتي من مكان يحيط به إسمنت وتراب؛ الأمر الذي أضعف صداها، ولم يكن مصدرها مكاناً مرتفعاً أو بعيداً. فتسارعت نبضات قلبي وأنفاسي مجدّداً.

كنت محتجزة في غرفة تحت الأرض؛ في قبو أو مخزن تحت الأرض من نوع ما. كان المخرج الوحيد من هذا المكان درجاً يحتمل وجوده خلف الباب الموصد.

أغمضت عينيَّ وتنفست تنفساً عميقاً: تحركي! اتخذي تدابير.

بينما كنت أقفز عن الطاولة، تمايلت عشرة خيوط في ضوء القمر، كل منها كان يلمع مثل خيط من خيوط العنكبوت، واشتدت رائحة المرارة.

اقتربت أكثر؛ كان كل خيط من الخيوط يحمل كتلة لحمية بحجم قبضة يدي، وكل كتلة كانت معلقة فوق مضرم نار يحيط به ترس يحول دون التصاقها بالنار. مرارات دببة!

لا بد من أن تكون المرارات قد جفت؛ لأن النار لم تعد مضرمة.

أرسل الحنق والغضب آخر ما تبقى في جعبتيهما من رهابيّ الاحتجاز.

تصرفي الآن! تصرفي بسرعة! أشعلت عود الثقاب الخامس، وتحركت نحو نهاية الطاولة البعيدة: خزائن ملفات، وشاخصات موقف سيارات، وسنادات لعرض الزهور مزودة بأسلاك طويلة مخرمة، وتابوت طفل، وخشخاشة معدنية صغيرة، ولفات عشب صناعي، وخيمة.

بينما كنت أفرد لفة قماش، أمسكت وتد خيمة، وأقحمته في جيبي، وعبرت الغرفة.

اعثري على شموع! اعثري على ضوء إلى جانب الباب. استخدمي وتد الخيمة في محاولة لكسر القفل أو خلع المقبض.

أشعلت عود الثقاب الأخير، وأنا بالكاد أتنفس، ومسحت العلب الكرتونية مسحاً بصرياً بإلقائي نظرةً عاجلة عليها؛ سوائل تحنيط. مُركب تصليد (تقسية).

وصلت إلى حيث كانت الرفوف، وجلست القرفصاء، وأمعنت النظر في علبة مفتوحة: عصابات للعيون، ومبازل، ومباضع، ومواسير تفريغ، وإبر للحقن تحت

الجلد، ومحقنات. ليس ثمة شيء من كل ذلك من شأنه أن يكسر الباب. وبدأت الغرفة تصبح أشدّ ظُلمةً.

هل في وسعي أن أحرك أحد المضارم؟ هل أستطيع أن أوقد النار فيه؟

وقفت.

يوجد على الرفوف العليا أجهزة تسلية مصنوعة من البرونز والرخام، ونسر فارد الجناحين، وقناع عليه صورة توت عنخ آمون، وخشب بلوط كثير العقد، وتمثال إغريقي، وسرداب مزدوج.

يا الله! هل تحتوي الجِرار على رماد جثث محروقة؟ هل كان الموتى الذين لا سبيل للسيطرة عليهم يحدقون إلى محنتي؟ هل يمكن أن يكسر نسر مصنوع من البرونز باباً خشبياً؟ هل أستطيع أن أحمل النسر البرونزي؟

تكثفت السحب فحجبت السماء، وأرخى الظلام سدوله على القبو مرةً أخرى.

تحسست طريق العودة إلى الطاولة، واعتليتها، وأطللت. هل في وسعي لفت انتباه أي شخص؟ هل أريد لفت انتباه أحد؟ هل سيعود الغريب أسود الشعر لينهي ما بدأه معي ويجهز عليَّ؟

تجمهر الألم في ساقي وفي وجنتي فاشتد النبض فيهما. كما ألهب الدمع جفنيَّ، فضغطت أسناني محاولةً أن أقوى على ألمي.

غرفةٌ يلفها الظلام. مرت دقائق، ساعات، آلاف السنين. حاربت الشعور بالعجز؛ سيأتي بالتأكيد شخص ما. لكن مَن؟

كم كانت الساعة؟

نظرت إلى ساعتي، لكنّ الظلام كان مطبقاً إلى درجة لم أتمكن معها من رؤية يدي.

من يعرف أنني هنا؟ أنشب اليأس مخالبه في دماغي. لا أحد!

لاح ضوء فجأةً، وشرع يومض حين كان يسعى بين الأشجار وعبرها. شاهدت الضوء يظهر ثم يخبو وهو يتجه نحو ظليلة. اختفى، وظهر مجدّداً، عاد يخفت ثم يظهر متوجهاً نحوي. بينما كان الضوء يقترب مني، شرعت أصرخ ثم حملت نفسي على التوقف عن الصراخ. بدأت أحاكي نموذج رجل. اقترب الضوء مني، ثم انحرف فأضحى خارج نطاق رؤيتي.

صُفِقَ بابٌ صفقاً عنيفاً في الأعلى، فقفزت عن الطاولة، ومشيت متعثرةً عبر الغرفة، وانكمشت هلعاً وذعراً خلف النهاية البعيدة للرفوف، وتمايلت العلبة الكرتونية حين كنت أضغط عليها. مددت يدي إلى جيبي وسحبت وتد الخيمة، وطوقته بأصابعي، وأسبلت يدي.

بعد لحظات سمعت صوت حركة عند باب القبو من الخارج؛ أدير مفتاحٌ... فُتح الباب.

وأنا أكاد لا أقوى على التنفس، أطللت عبر الجرار: لقد توقف الرجل عند المدخل حاملاً قنديلاً فوق كتفه اليمنى. بدا قصير القامة، مفتول العضلات، أسود الشعر كثيفهُ، ذا عينين آسيويّتين. كان كماه مرفوعين يكشف أحدهما عن وشم فوق المعصم الأيمن؛ سيمبر فاي (SEMPER FI).

كان هيرشي زامزاو قد تحدث عن وسطاء آسيويين يسهلون أعمال المتاجرة غير المشروعة بمرارات الدببة. وكان سوني باوندر قد تحدث عن تاجر كوري، عن شخص ما يعمل ضمن خط داخلي.

كان ريكي دون دورتون قد تعامل ضمن برنامجه المتعلق بحفظ الجثث ونقلها ودفنها مع رفيق له كان يعمل في سلاح مشاة البحرية.

كانت تيري وولسي مرتابةً من موت حبيبها، ومن استبداله بصفته محققاً في أسباب الوفيات المشتبه فيها.

في زمن لا يتجاوز ما يكفي لدقة قلب، كان ذهني يتوجه فجأة ويندفع سريعاً نحو مُرَكَّب آخر.

الشخص الذي هاجمني هو الرجل ذاته الذي كان قد حنط على جناح السرعة جثة سنو موريه، وهو الرجل الذي كان قد زار والي كاجل، وهو الرجل الذي هرّب المخدرات ومرارات الدببة مع ريكي دون دورتون.

الرجل الذي هاجمني هو طبيب مقاطعة لانكستر الشرعي الذي يحقق في أسباب الوفيات المشتبه فيها، جيمس بارك! جيمس بارك كوري.

تقدم بارك عبر مدخل الباب محركاً قنديله حوله بسرعة وقوة كي يستكشف المكان. ثمّ سمعت صوت شهيق حاد، ورأيت جسده يتصلب. تحرك بارك إلى نقطة مقابلة للرفوف تماماً وكان ينوء به كيس مصنوع من الخيش يحمله بيده

www.mlazna.com-RAYAHEEN

اليسرى. تحرك الكيس وغيّر شكله كأنه مخلوق حي.

تدفق الأدرينالين غزيراً جداً في كل أنسجة جسدي. كانت حركة دائرة الضوء التي أحدثها بارك ترشق المجمع الرهيب المروع بنظرة غضبى، وكانت حركة القنديل المرتجفة مقياساً لغضب حامله. وقد تمكنت من سماع صوت تنفس بارك، ومن شم رائحة عرقه.

أحكمت قبضتي الإمساك بوتد الخيمة. ومن دون أن أعي، توترت وانكفأت وغدوت أكثر التصاقاً بالرفوف.

اهتزت الرفوف وتمايلت وتكتكت لدى احتكاكها بالجدار. فجأةً، تحرك ضوء قنديل بارك نحوي. خطا خطوةً باتجاهي ثم أُخرى حتّى أضاء الوهج قدميَّ وساقيَّ. وأنا أتحرك ببطء، حركتُ يدي الممسكة بوتد الخيمة وجعلتها خلف ظهري.

سمعت صوت لهاث آخر، بعد ذلك توقف بارك ورفع القنديل. على الرغم من أن الضوء لم يكن مبهراً، فقد جعلت الإضاءة المفاجئة عيني السليمة تنحرف، وتحرك رأسي بسرعة ملتفتاً إلى الجانب.

"وهكذا دكتورة برينان، التقينا أخيراً".

كان الصوت ناعماً جداً وجازماً، وعالياً كأنه صوت طفل. لم يكلّف بارك نفسه عناء تمويه صوته الآن، إلا أنني عرفته من فوري. إنه الشبح!

أحكمت قبضتي إمساك الوتد، وقد توترت كل عضلة من عضلات جسمي.

ابتسم بارك ابتسامة جليدية صرفةً وقال: "أثمّن وشركائي عالياً جداً، خوضَكِ غمار معركة نيابةً عن هيئة حماية الحياة البرية، وقد قررنا إعطاءكِ تذكاراً رمزياً إعراباً عن شكرنا".

رفع بارك الكيس الذي تلوى شيء داخله؛ الأمر الذي جعل "الأشباح" الموجودة داخل الكيس المصنوع من خيش تتموج وتتخذ أشكالاً جديدةً.

تجمدت حيث كنت أقف، وظهري ملتصق بالجدار.

"أليس لديك ما تقولينه دكتورة برينان؟".

كيف أتصرف؟ هل أستخدم العقل؟ هل أتملق؟ هل أوجه إليه انتقاداً شديداً مشوباً بغضب عارم؟ اخترت أن أبقى صامتة.

"حسناً، الهدية".

خطا بارك خطوةً إلى الوراء، مفسحاً في المجال أمام الظل كي يبتلعني مرة أخرى. راقبته وهو يضع القنديل على الأرض ويفك ربطتي الكيس عند طرفيه.

بينما كنت بالكاد أقوى على التفكير، دسست وتد الخيمة خلف الرفوف، وجعلت منه مُخلاً ورفعته بكلتا يديَّ. مالت العلبة الكرتونية ثقيلة الوزن الموضوعة في الأعلى إلى الأمام، وعادت فاستقرت.

كان بارك مستغرقاً في مهمته، لذلك لم ينتبه.

عندما أسقطت وتد الخيمة أرضاً، رفع بارك رأسه، فأمسكت سناداً معدنياً عمودياً بكلتا يديَّ، وهززت الرفوف المعدنية مبعدةً إياها عن الحائط بكل ما أوتيت من قوة.

اعتدل بارك، ومالت الرفوف إلى الأمام ثم تطايرت الجرار في الهواء. رفع بارك يديه كلتيهما نحو الأعلى، ولوى الجزء العلوي من جسده. لكنه تلقى الضربة بصفة خاصة في صدغه الأيمن ثم سقط أرضاً، وسمعت صوتاً حاداً ناجماً عن ارتطام جمجمته بالإسمنت. تحطمت زجاجة القنديل وانطفأ نوره مخلفاً رائحة الكيروسين وحدها.

في زمن بدا لي عمراً بطوله، تحطمت أشياء وتدحرجت على الأرض.

عندما انتهت الضوضاء أخيراً، ساد صمت مخيف.

ظلام يحاكي ذاك الذي يكون في سرداب للموتى.

سكون مُطبِقٌ.

دقة قلب، اثنتان، ثلاث.

هل بارك فاقدٌ وعيهُ؟ هل هو ميتٌ؟ هل هو كامن يتحين الفرصة لينقض؟ هل يتعين عليّ الهروب؟ هل يجب عليَّ أن أتحسس المكان بحثاً عن وتد الخيمة؟

خشخش الكيس محدثاً صوتاً كأنه قصف رعد في حضرة الصمت الرهيب، والتقطتُ أنفاسي.

هل كان بارك يطلق العنان لهديته الخبيثة؟

همسة، صداها شبيه بصوت جسم ناعم يحتك احتكاكاً خفيفاً بالإسمنت.

مزيد من الصمت.

هل تخيلت أنني سمعت الصوت؟

بدأ صوت الاحتكاك الخفيف الذي يكاد لا يسمع يصدر مجدّداً، ثم توقف، ثم صدر.

كان ثمة شيء يتحرك!

ماذا أفعل؟

ثم خشخشة مروعة صاعقة أماتت كل استجابة عندي.

أفاع!

تخيّلت أجساماً زلِقةً تلتف وتتلولب لتضرب، وألسنةً تندفع، وعيوناً براقةً لا أجفان لها.

برد جلدي شَنَّجَ صدري، ثم انتشر فطاول قلبي، وعروقي، ومعدتي، وأناملي. أي نوع من الأفاعي هي؟ هل هي أفاعي المقسين السامة؟ أم هي الأفاعي القصيرة السامة نحاسية الرأس؟ هل تجلجل هذه الأفاعي وهي تسعى فيسمع لها أصوات كأصوات الأجراس؟ هل هي أفاع معنية الظهور (أفاع أميركية سامة)؟ هل هي أفاع دخيلة مجلوبة من أميركا الجنوبية؟ كوني على دراية بتاريخ بارك، كنت على يقين من أن الأفاعي سامة.

ترى كم عدد الأفاعي المنتشرة هنا، ساعيةً نحوي تحت جنح الظلام؟ شعرت بأنني وحيدة بكل ما في الكلمة من معنى، وبأنني خُذِلتُ وبأن العالم قد تخلى عني كلياً.

رجاءً، رجاءً ليأتِ أي إنسان!

لكن لم يكن أحدٌ قادماً. لم يكن أحد يعرف أين مكاني. كيف تَأَتّى لي أن أكون غبيةً حمقاء إلى هذا الحد؟

وأنا أكافح في سبيل فعل أي شيء، انطلق ذهني محلقاً في مليون اتجاه. كيف تحدد الأفعى موقع فريستها؟ أبواسطة الرؤية؟ أم عن طريق الشم؟ أبالحرارة؟ أم بالحركة؟ هل تهاجم فريستها، أم تتجنب الاحتكاك بها؟

هل أجمد في مكاني؟ أم أفر؟ هل أتوجه كي آخذ وتد الخيمة؟

مزيد من الخشخشة.

تغلب الذعر على العقل، وانفتحت عيني السليمة على مداها في غمرة الظلام، وانطلقت نحو الباب.

علقت قدمي بالرفوف التي سقطت على الأرض، فتعثرت وسقطت فوق الأشياء المتكسرة. ارتطمت يدي بلحم وعظم، فاهتزت وارتعشت وارتدت من دون أن أعي.

شعر وشيء حار ورطب وسط بُرَيكَةٍ فوق الإسمنت.

بارك!

بلغت الخشخشة ذروتها.

وأنا أحاول أن أحبس الدمع، تكورت على جانبي الأيمن، وتحسست قائمةً خشبيةً.

انتصبي واقفةً! أخرجي رأسك من النطاق العجيب الذي بات حبيسه.

بينما كنت أحاول سحب جسدي إلى الأعلى، لاحظت وجود أضواء من النافذة. ثم أُطلِقَت نار حامية شديدة الوطيس على كاحلي، فصرخت ألماً وذعراً.

عندما ألقيت بنفسي فوق طاولة وأنا أتثنى من الألم، انتشر الحرق فبلغ ساقي وفخذي. كم كانت الرؤية المتاحة ضئيلةً ومغشاة!

أبحرت أفكاري إلى مكان مختلف، وزمان مختلف. رأيت كاتي، وهاري، وبيت، وريان. وسمعت صوت ضرب عنيف، وصوت شجار، وشعرت بجسدي يُرفع ثم لم أعد أشعر بشيء.

36

حدث ذلك قبل أسبوع من نقلي وريان كراسينا الشاطئية عبر ممر آن الخشبي، ووضعها على الشاطئ. ارتديت ثياب السباحة وجورباً أبيض اللون أنيقاً؛ الأمر الذي تأجل كثيراً وتاقت نفسي إليه: اعتمرتُ قبعة من القش واسعة الحواف، ووضعتُ ظـلالاً مـن ماركـة صوفيا لورين لتغطية البقعة السـوداء حـول عيني والتبقعات التي خلفتها الإصابة في وجهي. وحملت عكازاً ساعدني على تخفيف عبء الوزن عن قدمي اليسرى.

كان ريان يرتدي سروالاً قصيراً من النوع الذي يرتديه ممارسو رياضة ركوب الأمواج. في اليوم الأول الذي أمضيناه على الشاطئ، أمسى لون بشرته وردياً. وفي اليوم الثاني، بات يقترب من لون أوراق نباتات التبغ الذهبية.

بينما كنت وريان نقرأ ونتجاذب أطراف الحديث، كان بويد يناوب بين اللعب عند الأمواج المتكسرة ومطاردة طيور النورس.

قال ريان: "يجب هوتش أن يكون هنا حقاً".

"اسمه بويد".

"إنه لمن السوء ألاّ تغيّر بيردي رأيها".

خلال الأسبوع الفائت، كان سليديل وريان ووولسي يزودونني بالمعلومات والتفاصيل الضرورية المتعلقة بالأجزاء المفقودة التي غابت عني. كنت وريان نتأرجح بين مناقشة الأحداث التي بلغت ذروتها في لانكستر وتجنب الحديث عنها. واستشعر ريان أنني كنت لا أزال عرضةً لارتجاعات للأحداث السابقة توقع الرعب في نفسي.

تبين أن الأفاعي كانت من الأفاعي المجلجلة (ذات الجرس) وقد جمعت من السموكي مونتنز. كان بارك يحب أن يعمل بمكونات طبيعية. بفضل سليديل

وريناالدي، اقتصر الأمر على تعريضي للّدغ مرتين فقط. وبفضل وولسي، أسعفت إلى غرفة الطوارئ قبل أن يسري السم في جسدي.

على الرغم من أنني بقيت أربعاً وعشرين ساعةً أعاني شدة المرض، فقد تحسنت صحتي بعد ذلك وتماثلت للشفاء سريعاً، وكان لزيارات ريان اليومية إسهامها في تسريع وتيرة شفائي. بعد أربعة أيام من الصدام الذي كان قبو دار العبادة الصغيرة التابعة لمركز تجهيز الموتى مسرحاً له، عدت إلى البيت. وبعد ذلك بثلاثة أيام توجهتُ وريان إلى جزيرة سوليفان، وكان بويد في مقعد السيارة الخلفي يمارس هوايته المعهودة باستخدام لعابه.

كانت السماء زرقاء، والرمل أبيضَ، وكانت الأشرطة الوردية تتوهج عند أطراف ثياب السباحة التي كنت أرتديها. على الرغم من أن قدمي اليسرى وكاحلي كانا لا يزالان متنفخين ويسببان لي ضيقاً، فقد كنت أنعم بشعور رائع.

كان التجلي المفاجئ الذي تكشّف لي بشأن جيمس بارك صحيحاً ومحقاً. إذ كان بارك ودورتون رفيقين عملا في تهريب المخدرات منذ أيام حرب فيتنام. وعندما عاد دورتون إلى الولايات المتحدة، استثمر أرباحه في مخيمات الصيد والملهيين. وعندما عاد بارك إلى الوطن، التحق بالعمل الذي كانت تديره أسرته وهو تجهيز الموتى للدفن. وُلد والدا بارك كلاهما في سوول، وكانا يمتلكان صالوناً خاصاً في أوغوستا، جورجيا. وبعد سنوات قليلة، بمساعدة بسيطة من أنسبائه، اشترى جيمس منشأةً خاصة به في لانكستر.

بقي بارك ودورتون على اتصال، واكتتب بارك في أحد مخيمات الحياة البرية التابعة لدورتون. كان ريكي دون، كونه أسس لنفسه عملاً خاصاً به في مجال الاستيراد والتصدير، قد أشار إلى أن الازدهار الذي ينعم به قد تَأَتّى من الامتيازات التي حظي بها على صعيد المتاجرة بالمخدرات ومن عمله في الحياة البرية، وعهد إلى بارك بفتح أسواق آسيوية للاستيراد والتصدير.

كان جايسون جاك ويات يُحضر الدببة من الجبال، وكان هارفي بيرس يجوب الأمكنة على الساحل التماساً للطرائد، ويحضر أعضاء الدببة إلى دورتون في أثناء تهريبه المخدرات إلى شارلوت، وبارك كان يجهز على المرارات ويبيعها في آسيا، وغالباً ما كان يقايض بها مخدرات ليمدَّ بها الموردين الأميركيين اللاتينيين الذين

يعملون لمصلحة ريكي دون.

قال ريان وهو يهز الماسورة: "أتريدين واقياً من أشعة الشمس؟".

"شكراً".

وحين كان ريان يضع مستحضراً واقياً من أشعة الشمس على كتفي قال: "إلى الأسفل قليلاً؟".

قلت: "من فضلك".

سلكت يدا ريان طريقهما إلى أسفل ظهري وقال: "أدنى؟".

"أم".

- ...

"هكذا يكون الوضع ممتازاً".

"أأنت واثقة؟".

"لم تتألق الشمس قط كما تفعل الآن يا ريان".

بينما كان ريان يجلس على كرسيه، خطر في بالي سؤال آخر: "كيف كشف كوب النقاب عن عمليات مرارات الدببة في اعتقادك؟".

"كان كوب يتحرى عن صيد السلاحف غير المشروع في مقاطعة تيريل، وحقق في الاكتشاف المتعلق بالدببة بمحض المصادفة حين كان يتعقب هارفي بيرس خِلسةً".

تجمهر الغضب داخلي حين كنت أفكر في هارفي بيرس.

"كان السافل... يغري الدببة بكعك ممزوج بالعسل يقدمه لها طُعماً مسموماً، ثم يفجّر أدمغتها، ويقطع كفوفها، ويستأصل مراراتها، ويرمي ما تبقى منها".

"فلتمتلئ الدائرة الخاصة ببيرس بالدببة، وليكن هارفي عصا صغيرة يتقاذفونها".

فكرت في أمر آخر وقلت: "سبّبَت لي تلك الملحوظة التي عثر عليها في محفظة بريان أيكر تشوشاً حقاً".

"ملحوظة كوب لأيكر".

"نعم، افترضتُ أن كوب عنى كولومبيا، كارولينا الجنوبية. نسيت أن هارفي بيرس كان يعيش في كولومبيا الشمالية"، هززت رأسي استياءً من غبائي، "واعتقدت أيضاً أن كوب كان يشير إلى بالمر كُرنز بوصفه الشخص القذر".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"لقد عنى صيغة الجمع لا صيغة المفرد، الثنائي الديناميكي من سيندفيل، تينيسي". بعد شيء من التعثر المتعلق بالنحو وقواعد اللغة، اتفقتُ وريان على استعمال الضمير المذكر لدى الإشارة إلى شارلوت كوب.

"القريبان ملونجيونيان".

شاهدتُ بجعةً تنقض فوق سطح المياه، وتصفق جناحيها، وتتجه نحو موجة فتغطس تحتها، وبعد لحظات تظهر مجدّداً فوق سطح الماء خاويةَ الوفاض.

سألت: "هل تعتقد أن طيور المقو والببغاء كانت مجرد نشاطات عمل جانبية تهدف إلى تحقيق النفع؟".

"يمكن أن يكون دورتون قد طلب من جايسون جاك أن يجمع الببغاوات. ربما يكون قد خطط لإقناع زبائنه أن المادة مجدية في إخفاء أثر المخدرات لدى إجراء اختبارات للبول".

"ومن المحتمل أن يكون هارفي بيرس قد حصل على طائر المقو بالطريقة ذاتها التي وفّر فيها الطير الذي ذكره باوندر".

وافقني ريان قائلاً: "هذا محتمل. كان تيري يبيع الكوكايين في الشوارع لمصلحة دورتون. وكان تيري، ودورتون، وبيرس، وبارك يلتقون في مزرعة فوت بصورة دورية. من المحتمل أن يكون بيرس قد أحضر الطائر إلى المزرعة في إحدى زياراته إليها. ما كان محزناً للجميع، أن الطائر لم يستطع أن يتعايش مع محنته فمات".

"لكن شخصاً ما احتفظ بريشه معتقداً أن في وسعه أن يبيعه مقابل حفنة من الدولارات"، تماماً كما أوحت راشيل مندلسون.

قال ريان: "هذا هو تخميني".

رصد بويد طفلاً يركب دراجةً هوائيةً، وركض معه بضعة أمتار، ثم انحرف عن مساره ليتعقب زَمّار رَملٍ (نوع من الطيور يطلق عليه اسم الطِّيطَوى أيضاً).

"ليس لتاميلا علاقة بالمخدرات، كل ما في الأمر أنها كانت تذهب مع تيري إلى المزرعة"، تصوّرتُ الأختين بانكس في مطبخي، "تمنيت لو أنك رأيت وجهها، يا ريان. أنا أصدق ادعاءها بأنها أنجبت الطفل ميتاً".

"مقاضاتها ليست ممكنة في أي حال. ليس ثمة وسيلة للتوثق من سبب

الموت".

فكر كل منا في هذا الأمر. ثم خطرت لي فكرة أخرى وقلت: "إذاً، نبَّه كوب بريان أيكر، وشرع الاثنان يبحثان وينقبان. كان من اكتشف الأمر دورتون أو بارك".

قال ريان: "قد يكون دورتون هو من أعطى الأمر لكن طبقاً لما قاله تيري، كان بارك هو الذي قتل أيكر. خدَّره، وأخذ سيارتين وأوقفهما عند سلم اعتلاء القارب، ودفع سيارة أيكر فأغرقها في الماء. لن أستغرب إذا تبين أن تيري كان يقود إحدى السيارتين".

"وتيري قتل كوب".

"طبقاً لما قاله المتهم البريء، ليس هو القاتل. هو يمارس فقط العمل والتجارة! يسد حاجة إنسانية عنده. كل ما اعترف به تيري هو أنه نقل بعربة رأس كوب ويديه ضمن كيس زوده به بارك إلى مزرعة فوت، وكان هدف بارك من ذلك جعلَ أمرِ تعرّفِ صاحب الجثة أكثر صعوبةً".

سألت: "هل طلقتان في الرأس تصرعانك وفقاً لنمط بارك؟".

وافق ريان قائلاً: "ليس على وجه الدقة، ادعى تيري أنه لا يعرف شيئاً عن أعضاء الدببة أيضاً. وادعى أن مشروع العمل هذا كله خاص بجايسون جاك وهارفي. وادعى أنه كان عليه أن ينبش الأرض ويخرج منها بعض الدببة؛ لأن دورة المياه كانت ممتلئة أكثر من سعتها على الاستيعاب، وخشي أن تثير رائحة بقايا جثة كوب الانتباه".

"كل ما فعله المعتوه هو أنه أخرج جزءاً من الشيء ذاته الذي كان يحاول إخفاءه".

ثار في ذهني سؤال آخر وقلت: "هل قتل بارك دورتون؟".

"هذا الأمر مشكوك فيه إلى أبعد حدٍّ. ليس لديه ما يدفع إلى قتله. وقد أظهر تنظير السم الشعاعي أن دورتون كان غارقاً حتى أذنيه بالكوكايين والشراب. لن يكون في وسعنا أن نعرف مطلقاً إن كان سبب موته القتل أو الارتفاع الحاد في نسبة الكحول والمادة المخدرة في دمه".

"حسناً يا ريان، أنا متشبثة بفكرتي".

"كانت النسب في دمه عالية".

"لكننا نعرف أن بارك ذهب إلى شارلوت بعد اعتقال سوني باوندر بيومين"، في ذلك الوقت تقريباً كنت أحلل عظام رضيع تاميلا.

سألت: "لماذا؟".

"هذا غير واضح. لكن سليديل اكتشف أن بارك استخدم بطاقة ائتمانية في محطة وقود في وود لون وفي الطريق آي - 77".

"هل تعتقد أن بارك ودورتون كانا يخططان من أجل التخلص من باوندر إن تكلم؟".

"ليس هذا مستبعداً. الأمر الواضح هو أن بارك قتل سنو موريه. عثرتُ وولسي على علبة تحتوي على ماهوانغ في قبو دار العبادة الصغيرة".

"أنا واثقة أنك ستخبرني عن ماهية الماهوانغ".

"ماهوانغ هو سمّ عشبي آسيوي، ومعروف بين العامَّةِ باسم **النشوة العشبية**".

"دعني أخمن؛ تحتوي الماهوانغ على إيفَدرين (مادة مبتكرة منبهة للأعصاب)".

"خطوة واحدة وتحرزين المرتبة الأولى بين أقرانك في المدرسة".

"كان بارك يعلم أن سنو يعاني اعتلالاً قلبياً".

"يحتمل أن يكون قد دسّ له شيئاً من مادة الماهوانغ في كوب شاي قدمه له. غالباً ما يدار مثل هذا بمثل هذه الطريقة. توقُّف قلب مفاجئ".

سألته: "لماذا؟".

"للسبب ذاته الذي جعله يُجَرِّعُ كاجل السُّم. كان عصبياً جداً بسبب اهتمامه البالغ بالهيكل العظمي مقطوع الرأس".

"كيف سَمَّم كاجل؟".

"كونه لا يعرف بأمر حساسية كاجل الطبية، كان على بطلنا أن يبحث عن مادة أقوى؛ مادة تفعل فعلها حتى برجل يتمتع بصحة جيدة. هل سبق لك أن سمعت عن مادة تسمى تترودوتوكسين؟".

"إنها مادة سامة ومخربة للأعصاب تسمى اختصاراً تي تي إكس T T X، توجد في الفوغو".

نظر ريان إلي كما لو أنني كنت أتحدث بالرومانية، فشرحت له قائلةً: "فوغو هي سمكة يابانية تسمى المنتفخة أو الكروية (لأن في وسعها أن تنفخ جسمها

بالماء أو الهواء إلى أن تتخذ شكل كرة).

إن مقداراً من التترودوتوكسين أشد فتكاً من مقدار مكافئ له من السيانيد بعشرة آلاف مرة، ويموت بسببها أناس في آسيا سنوياً بسبب تناولهم طعاماً يحتوي على هذه المادة. الأمر الرهيب المتعلق بالتترودوتوكسين هو أنه يصيب الجسد بالشلل ويبقي الدماغ مدركاً تماماً لما يحدث".

"لكن كاجل بقي حياً".

"هل بات يتكلم؟".

"لا".

"لذلك، نحن لا نعلم كيف تصرَّف بارك بالمادة".

هزَّ ريان رأسه.

سألته: "كيف تعرف أن بارك استعمل التترودوتوكسين؟".

"التترودوتوكسين تشبه الهيروين. إضافةً إلى الماهوانغ، كان ضمن مخزون بارك من العقاقير علبة تحتوي على مسحوق بلوري أبيض. وقد اختبرتُ ووولسي ذاك المسحوق".

حلق طائر نورس، وحطّ على الأرض، وشرع يهز رأسه كأنه يحيينا. إنه يشبه واحدة من اللعب المائية التي توضع على مائدة الإفطار.

سألته: "لماذا الأفاعي؟".

قال ريان بطريقة تحاكي أسلوب مذيع تلفازي: "كان ينبغي أن يبدو موتك حادثاً مشؤوماً اتفاقياً؛ بينما كانت عالمة بالأنثروبولوجيا من مقاطعة لانكستر تتنزه في غابة كثيفة الأشجار، لدغتها أفعى هذا اليوم في حادثة مأساوية"، عاد صوت ريان إلى طبيعته، "لم يكن من لدغته الأفعى سوى بارك".

ارتجفت وأنا أتذكر صوت ارتطام رأس بارك بالإسمنت وتحطمه. طبقاً لتقرير الشرطة، عانى بارك كسوراً قاتلة في الجمجمة بسبب سقوط جسم صلب عليه وبسبب ارتطام رأسه بالأرض في آنٍ معاً.

محدداً موقع نورس يعوم متوجهاً نحو الشاطئ، اندفع بويد عبر الشاطئ نحوه. طار النورس، وتعقب بويد مسار طيرانه، ثم عاد وهز جسده، فأمطرنا بوابل من الرمال والمياه المالحة.

سألت ريان وأنا أغطي وجهي بذراعيَّ: "أتريد شراب شعير؟".
"من فضلك".
فتحت المبرّدة وأخرجت قارورة شراب شعير لريان، وزجاجة مياه معبأة لبويد، وقارورة كوكا كولا دايت لي.
"لماذا، باعتقادك، أرسل إليّ بارك رسائل الشبح الإلكترونية؟"، طرحت هذا السؤال على ريان حين كنت أناوله قارورة شراب الشعير. في هذه الأثناء، رفع بويد خطمه فصببت ماءً في فمه.
"أراد منك أن تتراجعي عن متابعة قضية الجمجمة التي عثرت عليها في دورة المياه".
"لنفكر في استنتاجك يا ريان؛ بدأت الرسائل الإلكترونية ترد يوم الأربعاء. كيف استطاع بارك أن يعرف من أنا، أو ما الذي عثرت عليه في تلك المرحلة؟".
"أرسل رينالدي طلباً يتعلق بالهيكل العظمي مقطوع الرأس يوم الثلاثاء. من المحتمل أن يكون الطلب قد وصل إلى لانكستر، وأن تكون نسخة منه ذهبت إلى محقق الوفيات. سنكتشف حقيقة الأمر في نهاية المطاف. أقنع سليديل تيري بأنه سينهزم بسهولة".
قلت وقد تردد صوتي في حلقي ازدراءً: "سليديل".
قال ريان: "سليديل ليس بالغ السوء".
لم أُجب.
"لقد أنقذ حياتك".
وافقت قائلةً: "نعم".
اتكأ بويد على جنبه في ظل كرسيّ الشاطئ، وعاد ريان إلى قراءة تيري براتشت، وأنا إلى قراءة مجلتي مغازين.
لم أستطع أن أركز. ما انفك تفكيري يتوثب ليدور حول سكيني سليديل. أخيراً، استسلمت.
"كيف عرف سليديل أين كنت؟".
وضع ريان إصبعاً بين صفحات الكتاب ليحدد الصفحة التي كان يقرأها وقال: "تكشّف تحقيق رينالدي من خلفية دورتون والتدقيق فيها على حقيقة أن رفيق ريكي

دون في سلاح البحرية وشريكه في التهريب طوال تلك السنوات الماضية لم يكن سوى محقق الوفيات الحالي في مقاطعة لانكستر. حاول سليديل أن يحذرك من بارك عندما اتصل بك عبر هاتفك الخلوي لينقل إليك الأخبار المتعلقة بالملحوظة التي عثر عليها في محفظة أيكر".

"أنا قطعت الاتصال معه".

"وفقاً لما قاله رينالدي، تملك الغضب سليديل بعض الوقت، ثم وافق على الذهاب إلى ملحق بيتك. لم تكوني في البيت، إلا أن جنيفا أرتهما ملحوظتك".

"التي كتبت فيها: أنا ذاهبة إلى كارولينا الجنوبية".

"أضاف سليديل ما اطلع عليه من ملحوظتك إلى ما قلته له عبر الهاتف من أنك في مركز لتجهيز الموتى للدفن، فتوجه مع رينالدي بأقصى سرعة إلى لانكستر. ووصلا إلى هناك في الوقت الذي كانت الأفعى تلدغك فيه تقريباً. كانت ولسي معهما، وأسعفتك إلى المستشفى. وقال سليديل إن ولسي عبرت بسيارتها باب غرفة الطوارئ فعلاً".

"أممم".

"وقد اتصل بي هاتفياً ليطلعني على الموقف".

"أممم".

"وأقر بأنه كان مخطئاً في تفكيره بشأن تاميلا".

"هل أقرّ؟".

"وقدم لأسرة بانكس باقةً من أزهار الأقحوان".

"هل فعل سكيني ذلك؟".

"باقة أزهار صفراء. ذهب إلى محلات وال مارت خاصة كي يحضرها".

"أخذ سكيني نبتةً وقدمها لجدعون بانكس".

"آهَه".

أعتقد أنني قسوت جداً على سكيني. أكره أن أعترف بهذا الأمر، لكنّ الرجل شرطي جيد حقاً.

دغدغت ابتسامة ثغر ريان.

"ماذا عن العميل كُزنز؟".

"حسناً. ربما أكون قد أخطأت في حكمي عليه. على أي حال، لم تذهب كاتي معه قط إلى ميرتل بيتش".

"أين كانت؟".

"تُمضي بضعة أيام في أفيل مع بِيت. لم تكلّف نفسها عناء إخباري؛ لأنها كانت منزعجة من إلحاحي عليها بشأن رسائل الشبح الإلكترونية. لكن ليس هذا أمراً ذا شأن، على أي حال. اتصلت كاتي من شارلوتسفيل هذا الصباح، وكانت تتحدث بتشوّق شديد عن طالب دراسات مؤهل لدراسة الطب يدعى شيلدون سيبورن".

"آه! شباب متقلب".

عدتُ وريان إلى متابعة ما كنا نقرأه، ومع كل صفحة كنت أدرك كم كان اعتقادي بالحركة الخضراء (Green Movement) ساذجاً. في لحظات معينة، كان يبلغ اشمئزازي ذروته. وقد مرّت لحظة من هذا القبيل بسرعة.

"هل تعلم أن أكثر من تسعة ملايين سلحفاة وأفعى صُدِّرَت من الولايات المتحدة عام 1996؟".

"أسقط ريان كتابه على صدره وقال: "أراهن على أنه في وسعك أن تفكري في خليلين تتمنين لو أنك كنت بينهما".

"هل سبق لك أن سمعت بمؤسسة الحياة البرية وتربية الحيوانات في الأسر التي تتخذ من أريزونا مقراً لها؟".

"لا".

"شعار هذه المؤسسة هو: عندما يُحظَّرُ اقتناء السلاحف، فإن الخارجين على القانون هم فقط الذين يقتنونها".

"هذا ضرب من الحماقة التي يتصور المرء أنها معهودة".

"يُسعِد هؤلاء المواطنين اللطيفين الكرماء أن يبيعوك زوجاً من سلاحف غالاباغوس مقابل ثمانية وعشرة آلاف دولار أميركي. في وسعك أن تأخذ عصفوراً وتدرجه في لائحة الأنواع الأحيائية المهددة بالانقراض، فيدفع أحد الحمقى... ألفي دولار أميركي ثمناً له".

قال ريان: "يوجد اتفاقية تنظم التجارة الدولية بالأنواع الأحيائية المهددة

بالانقراض، وقانون الأنواع الأحيائية المهددة بخطر الانقراض".

قلت بازدراء: "حماية على الورق. ثغرات كثيرة جداً، وإنفاذ قليل جداً للقوانين. هل تتذكر قصة راشيل مندلسون عن ببغاء المقو؟".

هز ريان رأسه إيجاباً.

قلت: "استمع إلى هذا". اقتطفت فقرة من مقال وقرأتها: "عام 1996، اعترف أوغالدي هيكتور بالتهم الموجهة إليه، في البرازيل، المتعلقة بالتآمر لتهريب ببغاوات المقو الهايكنثوت".

نظرتُ إليه وقلت: "صدر حكم بحق أوغالدي يقضي بوضعه قيد المراقبة مدة ثلاث سنوات، وتغريمه مبلغ عشرة آلاف دولار أميركي. سيوقفه ذلك الإجراء حقاً".

تقدم بويد منا، ووضع خطمه على ركبتي فداعبتُ رأسه.

"الجميع يعرفون عن الحيتان، وحيوانات الباندا، والنمور، ووحيد القرن؛ هذه الحيوانات مثيرة. وهناك مؤسسات تتعهدها بالرعاية، وتُطبَعُ أسماؤها وصورها على قمصان وملصقات".

تتبع بويد طيطوى بعينيه وتأمله.

"ينقرض كل عام ما يَعدُّ خمسين ألفاً بين نباتات وحيوانات يا ريان. يُحتمل، في نصف قرن، أن ينقرض ربع إجمالي الأنواع الأحيائية في العالم"، مددت يداً متوترة نحو المحيط، "ليست تلك الأنواع موجودةً هناك خلف المحيط فحسب. ثلث مجموع نباتات الولايات المتحدة وحيواناتها مهددة بخطر الانقراض".

"خذي نفساً".

أخذت.

"استمع إلى هذا"، استأنفت القراءة مختارةً مقاطع: "تحتوي، على الأقل، أربعمئة وثلاثون دواءً على مكوناتٍ مستخرجةٍ من أنواع أحيائية مهددة ومعرضة لخطر الانقراض جرى توثيقها في الولايات المتحدة وحدها. ما لا يقل عن ثلث جميع العناصر والمكونات الطبية الشرقية الحاصلة على براءات اختراع المتاحة في الولايات المتحدة تحتوي على أنواع أحيائية محمية".

نظرت إليه وقلت: "تقدر قيمة المتاجرة غير المشروعة بمرارات الدببة السوداء

في كاليفورنيا وحدها بمئة مليون دولار سنوياً. فكر في هذا الأمر يا ريان".

"أونصة لقاء أونصة. مرارة الدب أغلى ثمناً مما يساوي وزنها من الكوكايين، والسفلة مثل دورتون وبارك يدركون ذلك. ويدركون أيضاً أنهم سيتعرضون لعقوبة بسيطة أو عقوبة تحذيرية إذا ما ضبطوا".

هززت رأسي اشمئزازاً.

"تُقتل الأيائل من أجل الحصول على الجلود الناعمة التي تكسو قرونها. وتصاد النمور السيبيرية من أجل الحصول على عظامها. وتُقتل جياد البحر لمساعدة الرجال على إنماء الشعر".

"أتقولين جياد البحر؟".

"تطلق النيران على حيوانات وحيد القرن، وتقتل بتعريضها لصدمات كهربائية؛ ليستخرج من تجاويفها نوى تضاف إلى عصي الخيزران؛ كي يتمكن الرجال في اليمن من صنع مقابض للخناجر. لم يبقَ في العالم إلا بضعة آلاف من حيوانات وحيد القرن يا ريان. يا الله! في وسعك أن تستخدم الشبكة العنكبوتية لشراء كفوف غوريلا مدخنة".

نهض ريان، وجلس القرفصاء بجانب الكرسي الذي أجلس عليه، وقال: "مشاعرك جياشة حيال هذا الموضوع".

"إن هذا الأمر يُمرِضُني"، تركت عينيَّ تسافران إلى عيني ريان، "ضُبطت كمية تزن ستة أطنان من عاج الفيلة في سنغافورة في شهر حزيران/ يونيو الماضي. الآن ثمة مجموعة من الدول في جنوب إفريقيا تتحدث عن إبطال مفعول الحظر المفروض على تجارة العاج. لماذا؟ حتى يتمكن الناس من صنع حلي من العاج. كل عام تأخذ اليابان مئات الحيتان لأغراض البحث. نعم، حقاً، أبحاث تحط رحالها في أسواق المأكولات البحرية. هل لديك أي فكرة عن طول زمن العملية التطورية التي آلت إلى وجود الحيوانات الموجودة لدينا الآن، وعن قصر الزمن اللازم لقتلها وإبادتها؟".

أحاط ريان وجهي براحتيه وقال: "لقد مددنا العون لفعل شيء حيال كل ذلك يا تمب. مات بارك، ويتلقى تيري هزيمةً الآن. لن يموت مزيد من الدببة أو الطيور بسببهما. ليس هذا كثيراً، إلا أنه بداية".

وافقته: "إنها بداية".

"لنواظب على متابعة هذا الأمر، أنتِ وأنا". كانت لعينيه زرقة مياه المحيط الأطلسي، وكانتا تتبادلان مع عينيَّ رسائل حنان.

"أتعني ما تقوله يا ريان؟".

"أعنيه".

قبلته، وعانقته، ولامست وجنتي خده.

أخفضتُ ذراعيَّ، ومسحت الرمال عن جبهته، وعدت مرة أخرى إلى قراءتي؛ تواقةً إلى إيجاد نقطة للانطلاق منها.

اصطحب ريان بويد في جولة على الشاطئ. وأكلنا تلك الليلة الجمبري وسرطان البحر على أرصفة الميناء في خورشم. مشينا خائضين في الأمواج المتكسرة عند الشاطئ، وألف الحب بيننا، ثم استسلمت للنوم وأنا أصغي إلى لحن محيط ريان الأبدي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^